جومبا لاهيري

2020
3.1.2020

السَّمي

(روايــة)

ترجمة: د. سُرى خريس

جومبا لاهيري

السَّمي

ترجمة: د. سُرى خريس

مراجعة: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1436هـ 2015م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»

PS3562.A316 N3612 2014
Lahiri, Jhumpa
[Namesake]
السمي: رواية/ جومبا لاهيري؛ ترجمة سُرى خريس؛ مراجعة أحمد خريس.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.
ص. 467 ؛ 14×21 سم.
ترجمة كتاب : The namesake .
تدمك: 978-9948-17-381-6
1- الشباب - قصص. 2- الأمريكيون شرق الهند - قصص.
أ- خريس، سري. ب- خريس، أحمد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Jhumpa Lahiri
The Namesake
Copyright © 2003 by Jhumpa Lahiri
All rights reserved including the rights of reproduction in whole or in part in any form

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة».
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

السّمي

الإهداء

إلى..

ألبيرتو وأكتافيو، اللذْين أدعوهما باسميْن مختلفين.

«على القارئ أن يدرك بنفسه أن الأمور ما كانت لتتخذ مجرى مختلفاً، وأن منحه اسماً آخر يعد أمراً مستحيلاً».

نيقولاي غوغول، «المعطف»

1

1968

في إحدى ليالي شهر آب الشديدة الرطوبة، وقبل أسبوعين من موعد ولادتها المتوقع، تقف أشيما غانغولي في مطبخها في إحدى شقق منطقة سينترال سكوير، وهي تمزج رقائق الأرز والفول السوداني والبصل الأحمر المفروم في وعاء أمامها، ثم تضيف إليها الملح وعصير الليمون وشرائح رقيقة من الفلفل الأخضر الحار، متمنيةً لوكان لديها قليلٌ من زيت الخردل لتضيفه إلى الخليط. لقد تناولت أشيما هذه الوصفة طوال فترة حملها، وهي نسخة مبسَّطة عن الوجبة الخفيفة، المتقطرة زيتاً من كوز الجرائد الملفوفة به، حيث تباع ببضعة بنسات على أرصفة المشاة في كلكتا، وعند محطات القطار في كل أنحاء الهند. وعلى الرغم من أن أشيما كانت مُثقلةً بحملها، فإن هذه الوجبة كانت الشيء الوحيد الذي تشتهيه. وإذ تتذوق أشيما شيئاً من المزيج الذي اغترفت منه على راحة يدها، فإنها تعبس هامسة لنفسها: كالعادة، هناك شيء ما ناقص. تحدق أشيما في اللوح الملتصق بالجدار حيث تتدلى أواني الطبخ، وقد غلفتها طبقة

رقيقة من الدهن. تمسح أشيما العَرَق عن وجهها بطرف ساريها المتدلي، في حين تشعر بألم في قدميها المنتفختين، اللتين تدوسان على اللنوليوم[1] المرقط، الذي يغطي الأرض. أما الألم المنبعث من حوضها، فكان سببه وزن الجنين. تفتح أشيما خزانة المطبخ حيث توجد أرففٌ كَسَتها بورق مزركش بمربعات صفراء وبيضاء اللون، كانت تنوي تغييره لأنه يبدو الآن متسخاً، ثم تتناول حبة بصل أخرى. تعبس أشيما من جديد وهي تزيل قشرة البصل الضارب لونها إلى الحمرة، شاعرةً بدفء مفاجئ يغمر بطنها، يتبعه انقباض شديد، فينكمش جسدها متلوياً، وتلهث بصمت فتُوقع حبة البصل التي ترتطم بالأرض محدثةً صوتاً مكتوماً.

يختفي الشعور بالألم، لتتبعه تشنجاتٌ غير مريحة. تهرع أشيما إلى الحمام، لتكتشف وجود مشحاتٍ سميكةٍ من دم مائل إلى اللون البني يخضِّب سروالها الداخلي. تنادي أشيما زوجَها أشوك، الذي كان يدرس في غرفة النوم، فقد كان مرشحاً للالتحاق ببرنامج الدكتوراه في تخصص الهندسة الكهربائية في معهد م. أي. تي [معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا]. كان أشوك في تلك اللحظة متكئاً على منضدةٍ صغيرةٍ قابلةٍ للطي قرب سريرهما، الذي لم يكن سوى فرشتيْن جُعلتا فوق بعض، ووُضع فوقهما شرشفٌ صُبغ بطريقة الباتيك باللونين الأحمر والأرجواني، وقد اتخذ أشوك من حافة الفرشة كرسياً. لم تعتد أشيما أن تنادي أشوك باسمه، فهي لا تفكر باسمه عندما تفكر فيه بوصفه زوجاً، على الرغم من أنها تعرف اسمه جيداً. ترفض أشيما بدافع اللباقة أن تنادي زوجها باسمه الأول،

(1) غطاء للأرض سُمْكه مِلِمتران أو ثلاثة مِلِمترات.

مع أنها حملت الآن اسم عائلته، إنه ليس بالأمر الذي يمكن أن تفعله زوجةٌ بنغالية. يعد الاسم الأول للزوج أمراً حميمياً- كالقبلة أوالملاطفة اللتين تُصوَّران بطريقة ذكية وغير صريحة في فيلم هندي- ولذلك لا يُلفظ مطلقاً. وهكذا، فعِوضاً عن مناداة أشوك باسمه، تستخدم أشيما جملة استفهامية يمكن ترجمتها تقريباً إلى: «هل تسمعني؟».

عند الفجر، يستدعي أشوك سيارة أجرة لتقلهما عبر شوارع كيمبردج الخاوية، ثم صعوداً إلى شارع ماساتشوسيتس، ليمرا بباحة هارفارد، ومنها إلى مشفى ماونت أوبيرن. وبينما يقوم أشوك بتعبئة النموذج الخاص بإدخال أشيما للمشفى، تُجيب الأخيرة على بضعة أسئلة عن مدة الانقباضات ومدى تتابعها. يُطلب من أشيما أن تجلس على كرسي مدولب، وتُساق عبر ممرٍ مضيءٍ مشرق، ثم تُدفع بخفة داخل مصعد فسيح بدا أوسع من مطبخها. تُودَع أشيما داخل غرفة تقع في نهاية الرواق في قسم الولادة حيث السرير بجوار النافذة. تطلب الممرضة من أشيما أن تخلع ساريَها الحريري، الذي ابتاعته من محل مرشد أباد في بنغلاديش، لترتدي رداءً قطنياً مزركشاً لم يتجاوز ركبتيها، مما أشعرها بالحرج. تعرض الممرضة على أشيما أن تطوي ساريَها، إلا أنها تشعر بالاستياء من طول الرداء الذي ناهز ست ياردات وبات ينزلق بين أصابعها، فتقوم- في نهاية المطاف- بحشوه داخل حقيبة أشيما الفيروزية اللون. يدخل الغرفة الدكتورُ آشلي؛ طبيب النسائية، الذي بدا لها وسيماً بجسده النحيل مثل لورد مونتباتن؛ آخر الحكام البريطانيين في الهند، وقد انسدل شعره الضارب إلى الصفرة من وراء صدغيه. يقوم الطبيب آشلي بفحصها،

فيجد أن وضع الجنين مطمئن، إذ بدأ رأسه بالانحدار إلى الأسفل. يُخبر الطبيب آشلي أشيما أنها في مرحلة مبكرة من المخاض، فلم يتجاوز توسع الرحم لديها ثلاثة سنتيمترات. وإذ تواري نفسها خجلاً، تسأل أشيما عن معنى كلمة «توسُّع»، فيشير الطبيب آشلي بيده جامعاً بين إصبعيه، ثم يفرِّق بينهما، مفسراً بذلك العمل الشيءَ الغريب الذي يتوجب على جسدها القيام به كي يخرج الطفل. ثم يخبرها الطبيب آشلي أن المخاض قد يطول لمدة أربع وعشرين ساعة، وقد يتجاوزها باعتبار أن هذه هي ولادتها الأولى. تبحث أشيما عن وجه أشوك فلا تجده حيث كان يقف خلف الستارة التي قام الطبيب بإسدالها قبل أن يقوم بفحصها. يتحدث أشوك إليها بالبنغالية، فيقول: «سأعود في الحال»، ثم تتوجه الممرضة بالحديث إلى أشوك قائلة: «لا تقلق سيد غانغولي، مايزال لديها وقتٌ طويلٌ قبل الولادة. سنتدبر الأمر من هنا».

ترقد أشيما وحيدة على سريرها وقد فصلتها الستائر عن النساء الثلاث الأخريات، اللواتي يشاطرنها الحجرة. وعرفت أشيما، مما سمعته من نُتَف الحديث الذي دار في جنبات الحجرة، أن إحداهن تدعى بيفرلي، وتدعى الثانية لويس، أما الأخيرة التي ترقد إلى يسارها فاسمها كارول. تسمع أشيما إحداهن تقول: «اللعنة! اللعنة عليك. إن هذا لجحيم»، ثم يتناهى إلى سمعها صوت رجلٍ يقول: «أحبك يا عزيزتي». كانت تلك كلمات لم تسمعها أشيما من زوجها من قبل، ولم تتوقع سماعها منه، فهما مختلفان عن هذين الزوجين. كانت تلك المرة الأولى في حياتها التي تنام فيها وحدها، محاطة بالغرباء. لقد اعتادت طوال حياتها أن تنام في الغرفة

نفسها مع والديها، ثم أصبحت تنام بجوار أشوك. تمنت أشيما لو أن الستارة مفتوحةٌ حتى تتمكن من التحدث مع النساء الأمريكيات، فلعل إحداهن مرَّت بتجربة الولادة من قبل، فتخبرها عما يجب أن تتوقعه. غير أن أشيما استنتجت أن النساء الأمريكيات يفضلن الحفاظ على خصوصياتهن، على الرغم من أنهن يُعبِّرن عن عواطفهن أمام الناس دون حرج، ويرتدين التنانير القصيرة جداً، والبكيني، ويشبكن أيديهن بأيدي عشاقهن في الشوارع، حتى إنهن يرتمين فوقهم في متنزه كيمبردج العام. تتحسس أشيما بطنها المشدود، الذي أصبح أشبه بطبلٍ ضخم، وتتساءل أين باتت قدما الطفل ورأسه في هذه اللحظة. ما عاد الطفل هائجاً كما كان في السابق، فباستثناء حركته الخفيفة بين الحين والآخر لم تشعر أشيما في الأيام السابقة بركلاته أو اندفاعه ضاغطاً على ضلوعها. تتساءل أشيما إن كانت المرأة الهندية الوحيدة في المشفى، بيد أن رعشةً رقيقةً يصدرها جنينها تذكِّرها، بطريقة عملية، أنها ليست وحدها. تعتقد أشيما أنَّ من الغريب أنْ يُولد طفلها في هذا المكان الذي يرتاده معظم الناس ليعانوا أويفارقوا الحياة. لا تجد أشيما ما يُعزِّيها في البلاط الأبيض الضارب إلى الصفرة، أو في الألواح التي تغطي السقف ولها اللون نفسه، أو حتى في الملاءات البيضاء، التي تغطي بإحكام السرير الذي ترقد عليه. تتذكر أشيما كيف اعتادت النساء في الهند الذهاب إلى منزل الوالدين لإنجاب أطفالهن، بعيداً عن أزواجهن وأهل الزوج وأعباء المنزل، فيسترجعن عندها ذكريات طفولتهن. تشعر أشيما بانقباضات جديدة أعنف من سابقتها فتصرخ وهي تغرس رأسها في وسادتها،

وتشد بأصابعها، وتتشبث بقضبان السرير الباردة. لا يسمع أحد أشيما، ولا تُهرع أي من الممرضات نحوها. كانت تعليمات الممرضة لها أن تقوم بحساب الفترة الزمنية الفاصلة بين الانقباضات، لذلك تستشير أشيما ساعتها بين الحين والآخر. هذه الساعة هي هدية الوداع التي ألبسها إياها والداها في شُواش المطار، والعيونُ تتغشاها الدموع. كانت تلك المرة الأخيرة التي رأت فيها والديها. لم تلحظ أشيما وجود الساعة إلا بعد صعودها إلى الطائرة للمرة الأولى في حياتها حين سافرت على متن الطائرة المعروفة بفيكرز في سي 10، التابعة للخطوط الجوية البريطانية، وعندها تجمَّع في المطار ستة وعشرون من أقربائها، الذين كانوا يراقبون صعودَ الطائرة، التي أصم دويُّها الآذان من شرفة مطار دوم دوم، وتحليقَها فوق أجزاء من الهند لم تطأها قدماها من قبل، ثم أبعد من ذلك خارج حدود الهند، ذاك عندما لاحظت أشيما الساعة من بين مجموعة أساور الزفاف المصنوعة من الحديد والذهب والمرجان والصدف. أما الآن، وبالإضافة إلى هذه الأساور، فهي تلبس سواراً بلاستيكياً له رقعة طُبع عليها ما يُشير إلى أنها إحدى نزيلات هذا المشفى. تُبقي أشيما الجهة الأمامية للساعة على الجانب الداخلي من رُسغها، أما الجهة الخلفية من الساعة فنُقشت عليها عبارات مختلفة بشكل دائري مثل مُقاوِمة للمياه والمغناطيسية والصدمات، بالإضافة إلى الأحرف الأولى من اسمها الجديد الذي اكتسبته بعد زواجها. الثواني تضرب رُسغ أشيما بإيقاعها معلنةً عن الوقت الأمريكي. يحيط الألم بمعدة أشيما، نحواً من نصف دقيقة، ثم يتشعب لينتقل إلى ظهرها، ثم نزولاً إلى رجليها. بعد ذلك

يختفي الألم فتشعر بالراحة من جديد. تقوم أشيما بحساب الوقت حسب التوقيت الهندي باستخدام إبهامها الذي يلامس الخطوط البنية اللون، التي تبدو محفورة بوضوح خلف أصابعها، الواحد تلو الآخر، ثم تتوقف عند منتصف الإصبع الثالث. الوقت الآن في كلكتا يتقدم عنه هنا بتسع ساعات، فهي الثامنة والنصف مساءً. في هذه اللحظة، تقوم الخادمة في مطبخ والديها في شقتهما الواقعة في شارع أمهيرست بسكب الشاي في أكواب زجاجية شفافة بعد العشاء، وتنسيق بسكويت الشاي (ماري) في الصينية. أما والدتها التي سرعان ما ستصبح جدة، فتقف أمام مرآة التسريحة تفك جديلة شعرها الواصلة إلى خصرها بأصابعها، التي يغلب فيها الشعر الأسود على الأشيب، في حين يتكئ والدها على طاولته المنحنية إلى الأمام، التي غطَّتها بُقع الحبر، يرسم ويدخن وهو يستمع إلى إذاعة صوت أمريكا. أما شقيقها الأصغر رانا، فيجلس في سريره ويدرس لامتحان الفيزياء. تتخيل أشيما بوضوح تام أرضية حجرة المعيشة الإسمنتية الرمادية اللون، التي كانت تشعر ببرودتها تحت قدميها حتى في أكثر أيام الصيف حرارة. تبدو صورة ضخمة بالأسود والأبيض لجدها لأبيها- جدِّها الراحل- واضحةً للعيان عند أحد أطراف الغرفة، وتحديداً مقابل الحائط الزهري المزيَّن بالجبس. أما على الجهة المقابلة، فيُوجد تجويف في الجدار مغطى بلوح زجاجي معتم، وقد ازدحمت بداخله كتب والدها وأوراقه، بالإضافة إلى علب ألوانه المائية. للحظة واحدة يختفي ثِقَل الطفل، ليحل محله المشهد السابق الذي يمر أمام عينيها، لكنه سرعان ما يتلاشى ليظهر مشهد آخر: المجرى الضيق

الأزرق اللون لنهر شارلز، وقمم الأشجار الخضراء الكثيفة والسيارات التي تضج بالحركة صعوداً ونزولاً على طريق ميموريال درايف، الممتد بمحاذاة النهر.

إنها الساعة الحادية عشرة صباحاً في كيمبردج، أما داخل المشفى فقد حل موعد الغداء بالفعل في هذا اليوم المتسارع. يُحضر الغداء في صينية تحتوى عصير تفاح دافئ، وحلوى الجيلو الهلامية والمثلجات وبعض الدجاج المشوي البارد. تطلب الممرضة الودودة باتي، التي كانت ترتدي خاتم خطبة ماسياً وتتدلى أطراف شعرها الأصهب من قبعتها، من أشيما أن تتناول حلوى الجيلو وعصير التفاح فقط، فهي لا تحتاج غير ذلك. لم تكن أشيما لتقترب من الدجاج حتى لو أذنت لها الممرضة، فالأمريكيون يتناولون الدجاج دون نزع جلده. وعلى الرغم من ذلك تمكنت أشيما من إيجاد جزّار طيب في شارع بروسبيكت يقوم بنزع جلد الدجاج من أجلها. تأتي باتي لتربِّت وسادة أشيما فتجعلها منتفخة، ولترتِّب سريرها. أما الطبيب فيُطل برأسه من حين إلى آخر ويقول بصوتٍ رفيعٍ حادٍ وهو يضع سماعته الطبية على بطن أشيما: «لا حاجة للقلق! كلٌ شيء يبدو طبيعياً. سيدة غانغولي، نحن نتوقع ولادة طبيعية تماماً»، ثم يربِّت الطبيب آشلي على يد أشيما ليطمئنها، وفي الوقت ذاته، يُعبر عن إعجابه بأساورها العديدة.

ولكن، لا يبدو أي شيء طبيعياً بالنسبة إلى أشيما، فمنذ وصولها إلى كيمبردج؛ أي من ثمانية عشر شهراً، لم تشعر أن ما يدور حولها طبيعي. لا يُعزى هذا الشعور إلى الألم الذي تشعر به، والذي تعلم أنها ستتجاوزه

بطريقة أو أخرى، بقدر ما يُنسب إلى مخاوفها مما يُفضي إليه هذا الألم: الأمومة في بلد أجنبي. إن كونها حاملاً، ومعاناتها من الغثيان كل صباح، والأرق، ونوبات الألم القوية التي أصابت ظهرها، وذهابها إلى الحمام بشكل متكرر، باتت جميعها أموراً مقبولة. وعلى الرغم من شعورهها المتزايد بالانزعاج والقلق، اندهشت أشيما، خلال تجربة الحمل هذه، من قدرة جسدها على صنع الحياة تماماً، كقدرة والدتها وجدتها وجميع جداتها من قبلها. إن كونها قادرة على ذلك وهي بعيدةٌ للغاية عن وطنها، دون أن تخضع لإشراف أحبائها ومراقبتهم، يجعل من الأمر معجزةً حقيقيةً، لكنها تشعر بالذعر من فكرة تربية طفلها في بلد لا أقارب لها فيه، وحيث تجهل الكثير، وتبدو فيه الحياة مجرد بديلٍ مؤقت.

عندما جاءت الممرضة باتي لتأخذ صينية الغداء، اقترحت على أشيما قائلةً: «ما رأيك أن نمشي قليلاً؟ قد يفيدك ذلك». رفعت أشيما ناظريها عن نسخة ممزقة من مجلة ديش (Desh) البنغالية، التي أحضرتها لتقرأها خلال رحلتها المملة إلى بوسطن، ومازالت غير قادرة على التخلص منها. لقد كانت الصفحات الخشنة، ذات الطابع البنغالي لهذه المجلة، مصدر طمأنينة ثابت بالنسبة إليها. لقد قرأت محتوياتها من القصص القصيرة والقصائد والمقالات عشرات المرات. هنالك رسمة توضيحية باللونين الأسود والأبيض في الصفحة الحادية عشرة من إبداع والدها، فهو رسام يعمل لدى مجلة ديش. توضح الرسمة منظر الأفق في شمال كلكتا، كان والد أشيما قد رسمها من سطح شقتهم في أحد الصباحات الضبابية في شهر كانون الثاني. وبينما كان والدها يرسم الأفق وقد انحنى نحو حامل

اللوحة، مرتدياً شالاً كشميرياً أسود يغطي كتفيه وتتدلى سيجارة من بين شفتيه، وقفت خلفه تراقبه.

- «حسنا، لا بأس»، أجابت أشيما.

تساعد باتي أشيما على النهوض، وتدس قدميها الواحدة تلو الأخرى داخل الخف، ثم تدثرها بثوب ثانٍ للنوم تلفه حول كتفيها. وبينما تحاول أشيما جاهدةً الوقوف، تقول باتي: «خلال يوم أو اثنين، ستفقدين نصف حجمك هذا». تمسك باتي بذراع أشيما وتغادران الحجرة إلى الممر. تتوقف أشيما بعد بضع خطوات، وترتعش رِجلاها إثر نوبة جديدة من الألم تجتاح جسدها، وبينما تفيض عيناها دمعاً، تهز رأسها وتقول: «لا أستطيع».

- «نعم، تستطيعين! اضغطي على يدي! اضغطي بكل ما أوتيت من قوة!».

بعد مضي دقيقة واحدة، تواصل المرأتان المسير حيث تتجمع المرضات. «هل ترغبين في ولد أم بنت؟» سألت باتي أشيما، فأجابت: «طالما سيكون للطفل عشرة (إصبع) في يديه وعشرة (إصبع) في قدميه، لا يهمني جنسه». كان تصور هذه التفاصيل التشريحية؛ علامات الحياة الدقيقة تلك، أصعب شيء على أشيما عندما تخيلت الطفل بين ذراعيها.

تبتسم باتي ابتسامة عريضة، وفجأة تدرك أشيما خطأها إذ توجب عليها أن تقول: «أصابع اليدين» و«أصابع القدمين». يتسبب هذا الخطأ لأشيما بألمٍ يماثل الألم الذي تسبب به الانقباض الأخير. كانت اللغة الإنجليزيةُ موضوعها المفضل، وعندما كانت في كلكتا، قبل

زواجها، سعت أشيما إلى الحصول على شهادة جامعية. اعتادت حينها إعطاء دروس خصوصية لأبناء الحي داخل بيوتهم وعلى شرفاتها وفوق أَسرَّتهم، مساعِدةً إياهم على حفظ شعر تينيسون ووردزورث، وعلى نطق كلمات مثل «إشارة sign» و«يسعل cough»، وتمييز الفرق بين تراجيديا أرسطو وتراجيديا شكسبير. ولكن، في اللغة البنغالية، تشير كلمة (إصبع) إلى صيغة الجمع أيضاً.

في أحد الأيام وبعد انتهاء أشيما من إعطاء الدروس، كانت والدتها بانتظارها عند الباب. أخبرتها أن تذهب إلى غرفة النوم مباشرةً لتجهِّز نفسها، فهنالك رجل ينتظر ليراها، كان الثالث منذ أشهرٍ عديدة مضت. أما الأول فكان أرمل ولديه أربعة أطفال، والثاني، رسامُ كاريكاتور في إحدى الصحف، وكان يعرف والدها. فقد هذا الرسام ذراعه الأيسر عندما صدمه باص في منطقة إسبلانيد وسط كلكتا. شعرت أشيما بالراحة عندما رفضها كلا الرجلين. كانت حينها في التاسعة عشرة من عمرها، منشغلةً بدراستها، ولم تكن على عجلة من أمرها لتصبح عروساً. لذلك فكَّت أشيما شعرها ثم ضفَّرته من جديد، مسحت الكحل الذي لطَّخ أسفل عينيها، وطيَّبت جسدها بقليل من بودرة كوتيكورا المعطرة باستخدام قطيفةٍ مخملية. أخرجت والدتها الساري العشبي اللون الذي طوته وخبأته داخل ثوب أشيما الداخلي من الخزانة، ووضعته على السرير. توقفت أشيما للحظة في الممر قبل أن تدخل حجرة الضيوف. سمعت أشيما والدتها تقول: «إنها مغرمةٌ بالطبخ، وهي بارعةٌ في نسج الصوف فلقد انتهت من حبك هذه السترة التي أرتديها في

أسبوع واحد».

ابتسمت أشيما لسماعها تلك العبارات المسلية من والدتها، التي باتت مثل بائعٍ يروج سلعته، ففي واقع الأمر استغرق حبك السترة قرابة العام، واضطرت والدتها إلى نسج الأكمام بنفسها. نظرت أشيما إلى أرضية الممر حيث اعتاد الضيوف خلع نعالاتهم، فلاحظت وجود زوجين من الصنادل، إلى جانب حذاءٍ رجالي لم ترَ له مثيلاً في عربات الترام أو الحافلات أوشوارع كلكتا أو حتى في واجهة محلات باتا للأحذية. كان الحذاء بني اللون، وكعباه أسودين، أما الرباطان والغرز البارزة فكانت بيضاء كابية. وبينما كان جانبا الحذاء مزركشين بثقوب بارزة بحجم حبة العدس، كانت مقدمة الحذاء مزينة بأشكالٍ جميلةٍ بدت وكأنها حيكت بالإبرة. نظرت أشيما عن كثب، فرأت اسم صانع الحذاء مكتوباً في الداخل بأحرف ذهبية اللون، وقد اختفت معظمها باستثناء «شيء ما وأولاده». رأت أشيما كذلك الرقم ثمانية ونصف، الذي يشير إلى حجم الحذاء والأحرف الأولى U S A. وفي حين كانت الوالدة ماتزال تتغنى بفضائل ابنتها مستمرةً في مدحها، إذ بأشيما تستجيب لرغبةٍ ملحةٍ مفاجئةٍ فتلبس الحذاء الرجالي. عندها اختلط العرق المتصبب من قدميها بالعرق الذي خلَّفته قدما الرجل. لم تلمس أشيما رجلاً غريباً من قبل، وكانت تلك التجربة أقرب ما يكون إلى ذلك. كان جلد الحذاء مجعداً ثقيلاً ومايزال دافئاً. لاحظت أشيما أن الرباط المتقاطع للفردة اليسرى لم يمر بأحد الثقوب، وقد جعلها هذا الخطأ غير المقصود أقل اضطراباً. خلعت أشيما الحذاء ثم دخلت إلى الحجرة. وبينما جلس الرجل على

كرسيٍّ من الخيزران، جثا والداه على حافة سرير مزدوج حيث ينام أخوها ليلاً. كان العريس ممتلئ الجسم قليلاً، وبدا مثقفاً، لكنه مايزال شاباً، مرتدياً نظاراتٍ ذات إطارٍ سميكٍ أسود، وله أنفٌ رفيعٌ بارز. أما شاربه المشذب باتقان، المتصل بلحيته التي لم تتجاوز ذقنه، فأضفى عليه مظهراً أرستقراطياً أنيقاً. ارتدى العريس جوارب بنيةً، وكذلك بنطالاً بنياً وقميصاً مقلماً باللونين الأخضر والأبيض. كان يحدق في ركبتيه عابساً. لم يرفع بصره لينظر إليها لحظة دخولها الغرفة، على الرغم من أنها شعرت بنظراته عند عبورها الحجرة. حين تمكنت من استراق نظرة أخرى، بدا غير مهتم وعاود التحديق في ركبتيه. تنحنح وكأنها أراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يفعل، وعوضاً عن ذلك تحدث والده وقال إن ابنه تخرج في جامعة القديس خافيير (St. Xavier)، ثم في كلية الهندسة البنغالية (B. E. College)، وكان الأول على دفعتيه. جلست أشيما على الكرسي وأسبلت أطراف ساريها، وشعرت بوالدتها ترقبها بنظرات استحسان. تعدُّ أشيما، مقارنة بالنساء البنغاليات، طويلة القامة، فطولها يبلغ خمس أقدام وأربعة إنشات، ووزنها تسعة وتسعون رطلاً (خمسون كيلوغراماً تقريباً). كانت أشيما حنطية البشرة، لكن الجميع قارنها بالممثلة البنغالية الشهيرة مادابي موكيرجي في أكثر من مناسبة. أما أظافرها فكانت طويلة بشكل مثيرٍ للإعجاب، وأصابع يديها رفيعة على نحوٍ جميلٍ كأصابع والدها. استفسر والدا العريس عن دراسة أشيما، وطُلب منها إلقاء بعض أبيات الشعر من قصيدة «النرجس البري». عاشت عائلة العريس في مقاطعة أليبور، وعمل والده مراقب عمال في قسم الجمارك

لدى شركة شحن. «إن ولدي يعيش خارج البلاد منذ سنتين»، قال الوالد، «إنه يُحضِّر الدكتوراة في بوسطن، فهو يبحث في مجال الألياف الضوئية». لم تسمع أشيما من قبل بولاية بوسطن أو بالألياف الضوئية. سألها والد العريس إن كانت على استعدادٍ للسفر جواً، وإن كانت قادرةً على العيش وحدها في مدينة شتاؤها قارسٌ للغاية. «ألن يكون موجوداً هناك؟» أشارت أشيما إلى الرجل الذي لبست حذاءه فترة وجيزة، والذي لم ينطق بأي كلمة بَعْد. لم تعرف أشيما اسمه إلا بعد الخِطبة. بعد مُضي أسبوع طُبعت بطاقات الدعوة، ثم بعد ذلك بأسبوعين، قام عدد لا يُحصى من العمات والخالات وبناتهن، اللواتي كن يَحُمن حول أشيما، بتزيينها وتجميلها والاهتمام بمظهرها. كانت تلك اللحظات الأخيرة التي ستُدعى فيها أشيما بادوري، فسرعان ما ستصبح أشيما غانغولي. قامت النساء بتخضيب شفتيها بلونٍ داكنٍ، ووضع نقطٍ من معجون خشب الصندل على حاجبيها وخديها، أما شَعرها فلُفَّ إلى الأعلى وزُين بالزهور من جميع الجهات، وثُبِّت بمئات دبابيس الشعر، التي ستستغرق إزالتها ساعةً كاملةً عند انتهاء العرس. وأخيراً، زُيِّن شعر أشيما بشبكةٍ قرمزية اللون. كان الجو رطباً، وعلى الرغم من الدبابيس المحشوة في شعرها- وقد كانت الأسمك شعراً من بين بنات عماتها وخالاتها- فلم يكن ليبدو ناعماً. ارتدت أشيما كل القلادات والأطواق والأساور التي قُدِّر لها فيما بعد أن تقضي معظم حياتها مُخبأةً في صندوق أماناتٍ كبيرٍ جداً في قبو أحد البنوك في ولاية نيوإنجلند. في الساعة المحددة، أُجلست أشيما على كرسي الخيزران الخاص بحفلات الأعراس، الذي

قام والدها بتزيينه ورفْعه خمس أقدام عن الأرض، ثم حُمِلت إلى الخارج لتقابل عريسها. خبَّأت أشيما وجهها بورقة نبات التنبول قلبية الشكل[1]، وأبقت رأسها منخفضاً حتى دارت حول عريسها سبع مرات.

بدأت أشيما تتعرف إلى زوجها في مدينة كيمبردج، بعيداً عن الوطن بمسافة ثمانية آلاف ميل. في المساء، تُعد أشيما الطعام راجيةً إرضاء أشوك بطبقها الذي تُحضره من مكوناتٍ نقيةٍ على نحو لافتٍ للنظر- حدَّثت عنها والدتها في أول رسائلها إلى الوطن- مثل السكر والدقيق والأرز والملح دون استخدام مقادير محددة. الآن باتت أشيما تعلم أن زوجها يفضل الطعام المالح على الحلو، وأن أكثر عنصر يرغبه في طبق لحم الخروف بالكاري هو البطاطس، وأنه يحب أن ينهي عشاءه بلقيمات من الأرز ويخنة الحبوب المجففة[2]. وبينما يضطجع بجوارها ليلاً، يستمع أشوك إلى وصفها لأحداث يومها: نزهاتها سيراً على الأقدام في شارع ماساتشوسيتس، والمتاجر التي تقوم بزيارتها، وأخبار الجمعية الدولية لوعي كريشنا[3] التي تزعجها بمنشوراتها، والمثلجات بنكهة الفستق الحلبي، التي تتلذذ بتناولها في ميدان هارفارد. وعلى الرغم من راتب أشوك الضئيل الذي يتقاضاه كطالب في برنامج الدكتوراه، فإنه يدخر قليلاً من المال كل بضعة أشهر ليرسله إلى والده كي يساعده في أعمال

(1) نبات التنبول: نبات من الفصيلة الفلفلية. (المترجم)

(2) تُعرف بالإنجليزية dal or dahl وهي مزيج من العدس والفاصولياء والبازلاء المجففة. (المترجم)

(3) أو ما يُعرف بالعامية بحركة هاري كريشنا، وهي منظمة دينية لـجوديا فاشينافا (Gaudiya Vaishnava)، وتقوم معتقداتها الأساسية على الكتب المقدسة الهندوسية. (المترجم)

التوسعة التي يجريها في المنزل. أما ما يتعلق بملابسه، فيُعد شخصاً نيقاً. كان جدالهما الأول حول كنزةٍ صوفيةٍ انكمشت، لأن أشيما غسلتها في الغسالة. لحظة عودته من الجامعة ووصوله إلى المنزل، يُعلق أشوك قميصه وبنطاله قبل كل شيء، ثم يرتدي منامةً ذات قيطان، وأحياناً يرتدي فوقها كنزة إذا كان الجو بارداً. يقضي أشوك ساعةً كاملةً كل يوم أحد في طلاء ثلاثة أزواج من الأحذية وتلميعها، اثنان أسودان وواحد بني، وهو الحذاء ذاته، الذي ارتداه عندما ذهب إلى منزل والدي أشيما ليراها أول مرة. لطالما ذكَّرها منظره وهو جالس القرفصاء على الصحف المفروشة على الأرض ينظف الحذاء الجلدي بالفرشاة بخفةٍ واهتمامٍ بالغين، بتصرفها الطائش عندما ارتدت حذاءه في ممر منزل والديها. كان لهذه الذكرى أثرٌ عميقٌ، ومازالت تفضل الاحتفاظ بها لنفسها، على الرغم من أنها تتحدث مع أشوك مطولاً كل ليلة عن الحياة التي باتا يتشاركانها سوية.

ينكبُّ أشوك على نسخةٍ من صحيفة *بوسطن غلوب* يعود تاريخها إلى الشهر الماضي، وقد جلس وحيداً على كرسيٍّ مزدوج، في إحدى غرف الانتظار في طابق آخر داخل المشفى. يقرأ أشوك عن أعمال الشغب التي اندلعت خلال المؤتمر الديمقراطي الوطني في شيكاغو، وعن بنجامين سبوك؛ طبيب الأطفال، الذي حُكم عليه بالسجن مدة عامين لتقديمه المشورة الطبية للمتهربين من الخدمة العسكرية. تتقدم الساعة اليدوية من نوع فابري لوبا التي يرتديها أشوك على ساعة الحائط الضخمة ذات الخلفية الرمادية اللون بست دقائق. إنها الرابعة والنصف صباحاً. قبل

ساعة، كان أشوك يغط في النوم في منزله وقد افترشت الامتحانات التي كان يصححها حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل جانب أشيما من السرير، عندما دق جرس الهاتف. قال المتحدث على الجانب الآخر من الهاتف إن لدى أشيما توسعاً كاملاً، وهي الآن في غرفة الولادة. قيل له عند وصوله إلى المشفى إنها ستضع وليدها في أي لحظة. بدا لأشوك حين بصقت أشيما الشاي متهمة إياه بإضافة الملح بدلاً عن السكر، في إحدى صباحات الشتاء القارسة، عندما كانت حبات البَرَد تضرب بقوة زجاج نوافذ المنزل، وكأنه منذ بضعة أيام فقط. ارتشف أشوك قليلاً من الشاي الحلو المذاق من كوبها، ليُثبت لها أنه لم يخطئ، لكنها أصرت أن مذاقه فظيع وسكبته في حوض المطبخ. كانت تلك الدلالة الأولى التي دفعتها للشك أنها قد تكون حاملاً، حتى أكد الطبيب الأمر، ثم بدأ أشوك يستيقظ كل صباح على صوت تهوعها[1]، عندما كانت تنظف أسنانها. اعتاد أشوك، قبل مغادرته المنزل إلى الجامعة، أن يترك كوباً من الشاي بجانب السرير حيث تستلقي أشيما بسكون وتشعر بالكسل، وغالباً ما كان يعود في المساء ليجدها ماتزال مستلقيةً في مكانها ولم تلمس الكوب.

أما الآن، فأشوك في حاجة ماسة إلى الشاي، إذ لم يتمكن من إعداد كوبٍ له قبل مغادرة المنزل، لكن الآلة الموجودة في ممر المشفى لا تُوزع سوى القهوة، الفاترة في أحسن الظروف، في أكواب ورقية. يخلع أشوك نظارته ذات الإطار السميك، الذي ثبته فني النظارة في كلكتا، ويُلمع عدستيها بالمنديل القطني الذي يحتفظ به دوماً في جيبه، والذي طرزت

(1) التهوع: الصوت الذي يصدره الشخص عند محاولة الاستفراغ. (المترجم)

عليه والدته الحرف الأول من اسمه (أ)، بخيطٍ أزرق فاتح اللون. كان شعره الأسود، الذي يسرحه عادةً إلى الوراء، بشكلٍ مرتبٍ، بعيداً عن جبهته، مهوشاً. يقف أشوك ويتمشى في الممر كما يفعل الآباء الذين ينتظرون مولوداً جديداً. فتحت الممرضة باب حجرة الانتظار مرتين حتى اللحظة لتخبر أحد الآباء أنه رُزق بمولود ذكرٍ أو أنثى، تتلو ذلك مصافحاتٌ من الجميع، وتربيتٌ على ظهره قبل أن تصطحبه الممرضة خارج الغرفة. وبينما ينتظرون في هذه الحجرة، يحمل الرجال معهم السجائر والزهور وزجاجات الشمبانيا، أو قد يمسكون بدفاتر العناوين الخاصة بهم. يدخن الرجال وينفضون سجائرهم على الأرض. لا يهتم أشوك بمثل هذه الرفاهيات، فهو لا يدخن أو يشرب أياً من المشروبات الروحية. تحتفظ أشيما بجميع العناوين الخاصة بهما في دفترٍ صغيرٍ تحمله عادةً في حقيبتها. لم يخطر ببال أشوك أن يبتاع لها زهوراً.

يستأنف أشوك قراءة صحيفة *بوسطن غلوب* وهو يمشي في الوقت ذاته. يقوم أشوك، بسبب عرجةٍ بسيطةٍ، بسحب قدمه اليمنى عند كل خطوة بشكلٍ غير ملحوظ. اكتسب أشوك منذ الطفولة القدرة على القراءة في أثناء المشي، فلقد اعتاد حَمْل الكتاب على يده في طريقه إلى المدرسة، كذلك وهو يتنقل من حجرة إلى أخرى في منزل والده في مقاطعة أليبور، المكون من ثلاثة طوابق، وخلال صعوده الدرج المشُيَّد من الطين الأحمر ونزوله. لم يتسبب أي شيء بإزعاج أشوك أوإشعاره بالاضطراب. لم يشتته أمرٌ ما ولم يتلعثم مطلقاً. في سن المراهقة قرأ أشوك جميع روايات ديكينز، وقرأ كذلك لمؤلفين محدثين مثل غراهام غرين

وسومرست موم، إذ ابتاع مؤلفاتهم من متجره المفضل في شارع الكلية الهندسية عن طريق المزايدة. ولكن من بين جميع هؤلاء المؤلفين، كان أشوك مغرماً بالمؤلفين الروس. اعتاد جدُّ أشوك (جده إلى أبيه)، وهو أستاذٌ جامعيٌ سابقٌ في جامعة كلكتا اختص في الأدب الأوروبي، أن يقرأ بعض مؤلفاتهم مترجمةً للإنجليزية بصوتٍ مرتفع عندما كان أشوك صبياً. وبينما يلعب أشقاء أشوك وشقيقاته لعبة الكابادي[1] والكريكيت في الخارج يومياً وقت استراحة الشاي، يذهب أشوك إلى الحجرة حيث يستلقي جده على سريره، وقد تقاطع كاحلاه واستند الكتاب المفتوح على صدره، فيضطجع إلى جانبه ليقرأ له ساعةً كاملةً. لا يشعر أشوك خلالها بما يدور حوله في العالم الخارجي. لم يتمكن أشوك من سماع أشقائه وشقيقاته يلهون ويضحكون على سطح المنزل أو حتى رؤية الحجرة الصغيرة المغبرَّة غير المرتبة حيث يقرأ جده. يقول جدُّه: «اقرأ لجميع المؤلفين الروس، ثم أعد القراءة من جديد. لن يخذلوك أبداً». عندما أصبحت لغة أشوك الإنجليزية جيدةً بدأ قراءة الكتب بنفسه. وبينما كان يمشي في أكثر الشوارع ازدحاماً، مثل شارع شورينغي وشارع غارياهات، قرأ أشوك صفحات من رواية *الأخوة كارامازوف* و*آنّا كارنينا* و*آباء وأبناء*. في إحدى المرات حاول ابن عمه الأصغر سناً أن يقلده، فانتهى به الأمر إلى الوقوع على الدرج الطيني في منزل أشوك،

(1) الكابادي: رياضة مصارعة بالأيدي، وهي رياضة جماعية بدأت في جنوب آسيا، وهي ذات شعبية في تلك المنطقة وكذلك في جنوب شرق آسيا. وتعتبر لعبة رياضية وطنية في بنغلاديش والبنجاب في الهند. يلعب فريقان مكونان من سبعة لاعبين في كل مباراة. (المترجم)

فكسر ذراعه. كانت والدة أشوك مقتنعةً طوال الوقت أن حافلةً أو عربة ترام ستصدمان ابنها البكر، وهو منكبٌّ على قراءة رواية *الحرب والسلام*، وأنه سيفارق الحياة وهو يقرأ.

كادت نبوءة الأم تتحقق في ساعاتٍ مبكرةٍ من العشرين من تشرين الأول عام 1961. كان أشوك حينها في الحادية والعشرين من عمره، ولايزال طالباً في كلية الهندسة والعلوم البنغالية. كان أشوك مسافراً بالقطار السريع رقم 83، المُنطلق من ولاية هاورا باتجاه ولاية رانشي، ليزور جديه في العطلة حيث انتقلا للإقامة في ولاية جامشيدبور بعد تقاعد جده من الجامعة. لم يقضِ أشوك الإجازة بعيداً عن عائلته قط، إلا أن جده كان قد فقد بصره مؤخراً ورغب في رفقته على وجه الخصوص، ليقرأ له صحيفة *رجل الدولة اليومية*(1) في الصباح، وبعض أعمال دوستويفيسكي وتولستوي في فترة مابعد الظهر. قَبِل أشوك الدعوة بلهفةٍ شديدةٍ. حمل معه حقيبتين وضع في إحداهما الملابس والهدايا، أما الأخرى فكانت فارغةً ليملأها بالكتب التي وعده جده أن يمنحه إياها في هذه الزيارة؛ تلك الكتب التي جمعها جده طوال حياته، واحتفظ بها في مكانٍ آمنٍ؛ داخل خزانة الكتب ذات الواجهة الزجاجية. منذ كان طفلاً، وعده جده أن يمنحه كتبه، ويتذكر أشوك أنه لم يشتهِ غيرها. كان أشوك قد تلقى بعضها خلال الأعوام الماضية حين أهداه إياها جده في أعياد ميلاده والمناسبات الخاصة، والآن حان الوقت ليرث أشوك ما تبقى منها لكنه شعر بالحزن. وبينما وضع أشوك الحقيبة الفارغة تحت

(1) The Statesman Indian Newspaper. (المترجم)

مقعده، شعر بالانزعاج والاضطراب من خفة وزنها، وشعر في الوقت ذاته بالأسى لطبيعة الظروف التي ستؤدي إلى ملئها عند عودته.

حمل أشوك بيده مجلداً هو المجموعة القصصية لنيقولاي غوغول، الذي أعطاه إياه جده عندما تخرج من الصف الحادي عشر، ليقرأه خلال سفره بالقطار. وضع أشوك توقيعه على صفحة العنوان تحت توقيع جده. وبسبب شغف أشوك بهذا الكتاب على وجه الخصوص، انقسم كعب الكتاب إلى نصفين مُهدداً بتقسيمه إلى جزءين. كانت حكاية «*المعطف*»؛ الحكاية الأخيرة في الكتاب، القصة المفضلة عند أشوك، فبدأ يقرأها من جديد عندما تحرك القطار من محطة هاوراه في وقت متأخر من المساء، مُصدراً أصواتاً حادةً مزعجةً تصم الآذان استمرت فترةً طويلةً، بعيداً عن والديه وأشقائه وشقيقاته الستة، الذين حضروا جميعاً ليودعوه، واحتشدوا عند النافذة حتى اللحظة الأخيرة، ثم استمروا في التلويح من رصيف المحطة الطويل المظلم. لقد قرأ أشوك حكاية «*المعطف*» مراتٍ عديدة يصعب حصرها، حتى إن جملاً وعباراتٍ معينةً محفورةٌ في ذاكرته. في كل مرة تأسره حكاية أكاكي أكاكيفيتش السخيفة المأساوية، لكنها مُلهمة بالفعل بالنسبة إليه. أكاكي أكاكيفيتش؛ الشخصية الرئيسة، رجلٌ فقيرٌ يقضي حياته خانعاً، ينسخ وثائق يكتبها غيره، ويعاني من سخرية الآخرين حوله. تعاطف أشوك مع شخصية أكاكي؛ الموظف البسيط، الذي يشبه إلى حدٍ كبير والد أشوك في بداية حياته المهنية. كان أشوك يضحك بصوتٍ مرتفع كل مرة يقرأ فيها الأحداث التي تصف حفل تعميد أكاكي، وسلسلة الأسماء الغريبة التي رفضتها والدته. لكنه كان

يرتجف خوفاً عند قراءة وصفٍ لأصبع قدم بيتروفيتش الخياط، «بإظفره المشوه السميك مثل درع سلحفاة». سال لعاب أشوك عند قراءته وصفاً للحم العجل المُبرد، وفطائر الكريمة المحلاة، والشمبانيا؛ الوجبة التي تناولها أكاكي في الليلة ذاتها عندما سُرق معطفه الثمين، على الرغم من أن أشوك لم يتذوق أياً منها سابقاً. ولطالما شعر أشوك بالحزن الشديد عند قراءة ذلك الجزء من القصة الذي يصف تعرض أكاكي للسرقة «في ميدانٍ بدا له مثل صحراءٍ قاحلةٍ فظيعةٍ»، حيث شعر الأخير بالضعف والبرد الشديد. بعد ذلك بصفحاتٍ قليلةٍ، يصف المؤلف وفاة أكاكي، وكلما قرأ أشوك هذا الجزء فاضت عيناه دمعاً. في كل مرة قرأ أشوك القصة بدت له، بطريقةٍ أو أخرى، أقل منطقيةٍ من قبل، وباتت المشاهد التي تصورها بوضوحٍ شديدٍ، والتي استوعبها أشوك على نحوٍ كاملٍ، أكثر غموضاً ومحيرةً جداً. وكما يسكن شبح أكاكي الصفحات الأخيرة من الكتاب، فإنه يسكن أعماق روح أشوك، ملقياً الضوء على كل ماهو غير منطقي وحتمي في هذا العالم.

سرعان ما أصبح الظلام حالكاً في الخارج حيث لم تُجْدِ أضواء هاوراه المبعثرة نفعاً. حصل أشوك على مقعد من الدرجة الثانية في عربة الركاب المخصصة للنوم[1]، وهي العربة السابعة في القطار، مباشرةً خلف العربة المكيفة. كان القطار مزدحماً ومزعجاً على نحوٍ استثنائي، لأنه موسم العطلة، لذلك فقد اكتظ بالعائلات المسافرة لقضاء العطلة. ارتدى الأطفال أفضل ما لديهم من الملابس، ووضعت الفتيات شرائط

(1) عربة النوم في القطار هي عربة ركاب تتوافر فيها أسرّة. (المترجم)

الشعر الزاهية الألوان. وعلى الرغم من تناوله عشاءه قبل مغادرته المنزل إلى المحطة، حرصت والدته على تزويده بوجبةٍ خفيفةٍ وضعتها داخل حافظة الطعام ذات الطبقات الأربع، التي تقبع الآن بجانب قدميه، خشية أن يداهمه الجوع ليلاً. تقاسم أشوك مقصورته مع ثلاثة مسافرين آخرين؛ زوجين من ولاية بهار في خريف عمرهما، استنتج أشوك من الحديث الذي دار بينهما أنهما تمكنا للتوِّ من تزويج ابنتهما الكبرى، أما المسافر الثالث، فرجل أعمالٍ بنغالي متكرش، في خريف عمره كذلك. بدا رجل الأعمال ودوداً، وقد ارتدى بدلةً وربطة عنق، وكان اسمه غوش. أخبر غوش أشوك أنه عاد مؤخراً إلى الهند بعد أن قضى عامين في إنجلترا في مهمة عمل، لكنه عاد إلى أرض الوطن لأن زوجته كانت بائسةً للغاية في الغربة. تحدث غوش عن إنجلترا بإعجابٍ ووقارٍ. قال غوش إن الشوارع الفارغة المتلألئة والسيارات السوداء اللامعة وصفوف المنازل البيضاء المشرقة، كانت أشبه بحلم. أضاف غوش أن القطارات هناك تغادر المحطات وتصل إلى وجهتها وِفق جدول مواعيد محددة. ما من أحد هناك يبصق على أرصفة المشاة. قال غوش أيضاً إن ابنه وُلد في مشفى بريطاني.

وبينما خلع غوش حذاءه وجلس القرفصاء على سريره، توجه إلى أشوك بالسؤال: «هل رأيت الكثير من هذا العالم؟» ثم أخرج من جيب سترته علبة سجائر دنهيل وعرض على جميع الموجودين في المقصورة سيجارةً قبل أن يُشعل سيجارته.

- «سافرتُ مرة واحدة إلى دلهي، ومؤخراً أسافر مرة كل عام إلى

جامشيدبور»، أجاب أشوك.

مدّ غوش يده خارج النافذة لينفض سيجارته المتوهجة في الظلام الحالك، ثم بلمحةٍ ملؤها خيبة الأمل نظر إلى الجزء الداخلي من القطار، وقال: «لم أقصد هذا العالم!» أمال غوش رأسه نحوالنافذة، وقال: «إنجلترا؟ أمريكا؟» وكأنما حلَّت هاتان الدولتان محل تلك القرى المجهولة التي مروا بها. «هل فكرت بالذهاب إلى هناك؟» سأل غوش.

- «يذكر أساتذتي في الكلية الأمر بين الحين والآخر، لكن لدي عائلةً هنا»، أجاب أشوك.

عبس غوش وقال مستنكراً: «أمتزوجٌ أنت؟» ردّ أشوك قائلاً: «لا! أمي وأبي وستة أشقاء وشقيقات، أنا أكبرهم سناً».

ثم خمن غوش قائلاً: «ستتزوج خلال بضعة أعوام وتعيش في منزل والديك».

- «أعتقد ذلك»، أجاب أشوك.

هز غوش رأسه معترضاً، فقال: «لكنك مازلت فتياً. حراً!»، ثم بسط يديه مؤكداً الأمر. «فلتُسدِ لنفسك معروفاً قبل فوات الأوان! فلتحزم وسادة وبطانية، دون أن تفكر مطولاً في الأمر، واذهب لترى ما استطعت من العالم. لن تندم أبداً. سيفوت الأوان في يومٍ من الأيام».

- «يقول جدي دائماً لهذا وُجِدت الكتب، لنسافر دونَ أن نتحرك إنشاً واحداً!» ردَّ أشوك متهزاً الفرصة ليفتح الكتاب الذي يحمله، وأكمل: «لكل شخص طريقته في الحياة».

أمال غوش رأسه جانباً بأدبٍ، وترك عقب السيجارة ينزلق من بين

أصابعه. فتح غوش حقيبته بقدمه، ثم أخرج دفتر يومياته ففتح الصفحة المؤرخة بالعشرين من تشرين الأول، وكانت فارغةً. أزال غوش الغطاء عن قلم الحبر السائل الخاص به بطريقةٍ رسميةٍ وكتب اسمه وعنوانه. شق الورقة وناولها لأشوك، ثم قال: «إذا غيرت رأيك في يومٍ من الأيام واحتجت أن تتصل بشخصٍ تعرفه، فأعلمني بالأمر. أناَ أقطن في توليغونغ، خلف محطة عرباتِ الترام».

- «شكراً لك»، ردَّ أشوك، ثم طوى الورقة وما تحويه من معلوماتٍ، ووضعها بين صفحات كتابه.

ثم اقترح غوش قائلاً: «مارأيك بلعبة ورق؟» أخرج غوش مجموعة أوراق لعبٍ مهترئةٍ من جيب سترته، وقد رُسم عليها من الخلف صورة ساعة بيغ بين، بيد أن أشوك اعتذر بأدبٍ لأنه لا يعرف كيف يلعب الورق، بالإضافة إلى أنه يفضل أن يقرأ كتابه. قام الركاب بتنظيف أسنانهم في الممر، الواحد تلو الآخر، ثم ارتدوا بيجاماتهم، وأسدلوا الستائر حول مقصوراتهم، وخلدوا إلى النوم. عرض غوش أن ينام على السرير العلوي فتسلق السلم حافي القدمين، وقد طوى سترته بعناية، تاركاً النافذة لأشوك. أما الزوجان من ولاية بيهار، فتقاسما قليلاً من الحلوى التي احتفظا بها داخل صندوقٍ صغير، وشربا الماء من الكوب ذاته دون أن تلامس شفتاهما حافة الكوب، ثم خلدا إلى النوم، وأطفآ الأنوار، وأدارا رأسيهما نحو الحائط.

ظلَّ أشوك مستيقظاً وحده، تابع القراءة جالساً، وهو مايزال مرتدياً ملابسه، متمتعاً بضوء المصباح الكهربائي الخافت فوق رأسه. نظر أشوك

بين الحين والآخر من النافذة المفتوحة ليرى الظلام الحالك والأشكال المبهمة لأشجار النخيل والبيوت الأكثر بساطة على الإطلاق. قلَّب أشوك صفحات كتابه الصفراء الرقيقة، التي وجدت الديدان سبيلها إلى بعضٍ منها. أما المحرك البخاري للقطار، فكان يبثُّ دخانه بثقةٍ وقوةٍ. وفي أعماقه، شعر أشوك بتدافع عجلات القطار بخشونة. مرَّت بعض الشرارات المتطايرة من المدخنة بنافذته، وتركت طبقةٌ دبقةٌ من السخام بعض البقع على جانب وجهه ورموشه وذراعه وعنقه، لذلك ستُصرُّ جدته على أن يفرك جسده بصابون مارغو لحظة وصوله. انغمس أشوك في قراءة مأساة أكاكي أكاكيفيتش المعقدة، وتاه في شوارع سينت بطرسبرغ العريضة المغطاة بالثلوج، التي تعصف فيها الرياح الباردة دون أن يدرك أنه في يومٍ من الأيام سيسكن في مكانٍ تكسوه الثلوج أيضاً. استمر أشوك في القراءة حتى الساعة الثانية والنصف صباحاً، وكان واحداً من بين عددٍ قليل من الركاب، الذين لم يخلدوا للنوم عندما خرجت قاطرة المحرك وسبع عربات عن مسار السكة الحديدية. بدا الصوت الصادر وكأن قنبلة قد انفجرت. انقلبت العربات الأربع الأولى وهوت في بقعة منخفضة بمحاذاة السكة الحديدية. أما العربتان الخامسة والسادسة، اللتان أقلتا ركاب الدرجة الأولى، وكانتا مكيفتين فاصطدمتا بعضهما بعضاً، وقتلتا الركاب داخلهما وهم نيام. أما العربة السابعة حيث كان أشوك، فانقلبت، ثم قُذفت بفعل سرعة الاصطدام بعيداً وسط الحقول. وقع الحادث على بُعد 209 كيلومترات من كلكتا، وتحديداً بين محطتي غاتشيلا ودالبومغار. تعطل الهاتف المحمول لحارس

القطار، فاضطر إلى الجري مسافة خمسة كيلومترات تقريباً من موقع الحادث، قبل أن يتمكن من الوصول إلى محطة غاتشيلا، وإرسال رسالة الاستغاثة الأولى. مضت ساعةٌ ونيف قبل وصول المنقذين، وقد حملوا معهم المصابيح والجواريف والفؤوس لنشل الجثث من تحت العربات المتحطمة.

مايزال أشوك يذكر صراخ المنقذين، مستفسرين عن وجود أحياء. وتذكَّر محاولاته الفاشلة للرد عليهم، لكنه لم يصدر سوى صوت خشن خافت. تذكر أشوك أيضاً أصوات من كانوا حوله؛ كانوا أشباه أموات، يئنون ويقرعون بوهن على جدران القطار، ويهمسون بصوت أجش، طالبين النجدة. تلك كلمات لم يسمعها سوى المحاصرين والجرحى. تخضَّب صدر أشوك والذراع اليمنى لقميصه بالدماء، فلقد اندفع، بفعل الاصطدام، من النافذة. لم يتمكن أشوك في تلك اللحظة من رؤية أي شيء، حتى إنه اعتقد طوال الساعات الأولى من الحادث أنه فقد بصره مثل جده الذي كان في طريقه لزيارته. يتذكر أشوك أيضاً رائحة اللهب الحادة، وطنين الذباب، وصراخ الأطفال، ومذاق الدم والغبار المختلطين في فمه. كانوا جميعاً في مكانٍ مجهولٍ وسط الحقول. أما الفلاحون ومفتشو الشرطة والأطباء، فكانوا يحومون حولهم. يتذكر أشوك كذلك اعتقاده أنه يحتضر، أو أنه فارق الحياة بالفعل. لم يتمكن من الشعور بالجزء السفلي من جسده، ولم يُدرك أن أطراف غوش المشوهة كانت تغطي قدميه. رأى أشوك في نهاية المطاف بزوغ أول خيوط النهار المائلة إلى الزرقة؛ لقد كان نهاراً بارداً وغير ودود، ومايزال القمر وبعض

النجوم تتسكع وسط السماء. أما كتاب أشوك الذي انقذف على بُعد بضع أقدام من القطار، فباتت صفحاته ترفرف وقد انقسم إلى قسمين. وقع وهج المصباح الذي يحمله أحد الباحثين عن الناجين على صفحات الكتاب فشتَّت انتباهه، وعندها سمعه أشوك يقول: «لا شيء هنا! لنتابع البحث في مكان آخر».

إلا أن ضوء المصباح استمر فترة وجيزة وكافيةً ليتمكن خلالها أشوك من رفع يده؛ اعتقد أشوك أن تلك الحركة ستستهلك ما تبقى داخله من حياة. كان أشوك مايزال متمسِّكاً بإحدى صفحات كتابه، وقد تجعدت بشدة داخل قبضته، وعندما رفع يده سقطت لفيفة الورق من بين أصابعه. سمع أشوك صوتاً ينادي: «انتظروا! هذا الرجل بجوار ذلك الكتاب! لقد رأيته يتحرك».

سحب المنقذون أشوك من بين الحطام، ووضعوه على الحمالة، ونقلوه على متن قطارٍ إلى المشفى في ولاية تاتنغار. عانى أشوك من كسرٍ في الحوض وعظم الفخذ وثلاثةٍ من أضلاع صدره اليمنى. نصح الطبيب ببقاء أشوك مستلقياً على ظهره عاماً كاملاً، وأمره بعدم الحركة قدر المستطاع، حتى تشفى عظامه المكسورة. خشي الطبيب من حدوث شللٍ كامل في رجل أشوك اليمنى. نُقل أشوك إلى كلية كلكتا الطبية حيث ثُبِّت برغيان في حوضه. عاد أشوك إلى منزل والديه في أليبور في كانون الأول، وقام إخوته الأربعة بحمله على أكتافهم وقد تمدد كجثةٍ هامدةٍ، عبر فناء المنزل ثم صعوداً عبر السلم الطيني الأحمر اللون. قامت عائلة أشوك بإطعامه بالملعقة ثلاث مراتٍ في اليوم. كان أشوك يقضي حاجته

في وعاء معدني. وتوافد الزوار والأطباء على أشوك. حتى جده الضرير جاء لزيارته من جامشيدبور. احتفظت عائلة أشوك بكل ما كُتب عن الحادث. لاحظ أشوك إحدى الصور وقد أظهرت تهشم القطار حتى صار كومة من الحطام تحت السماء، ورجال الأمن يجلسون فوق مقتنيات الركاب التي لم يُطالب بها أي شخص. علم أشوك أن رجال الشرطة وجدوا ألواح مرابط ومسامير لولبية على بُعد عدة أقدامٍ من مسار السكة الرئيس، مما أثار الشك بوجود عمل تخريبي، غير أن هذا الأمر لم يُؤكد فيما بعد مطلقاً. وبالإضافة إلى ذلك، تشوهت العديد من الجثث، فلم يتمكن أحدٌ من التعرف إليها. كتبت صحيفة *التايمز الهندية* عنواناً بارزاً: «أصحاب الإجازات في موعدٍ مع الموت!».

في بادئ الأمر، استمر أشوك في التحديق في سقف حجرة نومه معظم الوقت، وفي شفرات المروحة الثلاث، ذات اللون القشدي (البيج)، تدور حول محورها وقد بدت حوافها متسخة. عندما كانت المروحة تعمل، كان بإمكان أشوك سماع حافة الرزنامة تحتك بالجدار من خلفه. أما المنظر الذي كان أشوك يراه كلما حرك عنقه لليمين، فنافذةٌ، وعلى حافتها ارتكزت زجاجة ديتول يكسوها الغبار. وإذ فُتح مصراع النافذة رأى أشوك الجدار الإسمنتي المحيط بالمنزل وأبا برص- ذا اللون البني الشاحب- الذي فرَّ للتو، وتمكن من الاستماع إلى استعراضٍ متواصلٍ لأصواتٍ مختلفةٍ في الخارج؛ صوت وقع الأقدام وأجراسٍ الدراجات الهوائية ونعيق الغربان المتواصل وأبواق العربات المحمولة التي تسير في الممرات الضيقة التي لا تتسع لسيارات الأجرة، وصوت الماء الذي يتم

ضخه عبر الأنبوب الممتد إلى قاع البئر، الموجود في الزاوية لملء الجرار. سمع أشوك عند الغسق من كل مساء صوت النفخ في صدفة محارةٍ في البيت المجاور، معلناً وقت الصلاة. كان بإمكان أشوك أيضاً أن يشتم- لا أن يرى- رائحة الكدارة القذرة خضراء اللون ذات السطح المتلألئ، التي تجمعت في البالوعة المفتوحة. استمرت الحياة داخل المنزل؛ فوالده، على سبيل المثال كان يذهب إلى عمله كل يوم ثم يرجع، وكذلك أشقاؤه وشقيقاته يتوجهون إلى مدارسهم ثم يعودون إلى المنزل. أما والدته فكانت تعمل في المطبخ، وتتفقده في فتراتٍ منتظمةٍ، وقد ظهرت بقع الكركم على حجرها. أما الخادمة، فتعصر الخرق داخل السطل الممتلئ بالماء، وتمسح أرضية المنزل مرتين يومياً.

ترنح أشوك خلال النهار بفعل مسكنات الألم، وفي الليل حلم بأنه مايزال محاصراً داخل القطار أو أسوأ من ذلك، إذ حلم أن الحادث لم يقع مطلقاً، وأنه كان يمشي في الشارع، ويستحم، ويجلس متربعاً على أرضية المنزل ويتناول طعامه من الطبق، ثم يستيقظ أشوك وهو يتصبب عرقاً، وعيونه تفيض دمعاً، وقد بدا مقتنعاً أنه لن يعيش ليقوم بكل هذه الأعمال. حاول أشوك في نهاية المطاف أن يتجنب هذه الكوابيس فبدأ يقرأ في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل وخاصة عندما شعر جسده الساكن بالأرق والاضطراب بينما كان ذهنه صافياً ومتيقظاً. لكن أشوك رفض قراءة أيٍّ من مؤلفات الكُتّاب الروس أوأي روايةٍ أحضرها جده ووضعها بجانب سريره لهذا الغرض. ذكّرته هذه الكتب التي تدور أحداثها في بلدانٍ لم يزرها بحقيقة أنه حبيس المكان. قرأ أشوك كُتب الهندسة عوضاً

عن ذلك محاولاً كل ما في وسعه متابعة دروسه، وحلّ معادلاتٍ هندسيةٍ على ضوء المصباح اليدوي. كان أشوك غالباً ما يفكر في غوش في هذه الساعات الصامتة. كان يسمعه يقول: «فلتحزم وسادةً وبطانيةً»، وتذكر أشوك العنوان الذي كتبه غوش على إحدى صفحات يومياته؛ مكانٌ ما خلف محطة عربات الترام في توليغونغ. في هذا العنوان تقطن الآن أرملةٌ وابنٌ يتيمٌ. أما أفراد عائلة أشوك، فحاولوا رفع معنوياته من خلال تذكيره كل يوم بالمستقبل واليوم الذي سيقف فيه على قدميه دون مساعدة الآخرين ليمشي في الحجرة. صلى والداه كل يوم ليتحقق هذا الهدف، ولذلك -أيضاً- وهبت أمه اللحم للفقراء أيام الأربعاء. وكلما مضت الأشهر، بدأ أشوك يتصور مستقبلاً مغايراً لم يتخيل فيه نفسه يمشي على قدميه فقط، وإنما يمشي بعيداً، قدر المستطاع، عن هذا المكان حيث وُلد وحيث يشعر أنه ميتٌ تقريباً. تمكن أشوك في العام التالي، وبمساعدة عكاز، من العودة إلى الجامعة والتخرج. تقدم أشوك بطلبٍ لمتابعة دراسته في مجال الهندسة خارج البلاد دون أن يخبر والديه. لم يخبر أشوك والديه بمخططاته إلا بعد حصوله على بعثةٍ كاملةٍ لمتابعة دراسته ووثيقة سفر. اعترض والده الذي شعر بالذهول والحيرة، قائلاً: «لقد كدنا أن نفقدك في السابق!» أما أشقاؤه فبكوا وتوسلوا إليه ألا يذهب. صُعقت والدة أشوك وامتنعت عن الطعام لثلاثة أيام، وعلى الرغم من كل ذلك، رحل أشوك.

بعد مضي سبع سنين، مازالت بعض الصور راسخةً في ذاكرة أشوك. وبينما يُسرع ليتفقد بريده، تتربص به هذه الصور أحياناً فتتمثل له في

إحدى زوايا كلية الهندسة في كلية إم. آي. تي، أوتحوم فوق كتفه وهو ينحني نحو طبقٍ من الأرز عند العشاء، أو تسكن ليلاً بجوار ذراعي أشيما ورجليها. حاول أشوك عبر كل المراحل الانتقالية في حياته- في حفل زفافه عندما وقف خلف أشيما وقد طوّق خصرها بذراعيه، وانحنى فوق كتفها وبات يحدق فيها، وقام كلاهما برمي حفنة من الأرز في النيران، أو خلال الساعات الأولى من وصوله للولايات المتحدة عندما رأى مدينةً صغيرةً شاحبةً مكسوةً بالثلوج- أن يتخلص من هذه الصور المؤلمة مثل عربة القطار المحطمة المسحوقة المنقلبة رأساً على عقب وقد تلوى جسده تحتها، وصوت السحق الفظيع الذي كان بإمكانه سماعه لكنه لم يستطع تحديد مصدره، ومشهد عظامه التي تهشمت وكأنما سُحقت مثل الدقيق. ليست ذاكرة الألم ما يلاحقه، فهو لا يذكر الألم في واقع الأمر، إنها ذكرى انتظار منقذيه والخوف المتواصل، الذي تملّكه وكاد يخنقه، من عدم إنقاذه. يعاني أشوك حتى هذه اللحظة من رهاب الأماكن المغلقة، فهو يحبس أنفاسه في المصعد، ويشعر بالضيق والكبت داخل السيارة، إلا إذا كانت النوافذ مفتوحة من كلا الجانبين. أما إذا سافر جواً، فكان يطلب الجلوس في المقعد المواجه للحواجز العمودية. كان بكاء الأطفال في بعض الأحيان يملؤه بخوفٍ عميق، وأحياناً يضغط على أضلاعه ليتوثق من أنها صلبةٌ غير مهشمة.

يضغط أشوك على أضلاعه وهو داخل المشفى الآن، فيهز رأسه وكأنما لا يصدق أنه مايزال على قيد الحياة، وفي الوقت ذاته يشعر بالراحة. وعلى الرغم من أن أشيما، وليس أشوك، من تحمل الطفل في

أحشائها، فقد شعر هو كذلك بالثقل، وكانت فكرة الحياة؛ حياته والحياة التي ستنبع منها، مصدر هذا الشعور. نشأ أشوك في منزلٍ لا تُوجد فيه مياه صنبورٍ، وكاد يلقى حتفه في الثانية والعشرين من عمره. يشعر أشوك بمذاق الغبار في فمه من جديد ويرى القطار المحطم ماثلاً أمامه، والدواليب المعدنية الضخمة المنقلبة رأساً على عقب. لكن، لا! لقد نجا من الحادث. لقد وُلد مرتين في الهند عندما كُتبت له النجاة، ومرةً ثالثةً هنا في أمريكا. ثلاث حيواتٍ في عمر الثلاثين. لذلك يشكر أشوك والديه وجديه وأجداده العظماء على هذه النعمة، لكنه لا يشكر الرب، فهو يُعبِّر بكل صراحةٍ عن احترامه لماركس، ويرفض الدين بصمت، لكن عليه أن يشكر روحاً أخرى فارقت الحياة. لايستطيع أشوك أن يشكر كتابه الذي تناثر في ساعاتٍ مبكرةٍ من أحد صباحات شهر تشرين الأول في حقلٍ يبعد مئتين وتسعة كيلومترات عن كلكتا، مثلما كاد يتناثر هو أيضاً. لحظة دخول الممرضة باقي الحجرة، يشكر أشوك غوغول؛ المؤلف الروسي الذي أنقذ حياته، بدل أن يشكر الرب.

2

وُلد الطفل الذكر، في الساعة الخامسة وخمس دقائق صباحاً. طوله عشرون إنشاً، ووزنه سبعة أرطال وتسع أواقٍ. لمحت أشيما الطفل قبل قطع الحبل السري وتثبيته بمشبك وحمْله خارج الحجرة، فرأت مخلوقاً تكسوه طبقة لزجة سميكة بيضاء اللون ومشحات دمٍ؛ دمها، على كتفيه وقدميه ورأسه. أفقدتها حقنةٌ أسفل ظهرها الشعورَ بجزئها السفلي؛ من خصرها حتى ركبتيها، وتسببت لها بألمٍ حادٍ في الرأس في المرحلة الأخيرة من الولادة. عندما انتهت الولادة بدأت أشيما ترتجف بشدة وكأنما أصابتها حمى حادة، واستمر هذا الوضع نصف ساعة، كما شعرت بالدوار أيضاً، فغطتها الممرضة ببطانية، بيد أنها أحست بداخلها وقد بات فارغاً، في حين بقي جسدها مشوهاً من الخارج. كانت أشيما غير قادرة على الكلام أو حتى السماح للممرضات بتبديل ردائها الذي ضُرج بالدماء لتلبس رداءً نظيفاً. وعلى الرغم من عدد أكواب الماء الكبير التي شربتها أشيما، فمازالت تشعر بالظمأ الشديد. طلبت الممرضات من أشيما أن تذهب إلى الحمام، وتجلس على المرحاض، ثم تقوم ببخ مياهٍ دافئةٍ

من زجاجة وُضعت بين رجليها. في نهاية المطاف تمكنت الممرضات من تنظيفها بالإسفنجة، وإلباسها رداءً نظيفاً، ثم نقلها على الكرسي المتحرك إلى حجرةٍ ثانية. كانت الأضواء في هذه الحجرة خافتةً على نحوٍ مريح، وكان ثمة سريرٌ واحدٌ فقط بجوار سرير أشيما، وكان فارغاً في الوقت الراهن. وعندما وصل أشوك، كانت باتي تقيس ضغط أشيما، في حين استلقت الأخيرة على كومةٍ من الوسائد، أما المولود فقد بدا مثل صرةٍ بيضاء اللون ومستطيلة الشكل بين ذراعيها. وضعت باتي مهد الطفل الذي أُلصقت عليه بطاقةٌ كُتب عليها «مولود غانغولي؛ ذكر»، بجوار سرير أشيما.

نظرت أشيما إلى الأعلى مخاطبةً أشوك بصوتٍ خافتٍ فقالت: «ها هو!» كانت شاحبةً وقد بدت شفتاها باهتتين أيضاً. ثمة هالاتٌ سوداء حول عينيها، أما شعرها وقد انفكت ضفيرتها فبدا وكأنها لم تسرحه منذ أيام. وفضلاً عن ذلك، كان صوتها أجش، وكأنها أُصيبت بنزلة برد. يحضر أشوك كرسياً ليجلس بجوارها، وتساعد الممرضة باتي في نقل الطفل من ذراعي والدته إلى ذراعي والده. يشتت الطفل الصمت السائد في الغرفة في أثناء عملية النقل تلك بصرخةٍ مقتضبةٍ، فيشعر الوالدان بالذعر، لكن باتي تضحك باستحسان. تقول باتي لأشيما: «أرأيت؟ إنه يعرفك».

يتبع أشوك إرشادات أشيما، فيمد ذراعيه ويضع إحدى يديه تحت عنق الطفل والأخرى أسفل جسده.

- «هيا! إنه يرغب في أن تمسكه بقوة، فهو أقوى مما تعتقد»، تقول أشيما مشجعةً أشوك.

يرفع أشوك الصرة الصغيرة نحو صدره ويخاطب باتي: «هكذا؟».

- «نعم. سأترككم أنتم الثلاثة وحدكم بعض الوقت».

غلبت مشاعر الإرباك على عاطفة أشوك في بادئ الأمر عندما رأى رأس الطفل المدبب، وجفونه المنتفخة، والبقع البيضاء الصغيرة على خديه، وشفته العلوية الممتلئة المتدلِّية فوق الشفة السفلية. لون بشرة الطفل أفتح من بشرتي أشيما وأشوك، ورقيقةٌ جداً، حتى إنها تشفُّ عما تحتها من أوعيةٍ دمويةٍ دقيقةٍ خضراء اللون ظهرت في صدغه. أما رأسه، فتغطيه كتلةٌ خفيفةٌ من الشعر الأسود. يحاول أشوك أن يعد رموش الطفل، ثم يتحسس بلطفٍ من خلال الفانيلة يديْ الطفل وقدميه.

وبينما تراقب أشيما زوجها قالت: «كل أطرافه موجودة، لقد تفقدتها من قبل».

- «ما لون عينيه؟ لم لا يفتح عينيه؟ هل فتَحَهما؟» يتساءل أشوك، فتومئ أشيما برأسها موافقةً.

ثم يتساءل أشوك مرةً أخرى: «ماذا يرى؟» «هل يستطيع رؤيتنا؟».

- «أعتقد أنه يستطيع أن يرانا، ولكن ليس بوضوح، فهو لا يستطيع أن يميز الألوان. ليس بعد!» أجابت أشيما.

يجلس أشوك وأشيما والطفل بهدوءٍ وسكونٍ تام. ثم يسأل أشوك أشيما: «كيف حالك؟ هل سار الأمر على مايرام؟».

لم تُجب أشيما، وعندها توقف أشوك عن التحديق في وجه الطفل فنظر إليها ليجدها نائمةً أيضاً.

ينظر أشوك إلى الطفل مجدداً، عيناه مفتوحتان، تحدقان فيه دون أن

تطرفا، سوداوان كشعره الأسود. لقد اختلف وجه الطفل. لم يرَ أشوك شيئاً بهذا الكمال! يتخيل أشوك نفسه كوجودٍ ضبابي داكن مشوش؛ في علاقة والدٍ بابنه. يفكر أشوك مرةً أخرى بتلك الليلة التي كاد يُقتل فيها، وذكرى تلك الساعات التي تركت بصماتها عليه، فتستمر ومضاتها بالظهور حيناً والاختفاء من عقله حيناً آخر. كان إنقاذه من تحت القطار المحطم المعجزة الأولى في حياته، أما هذا الطفل الذي يرقد بين ذراعيه، الآن هنا، لا يزن شيئاً، ومغيراً كل شيء في حياته، فهو المعجزة الثانية.

حظي الطفل، فضلاً عن والده، بثلاثة زوارٍ، وكانوا جميعاً بنغالاً. مايا وديليب ناندي؛ زوجان شابان يسكنان في كيمبردج، تعرف إليهما أشوك وأشيما قبل بضعة أشهر وهما يتسوقان في أحد متاجر بيوريتي سوبريم[1]، والبروفيسور غوبتا؛ الباحث المتخصص في الرياضيات، من ولاية ديهرادن، وهو عازبٌ في الخمسين من عمره، تعرف إليه أشوك في أحد ممرات كلية إم. آي. تي.

عندما تقوم أشيما بإرضاع طفلها يغادر الرجلان الغرفة برفقة أشوك إلى الرواق. قدَّمت مايا وديليب هديةً للطفل وهي خشخيشة وكتاب إرشادي عن الأطفال يحوي مساحاتٍ فارغةً تُمكن الوالدين من تخليد جوانب متعددةٍ من حياة الرضيع، حتى إن ثمة مساحة دائرية فارغة لإلصاق بعض الخصلات من شعره عند حلقه للمرة الأولى. أما البروفيسور غوبتا، فكانت هديته للطفل نسخةً أنيقةً من أغاني المهد

(1) Purity Supreme: سلسلة متاجر تأسست عام 1984، ووصل عددها أربعة وستين متجراً، توزعت في ولايات مختلفة، ومنها ولاية ماساتشوسيتس. (المترجم).

المقفاة المعروفة بأغاني «الإوزة الأم»، مزودةً بالرسومات. وبينما يُقلب أشوك صفحات الكتاب التي خيطت بطريقةٍ جميلةٍ يقول: «ياله من طفلٍ محظوظ! لم يتجاوز بضع ساعاتٍ من عمره، وها هو يمتلك كتاباً!» يفكر أشوك بطفولة هذا الطفل، وكم تختلف عن طفولته.

تفكر أشيما في الأمر ذاته، ولكن لأسباب مختلفة، فهي تشعر بالامتنان لوجود عائلة نناندي والبروفيسور غوبتا، فهؤلاء المعارف خير بديلٍ للأشخاص الذين كان يجب أن يكونوا بجوارها. شعرت أشيما أن ولادة الطفل في هذه الظروف، دون أن يكون بجوارها أيٌّ من جدتيها أو أحد والديها أو عمها أو عمتها، مثل كل شيء في أمريكا تقريباً، عشوائيٌّ ونصف حقيقي. وبينما تمسّد أشيما شعر وليدها وترضعه وتتفحصه، لا تملك إلا أن تُشفق عليه، فهي لم تعرف في حياتها من أتى إلى هذا العالم، وكان وحيداً ومحروماً للغاية مثل طفلها.

لا يملك أيٌّ من جدي الطفل جهاز هاتفٍ، لذلك كانت البرقية وسيلة التواصل الوحيدة. أرسل أشوك برقيةً للطرفين في كلكتا قال فيها: «الأم والمولود الذكر بخير وذلك بفضل بركاتكم». قرر أشوك وأشيما أن يمنحا شرف تسمية الطفل إلى جدة أشيما التي تجاوزت الثمانين، والتي أسمت جميع أبناء أحفادها الستة. عندما علمت الجدة بحمل أشيما شعرت بالبهجة والإثارة على وجه الخصوص حيال تسمية أول «سيدٍ» في العائلة. لذلك قرر كل من أشوك وأشيما أن يؤجلا قرار تسمية المولود إلى أن تصل رسالةٌ من الوطن، وتجاهلا تعبئة الجزء الخاص بوثيقة الميلاد في نماذج المشفى. بعثت جدة أشيما الرسالة بنفسها،

فلقد ذهبت إلى مكتب البريد تتوكأ على عكازها، وكانت رحلتها خارج المنزل الأولى منذ عقدٍ من الزمان. احتوت الرسالة على اسمٍ لمولودٍ ذكر واسمٍ لمولودٍ أنثى ولم تُفصح عنهما لأي شخصٍ كان.

وعلى الرغم من أن الجدة أرسلت الرسالة في تموز؛ أي قبل شهرٍ، فإنها لم تصل بعد. لم يشعر أشوك أو أشيما بالقلق حيال ذلك الأمر، فكلاهما يعلم أن الطفل الرضيع لا يحتاج اسماً، وإنما يحتاج إلى من يطعمه، ويباركه، ويمنحه حلياً من الفضة والذهب، ومن يربِّت على ظهره بعد الرضاعة، ومن يحمله بحذر مع ضرورة وضع اليد خلف رأسه بخاصة. يُمكن للأسماء أن تنتظر قليلاً، ففي الهند لا يتعجل الآباء عند تسمية أبنائهم. لقد كان من المعتاد أن تمضي أعوامٌ قبل أن يقرر الوالدان الاسم الملائم أوالأفضل لوليدهما. لدى أشوك وأشيما العديد من الأمثلة من أبناء العمومة، الذين لم يحصلوا على أسمائهم بشكل رسمي حتى تم تسجيلهم في المدرسة في سن السادسة أو السابعة. تفهَّمت عائلة ناندي والبروفيسور غوبتا الأمر تماماً. اعتقد جميعهم بضرورة الانتظار حتى تصل رسالة الجدة.

وفضلاً عن ذلك، فهناك العديد من أسماء الدلال التي تفي بالغرض في الوقت الراهن، فلقد جرت العادة في بنغلاديش عند تسمية المولود أن يحصل الطفل الواحد على اسمين. والكلمة التي تشير إلى اسم الدلال في اللغة البنغالية هي daknam، وتعني حرفياً الاسم الذي يستخدمه الأصدقاء وأفراد العائلة والمقربون، في البيت، وفي لحظاتٍ عفويةٍ خاصةٍ أخرى. تعد أسماء الدلال من بقايا الطفولة الثابتة، التي تُذكِّر بأن

الحياة ليست جادةً ورسميةً ومعقدةً دوماً، وتُذكِّر كذلك بأن الإنسان لا يعني الشيء ذاته بالنسبة إلى كل الأشخاص. الجميع لديهم أسماء دلال، فالاسم الخاص بأشيما، على سبيل المثال، هو مونو، والاسم الخاص بأشوك هو ميثو، وهم يُعرفون داخل عائلاتهم بأسماء الدلال تلك، حتى وإن كانوا أشخاصاً بالغين، فبها يُعبِّر الآخرون عن ولعهم بهم أو حبهم، أو اشتياقهم، أو إذا اقتضت الحاجة لتوبيخهم.

يقترن اسمٌ آخر باسم الدلال يُعرف بالبنغالية بـ «bhalonam»، ويعني الاسم «الجيد»، يُستخدم للتعريف بالشخص في العالم الخارجي. لذلك تظهر الأسماء الجيدة على المغلفات، والشهادات الدراسية، وأدلة الهواتف، وفي كل الأماكن العامة الأخرى (نتيجة لذلك يظهر اسم أشيما على مظروف الرسائل التي ترسلها والدتها، أما داخل الرسالة فتجد اسم مونو). تمثل هذه الأسماء الجيدة الخصال المبجلة، وتلك التي تُشير إلى وعي الشخص الثقافي والروحي. فاسم «أشيما»، على سبيل المثال، يعني: «الشخص ذا الأفق اللامحدود»، في حين يعني اسم «أشوك»؛ وهو اسم إمبراطور، «الشخص الذي يسمو فوق الحزن». لا تملك أسماء الدلال مثل هذه المعاني الطموحة، ولا تُوثَّق بصورةٍ رسميةٍ، فهي تُلفظ وتبقى في ذاكرة أصحابها وعائلاتهم فقط. وعلى النقيض من الأسماء الجيدة، فأسماء الدلال لا معنى لها غالباً، فهي سخيفةٌ وساخرةٌ بشكلٍ متعمد، أو تُحاكي في لفظها الأصوات المسموعة في الطبيعة. وكثيراً ما يستجيب الطفل الرضيع لعشرات أسماء الدلال حتى يرتبط باسمٍ واحدٍ بعينه. عندما بدأ طفل أشيما بالتعبير عن انفعالاته من خلالٍ وجهه

الوردي المتجعد، وبدأ بالتعرف إلى الدائرة المصغرة من معجبيه، مال السيدناندي نحوه وناداه قائلاً: «بورو»، وتعني بالبنغالية «الشيخ».

وبينما كانت الممرضة باتي تحمل صينيةً جديدةً تحوي طبقاً من الدجاج المشوي لأشيما، تساءلت ببهجةٍ: «ما اسمه؟ بورو؟» في حين أزالت أشيما الغطاء عن الطبق لتلتهم الدجاج. جديرٌ بالذكر أن الممرضات في قسم الولادة أصبحن يُشرن إلى أشيما رسمياً بـ «سيدة حلوى الجلي والمثلجات». تُفسر أشيما الأمر المتعلق باسم مولودها فتقول: «لا، لا، ذلك ليس اسماً. لم نختر الاسم بعد. جدتي ستختار الاسم». تُومئ باتي برأسها ثم تتساءل: «هل ستحضر قريباً؟» تضحك أشيما، كانت تلك ضحكتها الصادقة الأولى بعد وضعها مولودها. إن فكرة صعود جدتها إلى الطائرة لتسافر إلى كيمبردج - جدتها المرأة الضئيلة الحجم، المولودة في القرن السابق، التي مازالت ترتدي ثوب الحداد الأبيض، وبشرتها سمراء تميل إلى الصفرة وتقاوم التجاعيد- يصعب على أشيما تخيلها. هي فكرةٌ مستحيلةٌ تماماً وسخيفةٌ في الوقت ذاته، مهما كانت محببةً ومُرحباً بها. تُجيب أشيما: «لا، ولكنَّ رسالةً منها ستصل قريباً».

عاد أشوك إلى الشقة في المساء، وتحقق إذا ما كانت رسالة الجدة قد وصلت. مضت ثلاثة أيام قامت الممرضات خلالها بتعليم أشيما كيفية تغيير حفاض المولود، وتنظيف صُرَّته. وعُملت لأشيما أيضاً مغاطس الماء المالح والدافئ، لتسكين الألم وتعقيم جرحها والغرز. أعطت الممرضات أشيما قائمةً بأسماء أطباء أطفال، وعددٍ كبيرٍ من الكتيبات الخاصة بالرضاعة الطبيعية، وكيفية تطوير ارتباطها العاطفي بالطفل،

والمحافظة على مناعته، وعينات من شامبو الأطفال، وأعواد القطن لتنظيف أذني الرضيع. في اليوم الرابع، جاء خبرٌ طيبٌ وآخر سيئٌ. أما الخبر الطيب، فستغادر أشيما المشفى في صباح اليوم التالي. أما الخبر السيئ، فلقد أخبر السيد ويلكوكس، المسؤول عن جمع وثائق ميلاد الأطفال حديثي الولادة في المشفى، بضرورة تسمية الطفل. يدرك أشوك وأشيما، الآن، أن الطفل في أمريكا لا يمكنه مغادرة المشفى دون وثيقة ميلاد، وتتطلب تلك اختيار اسمٍ للمولود.

تحتج أشيما فتقول: «سيديٍ، ولكن! لايمكننا نحن أن نسمي الطفل». ينظر السيد ويلكوكس، الضئيل الحجم والأصلع والمتجهم، إلى الزوجين وقد بدا عليهما الانزعاج، ثم ينظر إلى الطفل الذي لا يحمل اسماً فيقول: «فهمت! والسبب...؟» «نحن بانتظار رسالةٍ»، شرح أشوك الأمر للسيد ويلكوكس بالتفصيل.

«فهمت»، قال السيد ويلكوكس مرة أخرى، «لسوء الحظ لا يوجد حلٌّ آخر سوى أن نكتب اسم المولود كالتالي: «مولود غانغولي الذكر». «بالطبع سيُطلب منكما تعديل الوثيقة الدائمة بعد أن تستقرا على الاسم». تنظر أشيما إلى أشوك مترقبةً الجواب، فتقول: «أهذا ما يجب علينا فعله؟».

«في الواقع، لا أوصي بذلك،» قال السيد ويلكوكس، «سيتوجب عليكما المثول أمام القاضي ودفع غرامة. إن الروتين البيروقراطي لا نهاية له». يومئ السيد ويلكوكس برأسه مؤكداً كلامه، ثم يسود الصمت. «ألديكما خطة بديلة ؟» يتساءل السيد ويلكوكس.

تعبس أشيما، ثم تقول: «ماذا تعني بخطةٍ بديلةٍ؟» يجيبها السيد ويلكوكس: «اسمٌ احتياطي في حالة لم يعجبكما الاسم الذي ستختاره جدتك». يهز أشوك وأشيما رأسيهما مستنكرين. لم يخطر ببالهما أن يشككا في اختيار جدة أشيما لاسم المولود، أو أن يستخفا برغبات سيدةٍ طاعنةٍ في العمر بهذه الطريقة.

«يمكن للطفل أن يحمل اسمك أو اسم أحد أسلافك»، اقترح السيد ويلكوكس على أشوك، معترفاً أن اسمه هاوارد ويلكوكس الثالث. «إنه تقليد جيد اتبعه ملوك فرنسا وإنجلترا،» أضاف السيد ويلكوكس.

فكر أشوك وأشيما، فوجدا أن الأمر غير ممكنٍ بالنسبة إليهما، فهذا التقليد غير موجودٍ في بنغلاديش. لا يمنح البنغال أبناءهم الذكور أسماء آبائهم أو أجدادهم، وبناتهم أسماء أمهاتهم أو جداتهم. سيسخر الجميع في الهند من دلالات التوقير هذه، ورموز الميراث والنسب المعترف بها في أمريكا وأوروبا. تُعد أسماء الأفراد داخل العائلة البنغالية مقدسةً ولها حرمةٌ لا يمكن انتهاكها، لذلك فهي لا تُورَّث، ولا يمكن لأكثر من شخصٍ أن يتشاركا الاسم ذاته.

«ماذا عن منحه اسم شخصٍ معينٍ تُكنّان له الإعجاب الشديد؟» تساءل السيد ويلكوكس، وقد رفع حاجبيه متفائلاً. يتنهد السيد ويلكوكس ويقول: «فكرا في الأمر. سأعود بعد بضع ساعات»، ثم يغادر الحجرة.

يغلق السيد ويلكوكس الباب، ويشعر حينها أشوك برعشةٍ تعكس لحظة يقين، وكأنما أدرك الأمر منذ أمدٍ بعيدٍ، فيتبادر إلى ذهنه اسم الدلال

الذي اختاره لطفله. يتذكر أشوك تلك الصفحة التي تجعدت بشدة بين أصابعه، ووميض مصباح منقذيه يُفاجئ عينيه، فيغمره شعورٌ بالصدمة. لكن أشوك، ولأول مرةٍ، يفكر في تلك اللحظة لا بمشاعر رعبٍ وإنما بامتنانٍ عميقٍ.

يميل أشوك نحو وجه طفله الشامخ وجسده الملفوف بإحكام ثم يهمس: «مرحباً، غوغول!». «غوغول»، يكرر أشوك الكلمة ويشعر بالرضا. يلف الطفل رأسه معبراً عن شعوره العميق بالذهول، ثم يتثاءب.

توافق أشيما على الاسم الجديد، موقنةً أنه لا يرمز إلى حياة ابنها فقط، وإنما لحياة زوجها أيضاً. تعرف أشيما قصة الحادث؛ قصة سمعتها أول مرةٍ بتعاطفٍ مهذبٍ كزوجةٍ متزوجةٍ حديثاً، ولكن التفكير فيها الآن، وبخاصة الآن، يشعرها بالذعر. لطالما أيقظت صرخات أشوك المكبوتة أشيما ليلاً، وجعله صوت دواليب المترو المتواتر على السكة الحديدية مستغرقاً في التفكير ومنعزلاً، عندما ركبا المترو معاً مرات عديدة. لم تقرأ أشيما أياً من مؤلفات غوغول من قبل، لكنها تنوي أن تضعها في الحسبان، لتكون بجوار قراءاتها لتينيسون ووردزورث. وبالإضافة إلى ذلك، فهو مجرد اسم دلال لا يُؤخذ على محمل الجد، بل سيُكتب في شهادة الميلاد في الوقت الراهن حتى يتمكنا من الخروج من المشفى. عندما عاد السيد ويلكوكس برفقة الآلة الطابعة، قام أشوك بتهجئة الاسم. وهكذا وُثِّق اسم «غوغول غانغولي» في سجلات المشفى. «الوداع يا غوغول»، تقول باتي، وتطبع قبلةً هادئةً على كتف الطفل، ثم تتوجه بالحديث إلى

أشيما التي ارتدت مرةً أخرى ساريها الحريري المتجعد، فتقول: «حظاً طيباً». يقوم البروفيسور غوبتا بالتقاط صورةٍ ساطعةٍ نوعاً ما في هذا النهار الصيفي القائظ؛ وهي الصورة الأولى للطفل غوغول، وقد لُفَّ ببطانية فظهر ككتلةٍ غير محددة المعالم، راقداً بين ذراعي والدته المنهكة. تقف أشيما على درجات المشفى وتحاول التحديق في آلة التصوير، إلا أن الشمس الساطعة تجعل عينيها نصف مغمضتين. يظهر أشوك إلى جانب أشيما وقد حمل حقيبتها مبتسماً مخفضاً رأسه للأسفل. «غوغول جاء إلى العالم»؛ وأخيراً سيتمكن والد أشوك من كتابة هذه العبارة على ظهر رسائله المكتوبة بالبنغالية.

أول منزلٍ يسكنه غوغول هو شقة مجهزة بأثاثٍ كاملٍ، تبعد عشر دقائق سيراً على الأقدام عن جامعة هارفارد، وعشرين دقيقة عن كلية إم آي تي. تقع الشقة في الطابق الأول من منزلٍ يتكون من ثلاثة طوابق مكسوةٍ بألواحٍ خشبيةٍ ذات لونٍ ورديٍ زاهٍ، ويحيط به سياجٌ شبكي متوسط الارتفاع. أما لون السقف الرمادي الشبيه برماد السجائر فيتماشى مع لون رصيف المشاة والشارع. على بُعد بضعة أمتار من المنزل، تصطف السيارات دوماً على ناحيةٍ من الشارع. يوجد محلٌ لبيع الكتب المستعملة عند زاوية الشارع، يدخله الزبائن عبر النزول ثلاث درجات من رصيف المشاة. في الجانب الآخر منه يُوجد محلٌ قديمٌ جداً يبيع الصحف والسجائر والبيض، يسمح صاحبه لقطةٍ سوداء كثيفة الفراء بالجلوس كيفما تشاء على الأرفف، مما يُشعر أشيما بالتقزز. وفضلاً عن هذه المشاريع التجارية الصغيرة، هناك المزيد من المنازل المكسوة

بألواح خشبية لها الشكل والحجم نفساهما، والدرجة نفسها من القدم والتداعي، وهي مطلية باللون الأخضر النعناعي والأرجواني الفاتح والرمادي المائل للزرقة. أحضر أشوك أشيما إلى هذا المنزل قبل ثمانية عشر شهراً في وقت متأخرٍ من إحدى ليالي شهر شباط بعد وصولها إلى مطار لوغان. لم تتمكن أشيما من رؤية شيء وسط الظلام الدامس من نافذة التاكسي - كانت يقظةً جداً بعد شعورها بالإنهاك الشديد من جراء السفر- باستثناء أكوامٍ من الثلج المتكسِّر المتلألئ الأبيض المائل إلى الزرقة، الذي كان أشبه بطوبٍ متهشمٍ. حظيت أشيما بأول لمحةٍ حقيقيةٍ لأمريكا في صباح اليوم التالي، عندما وقفت خارج المنزل لفترةٍ وجيزةٍ مرتديةً جوارب أشوك ونعالها الرقيق، فاخترق برد نيوإنجلند القارس أذنيها وفكها، ولم تر سوى أشجار يكسو الثلج أغصانها العارية. حتى بوْل الكلاب وبرازها طمرتهما تلالٌ من الثلج. كانت الشوارع خاويةً.

تتكون الشقة من ثلاث حجراتٍ اصطفت بجوار بعضها، ولا يفصلها أي ممر. الحجرة الأمامية هي حجرة المعيشة ذات نافذةٍ ثلاثيةٍ الأوجه تطل على الشارع، وفي الوسط حجرة النوم التي تشكل ممراً يؤدي إلى المطبخ الموجود في الخلف. لم تكن الشقة كما توقعت مطلقاً، فهي لا تشبه المنازل التي رأتها في فيلم «ذهب مع الريح» أو فيلم «شهوة الأعوام السبعة»، اللذين شاهدتهما برفقة أخيها وأبناء عمها في سينما لايتهاوس وسينما المترو. كانت الشقة باردةً في الشتاء وحارةً بصورةٍ لا تُطاق في الصيف. أما زجاج النوافذ السميك فغطته ستائر بنية اللون داكنةٌ وكئيبةٌ. أما الحمّام، فتتخرج الصراصير ليلاً من شقوق بلاطه. لكنَّ

أشيما لم تتذمر، وفضَّلت ألا تفصح عن شعورها بخيبة الأمل، خشية أن تتسبب بإهانة أشوك أو إقلاق والديها. وعوضاً عن ذلك، تصف أشيما في رسائلها للوطن موقد الطبخ القوي الذي تتوهج نيرانه في أي وقتٍ من النهار أو الليل، ذي الأربعة مشاعل الموجودة على سطحه، والمياه الساخنة التي تتدفق من الصنبور بقوةٍ تكفي لسفع جلدها، والمياه الباردة التي يمكن شربها بأمان.

يشغل صاحب المنزل وزوجته؛ آل مونتيغومري، الطابقين العلويين. البروفيسور مونتيغومري؛ أستاذٌ جامعيٌّ متخصص في علم الاجتماع في جامعة هارفارد. لعائلة مونتيغومري بنتان؛ آمبر- سبع سنوات- وكلوفير- تسع سنوات. وللفتاتين شعرٌ طويلٌ يصل إلى خصريهما، لكنهما لا تجدلانه أبداً، وفي الأيام الدافئة تلعبان لساعاتٍ على أرجوحة الدولاب المثبتة على الشجرة الوحيدة الموجودة في باحة المنزل الخلفية. طلب البروفيسور مونتيغومري من أشيما وأشوك أن يدعواه «ألان»، بدلاً من البروفيسور مونتيغومري كما اعتادا في بادئ الأمر. للبروفيسور مونتيغومري لحيةٌ صهباء شعثاء تجعله يبدو أكبر من عمره الحقيقي. يراه أشوك وأشيما يمشي إلى باحة جامعة هارفارد مرتدياً بنطالاً بالياً وسترة محشوة من الجلد السويدي[1]. يعتقد أشوك أن سواقي عربة الريكاشة[2] في الهند يرتدون ملابس أفضل من الأساتذة الجامعيين هنا، فأشوك نفسه مايزال يرتدي جاكيتاً وربطة عنق خلال اجتماعاته مع مشرفه. تمتلك

(1) Suede jacket: نوع من الجلد له زغب، ويُعرف بالجلد السويدي. (المترجم)

(2) Rickshaw : عربة هندية خفيفة بعجلتين يجرها شخص واحد. (المترجم)

عائلة البروفيسور مونتيغومري سيارة فوكسفاجن عائلية لونها أخضر ممل، تغطيها ملصقات مختلفة مثل: «لا للتسلط!» «إنني لا أكترث...»، «حظر الصدرية»[1]، «السلام!». وضعت عائلة مونتيغومري أيضاً غسالةً في القبو، وسمحت لأشوك وأشيما باستخدامها، وكذلك وضعت عائلة مونتيغومري التلفاز في حجرة المعيشة، ويمكن لأشوك وأشيما أن يسمعا صوته بوضوح من خلال سقف طابقهما. وبينما كان أشوك وأشيما يتناولان طعام العشاء في إحدى ليالي شهر نيسان، تمكنا من سماع نبأ اغتيال مارتن لوثر كينغ جونيور، ومؤخراً سمعا نبأ اغتيال السيناتور روبيرت كينيدي. أحياناً تقف أشيما وجودي؛ زوجة ألان، جنباً إلى جنب لنشر الغسيل على الحبل. ترتدي جودي دوماً جينزاً أزرق اللون تقصه في الصيف ليصبح شورتاً، بالإضافة إلى قلادة من الصدف الصغير تطوق عنقها. تلُم جودي شعرها الأشقر المتجعد- الذي ورثته ابنتاها، فلشعرهن الملمس واللون ذاته- بوشاحٍ قطني أحمر تربطه خلف عنقها دوماً. تعمل جودي بضعة أيام في الأسبوع لدى إحدى الجمعيات المعنية بصحة المرأة في مدينة سوميرفيل. عندما علمت جودي بأمر حمل أشيما، أثْنت على قرارها إرضاع طفلها رضاعةً طبيعيةً، لكنها شعرت بخيبة الأمل تجاه تسليم أشيما نفسَها لمؤسسة طبية عند الولادة، فلقد أنجبت جودي ابنتيها في المنزل بمساعدة قابلاتٍ من الجمعية النسائية حيث تعمل. أحياناً يخرج ألان وجودي ليلاً ويتركان آمبر وكلوفير في

(1) شعار ظهر في الستينيات حين خرجت النساء في مسيرات قُمن خلالها بحرق الصدريات، وتخلصن من رموز الأنوثة، للمطالبة بتحررهن ومساواتهن بالرجال. (المترجم)

المنزل وحدهما دون وجود أي شخص لرعايتهما. لكنهما طلبا من أشيما، مرةً واحدةً فقط، تفقُّد البنتين، لأن كلوفر كانت مصابةً بالزكام. تذكر أشيما شعورها بالاشمئزاز عندما رأت شقتهما؛ تلك الشقة التي تقع فوق شقتها مباشرة، لكنها تختلف تماماً عنها. رأت أشيما أكواماً متراكمةً في كل مكان، أكواماً من الكتب والأوراق، أكواماً من الأطباق المتسخة على سطح مجلى المطبخ، منافض سجائر بحجم أطباق المائدة تراكمت بداخلها أعقاب السجائر. أما الفتاتان فنامتا على السرير نفسه، وبجانبهما كومةٌ من الملابس. عندما جلست أشيما لحظةً على حافة الفراش حيث ينام ألان وجودي، صرخت أشيما إذ وقعت إلى الخلف بطريقة خرقاء، وأصابها الذعر عندما أدركت أنه مملوء بالماء. أما فوق الثلاجة، فعوضاً عن حبوب الإفطار وأكياس الشاي، وجدت أشيما زجاجات الويسكي والنبيذ، وكانت فارغةً تقريباً. شعرت أشيما بالثمالة بمجرد وقوفها هناك.

عادت أشيما وأشوك من المشفى، وفجأةً وجدا نفسيهما قد أصبحا عائلةً. كان البروفيسور غوبتا لبقاً للغاية، فأوصلهما بسيارته، وجلس في حجرة المعيشة أمام المروحة الوحيدة في المنزل، فالحر كان قائظاً. في تلك الحجرة توجد ستة مقاعد عوضاً عن الأريكة، لكلٍ منها ثلاث أرجل وظهر خشبي بيضوي الشكل، عليه وسادة مثلثة وسوداء. عندما وجدت نفسها داخل شقتها الكئيبة التي تحوي ثلاث حجرات، من جديد، اندهشت أشيما لشعورها بالشوق للهرج والمرج اللذين ميَّزا المشفى، وإلى الممرضة باتي وحلوى الجيلو والمثلجات التي قُدمت لها على فتراتٍ منتظمةٍ. وبينما مشت أشيما ببطء من حجرة إلى أخرى، انزعجت

لرؤية أطباقٍ متسخةٍ وقد تكدست في المطبخ، والفراش غير المرتب. تقبلت أشيما حتى تلك اللحظة عدم قيام أي شخصٍ بتكنيس الأرضية، أو غسل الأطباق أوالملابس، أو شراء حاجيات المنزل من البقالة، أوتحضير وجبةٍ ما عندما تكون مرهقةً أو تشعر بالحنين إلى الوطن أو الضيق. تقبلت أشيما حقيقة أن عدم وجود مثل هذه المميزات هو طابع الحياة في أمريكا. لكنها الآن، بطفل يبكي بين ذراعيها وثدييها يمتلئان بالحليب وجسدها يقطر عرقاً وحوضها يؤلمها لدرجة أنها تجد صعوبةً بالغةً في الجلوس، تشعر أنها لاتستطيع أن تحتمل كل هذا.

«لا أستطيع القيام بهذا»، تتوجه أشيما بالحديث إلى أشوك عندما أحضر لها كوباً من الشاي؛ الشيء الوحيد الذي فكر في تحضيره من أجلها، وفي الواقع، كانت لا ترغب مطلقاً في شرب الشاي.

«ستعتادين على الأمر خلال بضعة أيام»، قال أشوك متمنياً أن تجد في كلماته ما يشجعها، فلم يكن واثقاً مما يجب عليه فعله من أجلها. وضع أشوك كوب الشاي على حافة النافذة الرفيعة بجانبها. ينظر أشوك إلى غوغول الذي يتحرك خداه الملامسان لثدي أشيما بانتظام، فيقول: «أعتقد أنه خلد إلى النوم من جديد».

«لا، لن أعتاد الأمر»، تصر أشيما بصوتٍ حازم، وتشيح بوجهها عن أشوك والطفل. تُزيح جزءاً من الستارة، ثم تسدلها مرة أخرى، وتقول: «ليس هنا! ليس بهذه الطريقة».

- «ماذا تقولين يا أشيما»؟

«عليك أن تُنهي دراستك بأسرع ما يمكن»، للمرة الأولى تقول

أشيما باندفاعٍ: «أقول إنني لا أرغب بتربية غوغول وحدي في هذا البلد. لا يجوز ذلك. أريد أن أعود إلى الوطن». ينظر أشوك إلى أشيما، فيرى وجهها النحيل وملامحها التي باتت أكثر حدة مما كانت عليه في عرسهما، فيدرك أشوك أن حياتها هنا في كيمبردج قد أثرت عليها سلباً. مراتٍ عدة، وعند عودته من الجامعة، وجد أشوك أشيما مستلقيةً على الفراش تقرأ رسائل والديها مرةً أخرى وتبدو كئيبة. وعندما كان يشعر ببكائها الصامت في الصباح الباكر، كان يحضنها، لكنه لم يستطع التفكير في أي شيء يقوله لها، بل شعر أنه المخطئ الوحيد لزواجه بها وإحضارها هنا. يتذكر أشوك فجأةً غوش؛ رفيقه في القطار، الذي ترك إنجلترا لأجل زوجته. اعترف غوش لأشوك، قبل وفاة الأول بساعاتٍ قليلةٍ، قائلاً: «لقد ندمت ندماً ذريعاً لعودتي من هناك».

نقرةٌ لطيفةٌ على الباب تقاطع أشوك وأشيما. حضر ألان وجودي وآمبر وكلوفر لرؤية الطفل. تحمل جودي طبقاً غطته بقطعة قماش مزركشةٍ بمربعات متعددة الألوان وقالت لأشيما إنها أعدت لها فطيرة البروكلي. يضع ألان على الأرض كيس قمامة، لكنه يحتوي على ملابس آمبر وكلوفر عندما كانتا طفلتين رضيعتين، ثم ينزع السدادة عن زجاجة شمبانيا جلبها معه. يتطاير بعض المشروب الرغوي على الأرض، ثم يسكبه في أكواب كبيرة الحجم. يرفع الجميع أكوابهم ليشربوا نخب غوغول، أما أشوك وأشيما فيتظاهران بارتشاف القليل من المشروب. تندفع كلتا الفتاتين نحو أشيما، فتجلسان إلى جانبيها، وتشعران بالسعادة عندما تمدان أصابعهما للطفل فيمسك بهما بيده. تأخذ جودي الطفل من

حضن أشيما، ثم تتودد إليه بصوتٍ حنونٍ فتقول: «مرحباً أيها الوسيم»، ثم تتوجه بالحديث إلى ألان: «آهٍ يا ألان، دعنا ننجب طفلاً آخر». يعرض ألان على أشوك أن يحضر مهد الطفل من القبو، فيقوم كلاهما بتركيبه ووضعه في الحيز المتوافر بجانب فراش أشيما وأشوك. يخرج أشوك إلى المتجر الموجود على ناصية الشارع، ويعود بعلبة حفاضات للطفل لتحل محل صور عائلة أشيما بالأبيض والأسود، المبروزة، والموضوعة على التسريحة. تقول جودي لأشيما: «استغرق طهي الفطيرة عشرين دقيقة، فلقد حضرتها عند الساعة الثالثة وخمسين دقيقة»، ثم يضيف ألان: «إذا احتجت شيئاً، ما عليك سوى الصياح».

بعد مضي ثلاثة أيام، عاد أشوك إلى كُلِّيته؛ إم. آي. تي، وألان إلى جامعة هارفارد، وآمبر وكلوفير إلى المدرسة. أما جودي فعادت إلى عملها في الجمعية النسائية كالعادة، وظلت أشيما مع غوغول وحدهما للمرة الأولى في المنزل الذي ساده الهدوء. تعاني أشيما من قلة النوم، وكان الوضع أسوأ بكثير من معاناتها عندما سافرت بالطائرة للمرة الأولى. جلست أشيما في حجرة المعيشة على أحد الكراسي المثلثة الشكل، بالقرب من النافذة ذات الأوجه الثلاثة، وبكت طوال النهار. وبينما كانت أشيما تطعم الطفل وتربت على ظهره لينام، أخذت في البكاء، حتى إنها بكت مع طفلها عندما كان يستيقظ فيبكي جوعاً. بكت أشيما بعد زيارة ساعي البريد للمنزل لعدم ورود رسائل من كلكتا، وبكت كذلك عندما كانت تهاتف أشوك في الكلية فلا يرد على الهاتف. في أحد الأيام بكت أشيما عندما ذهبت إلى المطبخ لتعد العشاء، واكتشفت أن

الأرز قد نفد، ثم ذهبت إلى الدور العلوي، وقرعت الباب وطلبت من جودي بعض الأرز، فقالت الأخيرة: «تفضلي، خذي ما تشائين»، لكن الأرز الذي احتفظت به جودي في علبةٍ صغيرةٍ كان بني اللون. اغترفت أشيما كوباً واحداً بدافع اللباقة، لكنها عندما ذهبت إلى شقتها ألقته في القمامة. هاتفت أشوك في الكلية لتطلب منه أن يشتري قليلاً من الأرز قبل عودته إلى المنزل، وعندما لم يجبها هذه المرة، قامت فغسلت وجهها وسرحت شعرها وبدلت ثيابها وثياب الطفل، ثم وضعته في العربة ذات اللون الأزرق الداكن والدواليب البيضاء التي ورثتها من ألان وجودي. خرجت أشيما برفقة غوغول للمرة الأولى، فدفعت العربة في شوارع كيمبردج حيث كان الجو منعشاً، وتوجهت إلى سوبرماركت بيورتي سوبريم لتشتري كيساً من أرز البسمتي الأبيض. استغرقت الرحلة فترةً زمنيةً أطول مما اعتادته، فقد استوقفها أشخاصٌ غرباء، جميعهم أمريكيون، بشكل متكرر في الشارع وفي ممرات المتجر وعلى نحوٍ مفاجئ ليهنئوها بالمولود الجديد. دفعهم الفضول إلى النظر داخل عربة الطفل باستحسانٍ شديدٍ، والتساؤل: «صبي أم بنت»؟ و«كم عمره»؟ و«ما اسمه»؟

بدأت أشيما تتفاخر بطفلها كما لو كان إنجازها هي وحدها، وبابتكارها أسلوب حياةٍ جديداً، وكما ينشغل أشوك طوال الأسبوع في التدريس والبحث وكتابة أطروحته، فلديها الآن ما يشغلها تماماً مكرسةً نفسها وكل طاقتها لطفلها. قبل مولد غوغول لم تمض أيامها حسب نمطٍ مرئي معين. كانت تقضي ساعاتٍ في الشقة، فتأخذ قيلولةً حيناً، ثم تعبس

حيناً آخر، وتستلقي على الفراش لتقرأ الروايات البنغالية الخمس نفسها مرةً أخرى. لكن النهار الآن سرعان ما ينقضي ليحل المساء، فتقضي الساعات ذاتها مع غوغول تمشي الهوينى من غرفة إلى أخرى، والطفل بين ذراعيها. تستيقظ الآن عند الساعة السادسة صباحاً، وترفع الطفل من سريره لترضعه، ثم تضعه على سريرهما، بينهما، لتقضي هي وأشوك النصف ساعة التالية في التعبير عن إعجابهما بهذا الشخص الصغير الحجم الذي أنجباه. تعد أشيما العشاء بين الساعة الحادية عشرة والواحدة؛ عادةٌ ستحافظ عليها عقداً من الزمان. تصحب أشيما غوغول بعد الظهر في نزهةٍ خارج المنزل، فتتجول في الشوارع صعوداً ونزولاً، لتشتري بعض حاجياتها أو تجلس في باحة هارفارد، وأحياناً تلقى أشوك، فيجلسان على أحد المقاعد في حرم الجامعة، ليتناول بعض السمبوسة التي أعدتها في المنزل وشاياً ساخناً احتفظت به داخل الترموس. وعندما تحدق أشيما في وجه طفلها، بين الحين والآخر، ترى بعض الشبه بينه وبين عائلتها؛ فترى فيه عيني والدتها البراقتين، وشفتي والدها الرفيعتين، وابتسامة شقيقها العشوائية الشكل. اكتشفت أشيما وجود متجرٍ يبيع خيوطاً صوفيةً، فبدأت غزل ملابس لفصل الشتاء القادم لغوغول، وصنعت له ستراتٍ وبطانياتٍ وقفازاتٍ وقبعاتٍ صوفية. تقوم أشيما كل بضعة أيام بمنح غوغول حماماً في حوض البرسلان الموجود في المطبخ، وتقص أظافر يديه ورجليه كل أسبوع. تصحب أشيما غوغول بعربته إلى عيادة طبيب الأطفال ليحصل على مطعومه، لكنها تبقى خارج الحجرة وتسد أذنيها. في أحد الأيام أحضر أشوك آلة تصويرٍ فورية إلى المنزل لتصوير

غوغول، وعندما حان موعد قيلولة غوغول قامت أشيما بلصق الصور الفوتوغرافية المربعة الشكل ذات الأطر البيضاء والخلفيات البلاستيكية في ألبوم الصور، وكتبت بعض التعليقات على قصاصات من شريطٍ لاصق. عندما تهدهده أشيما لينام، تغني له الأغاني البنغالية نفسها، التي كانت والدتها تغنيها لها، وتتنشق أشيما عبير جسد غوغول الحليبي العذب ورائحة نَفَسه التي بدت أقرب إلى الزبدة. في أحد الأيام داعبت أشيما طفلها فرفعته إلى الأعلى فوق رأسها، وابتسمت له وفتحت فمها، فإذا بحليبٍ غير مهضوم يتدفق من فم غوغول إلى فمها. ستتذكر أشيما بقية حياتها شعورها بالصدمة من مذاق ذلك الحليب الحامض الدافئ، الذي جعلها غير قادرة على ابتلاع أي شيء طوال اليوم.

تدفقت الرسائل من والديها ووالدي أشوك وعماتها وخالاتها وأعمامها وأخوالها وأبناء عمومتها، من الجميع على ما يبدو، ولكن ليس من جدتها. زخرت الرسائل بمباركة العائلة وأمنياتها الطيبة، وكُتبت بلغةٍ عرفها كل من أشوك وأشيما طوال حياتهما، وكانت تحيط بهما في كل مكان؛ على لوحات الإعلان، وفي الصحف، وحتى على ظلال المباني والمحال التجارية، لكنها لا تظهر الآن سوى في هذه الرسائل الثمينة المكتوبة على ورقٍ لونه أزرق فاتح. أحياناً تتلقى أشيما رسالتين في الأسبوع الواحد. في أحد الأسابيع تلقت أشيما ثلاث رسائل. كعادتها، تظل أشيما تترقب وصول ساعي البريد بين الساعة الثانية عشرة والواحدة، وتُنصت بحذرٍ لتسمع وقع أقدامه على الشرفة، ثم صوت القرقعة الخفيف الذي يُحدثه انزلاق الرسالة من الشق المخصص للبريد

أسفل الباب. تتميز حواشي رسائل والديها- وتتكون هذه الرسائل دائماً من فقرةٍ تكتبها والدتها على عجل كما يُرى من خطها، ثم تليها فقرةٌ يكتبها والدها بخطه المنمق الأنيق- برسومات حيواناتٍ، إذ يقوم والد أشيما بشكلٍ متكررٍ بزخرفة الرسائل بهذه الطريقة، ثم تقوم أشيما بلصق هذه الرسومات على الحائط فوق سرير غوغول. تقول والدتها في إحدى الرسائل: «لا نطيق صبراً حتى نراه»، وتضيف: «تذكري أن هذه الأشهر حاسمةٌ ومهمةٌ، ففي كل ساعةٍ ستلاحظين تغيراً ما». تردُّ أشيما على رسائل والديها، فتكتب وصفاً دقيقاً لكل ما يتعلق بغوغول. فعلى سبيل المثال، تصف أشيما ابتسامته الأولى، واليوم الذي تمكن فيه من التشقلب، و أولى صرخاته الضاحكة. تخبر أشيما والديها كذلك أنهما يوفران المال حتى يتمكنا من زيارتها في كانون الأول القادم عندما يكون غوغول قد أكمل السنة الأولى من عمره (لا تذكر أشيما في رسائلها تحذير طبيب الأطفال من الأمراض المنتشرة في المناطق الاستوائية، فرحلةٌ إلى الهند تتطلب مجموعةً كاملةً من المطاعيم الجديدة).

أُصيب غوغول في تشرين الثاني بالتهابٍ بسيطٍ في الأذن. عندما رأى أشوك وأشيما اسم الدلال الخاص بابنهما مطبوعاً على وصفةٍ طبيةٍ لمضادٍ حيوي، وأعلى سجله الطبي الخاص بالمطاعيم التي تلقاها، اعتقد كلاهما أنه أمرٌ لا يجوز، فاسم الدلال ليس بالملكية العامة. لكن، لم تصل أي رسالةٍ من جدة أشيما حتى اللحظة، لذلك خلص الاثنان إلى أن الرسالة ضاعت في البريد بالتأكيد. قررت أشيما أن تكتب إلى جدتها لتشرح لها الوضع وتطلب منها إرسال رسالةٍ أخرى تحتوي على الأسماء المقترحة

من قِبلها، إلا أن رسالةً وصلت في اليوم التالي إلى كيمبردج. على الرغم من أن الرسالة كانت من والد أشيما، فإن الحواشي لم تُزين برسوماتٍ لفيلةٍ أوببغاواتٍ أونمورٍ. يعود تاريخ الرسالة إلى ثلاثة أسابيع مضت، ومنها علم أشوك وأشيما أن الجدة قد أُصيبت بجلطة دماغية وأن جانبها الأيمن مشلولٌ بشكلٍ دائمٍ وأن تلفاً قد أصاب الدماغ. باتت الجدة غير قادرةٍ على مضغ الطعام، ولا تكاد تستطيع ابتلاعه أوتذكُّر الثمانين عاماً من حياتها العجيبة. كتب والد أشيما يقول: «هي معنا الآن، ولكننا، لأكون صادقاً، فقدناها بالفعل. فكوني جاهزةً يا أشيما لحقيقة أنك لن تريها مجدداً».

كانت تلك أولى الأخبار السيئة التي تصل من الوطن. يكاد أشوك لا يعرف جدة أشيما أو يتذكر لمس قدمها خلال حفل الزفاف، إلا أن أشيما شعرت بحزنٍ شديدٍ عدة أيام، ولم تجد ما يعزيها. وبينما تموت أوراق الأشجار وتسقط أرضاً ويحل الظلام سريعاً بلا رحمةٍ أو شفقةٍ، تجلس أشيما في المنزل مع غوغول وتفكر في المرة الأخيرة التي رأت فيها جدتها؛ ديدا (her dida)، قبل سفرها إلى بوسطن بأيامٍ قليلةٍ. ذهبت أشيما حينها لزيارة جدتها، وبهذه المناسبة دخلت الجدة المطبخ لتطهو لأشيما يخنة البطاطس بلحم الماعز بعد أن كانت هجرت المطبخ أكثر من عقدٍ من الزمان. أطعمت الجدة أشيما الحلوى بيديها. وعلى النقيض من والدي أشيما وأقارب لها آخرين، لم تلم الجدة أشيما أو تمنعها من أكل لحم البقر، أو لبس التنانير، أو قص شعرها، أو حتى نسيان عائلتها لحظة وصولها إلى بوسطن. لم تخش الجدة علامات انعدام الوفاء والإخلاص تلك، فلقد

كانت الجدة الشخص الوحيد الذي أصاب في تنبوئه أن أشيما لن تتغير مطلقاً. وقفت أشيما، قبل مغادرة منزل الجدة، وقد خفضت رأسها تحت صورة جدها الراحل تطلب منه مباركة رحلتها، ثم انحنت إلى الأسفل لتلمس قدمي جدتها وصعوداً حتى رأسها.

قالت أشيما: «جدتي، أنا قادمة»؛ كانت تلك العبارة التي يستخدمها البنغال عوضاً عن عبارة «الوداع».

«استمتعي»، قالت الجدة بصوتٍ مدوٍ، ثم ساعدت أشيما على الاعتدال. بأيدٍ مرتجفةٍ، مسحت الجدة بأصابعها دموع أشيما المتدفقة على خدها. «قومي بكل ما لا أستطيع القيام به. سيكون أفضل ما تفعلين. تذكري كلماتي، والآن اذهبي». هكذا ودعت الجدة أشيما.

بينما يكبر الطفل، تتوسع حلقة معارف أشوك وأشيما من الأصدقاء البنغال. يتعرف كلاهما على عائلة ميتراس من خلال عائلة نانديي، التي تتوقع قدوم مولودها الجديد، وتقوم عائلة ميتراس بدورها بتعريف أشوك وأشيما على عائلة بانيرجيس. وبينما تدفع أشيما عربة غوغول في شوارع كيمبردج، يقترب منها عددٌ من الشباب البنغال غير المتزوجين دائماً، ويسألونها على استحياءٍ عن أصلها. وعلى غرار أشوك يعود هؤلاء الشباب إلى كلكتا ليتزوجوا، ثم يأتوا بزوجاتهم إلى كيمبردج. يبدو في عطلة نهاية كل أسبوع أن أشوك وأشيما يزوران بيتاً جديداً، ليتعرفا على زوجين أوعائلةٍ بنغاليةٍ شابةٍ جديدةٍ. جاء هؤلاء جميعاً من كلكتا، ولهذا السبب تحديداً أصبحوا أصدقاء. يعيش معظمهم في كيمبردج على بُعد بضع خطوات سيراً على الأقدام بعضهم من بعض. الأزواج

معلمون وباحثون وأطباء ومهندسون، أما الزوجات، اللواتي يشعرن بالحنين إلى الوطن والارتباك، فيلجأن إلى أشيما للحصول على وصفات طعامٍ ونصائح، فتخبرهن بدورها عن سمك الشبوط الذي يُباع في الحي الصيني، وأنه لا يمكن إعداد طبق الحلوى البنغالي من عصيدة الحنطة الأمريكية. تتزاور العائلات بعد ظهر أيام الأحد، ويشربون الشاي المُحلى بالسكر مع الحليب المركز، ويتناولون شرائح الربيان المقلية. وبينما يجلسون في حلقاتٍ على الأرض ويرددون أشعار ناظرول وطاغور[1]، ويتداولون مجلداً لأشعارهما الغنائية، يعزف ديليب ناندي على آلة الهارمونيا. وبالإضافة إلى ذلك، يدور بينهم جدلٌ صاخبٌ حول الأفضل: أفلام ريتويك غاتاك أو ساتياجيت راي، الحزب الشيوعي الهندي أوالكونغرس الهندي، شمال كلكتا أوجنوبها، وهكذا. يتجادلون ساعاتٍ كذلك حول سياسة أمريكا؛ تلك الدولة التي لايُسمح لهم فيها بالتصويت.

عندما بلغ غوغول ستة أشهر في شباط، كان أشوك وأشيما يعرفان عدداً كافياً من الأشخاص ليقضيا وقتاً ممتعاً بشكلٍ ملائم. حان كذلك أوان الاحتفال بتناول غوغول وجبة الأرز الأولى[2]، إذ لا يُعَمَّد الأطفال البنغال. في الثقافة البنغالية، لا يُوجد مثل هذا الطقس الذي ينضوي على

(1) Kazi Nazrul Islam وRabindranath Tagore: شاعران وطنيان استخدما الأدب والشعر والخطب كوسيلة لنشر الوعي السياسي، وارتبط اسماهما بحركة استقلال الهند في مطلع العشرينيات، وتحولت معظم أشعارهما إلى أغان رددها الكثيرون. (المترجم)

(2) Annaprasan: أحد الطقوس الهندوسية التي يحتفل فيها الوالدان بتناول الطفل الرضيع أول وجبة غير الحليب، وتكون غالباً وجبة أرز، ويَحضرها راهب عادة، وتُعرف حرفياً باحتفال «تناول الطعام» food feeding. (المترجم)

منح الطفل اسماً أمام أعين الرب. وعوضاً عن ذلك، يتمركز الطقس الأول في حياة الطفل حول قدرته على هضم الطعام الصلب. يطلب أشوك وأشيما من ديليب ناندي أن يلعب دور شقيق أشيما ليحمل غوغول ويطعمه الأرز؛ الوجبة الرئيسة التي يقتات عليها البنغاليون، للمرة الأولى. تُلبِس أشيما غوغول الملابس الخاصة بالمناسبة- بجامة على شكل بنجابي، لونها أصفر فاتح أرسلتها جدته من كلكتا- فبدا مثل عريسٍ صغيرٍ. مازالت رائحة بذور الكمون التي أرسلتها والدة أشيما في الطرد ذاته عالقةً في البجامة. تصنع أشيما غطاءً لرأس غوغول من الورق وتزينه بورق الطبخ المعدني (ورق القصدير)، ثم تثبته حول رأسه بالخيط. يرتدي غوغول حول عنقه سلسلةً ذهبيةً من عيار أربعة عشر. تزين أشيما جبهة غوغول الصغيرة بعناءٍ شديدٍ بستة أقمار صغيرةٍ للغاية، لونها قشدي، رسمتها بمعجون لحاء خشب الصندل، أعلى حاجبيه. ثم كحّلت عينيه بلمسةٍ من الكحل. يتململ الطفل في حجر خاله الفخري، الذي جلس على الأرض فوق غطاء السرير، يحيط به الضيوف من كل جانب؛ من الأمام والخلف والجانبين. جهزت أشيما الطعام ووضعته في عشر زبدياتٍ مختلفةٍ. تشعر أشيما بالأسف لأن الطبق الذي ملأته بالأرز مصنوعٌ من الميلامين وليس من الفضة أو النحاس، أو على الأقل، من الستينليس ستيل. يحتوي الطبق الأخير على حلوى الأرز بالحليب الدافئ، الذي ستعده أشيما لغوغول كي يأكله في كل احتفالٍ بعيد مولده كطفلٍ، وحتى كشخصٍ بالغٍ، إلى جانب قطعة من الكيك الجاهز.

يلتقط أشوك وأصدقاؤه صوراً لغوغول، الذي بدا عابساً باحثاً عن

وجه والدته بين الحشد، إلا أن أشيما تنشغل بتجهيز البوفيه. ترتدي أشيما سارياً ذهبي اللون أهدته إياها والدتها بمناسبة زفافها، للمرة الأولى، وتحته بلوزة وصلت أكمامها حتى نهاية الكوع. أما والده فيرتدي قميص بنجابي فوق بنطالٍ يتسع من الركبة حتى الأسفل (شارلستون). تُحضر أشيما أطباقاً ورقية، لكنها تضع كل ثلاثة أطباقٍ معاً، لتتحمل وزن البرياني وقطع سمك الشبوط المطبوخ بيخنة اللبن ويخنة الحبوب المجففة وأطباق الخضار الستة المختلفة، التي قضت الأسبوع الماضي بأكمله في تحضيرها. سيتناول الضيوف طعامهم وقوفاً أومتربعين على الأرض. قام أشوك وأشيما بدعوة ألان وجودي من الطابق العلوي فجاءا بمظهرهما المعتاد، وقد ارتديا جينزاً وسترةً صوفيةً سميكةً، فلقد كان الجو بارداً، وصندلاً جلدياً فوق جوارب صوفية. تقع عينا جودي على البوفيه، فتتذوق بعض الطعام الذي تبين لها أنه شرائح ربيان مقلية، ثم تهمس في أذن ألان قائلة: «اعتقدت أن الهنود نباتيون»!

بدأت عملية إطعام غوغول أقل ما يمكن من الطعام. لا يتوقع أحدٌ أن يتناول غوغول سوى مقدارٍ ضئيلٍ جداً من الأرز وبعض اليخنة، فالهدف تعريفه بعملية استهلاك الأطعمة التي ستستمر طوال حياته، وعبر هذه الوجبة الأولى، يتم تقديمه للعديد من الأطباق التي سيتناولها ولعله لن يتذكرها فيما بعد. وبينما تبدأ المراسم، تزغرد بعض النساء. يطرق الحضور الموجودون داخل الحجرة طرقاً خفيفاً على صدفة تداولوها، ولكن لا يتمكن أيٌّ منهم من جعلها تُصدر صوتاً. تمسك أشيما وأشوك بقليل من العشب ومصدر ضوءٍ بسيط عبارة عن شعلةٍ

ثابتةٍ، بالقرب من رأس غوغول. يبدو أن ما يدور حول غوغول قد أسره، فظل ساكناً ولم يلتفت مطلقاً، بل كان مطيعاً وتذوق كل ما قُدِّم له. يتناول غوغول ثلاث ملاعق من الأرز المحلى بالحليب. تدمع عينا أشيما، في حين يرحب غوغول بشغفٍ بالملعقة التي تقترب من فمه. لا تملك أشيما إلا أن تتمنى لو كان شقيقها موجوداً بالفعل ليطعم غوغول، ووالداها ليباركاه فيمسحا رأسه بيديهما. والآن، المشهد الأخير؛ اللحظة التي انتظرها الجميع. يُعرض على غوغول طبقٌ يحتوي على حفنةٍ من تراب كيمبردج البارد أحضره أشوك من الباحة الخلفية للمنزل، وقلم حبر كروي الرأس، ودولار واحد، للتنبؤ بمستقبله؛ أي لمعرفة إن كان سيصبح مالك أراضٍ أو باحثاً أو رجل أعمال. يُمسك معظم الأطفال بشيء واحد عادةً، وأحياناً يمسكون بالأشياء كلها، إلا أن غوغول لا يلمس أياً منها. لا يُبدي غوغول أي اهتمامٍ بالطبق، بل يُشيح بنظره بعيداً، ويدسُّ وجهه في كتف خاله الفخري.

«ضع المال في يده»، يصيح أحد الحاضرين، «لا بد أن يكون الصبي الأمريكي ثرياً». يعترض والد الطفل قائلاً: «لا! القلم! أمسك بالقلم يا غوغول! ينظر غوغول إلى الطبق متشككاً. تحوم عشرات الرؤوس فوق الطفل مترقبةً اختياره. يتسبب نسيج البجامة التي يرتديها غوغول بحكة له.

«هيا، غوغول. خذ شيئاً»! يقول ديليب نandi، وهو يُقرِّب الطبق من غوغول. يعبس غوغول، وتبدأ شفته السفلى بالارتجاف، ثم يبدأ في البكاء، فهو لم يتجاوز الستة أشهر من عمره، وقد أُجبر على مواجهة مصيره.

يمر شهر آبٍ آخر. أكمل غوغول العام الأول من عمره، وأصبح الآن يمسك بالأشياء، ويخطو خطواته الأولى، كما أنه يردد بعض الكلمات باللغتين الهندية والإنجليزية. ينادي والديه فيقول «ماما» و«بابا». إذا نادى شخصٌ ما في الحجرة قائلاً «غوغول»، تجده يلتفت في الحال ويبتسم. يخلد غوغول إلى النوم خلال الليل وفي الفترة الواقعة مابين الظهيرة والساعة الثالثة بعد الظهر. أصبح لديه الآن سبع أسنان. يحاول غوغول بشكلٍ مستمرٍ أن يضع قصاصات الورق والخيطان وكل ما يجد على الأرض في فمه. يخطط أشوك وأشيما لرحلتهما الأولى إلى كلكتا في كانون الأول خلال إجازة أشوك الشتوية. تلهمهما الرحلة المرتقبة التفكيرَ في اسمٍ ملائمٍ لغوغول حتى يتمكنا من التقدم بطلبٍ للحصول على وثيقة سفرٍ لطفلهما. يلجأ كلاهما إلى أصدقائهما البنغال للمزيد من الاقتراحات. يكرس أشوك وأشيما ليالي طويلة للتفكير في هذا الاسم أو ذاك، إلا أنهما لا يستحسنان أياً منها. تخلى كل من أشيما وأشوك عن فكرة وصول رسالة جدة أشيما أو حتى تذكرها للاسم الذي اختارته للطفل، فلقد علمت أشيما أن جدتها لا تستطيع حتى أن تتذكرها. ستكون الرحلة إلى كلكتا بعد أربعة أشهر. تأسف أشيما لعدم مقدرتهم على السفر في وقتٍ مبكرٍ لحضور مهرجان الآلهة دُرغا[1]، فلن

(1) دُرغا: تعني بالسنسكريتية «التي لا تقهر أو لا يمكن الوصول إليها»، وتسمى أيضا **مادورگا**؛ أي الأم دُرْغا، وهي الإلهة العليا في الهندوسية، وتعتبر أم غانيش وساراسواتي ولاكشمي، وهي أيضاً الوجه القوي المحارب للشياطين لبارافاتي زوجة شيفا، لذلك ترسم بعشر أذرع، وتركب الأسد أوالنمر، وتحمل أسلحة، وتعتبر تجسد الطاقة الأنثوية الخلاقة. (المترجم)

يحصل أشوك على إجازة التفرغ العلمي إلا بعد مضي أعوام، وفي الوقت الحاضر، لن يتمتعا سوى بإجازةٍ لا تتجاوز ثلاثة أسابيع.

في إحدى المرات، وبينما تقف الاثنتان عند حبل الغسيل، توضح أشيما الأمر لجودي فتقول: «الأمر أشبه بالعودة إلى الوطن بعد انقضاء عطلة عيد الميلاد الخاصة بكم ببضعة أشهر»، فتجيب جودي موضحةً إنها وألان بوذيان.

تنسج أشيما بسرعةٍ فائقةٍ كنزاتٍ صوفية دون أكمام لوالدها وحماها وشقيقها وأعمامها الثلاثة المفضلين لديها. تشابهت جميع الكنزات، فالياقة على شكل حرف «v»، ولون الصوف أخضر مائل إلى الزرقة، واستخدمت سنارة رقم 9، وجعلت لها شكل الغرزة نفسه، فكل خمس غرز تقابلها غرزتان معكوستان (مقلوبتان). إلا أن سترة والدها اختلفت عن الأخريات، فلقد استخدمت أشيما ما يُعرف بغرزة الحبة المزدوجة، وزيَّنتها بجدلتين سميكتين جعلت على إحداهما أزراراً، فوالدها يفضل الكنزات الصوفية المفتوحة من الأمام (كارديغان) على البلوفر. ولا تنسى أشيما أن تجعل لسترة والدها جيوباً يضع فيها أوراق اللعب التي يحملها دائماً معه، فهو يرغب في لعب السوليتير[1] في كل الأوقات، ودون سابق إنذار. وبالإضافة إلى الكنزة الصوفية، ابتاعت أشيما لوالدها ثلاث فراشٍ للتلوين مصنوعة من شعر حيوان السمور، من جمعية هارفارد

(1) السوليتير: لعبة فردية، حيث لا وجود لتضارب مصالح حقيقية، لأن المصلحة الوحيدة هنا هي مصلحة اللاعب الفردي نفسه، وفي هذه اللعبة فإنَّ الحظ هو بنية اللعبة الأساسية، وذلك اعتماداً على خلط الأوراق وما امتلكه اللاعب من أوراق جيدة وزعت عليه عشوائياً. (المترجم)

كوب التعاونية، واختارت الأحجام التي طلبها والدها عبر البريد. وعلى الرغم من أنها كانت باهظة الثمن للغاية، أكثر من أي شيء ابتاعته في أمريكا، فإن أشوك لم يُعلِّق عندما رأى الفاتورة. ذهبت أشيما في أحد الأيام إلى وسط مدينة بوسطن التجاري لتتسوق، فقضت ساعاتٍ في قبو متجر جوردان مارش، وهي تدفع عربة غوغول، حتى أنفقت كل ما لديها من مال. ابتاعت أشيما ملاعق صغيرة مختلفة الشكل، وأغطية وسائد قطنية، وشموعاً ملونة، وقطع صابون مثبتة بحبال خاصة[1]. ابتاعت أشيما من الصيدلية أيضاً ساعةً من طراز تايمكس لحماها، وأقلام حبر جاف بيك لأبناء عمها، وخيوط تطريز وكشتباناتٍ لوالدتها وعماتها وخالاتها. في طريق العودة إلى المنزل، شعرت أشيما بالبهجة، لكنها كانت منهكةً ومتوترةً أيضاً، لأنها توقعت أن تكون رحلتها بالقطار شاقةً. كان القطار مزدحماً، فاضطرت في بادئ الأمر إلى الوقوف، وحاولت جاهدةً حمل جميع الأكياس والإمساك بعربة غوغول والتمسك بمقبض الركاب المتدلي فوق رأسها، إلى أن سألتها فتاةٌ صغيرةٌ إن كانت ترغب في الجلوس. شكرتها أشيما، فجلست وقد شعرت بالامتنان تجاه الفتاة، ثم دفعت بالأكياس خلف قدميها لتحافظ عليها. وبينما يغفو غوغول، تشعر أشيما بالنعاس فتميل برأسها على النافذة، وتغمض عينيها وتفكر بالوطن. تتخيل أشيما ما كتبته والدتها في إحدى رسائلها عن فقدان والدها أحد أسنانه نتيجة وقوعه مؤخراً عن الدرج. تحاول أشيما أيضاً

(1) نوع من الصابون المثبت حرفياً بحبل قصير يُلف حول الرسغ لمنع الصابون من الانزلاق في أثناء الاستحمام. (المترجم)

تصور شعورها عندما تعجز جدتها عن تذكرها.

عندما تفتح أشيما عينيها، تدرك أن القطار قد توقف عند محطتها المنشودة، وترى الأبواب مفتوحة. تقفز أشيما وقلبها يخفق بسرعة. «معذرةً!» تقول أشيما، وهي تدفع عربة غوغول وجسدها عبر أجساد الركاب المتلاصقة. وبينما تحاول جاهدةً أن تشق طريقها، وكانت على وشك العبور باتجاه الرصيف، يناديها أحد الركاب قائلاً: «سيدتي، حاجياتك!» وحين أدركت أشيما خطأها، كانت أبواب القطار مغلقةً بإحكام، وبدأ القطار يسير ببطء مبتعداً. وقفت أشيما تراقب عربة القطار حتى اختفت داخل النفق، ولم يتبق سواها وغوغول على الرصيف. دفعت أشيما عربة طفلها عائدةً إلى شارع ماساتشوسيتس وبكت بحرقةٍ، لأنها أدركت أنها لا تتحمل كلفة شراء الحاجيات ذاتها من جديد. ظلت غاضبةً طوال فترة ما بعد الظهيرة، وتخيلت شعورها بالخزي عند وصولها إلى كلكتا خالية الوفاض باستثناء السترات التي حاكتها وفراشي الألوان التي ابتاعتها لوالدها. عندما وصل أشوك إلى المنزل هاتف سلطة خليج ماساتشوسيتس للنقل (MBTA)[1]- قسم المفقودات، وفي اليوم التالي أُعيدت جميع أكياس التسوق، ولم تفقد أشيما أياً من مشترياتها، ولا حتى ملعقةً واحدة. لقد جعلت هذه المعجزة أشيما تشعر بارتباطها بكيمبردج بصورةٍ لم تعهدها من قبل؛ شعورٌ بالاندماج مع كل ما فيها من استثناءات وقوانين أيضاً. الآن أصبح لدى أشيما حكاية تقصها في حفلات العشاء. يستمع أصدقاؤها لما جرى ويشعرون

(1): The Massachusetts Bay Transportation Authority

بالذهول لحظِّها الوافر، وتُعلق مايا ناندي قائلةً: «في هذا البلد فقط، يحدث مثل ذلك».

في إحدى الليالي، وبعد فترة وجيزة من هذه الحادثة، عندما كانت العائلة غارقةً في النوم، دق جرس الهاتف. استيقظ أشوك وأشيما في الحال، وخفق قلباهما ذعراً وكأنهما رأيا الكابوس عينه. أدركت أشيما حتى قبل أن يجيب أشوك أنها مكالمةٌ من الهند. طلبت عائلة أشيما في رسالة أرسلوها قبل بضعة أشهر، رقم هاتفها في كيمبردج، وقد أرسلت الرقم على مضض لأنها تدرك أنه سيكون وسيلةً لنقل الأخبار السيئة لها. وبينما يجلس أشوك ويلتقط سماعة الهاتف ويجيب بصوتٍ ضعيفٍ منهك، تُجهِّز أشيما نفسها لاستقبال الأسوأ. تُنزل أشيما قضبان السرير لتُهدِّئ غوغول الذي أزعجه صوت الهاتف، فبدأ يتململ، وتبدأ مراجعة الحقائق في عقلها. فجدتها في الثمانين من عمرها، طريحة الفراش تعجز عن الحديث أو الأكل، وتعاني أمراض الشيخوخة، لكنها لم تخرف بعد. لقد كانت الأشهر الأخيرة من حياة جدتها، حسب أحدث رسالةٍ تلقتها أشيما من والديها، مؤلمةً بالنسبة إلى جدتها وكل من يعرفها؛ لم تكن طريقةً ملائمةً للحياة. تخيلت أشيما والدتها تقول هذه الكلمات بصوتٍ رقيقٍ عبر هاتف جارتها، وهي تقف في حجرة المعيشة في بيت الجارة. تُحضِّر أشيما نفسها للخبر الحزين، وتقبل حقيقة أن غوغول لن يرى جدته الكبرى، التي منحته اسمه المفقود!

أصبحت الحجرة باردةً على نحوٍ غير مريح. تحمل أشيما غوغول وتعود إلى السرير ويندس كلاهما تحت البطانية. تضم أشيما الطفل إلى

صدرها بشدة، وكأنما تستمد منه القوة. تفكر أشيما في السترة الصوفية القشدية اللون التي ابتاعتها لجدتها، وها هي تقبع في كيس التسوق داخل الخزانة. تسمع أشيما أشوك يتحدث بصوتٍ جادٍ ومرتفعٍ، حتى إنها تخشى أنه سيُوقظ ألان وجودي في الطابق العلوي، قائلاً: «نعم، حسناً. فهمت. لا تقلق. بالطبع، سأفعل». يصمت أشوك قليلاً، ينصت، ثم يتوجه بالحديث إلى أشيما وقد وضع يده على كتفها فيقول: «يرغبون بالتحدث إليك». يناولها سماعة الهاتف في الظلام، ثم يغادر السرير بعد لحظة تردد.

تمسك أشيما بالهاتف لتسمع الأخبار بنفسها ولتعزي والدتها. لا يسع أشيما إلا أن تتساءل من سيعزيها عند وفاة والدتها إذا تلقت الخبر بالطريقة نفسها في منتصف الليل، لينتزعها من أحلامها الجميلة. وعلى الرغم من خوف أشيما، فإنها شعرت بالبهجة، فتلك المرة الأولى التي تسمع فيها صوت والدتها منذ ثلاث سنين تقريباً. كانت تلك المرة الأولى، التي يناديها فيها أحدهم باسم الدلال الخاص بها: «مونو»، منذ مغادرتها مطار دمدم، ولكن لم تكن والدتها على الطرف الآخر من الهاتف، بل شقيقها رانا. بدا صوته ضعيفاً نحيلاً وكأنما يشق طريقه بصعوبة عبر سلك الهاتف، وتكاد لا تميزه عبر ثقوب السماعة. سألت أشيما أولاً عن الوقت في الهند في تلك اللحظة، واضطرت إلى إعادة السؤال ثلاث مراتٍ وحتى الصراخ ليتمكن رانا من سماعها. يخبرها شقيقها أنه حان موعد الغداء عندهم، ثم يسألها: «هل مازلت تخططين لزيارتنا في كانون الأول»؟ تشعر أشيما بألم في صدرها، فلقد تأثرت جداً لسماع شقيقها

يناديها «أختي الكبرى» بعد مرور كل هذا الوقت؛ فهوالوحيد المخول بمناداتها بهذا الاسم. في الوقت ذاته تسمع أشيما صوت المياه تجري في مطبخها، وصوت زوجها يفتح خزانة المطبخ ليُحضِر قدحاً. «بالطبع، سنأتي»، تقول أشيما، وتشعر بالاضطراب والانزعاج عند سماعها صدى صوتها مردداً جملتها بصوتٍ خافت غير مقنعٍ. «كيف حال الجدة؟ هل أصابها مكروه»؟ تتساءل أشيما.

«مازالت على قيد الحياة، ولكنها لم تتحسن»، أجاب رانا. تشعر أشيما بالراحة، فتستلقي على وسادتها. ستتمكن أشيما في نهاية المطاف من رؤية جدتها حتى وإن كانت للمرة الأخيرة. تُقبِّل أشيما جبهة غوغول، وتلمس خده بخدها.

«الحمد لله. دعني أتحدث لوالدتي»، تقول أشيما وقد تقاطع كاحلاها.

تشويش يتسبب بانقطاع صوت رانا فترة قصيرة، ثم يجيب: «إنها ليست في المنزل الآن».

- «وأبي»؟

يسود صمت قبل عودة صوته من جديد: «إنه ليس هنا».

«آه»! تتذكر أشيما فرق التوقيت، فلا بد أن والدها مايزال في العمل؛ في إحدى مكاتب مجلة ديش، وأمها في السوق تحمل كيس الخيش وتشتري خضراواتٍ وسمكاً.

- «كيف حال الصغير غوغول؟ هل يتحدث الإنجليزية فقط»؟ يتساءل رانا.

تضحك أشيما. «إنه لا ينطق بالكثير في الوقت الحاضر». أخبرت أشيما

رانا أنها تُعلِّم غوغول أن يقول «جدتي»، و«جدي»، و«خالي» بالهندية، حتى يتمكن من تمييزهم من خلال الصور الفوتغرافية. تشويشٌ آخر، أطول مما سبق، يقاطعها.

- «رانا! هل تسمعني»؟

«لا أستطيع سماعك يا أختي»، يقول رانا وقد أصبح صوته خافتاً جداً. «لا أسمعك، سنتحدث في وقت آخر».

«حسناً، في وقتً آخر، نراك قريباً، قريباً جداً، راسلني». تضع أشيما سماعة الهاتف، وقد شعرت بالانتعاش بعد سماع صوت أخيها، بعد لحظةٍ تشعر بالارتباك والانزعاج قليلاً. لَم تكبَّد رانا عناء الاتصال ليسأل سؤالاً إجابته واضحة؟ لماذا يهاتفها ووالداها غير موجودْين؟

يعود أشوك من المطبخ حاملاً كأساً مليئاً بالماء. يضع أشوك الكأس على الأرض ويضيء المصباح الصغير الموضوع بجانب السرير. وعلى الرغم من أن صوته مايزال ضعيفاً من التعب، يقول أشوك: «إنني مستيقظ».

- ترد أشيما: «وأنا كذلك».

- «ماذا عن غوغول»؟

- «عاد للنوم».

تنهض أشيما وتضع غوغول في سريره، وتشد البطانية لتغطي كتفيه ثم تعود لترقد في سريرها وهي ترتجف. «لا أفهم الأمر»، تهز أشيما رأسها، ومن تحتها ملاءة السرير المتجعدة. «لماذا تكبد رانا عناء الاتصال في هذه

اللحظة؟ إن المكالمات الهاتفية باهظة الثمن. إن الأمر لايبدومنطقياً».

تلف أشيما وجهها لتتحدث إلى أشوك: «ماذا قال لك بالتحديد»؟ يهز أشوك رأسه من جانب إلى آخر محاولاً إخفاء وجهه.

- «لقد أخبرك أمراً ترفض الإفصاح عنه، أخبرني ماذا قال لك»؟

يستمر أشوك في هز رأسه، يقترب منها ويضغط على يدها بقوة لدرجة أنه يؤلمها. يتمدد أشوك فوق جسدها الذي التصق الآن بالسرير ويجعل وجهه جانباً، وفجأةً يبدأ جسده بالارتجاف. يبقى أشوك على هذه الوضعية فترةً طويلة، فتتساءل أشيما إن كان سيطفئ المصباح ويبدأ بمداعبتها. عوضاً عن ذلك، يخبرها أشوك بما أخبره رانا قبل قليل؛ بما لم يطق رانا أن يخبر به شقيقته عبر الهاتف بنفسه؛ خبر وفاة والدها مساء البارحة بجلطةٍ قلبيةٍ وهو يلعب السوليتير فوق سريره.

غادر أشوك وأشيما إلى الهند بعد ستة أيام؛ أي ستة أسابيعٍ قبل الموعد المحدد. استيقظ ألان وجودي صباح اليوم التالي على نحيبٍ أشيما، ثم علما بالأمر من أشوك، فتركا مزهريةً مليئةً بالزهور بجانب الباب. لم يكن هناك متسع من الوقت خلال الأيام الستة للتفكير في اسمٍ ملائم لغوغول، لذلك يستصدر أشوك وثيقة سفرٍ مستعجلةٍ باسم «غوغول غانغولي»، حيث طُبع الاسم تحت ختم الولايات المتحدة الأمريكية، ووقَّع أشوك بالنيابة عن ابنه. قبل سفر أشيما بيومٍ واحدٍ، وضعت غوغول في عربته والسترة الصوفية التي نسجتها لوالدها وفراشي الألوان في كيس تسوقٍ وسارت إلى ميدان هارفارد باتجاه محطة المترو. تستأذن أشيما أحد المارة في الشارع فتقول: «عذراً، يجب أن أستقل القطار». يساعدها

الرجل في حمل عربة الطفل للنزول بها إلى رصيف المحطة حيث تنتظر. عند وصول القطار تركب أشيما في الحال، متوجهة إلى سنترال سكوير، متيقظةً للغاية، هذه المرة. لم يكن داخل عربة القطار سوى ستة أشخاصٍ، بعضهم اختبأت رؤوسهم خلف صحيفة الغلوب، أو طأطؤوا رؤوسهم ليقرؤوا كتباً ورقية الغلاف، أو حدَّقوا عبر أشيما، نحو الفراغ. وبينما تتباطأ سرعة القطار تقف أشيما قبل توقفه تماماً وتتجهز للنزول. لا تلتفت أشيما للوراء لتنظر إلى كيس التسوق الذي تركته متعمدةً بجوار مقعدها. بينما يغلق القطار أبوابه، تسمع أشيما أحدهم يقول: «يا هذا! لقد نسيت السيدة الهندية حاجياتها»، وبينما يتحرك القطار تسمع أشيما صوت قبضة أحدهم على زجاج النافذة ولكنها تتابع المسير وتدفع عربة غوغول عبر رصيف المحطة.

يتوجه أشوك وأشيما وغوغول في مساء اليوم التالي إلى لندن على متن إحدى طائرات شركة بان أميريكان، ثم يتوقفون خمس ساعات ليغادروا بعدها في رحلةٍ جديدةٍ عبر طهران ثم بومباي وأخيراً إلى كلكتا. وبينما ماتزال الطائرة على مدرج مطار بوسطن، ربطت أشيما حزام الأمان، ثم نظرت إلى ساعتها واستخدمت أصابعها لتحسب الوقت في كلكتا. لكن، لاتتراءى لها صورة عائلتها في مخيلتها هذه المرة. ترفض أشيما أن تتخيل ما ستراه بأم عينيها؛ أمها وقد أزالت علامة الزواج القرمزية اللون عن جبينها، وشقيقها وقد حلق شعره الكثيف معلناً الحداد. تبدأ دواليب الطائرة بالتحرك، فيرفرف جناحا الطائرة المعدنيان الضخمان بخفةٍ. تنظر أشيما إلى أشوك الذي يتفقد وثائق السفر وبطاقات الجرين كارد

الخاصة بهما. ثم تراقب أشيما أشوك يضبط ساعته استعداداً لوصولهم إلى الهند؛ يستقر عقربا الساعة الفضيان الباهتان في مكانهما الصحيح.

«لا أريد أن أذهب»، تستدير أشيما نحو النافذة البيضاوية الداكنة، ثم تقول: «لا أريد أن أراهم. لا أستطيع».

بينما تزداد سرعة الطائرة تدريجياً يضع أشوك يده فوق يديها. ترتفع الطائرة بسلاسةٍ فوق المحيط الأطلنطي المعتم فتختفي بوسطن تدريجياً. تنحسر دواليب الطائرة وتبدأ القمرة بالاهتزاز، في حين تشق الطائرة طريقها عبر طبقة الغيوم الأولى. وعلى الرغم من أن أشيما قامت بحشو أذني غوغول بالقطن، يصرخ الصغير مذعوراً بين يدي والدته الحزينة، في حين يزداد ارتفاع الطائرة. إنها المرة الأولى التي يسافر فيها غوغول جواً عبر العالم.

3

1971

انتقلت عائلة غانغولي إلى مدينةٍ جامعيةٍ خارج بوسطن. إنهما البنغاليان الوحيدان في المدينة، على حدِّ علمهما. تحتوي المدينة على معالم تاريخية؛ مساحةٍ ضيقةٍ من الأرض تزخر بفن معماري يعود إلى زمن المستعمرات، ويرتادها السياح في عطلة نهاية الأسبوع صيفاً. وبالإضافة إلى ذلك، توجد أبرشية بروتستانتية ذات برج عالٍ ومبنى دار القضاء، الذي شُيد من الحجارة، وبجانبه السجن ومكتبة عامة لها قبة وبئر خشبية يُقال إن بول ريفير[1] شرب منها. في فصل الشتاء وبعد أن يحل الظلام، يشعل السكان الشموع في نوافذ المنازل. عُين أشوك كأستاذٍ مساعدٍ في قسم الهندسة الكهربائية في الجامعة. يقوم أشوك بتدريس خمسة مساقات، ويتقاضى ستة عشر ألف دولار سنوياً مقابل ذلك. منحت الجامعة أشوك مكتباً خاصاً به، وحُفر اسمه على قطعة بلاستيكية سوداء ثُبتت على الباب. يتمتع أشوك، وكذلك الحال مع

(1) بول ريفير بالإنجليزية: (Paul Revere) ولد في 1 من كانون الثاني 1735 وتوفي في 10 من أيار 1818، صانع فضة ووطني أمريكي، قاد جواده عام 1775 ليحذر أهل ماساتشوسيتس من قدوم البريطانيين. (المترجم)

أعضاء الهيئة التدريسية في قسمه، بالخدمات التي تقدمها السيدة جونز؛ سكرتيرة القسم العجوز، التي غالباً ما تضع طبقاً من خبز الموز الذي تعده في المنزل، بجانب آلة القهوة في حجرة الاستراحة المخصصة للهيئة التدريسية. يعتقد أشوك أن السيدة جونز التي اعتاد زوجها التدريس في قسم اللغة الإنجليزية حتى مماته، تناهز والدته عمراً تقريباً، إلا أن السيدة جونز تحيا حياةً يعدها أشوك مُهينةً، فهي تتناول طعامها وحدها، وتقود سيارتها للعمل في الثلج والبَرَد، وترى أحفادها ثلاث مراتٍ أو أربعاً في السنة على أقصى تقدير.

تعد الوظيفة أقصى ما حلم به أشوك. كان يأمل دوماً في العمل لدى جامعةٍ دون أي مؤسسةٍ أخرى. يا لها من بهجةٍ؛ أن يحاضر في حجرةٍ مكتظةٍ بالطلاب الأمريكيين. يا له من شعورٍ بتحقيق إنجازٍ رائع عندما يرى اسمه وقد طُبع ضمن قائمة أعضاء الهيئة التدريسية في دليل الجامعة. كم تكون سعادته غامرةً عندما تخاطبه السيدة جونز في كل مرة قائلةً: «بروفيسور غانغولي، زوجتك على الهاتف». يتحصل أشوك من مكتبه في الطابق الرابع على نظرةٍ شاملةٍ لفناء الجامعة المربع، الذي تحيط به المباني المغطاة بالنباتات المتسلقة، وعندما يكون الجو صافياً، يتناول أشوك غداءه على أحد المقاعد في الفناء، مستمتعاً بالنغمات المنبعثة من الأجراس في برج الساعة الموجود داخل حرم الجامعة. يزور أشوك المكتبة كل جمعةٍ بعد انتهائه من المحاضرة الأخيرة ليقرأ الصحف العالمية التي ثُبتت على صارياتٍ خشبية طويلة. يقرأ أشوك عن مخططات الولايات المتحدة قصف طرق الإمدادات الخاصة بحركة المقاومة

المعروفة بفيت كونغ[1] في كمبوديا، وعن قتل الشيوعيين الناكساليين[2] في شوارع كلكتا، وعن استعداد الهند والباكستان لخوض حربٍ ضد بعضهما. أحياناً يتجول أشوك في الطابق العلوي للمكتبة الذي يكون عادةً مشمساً وخالياً من الزوار، وحيث تُوجد كتب الأدب. وبينما يتجول أشوك في الممرات بين الأرفف، يقوم بتصفحها، وغالباً ما تشده مؤلفات أحبائه الروس، وهو يشعر بالراحة، على وجه الخصوص، عندما يرى اسم ابنه مطبوعاً بأحرف ذهبية على كعب مجلدات حمراء، وخضراء، وزرقاء، شكلت صفاً واحداً.

كانت الهجرة إلى الضواحي أقسى وأكثر إحزاناً لأشيما من تركها كلكتا لتعيش في كيمبردج. تمنَّت أشيما لو أن أشوك قَبِل بالمنصب الذي عُرض عليه في الإقليم الشمالي الشرقي من الولايات المتحدة، حتى يبقيا في المدينة. شعرت أشيما بالصدمة عندما علمت بعدم وجود أرصفة للمشاة في هذه البلدة، أو مصابيح لإضاءة الشوارع، أو حتى وسائل مواصلات عامة. أما المتاجر فتقع على بُعد أميال. لم تكن أشيما مهتمةً بتعلم كيفية قيادة سيارة التويوتا كورولا الجديدة، التي أصبح امتلاكها ضرورياً للعائلة. وعلى الرغم من أنها لم تعد حاملاً، فمازالت تمزج رقائق الأرز والفول السوداني والبصل الأحمر المفروم في وعاءٍ أحياناً. بدأت

---

(1) الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام المعروفة بـ الفيت كونغ :(Việt cộng) حركة مقاومة مسلحة فيتنامية نشطت بين 1954—1976. (المترجم)

(2) نسبة إلى الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي)، الذي تطور وأصبح الماركسي اللينيني، وقامت مجموعاته بانتفاضة مسلحة عرفت باسم الناكسال، نسبة إلى إحدى قرى البنغال الغربية في شرق الهند. (المترجم)

أشيما تدرك أن كونها أجنبيةً في هذا البلد هو أشبه بالحمل مدى الحياة؛ انتظارٌ أبديٌ، وعبءٌ مستمرٌ، وشعورٌ مزعجٌ لا ينتهي. إنها مسؤوليةٌ متناميةٌ بدت كجملةٍ معترضةٍ وسْط ما كان في يومٍ من الأيام حياةً طبيعيةً. لكن، سرعان ما أدركت أشيما أن حياتها السابقة قد اختفت لتحل محلها حياةٌ أخرى أعقد، وضعت على كاهلها مسؤولياتٍ جديدة. تعتقد أشيما أن حقيقة كونها أجنبيةً، كالحمل تماماً، تستحث الفضول نفسه من جانب الغرباء، والمزيج ذاته من الشفقة والاحترام. وبينما كان زوجها في العمل، اقتصرت جولات أشيما خارج الشقة على الجامعة التي يعيشون داخل حدودها، والمنطقة التاريخية المحيطة بالحرم الجامعي من جانبٍ واحدٍ. تتجول أشيما في المكان بصحبة غوغول، وتتركه ليركض في فناء الجامعة، أو تجلس معه ليشاهدا التلفاز في الاستراحة المخصصة للطلبة في الأيام الممطرة. تُعِدُّ أشيما مرةً في الأسبوع، ثلاثين حبة سمبوسة لتبيعها بخمسة وعشرين سنتاً للواحدة في المقهى العالمي، إلى جانب بسكويت اللوز والبندق المربع الشكل، الذي تعده السيدة إتزولد، وحلوى البقلاوة التي تعدها السيدة كاسوليس. أما أيام الجمعة، فتصحب غوغول إلى المكتبة العامة ليستمتعا بالساعة المخصصة لقراءة قصص الأطفال. بعد أن أكمل غوغول الرابعة من عمره، أصبحت أشيما ترسله إلى الحضانة الملحقة بالجامعة في الصباح ثلاث مراتٍ في الأسبوع، ثم تعود لاصطحابه إلى المنزل. وبينما يقضي غوغول ساعاتٍ في الحضانة، يلون بأصابعه، ويتعلم الأبجدية الإنجليزية، تشعر أشيما بالاكتئاب من جديد لأنها لم تعتد البقاء وحدها. تشتاق أشيما إلى غوغول الذي اعتاد

الإمساك بطرف ساريها عندما يمشيان معاً. تشتاق كذلك إلى صوته الحاد المتجهم عندما ينادي عليها ليخبرها أنه يشعر بالجوع أو التعب أو أنه يود الذهاب إلى الحمام. تجلس أشيما في حجرة القراءة في المكتبة العامة على كرسيٍّ جلديٍّ متشققٍ لتتجنب البقاء وحدها، فتكتب رسائل لوالدتها أو تقرأ مجلةً أو أحد الكتب البنغالية التي أحضرتها معها من الوطن. هي حجرةٌ مرحةٌ للغاية ومشرقةٌ، أرضيتها مغطاةٌ بسجادةٍ حمراء لونها يشبه لون الطماطم، ويجلس الأشخاص الذين يقرؤون الصحف حول مائدةٍ خشبيةٍ مستديرةٍ كبيرةٍ، وقد وُضِعت شجيرات الفورسيثيا المزهرة أو نبات البوط عريض الورق وسط الطاولة. عندما تشتاق أشيما إلى غوغول على وجه الخصوص، تتجه إلى حجرة الأطفال لتنظر إلى صورته المثبتة على لوحة الإعلانات، وقد جلس متربعاً على وسادةٍ خلال الساعة المخصصة لقراءة قصص الأطفال يستمع إلى السيدة آيكين؛ أمينة المكتبة في قسم الأطفال، تقرأ حكاية *القطة ذات القبعة*.

أصبح أشوك وأشيما مستعدين الآن لشراء منزلٍ خاصٍ بهما، بعد أن سكنا مدة عامين في شقةٍ حارَّةٍ للغاية وفَّرتها الجامعة لهما. في المساء وبعد تناول العشاء، يضع أشوك وأشيما غوغول في المقعد الخلفي للسيارة، ويخرجان للبحث عن منازل معروضةٍ للبيع. لا يبحث أشوك وأشيما عن المنزل المنشود في المنطقة التاريخية المحيطة بالجامعة، حيث يقطن المسؤول عن الشقق الجامعية في قصرٍ يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر، وإلى حيث يُدعيان مرةً كل عام لحضور حفل الشاي الذي يلي ما يُعرف بيوم الملاكمة. وعوضاً عن ذلك، يبحث كلاهما عن منزلٍ في شوارع

عاديةٍ، يمكن فيها وضع حمامات السباحة البلاستيكية الخاصة بالأطفال ومضارب البيسبول في الباحة الخلفية المغطاة بالحشيش. أصحاب هذه المنازل هم من الأمريكيين، الذين يمشون داخل المنزل وقد ارتدوا أحذيتهم، ويضعون الصينية الخاصة بمخلفات القطط في المطبخ، وتعوي كلابهم وتقفز عندما يقرع أشوك وأشيما الجرس. الآن، بات كلاهما يعرفان أنماطاً مختلفة من التصاميم الهندسية المعمارية، مثل المنازل المنخفضة التي تتكون من طابق واحد، أو تلك التي تتكون من طابقين وتشبه الكوخ إلى حدٍّ كبير، أوالمنازل الأفقية الامتداد المنخفضة للغاية، أو تلك المكونة من طابقين وتشبه القلاع في تصميمها. انتهى بهما الأمر إلى اختيار منزلٍ يتكون من طابقين، ويتميز بمساحةٍ أفقيةٍ ملحوظةٍ، وسقفٍ مرتفع مغطى بألواح خشبية، وقد شُيد حديثاً على مساحة ربع فدان (أكر) ولم يسكنه أحد من قبل. يشكل هذا المنزل؛ تلك البقعة الصغيرة، جُلَّ ما يملكون في أمريكا. يرافق غوغول والديه إلى المصرف، ويجلس منتظراً حتى ينتهيا من توقيع عددٍ لا يحصى من الأوراق. وافق المصرف على رهن العقار، وخطط أشوك وأشيما للانتقال إلى المنزل الجديد في الربيع. عندما رتَّبا مع شركة يو-هول (U– Haul) أمر الرحيل، شعر كلاهما بالدهشة من حجم ما يملكانه من حاجياتٍ، فلقد قدِم كلاهما من الهند بحقيبةٍ واحدةٍ حوَت بعض الملابس التي تكفي بضعة أسابيع. أما الآن، فيوجد كمٌّ هائل من أعداد قديمة من صحيفة الغلوب، مكدسة في زوايا الشقة، وتكفي لتغليف كل ما يملكانه من أطباق وكؤوس. هناك أيضاً أعدادٌ كاملةٌ من مجلة *تايم* تعود إلى سنواتٍ سابقةٍ يجب التخلص منها.

طُليت جدران المنزل الجديد، وكُسي الممر الأمامي للمنزل المؤدي للشارع بالقار، أما الألواح الخشبية التي تغطي السقف وتلك البقعة خارج المنزل المخصصة للتشمس، فتمت صيانتها وطلاؤها لتقاوم العوامل الجوية. يقوم أشوك بتصوير كل حجرةٍ، ويظهر غوغول في إحدى زواياها، ليرسلها إلى أقربائه في الهند. هناك صورٌ لغوغول وهو يفتح الثلاجة، وأخرى وهو يتظاهر بالحديث عبر الهاتف. إنه طفلٌ قويُّ البنية، له وجنتان ممتلئتان، ولكنَّ ملامحه حزينة. عندما يقوم والداه بتصويره، فلا بد من مداعبته حتى يبتسم. يبعد المنزل خمس عشرة دقيقة عن أقرب سوبرماركت، وأربعين دقيقة عن أقرب سوقٍ تجاريٍّ كبير. أما العنوان فهو67 شارع بيمبيرتون، وأما الجيران فهم عائلة جونسون وميرتون .وأسبيرس وهيل. يتكون المنزل من أربع حجرات نومٍ متواضعةٍ وحمامين يحوي أحدهما حوض استحمام فقط، وسقف يصل ارتفاعه إلى ثماني أقدام وكراجٍ يتسع لسيارةٍ واحدة لا غير. توجد مدفأةٌ مبنيةٌ من الطوب في حجرة المعيشة، التي تتميز بنافذةٍ بارزةٍ للخارج، تطل على باحة المنزل الأمامية. وتوجد في المطبخ أدوات طبخٍ لها اللون الأصفر نفسه، وطاولةٌ مستديرةٌ متحركة[1]، ولِنوليوم فُرِش على أرضية المطبخ، يشبه البلاط إلى حد كبير. علقت أشيما على جدار حجرة المعيشة لوحةً لقافلة جِمالٍ في صحراء راجستان، رسمها والدها بالألوان المائية، وأرسلها أشوك إلى أحد مراكز النسخ والتصوير الفوتوغرافي المحلية

(1) Lazy Susan : طاولة مستديرة صغيرة تُوضع فوق مائدة الطعام، ويتم تحريكها لتسهيل الوصول للأطباق المختلفة. (المترجم)

لتوضع داخل إطارٍ ملائم. لغوغول حجرةٌ خاصة به فيها سريرٌ يحتوي في قاعدته على درج. وبالإضافة إلى السرير، توجد أرفف معدنية وضعت أشيما عليها ألعاب غوغول مثل تينكرتويز[1] ولنكن لوغز[2] وفيوماستر[3] وإيتش سكيتش[4]. ابتاع أشوك وأشيما معظم ألعاب غوغول من أسواق الباحة المنزلية ذات الأسعار المنخفضة، التي تُقام عادة في الفناء الخارجي، وكذلك الحال مع الأثاث، والستائر، ومحمصة الخبز، ومجموعة أواني الطبخ، والمقالي أيضاً. ترددت أشيما بادئ الأمر في إدخال هذه الأشياء المستعملة من جانب غرباء أمريكيين إلى منزلها، وقد شعرت بالخجل أيضاً من شراء مقتنياتهم، إلا أن أشوك وضح لأشيما أن المسؤول عن الشقق الجامعية يبتاع حاجياته من أسواق الباحة المنزلية تلك، حتى وإن كان يقطن قصراً في عزبة خلابة، فهو لا يتحرج أن يلبس بنطالاً مستعملاً ابتاعه بخمسين سنتاً.

عندما انتقل أشوك وأشيما للعيش في منزلهما الجديد كانت الأرض المحيطة بالمنزل في حاجةٍ للزراعة، فلا أشجار تنمو في المكان، وما من شجيرات تزين مدخل المنزل، لذلك بدا البناء الإسمنتي واضحاً جداً للعيان. وكذا فقد لعب غوغول ذو السنوات الأربع خلال الأشهر الأولى على فناءٍ غير مستوٍ مغطى بالتراب، تبعثرت فوقه الأحجار

(1) لعبة للأطفال تتكون من عدد كبير من العيدان والبكرات والمشابك والأعلام وغيرها، يستخدمها الطفل لبناء أجسام مختلفة. (المترجم)

(2) لعبة للأطفال تتكون من قطع خشبية صغيرة جداً لبناء حصون وقلاع ومبان مختلفة. (المترجم)

(3) لعبة تشبه المنظار تمكن الطفل من رؤية صور مجسمة. (المترجم)

(4) لعبة يرسم فيها الطفل باستخدام قلم مغناطيسي على لوحة رمادية، توجد تحتها برادة حديد. (المترجم)

والعيدان، فاتسخ حذاؤه الرياضي، الذي ترك آثار التراب على أرضية الحمام. سيظل هذا الفناء جزءاً من ذكريات طفولته المبكرة. سيتذكر غوغول طوال حياته ذلك الربيع البارد المتلبد الغيوم الذي قضاه يحفر في التراب ليجمع الصخور، ويكتشف حينها وجود حيوان السلمندر ذي اللونين الأسود والأصفر تحت لوح من حجر الأردواز. سيتذكر غوغول صوت الأطفال الآخرين في الحَي، يضحكون ويدوسون على دواسات دراجاتهم البلاستيكية ذات الدواليب الثلاثة في نهاية الشارع. سيتذكر غوغول ذلك اليوم الصيفي الدافئ المشرق، عندما أفرغت شاحنةٌ تراباً زراعياً في فناء المنزل، ثم وقف بعد مضي بضعة أسابيع على الأرضية الخشبية المخصصة للتشمس برفقة والديه، ليرى العشب وقد برز من المرجة السوداء العارية.

في بادئ الأمر، اعتادت العائلة الخروج بالسيارة في المساء، لتستكشف المحيط الجديد شيئاً شيئاً: الأزقة الترابية المهملة، والشوارع الخلفية التي تظللها الأشجار، والمزارع التي يمكن قطف نبات القرع منها في الخريف وشراء توت العليق الذي يباع في صناديق مصنوعة من الكرتون المقوى في شهر تموز. مايزال المقعد الخلفي للسيارة مكسواً بغطاءٍ بلاستيكي، أما منافض السجائر المثبتة على الأبواب فلم يتم استخدامها بعد. تابع أشوك قيادة السيارة حتى حلَّ الظلام، ولم يكن في ذهنه وِجهة محددة، فمرَّ بالعديد من البحيرات الصغيرة المخفية، والمقابر، والشوارع غير النافذة. قاد أشوك السيارة أحياناً برفقة عائلته خارج البلدة، باتجاه أحد الشواطئ الممتدة على امتداد الساحل الشمالي.

لم تذهب عائلة غانغولي قط إلى الشاطئ للسباحة في الصيف، ولا حتى لاكتساب قليلٍ من السمرة، وإنما تذهب إلى الشاطئ وقد ارتدى أفرادها ملابسهم الاعتيادية. عندما يصلون إلى الشاطئ يكون الكشك الخاص بمحصِّل التذاكر فارغاً، والمصطافون قد غادروا المكان، ولا يوجد سوى بضع سيارات فقط في الباحة المخصصة لوقوف السيارات. أما الزوار الآخرون، فيمشون مع كلابهم على الشاطئ، أو يراقبون غروب الشمس، أو يجرُّون الجهاز الكاشف عن المعادن على الرمال. وبينما يركب آل غانغولي السيارة، يترقبون معاً اللحظة التي يصبح فيها الخط الأزرق الرفيع للمحيط مرئياً. وعلى الشاطئ، يقوم غوغول بجمع الصخور، وحفر الأنفاق في الرمال، ويتجول مع والده وكلاهما عاري القدمين، وقد رفعا بنطاليهما أعلى سيقانهما. يراقب غوغول والده يرفع طائرة ورقية في الرياح خلال دقائق، عالياً جداً، فيتوجب عليه أن يُرجع رأسه إلى الوراء أقصى ما أمكنه حتى يتمكن من رؤية بقعةٍ صغيرةٍ تتموج في السماء. تهبُّ الرياح حول أذنيهما، فيحمر وجهاهما من البرد. تحوم طيور النورس الأبيض على ارتفاعٍ منخفضٍ بحيث يمكن لمس أجنحتها المنبسطة. يندفع غوغول داخل المياه، ثم يخرج مسرعاً، وقد ابتلت ساقاه، مخلفاً آثاراً باهتةً لقدميه على الرمال، سرعان ما تمحوها الأمواج. وبينما ترفع أشيما ساريها بضعة إنشاتٍ عن كاحليها، وتمسك بخفها بيدها وتلامس قدماها زبد الأمواج الباردة جداً، تنادي غوغول وتضحك. تمد يدها إلى غوغول، ثم تمسك يده وتقول له: «لا تذهب بعيداً». وفي حين تتراجع الأمواج مستجمعةً قواها، تنحسر الرمال

الناعمة الداكنة من تحت أقدامها فيفقدان توازنها. «سأقع! المياه تسحبني»، تقول أشيما دوماً.

تكتشف أشيما أنها حاملٌ من جديد في شهر آب، عندما بلغ غوغول الخامسة من عمره. تُجبر أشيما نفسها على تناول شريحةٍ من خبز التوست في الصباح، لأن أشوك أعدها لها، ويراقبها تمضغها وهي في السرير. تشعر أشيما بالدوار طوال الوقت، لذلك تقضي يومها مستلقيةً في السرير وبجانبها سلة مهملاتٍ وردية اللون، وستار النافذة المرن منسدل، وتشعر بطعمٍ معدني يغلف فمها وأسنانها[1]. قام أشوك بنقل جهاز التلفاز من حجرة المعيشة إلى حجرة النوم، ووضعه بجانب أشيما لتشاهد أفلاماً مختلفة مثل: «الثمن صحيح» و«نور الهداية» و«الهرم الذي يستحق عشرة آلاف دولار»[2]. وعندما يحل موعد الغداء، تتوجه أشيما نحو المطبخ مترنحةً، لتعد لغوغول شطيرة زبدة الفستق والمربى، فتشعر بالاشمئزاز من رائحة الثلاجة، إذ باتت مقتنعة أن رائحةً نتنةً تنبعث من درج الخضراوات، وأن اللحوم داخل الثلاجة متعفنةٌ. يستلقي غوغول أحياناً بجوار والدته في حجرة نوم والديه، يقرأ في كتابه المصور، أو يلون بأقلام التلوين الشمعية. في يومٍ من الأيام خاطبت أشيما غوغول قائلةً: «ستصبح الأخ الأكبر لأحدهم. سيكون هناك من يناديك (أخي)، ألن يكون ذلك ممتعاً»؟ إذا شعرت أشيما بقليلٍ من النشاط، تطلب من غوغول أن يحضر ألبوم الصور لينظرا معاً إلى صور جدَّيه وأعمامه

(1) يعد الطعم المعدني «metallic taste» من علامات الحمل، ويستمر خلال الأشهر الأولى منه. (المترجم)

(2) «The Price is Right» / «Guiding Light» / «$10,000 Pyramid».

وعماته وأخواله وخالاته وأقربائه الذين لا يتذكرهم غوغول، على الرغم من زيارته لكلكتا مرةً في السابق. تساعد أشيما أشوك على حفظ قصيدةٍ للأطفال للشاعر طاغور، مكونة من أربعة أسطر، بالإضافة إلى أسماء الآلهة التي تزين الإلهة دُرغا ذات الأذرع العشر خلال مهرجان دُرغا، مثل الإلهة ساراسواتي التي تظهر مع بجعتها، وإلى يسارها الإله كارتيك مع طاووسه، وإلى يمينها تظهر لاكشيمي مع بومتها، وغانيش مع فأره. كل يوم تخلد أشيما إلى النوم، وقبل أن تغفو تحول التلفاز إلى القناة الثانية وتطلب من غوغول أن يشاهد برنامج الأطفال التعليمي «شارع السمسم» و«شركة الكهرباء»، حتى يطور لغته الإنجليزية التي يستخدمها في الحضانة. في المساء، وطوال أيام الأسبوع، يتناول غوغول الطعام مع والده، وحدهما؛ طبق الدجاج بصلصة الكاري والأرز الذي يطبخه أشوك في قدرين معدنيين سميكي الجدار[1] وقديمين ومبعوجين. وبينما يقوم أشوك بتسخين الطعام، يطلب من غوغول أن يغلق باب حجرة النوم، لأن والدته لاتطيق رائحة الطعام. كان أمراً غريباً أن يرى غوغول والده يحل مكان والدته في المطبخ ويقف أمام الموقد. يفتقد غوغول صوت والديه يتحدثان معاً، والمذيع يقرأ الأخبار بصوته المنبعث من التلفاز في حجرة المعيشة، عندما يجلس إلى مائدة الطعام مع والده وحدهما. يتناول والده الطعام مطأطئاً رأسه نحو الطبق، في حين يتصفح العدد الأخير من مجلة *التايم*، وينظر إلى غوغول بين الحين والآخر ليتأكد أنه يتناول طعامه أيضاً. وعلى الرغم من أن

(1) يُعرف هذا القدر أيضاً بالفرن الهولندي «Dutch Oven». (المترجم)

أشوك يتذكر دوماً خلط الأرز وصلصة الكاري في طبق غوغول قبل أن يبدأ الأخير بتناول الطعام، فإنه لا يهتم بتشكيله على هيئة كراتٍ كما تفعل أشيما، وتوزيعها على أطراف الطبق لتبدو مثل أرقام الساعة. لقد تعلم غوغول مسبقاً أن يتناول طعامه وحده باستخدام أصابعه، دون أن يلطخ كفه بالطعام. تعلَّم كذلك أن يمتص نخاع عظم لحم الخروف، وأن ينزع أشواك السمك، لكن غوغول لا يشعر برغبةٍ في تناول الطعام لأن والدته ليست بجواره. يتمنى غوغول كل مساء لو أن والدته تظهر من حجرة النوم لتجلس بينه وبين والده، فيعبق المكان برائحة ساريها وكنزتها الصوفية. يشعر غوغول بالملل من تناول الطعام ذاته كل يوم، ففي إحدى الأمسيات، دفع ما تبقى من طعامه إلى حافة طبقه دون أن يلاحظ والده، ثم غمس سبابته فيما تبقى من صلصة الكاري، وبدأ بالرسم على طبقه ولعِب لعبة تك تاك تو.

يرفع أشوك رأسه بعيداً عن مجلة *التايم*، ويسأل غوغول: «هل انتهيت»؟

- «لا تعبث بالطعام هكذا!».
- «بابا، لقد شبعت».
- «مايزال هناك بعض الطعام في طبقك».
- «بابا، لا أستطيع».

لم يتبق شيء في طبق أشوك، فقد جرَّد عظام الدجاج مما تحويه من لحم، ثم قام بمضغها ليأكل نخاعها الوردي اللون، أما ورق الغار وعود القرفة فبقيا كما هما. يهز أشوك رأسه رافضاً الانصياع لغوغول. يتألم

أشوك لما يراه كل يومٍ من أن أنصاف الشطائر أو حبات التفاح التي يأكل بعضهم قضمةً أوقضمتين منها فقط، ثم يلقونها في القمامة داخل الحرم الجامعي. «أكمل طعامك. عندما كنتُ في عمرك كنت أتناول الطعام المحفوظ في علب معدنية، وأنهيه بالكامل».

في أيلول من عام 1973، لم تستطع أشيما أن ترافق زوجها الذي صحب غوغول في يومه الأول إلى الروضة التابعة للمدرسة الابتدائية الحكومية في البلدة، لأنها تشعر برغبةٍ في الاستفراغ كلما ركبت السيارة. عندما التحق غوغول بالروضة، كان الأسبوع الدراسي الثاني قد بدأ بالفعل. ظل غوغول مستلقياً في السرير إلى جوار والدته، متكاسلاً، وليس لديه رغبةٌ بتناول الطعام، مدعياً أنه يشعر بمغصٍ، حتى إنه في أحد الأيام تقيأ في سلة المهملات الوردية اللون التي تتقيأ فيها والدته. لا يريد غوغول أن يذهب إلى الروضة. لا يرغب كذلك في ارتداء الملابس الجديدة التي ابتاعتها له والدته من متجر سيرز، المعلقة على مقبض خزانته، ولا يرغب كذلك في حمل صندوق الطعام المرسومة عليه شخصية شارلي براون الكوميدية، أو أن يستقل باص المدرسة الأصفر، الذي يتوقف عند نهاية شارع بيمبيرتون. وعلى النقيض من الحضانة، تبعد المدرسة بضعة أميالٍ عن المنزل والجامعة. صحب أشوك غوغول في مناسباتٍ مختلفة ليرى المدرسة، وهي عبارة عن مبنى طويلٍ منخفضٍ، شُيد من الطوب، له سطحٌ مستوٍ تماماً ورايةٌ ترفرف فوق ساريةٍ بيضاء عاليةٍ غُرست في عشب باحة المدرسة.

هناك سببٌ وراء عدم رغبة غوغول في الذهاب إلى الروضة، فلقد

أخبره والداه إن الآخرين في الروضة سيدعونه باسمٍ جديد مختلفٍ عن اسمه غوغول؛ اسم جيد استقر عليه والداه في نهاية المطاف وفي الوقت المناسب مع بدء المرحلة التعليمية الرسمية له. «نيكيل»؛ الاسم الجديد الذي يرتبط بالاسم القديم بصورةٍ فنيةٍ مبدعةٍ، فهو يشبه على نحوٍ مُرضٍ «نيقولاي»؛ الاسم الأول للكاتب الروسي غوغول. وبالإضافة إلى ذلك، فهو اسمٌ بنغالي يحظى بتقديرٍ رائعٍ، ويعني «الشخص الكامل الصفات». فكر أشوك في الاسم مؤخراً عندما كان يحدق شارد الذهن في مؤلفات غوغول في المكتبة، ثم عاد مسرعاً إلى المنزل ليستشير أشيما. أوضح أشوك لأشيما أنه اسمٌ يسهل نطقه نوعاً ما، لكنه يخشى أن يختصره بعضهم إلى «نيك»، فالأمريكيون مهووسون بالاختصارات. أخبرته أشيما أن الاسم يعجبها، على الرغم من أنها بكت فيما بعد عندما اختلت بنفسها وتذكرت جدتها التي فارقت الحياة مطلع العام، والرسالة التي تحوم أبداً في مكانٍ ما بين الهند وأمريكا، وتحتوي على الاسم الجيد الذي اختارته الجدة لغوغول. مازالت أشيما تحلم بالرسالة أحياناً، وأنها وجدتها في صندوق بريدهما في شارع بيمبيرتون بعد مرور كل هذه السنين، ولكنها كانت فارغة!

لكن غوغول لا يريد اسماً جديداً. لا يفهم أيضاً لِمَ عليه أن يجيب على اسمٍ ليس اسمه! يسأل غوغول والديه وعيناه تتغشاهما الدموع: «لم يتوجبَ عليَّ أن أحظى باسم جديد»؟ كان الأمر أسهل على غوغول لو كان والداه سيدعوانه «نيكيلَ» أيضاً. لكن والديه يخبرانه أن الاسم الجديد ستستخدمه المعلمات والطلبة الآخرون في المدرسة فقط. يخشى غوغول

الاسم الجديد؛ يخشى أن يصبح شخصاً يجهله، ويخشى الأشخاص الذين لا يعرفونه! إلا أن والديه يخبرانه أن كلاً منهما يملك اسمين أيضاً، وكذلك جميع أصدقائهم البنغال في أمريكا، وحتى أقربائهم في كلكتا. ويضيف والداه أن الاسم الجديد جزءٌ من عملية النمو، وجزءٌ من كونه بنغالياً. يكتب أشوك الاسم الجديد على ورقةٍ ويطلب من غوغول أن ينسخه عشر مرات. «لا تقلق»! يتوجه أشوك بالحديث إلى غوغول، «ستظل دوماً (غوغول) بالنسبة إلي وإلى والدتك».

ترحب سكرتيرة المدرسة السيدة ماكناب بأشوك وغوغول، وتطلب من الأول أن يقوم بتعبئة نموذج التسجيل الخاص بالروضة. يزود أشوك السيدة ماكناب بنسخةٍ عن شهادة ميلاد غوغول وسِجلٍّ تطعيمه، فتضعهما بالإضافة إلى نموذج التسجيل داخل ملفٍ حافظٍ للأوراق. «مِن هنا»، تقود السيدة ماكناب أشوك وغوغول إلى مكتب المديرة حيث كُتب اسمها على الباب؛ «كانديس لابيدوس». تؤكد السيدة لابيدوس لأشوك أن تغيب غوغول عن الأسبوع الدراسي الأول في الروضة لا يعدُّ مشكلةً، فالأمور لم تستقر بعد داخل الروضة. كانت السيدة لابيدوس امرأةً نحيلةً طويلة القامة، وشعرها الأشقر قصيرٌ أشيب. تضع السيدة لابيدوس ظل عيونٍ أزرق ثلجياً، وترتدي سترةً ذات لون أصفر ليموني. تصافح السيدة لابيدوس أشوك وتخبره أنه يوجد طالبان هنديان آخران هما جياديف مودي، في الصف الثالث، وريكا ساكينا، في الصف الخامس. ربما يعرفهما آل غانغولي؟ لكن أشوك يجيب بالنفي. تنظر السيدة لابيدوس إلى نموذج التسجيل، ثم تنظر إلى غوغول الذي

يتشبث بيد والده، مبتسمةً بعطف. يرتدي غوغول بنطالاً أزرق رمادي اللون وحذاءً رياضياً من قماش خيشي أحمر وأبيض وبلوزة مقلمة ذات قبةٍ عاليةٍ ضيقةٍ.

- «نيكيل، مرحباً بك في المدرسة الابتدائية. أنا مديرتك السيدة لابيدوس».

يطأطئ غوغول رأسه وينظر إلى حذائه. تختلف طريقة نطق المديرة لاسمه عن طريقة والديه، إذ يبدو المقطع الثاني أطول؛ أشبه بكلمة «هيل» (heel)! تنحني السيدة لابيدوس للأسفل بحيث يصبح وجهها مواجهاً لوجه غوغول، ثم تضع يدها على كتفه وتسأله: «نيكيل، هل لك أن تخبرني كم عمرك»؟ عندما أعادت السيدة لابيدوس السؤال ولم تجد أي استجابة من غوغول، توجهت بالسؤال إلى والده: «سيد غانغولي، هل يفهم نيكيل الإنجليزية»؟ «بالطبع، إن ابني يجيد الإنجليزية والبنغالية على نحوٍ ممتاز»، أجاب أشوك.

حتى يثبت أن غوغول يتحدث الإنجليزية، يقوم أشوك بشيءٍ لم يفعله من قبل. يخاطب أشوك ابنه بالإنجليزية بلكنةٍ متقنةٍ جداً، فيقول: «هيا يا غوغول»، ثم يربت على رأسه، «أخبر السيدة لابيدوس كم تبلغ من العمر».

- «ماذا قلت»؟ تتساءل السيدة لابيدوس.
- «عذراً سيدتي»؟
- «ذلك الاسم الذي ناديته به! شيء ما يبدأ بـ...غ...»!
- «آه! إنه الاسم الذي نناديه به في البيت فقط. لكن اسمه الجيد يجب

أن يكون- بل هو.». -يومئ أشوك برأسه مؤكداً- «نيكيل».

تعبس السيدة لابيدوس، ثم تقول: «أخشى أنني لا أفهم! الاسم الجيد»؟

- «نعم».

تدرس السيدة لابيدوس نموذج التسجيل الخاص بنيكيل. لم تضطر السيدة لابيدوس إلى خوض هذه التجربة المربكة مع الطفلين الهنديين الآخرين. تفتح السيدة حافظة الأوراق لتتفحص سجل التطعيم وشهادة الميلاد الخاصة بنيكيل. «سيد غانغولي، على ما يبدو هناك أمرٌ محيرٌ»، قالت السيدة لابيدوس. «حسب هذه الوثائق، «غوغول» هو الاسم القانوني لابنك».

- «صحيح! ولكن اسمحي لي أن أشرح الأمر».

- «إنك ترغب أن نناديه نيكيل»؟

- «نعم. هذا صحيح».

تومئ السيدة لابيدوس برأسها، ثم تتساءل: «والسبب»؟

- «تلك رغبتنا».

«سيد غانغولي، لست متأكدة إن كنتُ أفهم ما تقوله. هل تقصد أن (نيكيل) هوالاسم الأوسط؟ أم هو لقبٌ؟ كثيرٌ من الأطفال هنا نناديهم بألقابهم. يوجد فراغ هنا في هذا النموذج---».

- «لا، لا، إنه ليس الاسم الأوسط»، قال أشوك وقد بدأ صبره ينفد. «ليس له اسم أوسط أو لقب. الاسم الجيد لهذا الطفل الذي ستعتمده المدرسة هو(نيكيل)». تضم السيدة لابيدوس شفتيها

وتبتسم، ثم تقول: «ولكنه لا يستجيب لهذا الاسم»!

- «أرجوك سيدة لابيدوس! من الشائع أن يشعر الأطفال بالارتباك في بادئ الأمر. أرجو أن تمنحيه بعض الوقت. أؤكد لك أنه سيعتاد الأمر».

ينحني أشوك للأسفل ويخاطب غوغول بهدوء وصوتٍ خافت، ولكن بالبنغالية هذه المرة، ويرجوه أن يجيب السيدة لابيدوس عندما تطرح عليه سؤالاً. «غوغول، لا تخف»، يقول أشوك، ثم يرفع ذقن غوغول بأصابعه ويتابع، «إنك ولدٌ كبيرٌ الآن. لا تبكِ»!

وعلى الرغم من أن السيدة لابيدوس لا تفهم كلمةً واحدةً، فإنها تصغي باهتمامٍ شديدٍ، وتسمع ذلك الاسم من جديد. غوغول. تكتب السيدة لابيدوس الاسم على نموذج التسجيل بخطٍ باهتٍ بقلم الرصاص.

يناول أشوك السيدة لابيدوس صندوق الطعام الخاص بغوغول، وسترةً قطنيةً قصيرةً إذا ما أصبح الجو بارداً. يشكر أشوك السيدة لابيدوس، ثم يخاطب غوغول بالإنجليزية قائلاً: «أحسن التصرف، نيكيل»، بعد لحظة تردد، يغادر أشوك المكان.

عندما أصبحت السيدة لابيدوس وحدها مع غوغول سألته: «غوغول، هل أنت سعيد بالتحاقك بالمدرسة الإبتدائية»؟

«يريد والداي أن أستخدم اسماً مختلفاً في المدرسة».

«وماذا عنك يا غوغول؟ هل ترغب أن نناديك باسمٍ يختلف عن اسمك»؟

يهز غوغول رأسه بعد لحظة صمت.

- «هل تعني (لا)»؟

يومئ غوغول برأسه، ثم يجيب: «نعم».

«إذن قُضي الأمر. هل تستطيع أن تكتب اسمك على هذه الورقة»؟

يتناول غوغول قلم رصاصٍ ويحكم قبضته ويرسم أحرف الكلمة الوحيدة التي حفظها، لكنه يكتب حرف اللام معكوساً لأنه كان متوتراً. «ياله من خطٍ جميل»! تقول السيدة لابيدوس. تمزق السيدة لابيدوس نموذج التسجيل وتطلب من السيدة ماكناب أن تطبع واحداً جديداً. تمسك السيدة لابيدوس بيد غوغول وترافقه عبر رواقٍ مغطى بالسجاد رُسمت على جدرانه الإسمنتية بعض الرسومات. تفتح السيدة لابيدوس الباب، وتُقدم غوغول لمعلمته السيدة واتكنز التي سرَّحت شعرها في جدلتين ولبست أفرول وقبقاباً. يمثل الصف عالماً صغيراً من الألقاب، فعلى سبيل المثال أندرو هو آندي، وألكسندرا هي ساندي، وويليام هو بيلي، وإليزابيث هي ليزي. إنه عالمٌ يختلف تماماً عن العالم المدرسي الذي عرفه والدا غوغول حيث ارتبط تعليمهما المدرسي بأقلام الحبر السائل، والأحذية السوداء اللامعة، والدفاتر، والأسماء الجيدة، ومخاطبة المعلمين والمعلمات بسيدي وسيدتي في مرحلةٍ عمريةٍ مبكرةٍ. أما هنا، فإعلان الولاء للعلم الأمريكي أولاً كل صباح هو الطقس الرسمي الوحيد. أما بقية اليوم، فيجلس الأطفال في مجموعاتٍ حول طاولةٍ مستديرةٍ، ويشربون عصير البنش[1]، ويأكلون البسكويت، وينعمون

---

(1) شراب غازي –عادة– مؤلف من عصيري فاكهة أو أكثر مع سكر وماء. (المترجم)

بالقيلولة، إذ ينامون على وسائد صغيرة برتقالية اللون على الأرض. في نهاية اليوم، يعود غوغول إلى والديه يحمل رسالةً من السيدة لابيدوس قامت بطيها وتعليقها بخيطٍ حول رقبته تشرح فيها أنه نزولاً عند رغبة ابنيهما سيناديه الجميع في الروضة بغوغول. ولكن ماذا عن رغبة الأهل؟ يتساءل أشوك وأشيما ويهزان رأسيهما حزناً. لكن، ولأنهما لا يشعران بالراحة إزاء الإصرار على هذه المسألة، يجد أشوك وأشيما أنه لا خيار أمامهما سوى الانصياع للأمر.

وهكذا، يبدأ تعليم غوغول الرسمي. يكتب غوغول اسم الدلال الخاص به (غوغول) أعلى مسودةٍ لونها أصفر فاتح، مرةً تلو الأخرى، بالإضافة إلى الأحرف الصغيرة والكبيرة من الأبجدية الإنجليزية. يتعلم غوغول الجمع والطرح وتهجئة كلماته الأولى. يتخلى غوغول عن ميراثه البنغالي عندما يكتب اسمه بالإنجليزية بقلم رصاص، رقم اثنين، أسفل سلسلة من الأسماء، على غلاف الكتب المدرسية التي يتعلم منها القراءة. في حصة الفن؛ الساعة المفضلة لديه طوال الأسبوع، ينقش غوغول اسمه بمشابك الورق أسفل أكوابٍ وزبدياتٍ من الصلصال. يلصق غوغول معكرونة غير مطهوة على بطاقاتٍ من الكرتون المقوى، ويوقع تحت رسوماته باستخدام فرشاةٍ سميكة. يحضر غوغول إبداعاته لوالدته يوماً تلو الآخر، فتقوم بتعليقها على باب الثلاجة وكلها فخر. «غوغول غ.»، هكذا يوقع غوغول أعماله في الزاوية اليمنى أسفل كل صفحة، وكأنما كانت هناك حاجة لتمييزه عن غوغول آخر في الروضة!

تُولد شقيقة غوغول في أيار. يبدأ مخاض أشيما سريعاً هذه المرة.

وبينما كان أشوك وأشيما يستمعان إلى أغانٍ بنغالية، فكرا في التسوق من أحد أسواق الباحة المنزلية الموجودة في الحي، صباح أحد أيام السبت. عندما انفجر كيس ماء الجنين، كان غوغول يتناول إفطاره المكون من كعكة الوفل المجمدة، وتمنى لو أن والديه يطفئان صوت الأغاني حتى يتمكن من سماع أفلام الكرتون التي كان يشاهدها. يطفئ والده صوت الموسيقى، ثم يهاتف ديليب ومايا نانديي، اللذين يقيمان الآن في إحدى الضواحي، التي تبعد عن منزل أشوك وأشيما عشرين دقيقة فقط، وقد رُزقا بمولودٍ ذكر. ثم ينادي أشوك جارته السيدة ميرتون التي عرضت العناية بغوغول حتى يحضر آل نانديي. وعلى الرغم من أن والديه هيأه لهذا الحدث، يشعر غوغول عندما يرى السيدة بيرتون وقد أحضرت معها قماش التطريز، وكأن والديه قد تخليا عنه، فلم يعد يشعر برغبةٍ في مشاهدة أفلام الكرتون. يقف غوغول على الدرج الأمامي للمنزل يراقب والده وهو يساعد أمه على الصعود إلى السيارة، ثم يلوح مودعاً وهما يبتعدان. وحتى يتمكن من قضاء الوقت، يقوم غوغول برسم لوحةٍ يظهر فيها مع والديه والمولود الجديد، وهم يقفون جميعاً في صفٍ واحد أمام منزلهم. يتذكر غوغول أن يرسم نقطةً على جبين والدته، ونظاراتٍ على وجه والده، وعمود مصباح الشارع الموجود على الرصيف الممتد أمام المنزل. وبينما تنظر السيدة بيرتون إلى لوحة غوغول من فوق كتفيه، تقول: «يالها من محاكاةٍ رائعة»!

في مساء ذلك اليوم، تقوم مايا نانديي، التي يناديها غوغول مايا ماشي (خالتي مايا)، بتسخين العشاء الذي أحضرته معها عندما هاتفها أشوك

قائلاً إن الطفل قد وصل. في اليوم التالي يرى غوغول والدته تجلس فوق سريرٍ رُفع من وراء ظهرها، وترتدي إسوارةً بلاستيكية حول معصمها، ولا يبدو بطنها قاسياً أو مستديراً كما كان. يرى غوغول شقيقته عبر نافذةٍ زجاجيةٍ نائمةً في سريرٍ زجاجيٍّ صغيرٍ، وكانت الطفلة الوحيدة من بين جميع الأطفال في الحضانة، التي لها شعرٌ أسود كثيفٌ. يقوم أشوك بتقديم غوغول للممرضات اللواتي ساعدن والدته في الولادة. يشرب غوغول العصير ويأكل حلوى البودنغ من صينية والدته. يعطي غوغول والدته اللوحة التي رسمها وكله حياءٌ. كتب غوغول اسمه ثم كتب «ماما» و«بابا» تحت الأشكال التي تمثلها، أما الحيز تحت الشكل الذي يمثل الطفلة الرضيعة، فتركه غوغول فارغاً. «لا أعرف اسم الطفلة»، قال غوغول، وعندها يخبره والداه باسم الطفلة. كان أشوك وأشيما مستعدين هذه المرة، لذلك كانت لديهما قائمةٌ بأسماء أطفالٍ ذكور وإناث. لقد تعلما درساً بعد تجربتهما مع غوغول. لقد تعلما أن المدارس في أمريكا تتجاهل تعليمات الأهل، وتسجل الطفل تحت اسم الدلال الخاص به. خلص كلاهما في نهاية المطاف إلى أن السبيل الوحيد لتجنب هذا الإرباك يكمن في تجاهل فكرة اسم الدلال كلياً، كما فعل العديد من أصدقائهم البنغاليين. سيكون اسم الدلال والاسم الجيد لابنتهما واحداً: «سونالي»؛ «الطفلة الذهبية».

بعد يومين، عاد غوغول من المدرسة ليجد والدته في المنزل، وقد ارتدت رداء الحمام عوضاً عن الساري، ويرى شقيقته مستيقظةً للمرة الأولى. ترتدي شقيقته منامةً وردية اللون تغطي ذراعيها وقدميها، وقلنسوة

من اللون ذاته رُبطت حول وجهها الدائري. كان والده في المنزل أيضاً. يطلب والداه منه الجلوس على الأريكة في حجرة المعيشة، ثم يضعان سونالي في حجره، ويطلبان منه أن يضع يداً على صدرها والأخرى تحت رأسها، ثم يلتقط أشوك لهما صوراً بكاميرا نيكون الجديدة، ذات عدسةٍ قطرها خمسة وثلاثون ميليمتراً. يتحرك غطاء العدسة برفق وعلى نحوٍ متكررٍ، فالحجرة تشع بنور ما بعد الظهيرة المنعش. وبينما يجلس غوغول متخشباً، ينظر إلى وجه شقيقته، ثم يقول: «مرحباً سونالي»، وينظر إلى عدسة الكاميرا. وعلى الرغم من أن سونالي هو الاسم الرسمي الموثق في شهادة ميلاد الطفلة، وهو الاسم الذي ستحمله رسمياً طوال حياتها، فإن الجميع في البيت بدأوا ينادونها بسونو، ثم سونا وأخيراً سونيا. جعلها هذا الاسم؛ سونيا، مواطنةً في هذا العالم. في الوقت نفسه، فإن هذا الاسم يربطها بشقيقها؛ إنه اسمٌ روسي وأوروبي، وينتشر كذلك في جنوب أمريكا. وفي نهاية المطاف، سيكون هذا اسم زوجة رئيس الوزراء الهندي الإيطالية الجنسية. شعر غوغول في بادئ الأمر بخيبة أملٍ من حقيقة أنه لن يتمكن من اللعب مع الطفلة، وأن جل ما تفعله هو النوم وتلويث حفاضها والبكاء. لكنها، أخيراً، تبدأ بالاستجابة له، فتكركر عندما يدغدغ بطنها أو عندما يدفعها بأرجوحةٍ يتم تحريكها من خلال ذراعٍ تُحدث صوتاً مزعجاً، أو عندما يحاول إخافتها وهو يصرخ قائلاً: «بيكابو»! يساعد غوغول والدته عندما يحين موعد استحمام الطفلة، فيحضر المنشفة والشامبو. ويقوم كذلك بتسليتها في الكرسي الخلفي للسيارة عندما يقود والده السيارة على الطريق السريع في أمسيات أيام

السبت، متجهين إلى حفلات العشاء التي يعدها أصدقاء والده. الآن، انتقل معظم أصدقائهم العاملين في جامعة كيمبردج إلى أماكن مثل ديدم وفرامنغام وليكسينغتون ووينشيستر، ليسكنوا منازل لها باحات خلفية وممرات أمامية. التقى آل غانغولي بالعديد من البنغاليين، لدرجة أنَّ من النادر أنْ يقضيا سبتاً واحداً وحدهما، لذلك ستتكون ذكريات الطفولة الخاصة بغوغول، مدى الحياة، من مشهدٍ واحدٍ متكررٍ: ثلاثون شخصاً تقريباً يتجمعون مساء كل سبتٍ في أحد المنازل التي تتكون من ثلاث حجرات نوم في إحدى الضواحي، الأطفال يشاهدون التلفاز أو يلعبون ألعاب الألواح[1] في القبو، والآباء يتناولون الطعام أو يتحدثون البنغالية التي لا يتحدثها الأطفال فيما بينهم. سيتذكر غوغول تناول صلصة الكاري الكثيفة من أطباق ورقية، وأحياناً البيتزا، أو طعام صيني طُلب خصيصاً للأطفال. دعا أشوك وأشيما عدداً كبيراً من الضيوف للاحتفال بتناول سونيا وجبة الأرز الأولى، لذلك يرتب أشوك لاستئجار قاعةٍ داخل الحرم الجامعي تحوي عشرين طاولة قابلة للطي وموقداً. وعلى النقيض من شقيقها المطيع، ترفض سونيا ذات السبعة أشهر كل الطعام الذي قُدم إليها. تلعب سونيا بالتراب الذي أحضره أشوك من باحة المنزل، وتهدد بوضع قطعة الدولار المعدنية داخل فمها. «هذه الفتاة»! يعلق أحد الضيوف، «هذه الفتاة أمريكية بحق»!

وبينما تتميز حياة أشوك وأشيما في نيوإنجلند بتزايد عدد الأصدقاء البنغال، يتضاءل عدد الأشخاص الذين ينتمون إلى حياتهم السابقة،

(1) لعبة تتكون من قطع توضع، وتزال أو تحرك على لوح خاص بها، ولها قوانينها الخاصة. عادةً ما تكون لعبة الألواح لعبة ذهنية أو تعتمد على الحظ، أو الاثنين معاً. (المترجم)

والذين يعرفونهما بأسماء الدلال الخاصة بهما؛ مونو وميثو لا باسميهما الجيدين أو الرسميين. المزيد من حالات الوفاة والمزيد من المكالمات الهاتفية التي تفزعهما في منتصف الليل والمزيد من الرسائل البريدية التي تُعْلمهما عن أعمامٍ، وأخوالٍ، وعماتٍ وخالاتٍ غيبهم الموت. وعلى النقيض من رسائل أخرى، لا تضيع هذه الرسائل البريدية التي تحمل مثل هذه الأخبار. بطريقة أو أخرى، يتم نقل هذه الأخبار دوماً مهما كانت قاسيةً، وتحمل بين طياتها أصداء الماضي. خلال عقدٍ من الزمان قضياه بعيداً عن الوطن، أصبح كل من أشيما وأشوك يتيمين. توفي والدا أشوك بالسرطان، وتوفيت والدة أشيما بمرضٍ أصاب كبدها. تسببت حالات الوفاة تلك في إيقاظ غوغول وسونيا في صباحاتٍ باكرة، فقد انتقل صراخ والديهما عبر الجدران الرقيقة لحجرة النوم المجاورة. يُهرع الطفلان إلى حجرة والديهما، فيتعثران ولا يفهمان ما يحدث ويشعران بالحرج من رؤية دموع والديهما، لكنهما لا يشعران إلا بقليلٍ من الحزن. بطريقةٍ أو أخرى، يعيش أشوك وأشيما حياة أجدادهما الطاعنين في السن، الذين قضوا حياتهم لأجل أشخاصٍ عرفهما كل من أشوك وأشيما وأحبوهما، وحياة أشخاصٍ أحياء باتت الذكرى عزاءهم الوحيد. وحتى أفراد العائلة الذين مايزالون على قيد الحياة، فهم أمواتٌ نوعاً ما؛ لا يمكن رؤيتهم أو لمسهم. تتسبب الأصوات عبر الهاتف- على الرغم من أن بعضها يحمل أنباء ولاداتٍ أو زيجاتٍ جديدة بين الحين والآخر- بإخافة أشوك وأشيما. يتساءل كلاهما أحياناً: هل يعقل أنهم مايزالون أحياء ويتحدثون إلينا؟ عندما يزور أشوك وأشيما كلكتا كل

بضع سنين، يشعران أنهما غريبان عند رؤية أقربائهما، ولكن سرعان ما تنقضي الأسابيع الستة أو الثمانية كما لو كانت حلماً. وعندما يعودان إلى شارع بيمبيرتون، وبيتهما المتواضع الذي، فجأةً، بدا لهما ضخماً جداً، لا يجدان ما يذكّرهما بأقربائهما. وعلى الرغم من أنهما التقيا من الأقارب ما يقرب من مئة، فإنهما يشعران الآن أنهما الوحيدان المتبقيان من آل غانغولي في العالم أجمع. إنهما واثقان أن أهلهما لن يشهدوا حياتهما تلك، لن يستنشقوا هواء نيوإنجلند الرطب في الصباح، أو يروا الدخان المتصاعد من مدخنة أحد الجيران، أويرتعشوا برداً داخل السيارة وهم ينتظرون ذوبان الصقيع عن زجاجها، والمحرك حتى يسخن.

لكن بالنسبة إلى المراقب العادي، لا يختلف آل غانغولي، بمعزلٍ عن الاسم المكتوب على صندوق البريد الخاص بهم، وأعداد صحيفتي *الهند في الغربة* و*أخبار اليوم البنغالية* اللتين تُوزعان في نيوإنجلند، عن جيرانهم. يحتوي كراجهم، مثل أي كراجٍ آخر، على جاروفٍ ومقصٍ لتقليم النباتات ومزلجة. ابتاع آل غانغولي آلة الشواء ليستخدموها كفرن التنور، ويعدوا أطباقاً مختلفة على الشرفة في الصيف. تشتمل كل خطوةٍ وكل اكتسابٍ لما هو جديد في حياة أشوك وأشيما، مهما كان بسيطاً، على استشارة أصدقائهما البنغال. هل تختلف المدمة البلاستيكية عن المعدنية؟[1] أيهما أفضل، شجرة عيد ميلادٍ حقيقيةٍ أو اصطناعية؟ تعلَّم أشوك وأشيما طريقة شي الديك الرومي في عيد الشكر وتتبيله بالثوم والقرفة والفلفل الأحمر، وأن يضعا إكليل زهور على بابهما في

(1) المدمة : أداة ذات أسنان لجمع العشب أو لتقليب التربة أوتسويتها. (المترجم)

كانون الأول، وأن يُلبسا رجل الثلج وشاحاً صوفياً، وأن يلونا البيض المسلوق باللونين البنفسجي والزهري في عيد الفصح، ثم يخفيانه حول المنزل. من أجل غوغول وسونيا، يحتفل أشوك وأشيما كذلك بميلاد المسيح بصخبٍ يزداد تدريجياً، وهو حدثٌ يتطلع إليه طفلاهما أكثر من الاحتفال بمهرجان الآلهة درغا أو سارازواتي. خلال هذين المهرجانين اللذين يتم ترتيبهما في موعدٍ يتلاءم مع الجميع وعادةً أيام السبت مرتين في العام، يجرُّ أشوك وأشيما ولديهما إلى إحدى المدارس الثانوية أو إحدى قاعات جمعية فرسان كولومبوس، التي قام الأصدقاء البنغال بحجزها، حيث يُطلب منهما إلقاء بتلات زهرة الأذريون على مجسمٍ من الكرتون المقوى للآلهة، وتناول طعام نباتي غير حريف. لا يقارن هذا الاحتفال بعيد الميلاد عندما يقوم غوغول وسونيا بتعليق الجوارب على رف المدفأة، وتحضير البسكويت والحليب لسانتا كلوز، وتلقي عددٍ كبيرٍ من الهدايا والبقاء في المنزل عوضاً عن الذهاب إلى المدرسة.

يستسلم أشوك وأشيما لواقع الحال بطرق أخرى. وعلى الرغم من أن أشيما لا ترتدي شيئاً سوى الساري وصنادل ابتاعتها من متجر باتا للأحذية، يبدأ أشوك الذي اعتاد طوال حياته ارتداء القمصان والبناطيل المخيطة عند خياط رجالي، بارتداء بناطيل جاهزة الصنع. يستبدل أشوك أقلام الحبر السائل بأقلام الحبر الجاف ذات الرأس الكروي، وشفرات ويلكينسون وفرشاة الحلاقة المصنوعة من شعر الخنزير الخشن بأداة الحلاقة بيك، التي تحتوي العلبة الواحدة منها على ست قطع. وعلى الرغم من أن أشوك أصبح عضو هيئة تدريسٍ دائماً برتبة أستاذ مشارك،

فإنه توقف عن ارتداء السترة وربطة العنق عند الذهاب إلى الجامعة، وتوقف كذلك عن ارتداء ساعته بسبب وجود ساعاتٍ في كل مكانٍ حوله، بجانب السرير وفوق الموقد حيث يقوم بإعداد الشاي وداخل السيارة التي يقودها للعمل وعلى الجدار المقابل لمكتبه، لذلك تخلى عن ساعة فافر لوبا وأودعها درج جواربه. عندما يذهب أشوك وأشيما إلى السوبرماركت، يُسمح لغوغول بملء عربة التسوق بالأطعمة التي يتناولها هو وسونيا فقط، مثل شرائح الجبن المغلفة كل واحدةٍ على حدة، والمايونيز وسمك التونا المعلب والنقانق. يتوقف أشوك وأشيما عند قسم الأجبان واللحوم المطهوة المبردة لشراء السجق المدخن ولحم العجل المشوي، إذ تقوم أشيما بإعداد شطائر الغداء لغوغول كل صباح. تنصاع أشيما لإلحاح غوغول المتواصل، فتعدُّ له عشاءً أمريكياً مرةً في الأسبوع كمكافأةٍ صغيرةٍ. يتكون هذا العشاء من الأطعمة الجاهزة مثل قطع الدجاج المتبلة المنزوعة العظم، أو هامبرجر هيلبير المُعد من لحم الخاروف المفروم.

لكن، مايزال أشوك وأشيما يفعلان كل ما في وسعهما. فعلى سبيل المثال، يتكبد أشوك عناء قيادة السيارة إلى كيمبردج برفقة الطفلين لحضور فيلم «ثلاثية أبو»[1] في دار السينما الشهيرة أورسن ويلز، أو حضور عرضٍ لرقصة كاثاكالي الهندية، أو حفلة موسيقية لعزفٍ منفرد على آلة السيتار في صالة الميموريال. وعندما أصبح غوغول في الصف

(1) (Apu Trilogy): ثلاثة أفلام تحكي قصة حياة الطفل أبو(Apu)، مبنيةٌ على روايتين للمؤلف البنغالي بيبوتيبوشان باندي بودياي (**Bibhutibhushan Bandyopadhyay**)،(1894 – 1950).(المترجم)

الثالث، أرسله والداه إلى منزل أحد أصدقائهم البنغال لتلقي دروسٍ في اللغة والثقافة البنغاليتين أيام السبت، مرتين في الشهر. حين يصغي أشوك وأشيما لولديهما يسمعان ما يزعجهما، فلقد أصبح غوغول وسونيا كالأمريكيين تماماً، يتحدثان بإتقانٍ لغةً مازالت تُربك والديهما أحياناً، وبلهجاتٍ اعتاد الأخيران ألا يثقا بها. يتعلم غوغول في حصة اللغة البنغالية أن يكتب ويقرأ أبجدية أسلافه، التي يبدأ نطقها من مؤخرة الحلق بصوت الكاف الذي لا يلزم نطقه زفراً، ثم تتتابع بثباتٍ عبر سقف الحلق، وتنتهي بأحرف العلة المحيرة التي تخرج من بين شفتيه. يتعلم غوغول أن يكتب أحرفاً تتدلى من خط علوي يشبه القضيب، ثم يقوم في نهاية المطاف برص هذه الأشكال المعقدة جنباً إلى جنب ليكتب اسمه. يقرأ الأطفال كذلك نصوصاً مكتوبةً باللغة الإنجليزية عن عصر النهضة في البنغال، والأعمال الثورية البطولية لشوبهاش شاندرا بوشو[1]. لا يبدي الأطفال اهتماماً بما يدرسون، متمنين لو كانوا يتدربون على رقص الباليه أو يلعبون البيسبول. أما غوغول فيكره هذه الحصص، لأنها تمنعه من حضور حصص الرسم، التي تُعقد صباح كل سبت في الطابق العلوي للمكتبة العامة، والتي انضم إليها بناءً على اقتراح معلمة الفن. عندما يكون الجو صحواً يخرج الأطفال برفقة معلمتهم للتنزه في المنطقة التاريخية القديمة، وقد حملوا معهم كراسات الرسم الكبيرة وأقلام الرصاص، فتطلب المعلمة منهم رسم الواجهة الخارجية لهذا

(1) بطل هندي وقيادي بارز في حركة استقلال الهند، حاول خلال الحرب العالمية الثانية أن يساعد بلاده على التخلص من الهيمنة البريطانية، من خلال التعاون مع الألمان واليابانيين. توفي في 18 آب 1945. (المترجم)

المبنى أو ذاك. أما حصص اللغة البنغالية، فيقرأ الأطفال فيها من الكتب المخصصة للصفوف التمهيدية، وتحديداً الأطفال في عمر الخامسة، التي جُمعت صفحاتها معاً بخياطةٍ يدويةٍ، وقد أحضرتها معلمتهم معها عند عودتها من كلكتا. لا يملك غوغول إلا أن يلاحظ أن هذه الكتب مطبوعةٌ على ورقٍ يشبه إلى حدٍّ كبير ورق المرحاض الذي يستخدمه في المدرسة.

لا يعترض غوغول بوصفه طفلاً على اسمه، وإنما يميز أجزاء منه في شاخصات الشوارع، مثل: «اتجه يساراً» Go Left، «اتجه يميناً» Go Right، أو «خفف سرعتك» Go Slow. في أعياد ميلاد غوغول، تطلب أشيما كعكةً حيث كُتب اسمه على الطبقة المتجمدة البيضاء اللون بمزيجٍ سكري لونه أزرق فاتح. كان اسم غوغول أمراً طبيعياً للغاية، فلا تزعجه حقيقة أن اسمه لا يظهر على سلاسل المفاتيح أوالدبابيس المعدنية أو الأشكال الممغنطة التي تُثبَّت على الثلاجة. أخبره والداه أنهما سمياه غوغول تيمناً بمؤلفٍ روسيٍّ شهيرٍ وُلد في القرن السابق، وأن اسم هذا المؤلف، ومن ثم اسمه، معروف في كل أنحاء العالم، وسيحيا للأبد. في يومٍ من الأيام يصحبه والده إلى مكتبة الجامعة، ويريه صفاً كاملاً من مؤلفات غوغول وُضعت على رفٍ عالٍ لا يمكنه الوصول إليه وحده. وعندما فتح أشوك أحد الكتب عشوائياً وجد غوغول أن حروف الكتاب أصغر بكثير من حروف سلسلة هاردي بويز، التي بدأ مؤخراً يستمتع بقراءتها. «خلال بضع سنين،» يقول والده، «ستكون مستعداً لقراءتها». وبينما تتوقف المعلمات البديلات دائماً عند قراءة

قائمة الأسماء، وتبدو عليهن الرغبة في الاعتذار عندما يصلن إلى اسم غوغول، فيجبرنه على الصراخ قائلاً- حتى قبل أن ينادين اسمه- «هذا أنا»، لا تفكر المعلمات الأصيلات في المدرسة في الأمر كثيراً، فهن يعرفن غوغول. بعد مرور عام أو عامين لم يعد الطلاب يضايقون غوغول بمناداته «غيغل» (يقهقه) أو «غارغل» (يتغرغر). اعتاد الآباء على رؤية اسم غوغول ضمن قائمة الممثلين في برنامج المدرسة لمسرحيات عيد الميلاد. تكتب المعلمات سنةً تلو الأخرى في تقريره المدرسي: «غوغول طالبٌ متميزٌ محب للاستطلاع ومتعاونٌ». وبينما يندفع غوغول ليسجل هدفاً في لعبة البيسبول أو ينطلق مسرعاً في السباقات القصيرة أيام الخريف الذهبية، يصرخ زملاؤه في الصف قائلين: «غوغول، انطلق».

عندما بلغ غوغول العاشرة من عمره، زار كلكتا برفقة والديه ثلاث مراتٍ، مرتين في الصيف ومرةً في أثناء مهرجان درغا ولايزال يتذكر من رحلته الأخيرة رؤية اسم العائلة؛ «غانغولي»، منقوشاً بطريقة تستحق التقدير على الباب الخارجي المطلي باللون الأبيض لمنزل جديه لوالده. يتذكر غوغول أيضاً شعوره بالذهول عندما رأى صفحاتٍ تعج باسم غانغولي- ثلاثة عواميد في الصفحة الواحدة- في دليل هاتف كلكتا. أراد غوغول أن يشق إحدى تلك الصفحات ليأخذها كتذكارٍ، لكنه عندما أخبر أحد أبناء عمومته بذلك ضحك الأخير. خلال نزهاتهما بالتاكسي في المدينة، قام أشوك بلفت نظر ابنه إلى ظهور اسم العائلة مجدداً في أماكن متنوعة؛ على مظلة محلٍ للحلويات، ومحل بيع القرطاسية، ومحل اختصاصي البصريات. يخبر أشوك ولده أن اسم «غانغولي» هو إرثٌ

بريطانيٌّ؛ فهو تحريفٌ إنجليزي لكلمة غانغوبادياي؛ الاسم الحقيقي للعائلة.

عند عودتهما إلى أمريكا، إلى شارع بيمبيرتون، يساعد غوغول والده على إلصاق أحرف ذهبية اللون تشير إلى اسم العائلة- غانغولي- ابتاعها أشوك من محل مواد بناء، على جانب صندوق البريد الخاص بالعائلة. في صباح اليوم التالي لعيد الهالوين، وبينما كان غوغول في طريقه لمحطة الباص يكتشف أن الاسم اختُصِر إلى غانغ، أو العصابة، وكُتب بعدها بقلم رصاصٍ بخطٍ غير متقن كلمة «غرين»، فتكونت عبارة «العصابة الخضراء» (GREEN GANG).

شعر غوغول بالغضب والاشمئزاز لِما رأى، فاحمرت أذناه، وكان واثقاً أن والده سيشعر بالإهانة مثله. وعلى الرغم من أن غانغولي هو جزءٌ من اسمه أيضاً، فإن غوغول شعر أن تدنيس اسم العائلة استهدف والديه أكثر منه ومن سونيا. فالآن، بات غوغول مدركاً لما يحدث في المتجر حين يبتسم أمين الصندوق ابتسامةً متكلفةً عند سماعه لهجة والديه، وكيف يُفضل البائعون التوجه بالحديث إلى غوغول، وكأن والديه غير كفؤين أو أصمين. إلا أن والده لا يتأثر بمثل هذه المواقف، كما إنه لم يتأثر بحادثة صندوق البريد. «إنهم مجموعة من الأولاد يلهون»، يقول أشوك لابنه متجاهلاً الموضوع، وكأنه أمر اعتيادي، وفي مساء ذلك اليوم توجه أشوك وغوغول إلى محل البناء لشراء الأحرف المفقودة مرةً أخرى.

في يومٍ من الأيام تتضح لغوغول خصوصية اسمه وغرابته. كان

غوغول في الحادية عشرة من عمره، وكان في الصف السادس في رحلةٍ ميدانية مدرسيةٍ ذات أهدافٍ تاريخية. انطلق باص المدرسة بطلاب صفين اثنين ومعلمتين ومشرفتين إضافيتين لمرافقة الأطفال عبر البلدة، مباشرةً باتجاه الطريق السريع. كان يوماً رائعاً من أيام شهر تشرين الثاني الباردة قليلاً، وكانت السماء صافيةً وأوراق الأشجار الصفراء البراقة المتساقطة تغطي الأرض. يصرخ الأطفال ويغنون ويشربون المشروبات الغازية من علب معدنية من الألمنيوم. زار الأطفال، أولاً، مصنعاً للنسيج في مكانٍ ما في رود آيلاند. أما المحطة الثانية، فكانت بيتاً صغيراً من الخشب له نوافذ صغيرة للغاية، وكان غير مطلي، وشُيد على مساحةٍ شاسعةٍ من الأرض. بعدما تأقلم الأطفال مع الإضاءة الخافتة، بدأوا يحدقون في مكتبٍ صغيرٍ عليه محبرة، ومدفأة ملطخة بالسخام، وطشت لغسيل الملابس، وسريرٍ قصيرٍ ضيقٍ. قالت المعلمة للأطفال إن هذا المنزل كان في الماضي لشاعرٍ شهير. طُوق جميع الأثاث بحبلٍ وسط الغرفة، ووُضِعت عليه لافتات تقول «ممنوع اللمس». كان السقف منخفضاً، فاضطرت المعلمات إلى خفض رؤوسهن، في حين تنقلن بين الحجرات المعتمة. نظر الأطفال إلى المطبخ فرأوا موقداً معدنياً وحوضاً صخرياً، ثم اصطف الطلاب على طول الممر الترابي لينظروا إلى المرحاض الخارجي. صرخ الأطفال وقد شعروا بالتقزز عند رؤية وعاءٍ معدني يتدلى من أسفل كرسي خشبي. في محل الهدايا، ابتاع غوغول بطاقةً بريدية للمنزل، وقلم حبر جاف كروي الرأس على شكل ريشة الكتابة.

أما المحطة الأخيرة في هذه الرحلة الميدانية، فكانت المقبرة التي دُفن

فيها الشاعر، وهي ليست ببعيدة عن منزله. تجول الأطفال خلال دقائق معدودة بين الأضرحة، وبدت الشواهد- بعضها سميك وبعضها الآخر رقيق- محنية للوراء بفعل الرياح. اختلفت أشكال الشواهد وألوانها فبعضها مربع وبعضها مقوس، وبعضها أسود وبعضها رمادي، وكانت أغلبها بسيطةً غير مزخرفة، تغطيها الأشنة[1] والطحالب. تلاشت الكلمات المنقوشة على معظم هذه الشواهد، لكن الأطفال تمكنوا من إيجاد الشاهد الذي يحمل اسم الشاعر. «ليصطف الجميع»، تخاطب المعلمة الطلاب، «حان وقت العمل على وظائفكم». وزَّعت المعلمة أوراق صحفٍ متعددة على كل طالبٍ على حدة، وأقلام التلوين الشمعية الغليظة نُزعت عنها الرقع. يشعر غوغول بالبرد رغماً عنه، فلم تطأ قدماه مقبرةً من قبل، بل لمحها فقط عندما مرَّ والده بجوار مقبرةٍ كبيرةٍ في إحدى ضواحي البلدة، وهو يقود السيارة. وبينما علِق غوغول ووالده في الأزمة المرورية، في إحدى المرات، رأى غوغولِ وشقيقته جنازةً من مسافةٍ بعيدةٍ، ومنذ ذلك الحين، وكلما مروا بجوار المقبرة تطلب والدتهما منهما دوماً أن يحولا نظريهما عن المكان.

اندهش غوغول عندما لم تطلب منهم المعلمة رسم الشاهد، بل أن يفركوا سطحه بقلم الألوان من فوق الصحيفة فقط. جثت المعلمة على ركبتيها وقد أمسكت ورقة الصحيفة بيدها وثبتتها في المكان الصحيح فوق الشاهد، وبدأت توضح للطلاب كيفية أداء المهمة. انتشر الطلاب بسرعة بين صفوف الموتى وفوق أوراق الشجر المتيبسة يبحثون عن

(1) تنمو الأشنات على الصخور. (المترجم)

أسماء تشبه أسماءهم، شاعرين ببهجة الانتصار إذا ما تمكنوا من إيجاد قبرٍ ادعوا صلتهم بصاحبه. «سميث»، يصرخ أحدهم، «كولنز»، «وود» يصيح آخرون. أما غوغول فكان واعياً بما فيه الكفاية ليدرك أنه لن يجد قبراً يحمل اسم غانغولي، وأنه لن يُدفن بل سيحرق؛ لن يشغل جثمانه حيزاً في هذه الأرض، ولن يحمل أي شاهد اسمه في هذه البلاد. في كلكتا، رأى غوغول من نافذة التاكسي ومرةً من سطح منزل جديه، جثامين أشخاصٍ غرباء تُحمل على الأكتاف في الشوارع، وقد زُينت بالزهور، ولُفت بالقماش.

يمشي غوغول باتجاه شاهدٍ رفيعٍ أصبح لونه داكناً، ولكنه يسر الناظرين، فهو مستدير من الأعلى، ثم يعلوه صليبٌ. جثا غوغول على العشب ثم رفع الصحيفة للأعلى، وضعها على الشاهد وبدأ يفرك بقلم الألوان. بدأت الشمس بالغروب، وكانت أصابع غوغول متصلبةً من البرد. جلست المعلمات والمشرفتان على الأرض، ومدوا أرجلهم إلى الأمام واتكؤوا على الشواهد. انتشر عبير سجائر النعناع، التي كانوا يدخنونها في الهواء. في بادئ الأمر، بدا الشاهد بلا ملامح بسبب طبقة اللون الأزرق الغامق الرقيقة، ولكن، فجأة، يجد غوغول صعوبة في متابعة الفرك. سرعان ما ظهرت الأحرف الواحد تلو الآخر بطريقةٍ سحريةٍ رائعة على الورقة: «أبيجا غريفين»، 1701– 1745. لم يقابل غوغول شخصاً اسمه «أبيجا» قط، تماماً كما أصبح يدرك الآن أنه لم يقابل شخصاً اسمه غوغول من قبل. يتساءل غوغول عن كيفية نطق الاسم، وإن كان رجلاً أو امرأة. يمشي غوغول نحو شاهدٍ آخر لا يتجاوز طوله

قدماً واحداً، ويضع ورقةً أخرى عليه. دلت أحرف الشاهد على الاسم التالي: «الطفل أنغويش ماذير». يرتعش غوغول متخيلاً عظاماً بحجم عظامه مدفونة تحت الأرض. شعر بعض طلاب الصف بالملل من متابعة الأمر، فبدأوا يركضون حول القبور، يدفعون ويمازحون بعضهم ويطقطقون بالعلكة، بيد أن غوغول كان يتنقل من ضريح إلى آخر ممسكاً بالورقة وقلم التلوين، محيياً أسماء الموتى الواحد تلو الآخر. «بيرغرين ووتن» تاريخ الوفاة: 1699، «الشقيقان إيزيكل ويورياه لوكوود، فليرقدا بسلام». يُعجب غوغول بهذه الأسماء وغرابتها وزخرفها. «هذه بعض الأسماء التي لا نراها كثيراً في أيامنا هذه»، يقول أحد المشرفين الذي يمر بجانب غوغول، وينظر إلى ما صنعه، ثم يضيف: «مثل اسمك، نوعاً ما». حتى تلك اللحظة لم يخطر ببال غوغول أن الأسماء تتلاشى عبر الزمن، وتموت كالبشر تماماً. في طريق العودة إلى المدرسة قام الأطفال الآخرون بتمزيق أوراقهم التي استخدموها في تظهير الأسماء، ثم قاموا بتجعيدها بين أصابعهم، وقذفوا بها رؤوس بعضهم، ثم خلَّفوها وراءهم تحت المقاعد ذات اللون الأخضر الداكن. أما غوغول، فكان صامتاً، فقد قام بلف الورق الخاص به كما لو كان مخطوطةً ورقيةً، وضمها إلى حضنه.

في البيت، شعرت أشيما بالفزع، فأي رحلة ميدانية تلك! ألا يكفي أنهم يقومون بتجميل الجثث بأحمر الشفاه، ويودعونها داخل صناديق مبطنة بالحرير تمهيداً لدفنها؟ «في أمريكا فقط» (عبارةٌ بدأت أشيما مؤخراً بترددادها كثيراً)، يُصطحب الأطفال إلى المقابر باسم الفن! ماذا سيتلو هذا؟ تريد أشيما أن تعرف. رحلة ميدانية إلى المشرحة؟ تخبر أشيما

غوغول أن درج المحرقة المؤدي إلى النهر المقدس في كلكتا، يعدُّ أكثر الأماكن المحرمة، وأنها تتخيل رغماً عنها جثامين والديها وقد ابتلعتهما النيران، على الرغم من أنها كانت هنا في أمريكا، ولم تشهد مراسم الحرق قط. تقول أشيما بصوتٍ مرتعشٍ: «الموت لايصبح جزءاً من الماضي، ولا مكاناً لرسم اللوحات!» ترفض أشيما تعليق الأوراق التي أحضرها غوغول معه من المقبرة بجانب إبداعاته الفنية الأخرى الموجودة في المطبخ، مثل رسوماته بأقلام الفحم والكولاج[1]، وسكيتش لمعبدٍ إغريقي نقله من موسوعةٍ، ولوحةٍ لواجهة مبنى المكتبة العامة رسمها بأقلام الباستيل حصلت على المركز الأول في مسابقةٍ أقيمت تحت رعاية القيّمين على المكتبة. لم ترفض أشيما قط أياً من أعمال ابنها الفنية من قبل، لذلك تشعر بالذنب عندما تدرك أنها ثبّطت همته، إلا أن حسها المنطقي سرعان ما يُهون الأمر عليها. كيف يُتوقع منها أن تعد العشاء لعائلتها وأسماء الموتى معلقةٌ على الحائط؟

لكن غوغول يتعلق بهم! لأسبابٍ يعجز عن شرحها أو حتى بالضرورة فهمها، تحدثت إليه أرواح هؤلاء البيوريتانيين القدماء؛ المهاجرين الأوائل إلى أمريكا، الذين يحملون هذه الأسماء القديمة البالية التي يصعب تصورها؛ تحدثوا إليه مراراً وتكراراً، حتى إنه رفض التخلص من الأوراق التي تحمل تلك الأسماء، على الرغم من شعور والدته بالاشمئزاز. يقوم غوغول بلف الأوراق وحملها معه إلى الطابق

(1) فن الكولاج: فن القص واللصق، إذ يقوم الفنان بقص صورٍ من المجلات، ثم يلصقها على اللوحة. (المترجم)

العلوي، ووضعها خلف خزانة الأدراج في حجرته، لأنه يعلم أن والدته لن تتكبد عناء النظر هناك، وستبقى الأوراق مهملةً ولكن محمية، حيث سيتراكم عليها الغبار لسنوات.

4

1982

إنه عيد ميلاد غوغول الرابع عشر. وكمعظم الأحداث في حياته، كان عيد ميلاده ذريعة أخرى لإقامة حفلةٍ لأصدقائهم البنغاليين. دُعي أصدقاؤه في المدرسة في اليوم السابق. كان حدثاً مملاً نوعاً ما، اقتصر على تناول البيتزا التي ابتاعها والده في طريقه إلى المنزل، ومشاهدة لعبة البيسبول في التلفاز، ولعب كرة البينغ بونغ في الحجرة الصغيرة. للمرة الأولى يرفض غوغول كعكةً مكسوةً بطبقةٍ من الكريمة، وصندوق المثلجات المتعددة النكهات، وشطائر النقانق، والبالونات، والأشرطة الملونة التي تُلصق على الجدران. أما الاحتفال الآخر، البنغالي، فأقامه آل غانغولي يوم السبت الأقرب إلى الموعد الفعلي لعيد ميلاد غوغول. كالمعتاد، تبدأ والدته بتحضير الأطباق قبل أيامٍ من الموعد المحدد، فتزدحم الثلاجة بأكوامٍ من الصواني المغطاة بورق الطهي المعدني. تحرص أشيما على إعداد الأطباق المفضلة عند غوغول مثل لحم الخروف بصلصة الكاري الغنية بالبطاطس، وخبز البوري المقلي، وطبق يخنة

العدس الكثيفة مع حبات الزبيب المنتفخة البنية، وصلصة فطيرة التفاح، وحلوى جبن الريكوتا التي اكتسبت لون الزعفران. إعداد كل هذه الأطباق كان أقل إجهاداً من إطعام عددٍ بسيطٍ من الأطفال الأمريكيين، الذين يدَّعي نصفهم أن لديهم حساسيةً من الحليب، ويرفضون جميعاً تناول القشرة التي تغلف رغيف الخبز.

حضر أربعون ضيفاً تقريباً قدِموا من ثلاث ولاياتٍ مختلفة. ارتدت النساء الساري الذي كان مبهراً للغاية، أكثر من البناطيل وقمصان البولو قصيرة الأكمام التي ارتداها أزواجهن. جلست مجموعةٌ من الرجال على الأرض في حلقةٍ، وبدأوا لعبة بوكر. الضيوف هم عمات غوغول وأعمامه الفخريون، وقد اصطحبوا أطفالهم معهم. من الواضح أن جمهور والديه لا يؤمن باستخدام جليسة الأطفال. وكالمعتاد، كان غوغول أكبرهم عمراً، فهو أكبر من أن يلعب لعبة الغميضة مع شقيقته سونيا -التي تبلغ الثامنة من العمر- ومع أصدقائها الذين سقطت بعض أسنانهم اللبنية، وصديقاتها اللواتي سرَّحن شعرهن كذيل الفرس، ولكنه أصغر من أن يجلس مع والده والأزواج الآخرين في حجرة المعيشة، ليناقش سياسة ريغان الاقتصادية، أو من أن يجلس حول المائدة في حجرة الطعام، لينهمك في القيل والقال مع والدته والزوجات الأخريات. أقرب شخصٍ لعمر غوغول فتاة تدعى موشومي، انتقلت عائلتها مؤخراً من إنجلترا إلى ماساتشوسيتس، وقد احتفلت عائلتها بعيد ميلادها الثالث عشر قبل بضعة أشهر بالأسلوب نفسه، إلا أن غوغول وموشومي لا يجدان ما يتحدثان عنه. تربعت موشومي على

الأرض مرتدية نظارتها ذات الإطار البلاستيكي الكستنائي، وعصابة رأسٍ منقطة منتفخة من بولكا تشد شعرها الكثيف القصير -لا يتجاوز طوله ذقنها- إلى الوراء. وضعت موشومي في حجرها حقيبة بيرمودا خضراء مزينةً بأشرطةٍ وردية ولها يدٌ خشبيةٌ، وضعت بداخلها مرطباً للشفاه بنكهة السيفن أب، استخدمته بين الحين والآخر. تقرأ موشومي رواية *كبرياء وهوى* ذات الغلاف الورقي، ويبدو من صفحاتها المتجعدة أنها قُرئت مراراً وتكراراً، في حين يشاهد الأطفال الآخرون ومعهم غوغول مسلسل «قارب الحب» و«جزيرة الخيال» وقد تكوموا جميعاً فوق سرير والديه وعلى جانبيه. أحياناً، يطلب أحد الأطفال من موشومي أن تقول شيئاً، أي شيء، بلكنتها الإنجليزية. أما سونيا فتسألها إن كانت قد رأت الأميرة ديانا في الشارع. ابتهج الأطفال عندما تحدثت موشومي في نهاية المطاف، فأعلنت قائلةً: «أنا أمقت البرامج التلفزيونية الأمريكية»! ثم تنهض لتتجول في الرواق لتكمل قراءة روايتها.

يفتح غوغول الهدايا بعد مغادرة الضيوف للمكان. تلقى غوغول العديد من القواميس والآلات الحاسبة ومجموعاتٍ متنوعة من أقلام الرصاص والحبر الجاف من كروس، والعديد من السترات البشعة. أما هدية والديه فكانت كاميرا التصوير الفوري وكراسةً للرسم وأقلام التلوين الخشبية وقلم الحبر الميكانيكي[1] الذي طلبه، بالإضافة إلى عشرين دولاراً لينفقها كيفما شاء. أما سونيا، فصنعت له بطاقةً من ورقةٍ شقَّتها من كراسة الرسم الخاصة به، وكتبت عليها بأقلام التخطيط

(1) قلم قابل لإعادة الاستخدام. (المترجم)

ماجيك البراقة عبارة «عيد ميلاد سعيد يا غوغلز»؛ الاسم الذي تصر على استخدامه بدلاً من «شقيقي». تضع أمه الهدايا التي لم تعجبه جانباً، وكانت معظمها تقريباً، لتهديها لأقربائه عندما يسافرون إلى الهند في المرة القادمة. في المساء، جلس غوغول في حجرته وحده ليستمع إلى إحدى إسطوانات وايت ألبوم على جهاز تشغيل الإسطوانات الخاص بوالديه، الذي لم يعودا يستخدمانه. حصل غوغول على هذا الألبوم من حفلة عيد الميلاد الأمريكية، حين أهداه إياه أحد أصدقائه في المدرسة. وُلد غوغول عندما شارفت فرقة البيتلز على الفناء، لكنه أحد المعجبين المخلصين والمتحمسين لأعضائها: جون، بول، جورج، ورينغو. خلال السنوات الماضية، قام غوغول بجمع كل ألبومات الفرقة تقريباً، والملصق الوحيد المثبت على لوحة الإعلانات المعلقة خلف باب حجرته هو النعي الخاص بجون لينون، الذي قصه غوغول من صحيفة *بوسطن غلوب*، وكان مصفراً وهشاً. جلس غوغول متربعاً على سريره، وقد انحنى فوق الإسطوانات عندما سمع قرعاً على الباب.

«تفضلي»، صاح غوغول معتقداً أنها سونيا، وقد ارتدت منامتها، وجاءت لتستعير لعبة كرة الحظ السحرية[1]، أو ما يُعرف بمكعب روبيك. فوجئ غوغول بوالده واقفاً مرتدياً جواربه، لكنه قد خلع حذاءه، بكرشه الصغير البارز من سترته القشدية اللون، وشاربه الذي خطه الشيب. كانت دهشة غوغول أعظم عندما رأى والده يحمل هديةً، فلم يعهد عنه أنه أعطاه هديةً منفصلةً عما تبتاعه له والدته مطلقاً.

---

(1) Magic 8 Ball: كرة تشبه كرة البلياردو لونها أبيض وأسود. (المترجم)

وبينما يدخل أشوك حجرة غوغول، يقول إنه أحضر له هديةً مميزة هذا العام. لف أشوك الهدية بأوراق التغليف المتبقية من عيد الميلاد العام الماضي، وكانت مخططةً بألوان متنوعة؛ الأحمر، والأخضر، والذهبي، وقام بلصقها من أطرافها المتجعدة بطريقةٍ بشعةٍ. بدا واضحاً أنها كتابٌ سميكٌ وغلافه مقوى، وأن والده لف الهدية بنفسه. ينزع غوغول ورق التغليف ببطء، وعلى الرغم من ذلك يترك الشريط اللاصق آثاراً على غلاف الكتاب. كُتب على كعب الكتاب: «المجموعة القصصية لنيقولاي غوغول»، ويبدو أن والده قام بقص الرقعة الخاصة بالسعر. «لقد طلبتُ الكتاب من محل بيع الكتب خصيصاً لك»، قال أشوك بصوتٍ مرتفع حتى يتمكن غوغول من سماعه بسبب صوت الموسيقى الصاخبة التي يستمع إليها. «من الصعب العثور على نسخةٍ من هذا الكتاب مجلدةً بغلاف مقوى هذه الأيام. لقد حصلتُ عليه من دار نشرٍ بريطانيةٍ صغيرةٍ، وقد استغرق وصوله أربعة أشهرٍ. أتمنى أن يحوز إعجابك»، قال والده.

ينحني غوغول باتجاه جهاز الستيريو ليخفض الصوت قليلاً. كان يفضل غوغول لو حصل على نسخة من سلسلة *دليل مُستَوقف السيارات للمجرة*[1]، أو حتى نسخة جديدة من رواية *الهوبيت*[2]، ذلك

(1) سلسلة كوميدية من قصص الخيال العلمي للمؤلف دوغلاس آدامز (1979). (المترجم)

(2) الهوبيت (أو ذهاباً وعودة) بالإنجليزية: (The Hobbit, or There and Back Again) هي رواية خيالية بقلم الكاتب البريطاني ج. ر. ر. تولكين، حاز الكتاب جائزة أفضل كتابٍ للأطفال، وتدور أحداث القصة في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، وقد كتبها تولكين لتسلية أبنائه الثلاثة. (المترجم)

أنه فقد نسخته الصيف الماضي في كلكتا عندما تركها فوق سطح منزل جده لوالده في أليبور، ثم اختطفتها الغربان. وعلى الرغم من اقتراحات والده بين الحين والآخر، لم يشعر غوغول بأي رغبةٍ في قراءة أي كلمةٍ من مؤلفات غوغول، أو حتى أي مؤلفٍ روسي آخر. لم يخبره والداه مطلقاً عن السبب وراء تسميته غوغول، فهو لا يعلم بأمر الحادث الذي كاد يُودي بحياة والده. اعتقد غوغول أن العرج الذي يعاني منه والده يعود إلى إصابةٍ تعرض لها في أثناء لعبه كرة القدم في فترة المراهقة. لم يخبر أشوك ابنه سوى نصف الحقيقة عن الكاتب غوغول، الذي يعد الأول أحد معجبيه.

«شكراً بابا»، قال غوغول، وكان متلهفاً للعودة إلى أغانيه. كان غوغول كسولاً مؤخراً ويخاطب والديه بالإنجليزية على الرغم من أنهما يتحدثان إليه باستمرارٍ بالبنغالية. يتجول غوغول بين الحين والآخر داخل المنزل وقد ارتدى حذاءه الرياضي المخصص للعدْو، وعند تناوله وجبة العشاء يستخدم الشوكة أحياناً.

ظل أشوك واقفاً في الحجرة، ويداه خلف ظهره، ينظر إلى غوغول مترقباً، بينما يقلب الأخير صفحات الكتاب. تُوجد صورةٌ وحيدةٌ في مقدمة الكتاب في صفحةٍ مصقولةٍ أكثر من باقي صفحات الكتاب، وهي رسمٌ بقلم الرصاص للمؤلف، الذي بدا متباهياً بسترته المخملية وقميصه الأصفر المنتفخ من تحت السترة وربطة العنق. وجهٌ ماكرٌ وعينان سوداوان صغيرتان وشاربٌ رفيعٌ مشذب وأنفٌ مدببٌ طويلٌ جداً. أما شعره الداكن، فينسدل على جبينه من الأمام، ويلتصق برأسه

من الجانبين. هناك أمرٌ مزعجٌ ألا وهو الابتسامة المتعجرفة الغامضة التي ترتسم على شفتيه الطويلتين الرفيعتين. شعر غوغول غانغولي بالارتياح لعدم وجود تشابه بينه وبين الصورة. صحيحٌ أن أنفه طويل، لكنه ليس طويلاً جداً، وشعره داكن، ولكن بالتأكيد ليس داكناً جداً، وبشرته شاحبة لكنها لا تُقارن بشحوب الصورة. وفضلاً عن ذلك، فطريقة تصفيف غوغول لشعره مختلفة تماماً، ذلك أنه يسرحه مثل البيتلز، فشعر مقدمة رأسه شديد الكثافة، حتى إنه يخفي حاجبيه. يرتدي غوغول غانغولي سترةً قطنية سميكة كُتبت عليها كلمة هارفارد، وبنطالاً مخملي الملمس (كوردروي) رمادياً من ليفيز. ارتدى غوغول ربطة عنق مرةً واحدةً في حياته عندما دعاه صديقه اليهودي إلى حفل بار متسفا[1] الخاص به. ينتهي غوغول إلى حقيقة أنه لا يوجد أي تشابهٍ بينه وبين الكاتب الروسي.

أصبح غوغول الآن يكره الأسئلة المتعلقة باسمه، ويكره اضطراره دوماً إلى التفسير. يكره غوغول أنه يضطر أيضاً أن يخبر الآخرين أن اسمه لا معنى له «باللغة الهندية». يكره كذلك أنه يضطر إلى ارتداء بطاقةٍ تحمل اسمه عند مشاركته في مؤتمر الأمم المتحدة، الذي يُقام في المدرسة. يكره غوغول أن يوقع اسمه أسفل لوحاته في حصة الفن. يكره حقيقة أن اسمه سخيفٌ وغامضٌ، وأنْ لا علاقة له بشخصيته الحقيقية، وأنه ليس اسماً أمريكياً أوهندياً، بل إنه - من بين جميع الأسماء- روسي. يكره حقيقة

(1) بار متسفا :بالعبرية (בר מצוה) هو حفل يهودي ديني يقام عند بلوغ الشاب اليهودي 13 من عمره؛ أي عندما يُعتبر مكلفاً بأداء جميع الفرائض المفروضة عليه حسب الشريعة اليهودية؛ الهالاخاه. (المترجم)

أنه مضطر إلى العيش مع اسمه هذا؛ اسم دلالٍ تحول إلى اسمه الرسمي، يوماً تلو الآخر، وثانيةً تلو الأخرى. يكره غوغول كذلك رؤية اسمه على مظروف الورق البني، الذي يحوي داخله اشتراكاً لقناة *ناشونال جيوغرافيك*، الذي أهداه إياه والداه العام الماضي بمناسبة عيد مولده، وأن يرى اسمه دائماً ضمن قائمة لوحة الشرف التي تطبعها الصحيفة المحلية في البلدة. أحياناً يزعجه اسمه جسدياً، على الرغم من أنه كيانٌ لا شكل له ولا وزن، تماماً مثل رقعة القميص التي سببت له الحكة وأجبره والداه على ارتدائه باستمرار. أحياناً يتمنى غوغول لو كان بإمكانه أن يُموِّه اسمه، كأن يختصره كما فعل جياديف؛ صديقه الهندي في المدرسة، الذي تمكن من جعل الآخرين يدعونه «جاي». لكن اسم غوغول قصيرٌ أصلاً ويسهل تذكره ويقاوم التغيير. لقد بدأ الأولاد الذين يناهزونه عمراً في التودد إلى الفتيات ودعوتهن إلى السينما والمطاعم التي تقدم البيتزا، إلا أن غوغول لا يتخيل نفسه يقول لإحدى الفتيات: «مرحباً، أنا غوغول»، تحت ظروفٍ رومانسيةٍ محتملةٍ. لا يسعه تخيل ذلك أبداً.

لا يعرف غوغول الكثير عن الكُتّاب الروس، ولكن يزعجه ويحيره اختيار والديه لاسم مؤلفٍ هو الأغرب. لو كان اسمه ليو أو أنتون لكان تقبل ذلك، بل يفضل غوغول جداً اسم أليكسندر الذي يمكن اختصاره إلى «أليكس». لكن يبدو كل هذا سخيفاً على مسامع غوغول وكأنها تجرد من كرامته وشعوره بالوقار. أكثر ما يزعج غوغول أنْ لا علاقة تربطه باسمه، فلطالما أخبر غوغول والده، في مناسباتٍ عديدة، أن «غوغول» هو المؤلف المفضل بالنسبة إلى والده لا بالنسبة إليه. ولكن

إنه، مرةً أخرى، خطأه وحده، فلقد كان من الممكن أن يناديه الآخرون، في المدرسة على الأقل، «نيكيل». ذلك اليوم؛ اليوم الأول في الروضة الذي لم يعد يتذكره، كان يمكن أن يغير كل شيء. كان بإمكانه أن يكون «غوغول» نصف الوقت فقط لا طواله. كان من الممكن أن تكون له هويةٌ بديلةٌ، تماماً مثل والديه عندما ذهبا إلى كلكتا؛ جانبٌ آخر من ذاته. «لقد حاولنا»، يفسر والداه لأصدقائهما وأقربائهما السبب وراء عدم تمتع غوغول باسمٍ جيد (رسمي) أيضاً، «لكنه لم يستجب سوى لاسم «غوغول»، وأصرت المدرسة على استخدام الاسم ذاته». يضيف والداه، «نحن نعيش في دولةٍ يُدعى رئيسها (جيمي)! لم يكن في وسعنا فعل أي شيء، حقاً».

«أشكرك، مرةً أخرى»، يقول غوغول لوالده الآن. يغلق غوغول الكتاب، ويمد رجليه فوق حافة السرير ليضع الكتاب على رف كتبه، لكن والده يقاطعه ويستغل الفرصة ليجلس على السرير بجانبه، ويضع يده على كتف غوغول للحظة. لقد ازداد طول غوغول خلال الأشهر الأخيرة ليصبح كوالده تقريباً، وبالإضافة إلى ذلك تلاشى امتلاء وجهه الذي ميزه في مرحلة الطفولة. أصبح صوت غوغول أجش، فلقد بات أغلظ قليلاً مما كان عليه. خطر لأشوك أن غوغول ربما يرتدي مقاس حذائه نفسه. يلاحظ أشوك، عندما ينعكس وهج المصباح الجانبي على وجه غوغول، ظهور شاربٍ خفيف فوق شفة ابنه العلوية. وكذلك، برزت تفاحة آدم من عنقه. أما يداه الشاحبتان فهما، كيدي أشيما، طويلتان ونحيلتان. يدهش أشوك من شدة التشابه بينه وبين غوغول عندما كان

في عمره. لكن، لا توجد صور فوتوغرافية توثق طفولة أشوك؛ لم يحصل أشوك على توثيقٍ مرئيٍّ حتى أصبح لديه وثيقة سفرٍ، وحتى بدأت حياته في أمريكا. يرى أشوك مُزيلاً لرائحة العرق على الطاولة الصغيرة بجانب السرير، وأنبوب كليراسيل؛ كريم معالجة حب الشباب. يرفع أشوك الكتاب القابع بينهما على السرير، ويمسد غلافه بيده بحرصٍ، ثم يقول: «لقد انتهزت الفرصة فقرأت الكتاب قبلك. لقد مضت سنواتٌ طويلةٌ منذ أن قرأتُ هذه القصص. أرجو ألا يزعجك الأمر»؟

- «لا بأس»، يقول غوغول.
- «أشعر بقرابةٍ مميزةٍ مع غوغول أكثر من أي مؤلفٍ آخر. هل تعلم السبب»؟ يسأل أشوك.
- «إنك تحب قصصه».
- «فضلاً عن ذلك، لقد قضى معظم حياته كشخصٍ بالغٍ بعيداً عن وطنه تماماً مثلي».

يومئ غوغول برأسه ثم يقول: «نعم، صحيح».

- «وهنالك سبب آخر». تتوقف الموسيقى ويعم السكون. يقلب غوغول الإسطوانة المعروفة بالثورة الأولى[1]، ثم يرفع صوت الستيريو.
- «ما هو»؟ يتساءل غوغول وقد بدأ صبره ينفد.

ينظر أشوك من حوله، فيلاحظ النعي الخاص بجون لينون مثبتاً على اللوحة خلف الباب، وشريط كاسيت لموسيقى هندية كلاسيكية

(1) Revolution 1

ابتاعه قبل أشهرٍ طويلة بعدما حضر حفلةً موسيقيةً في قاعة كريسج، لم ينزع عنه غوغول الغلاف بعد. ويرى أشوك كومةً من بطاقات التهنئة بعيد ميلاد غوغول مبعثرةً على السجادة، فيتذكر اليوم الذي حمل فيه ابنه للمرة الأولى قبل أربعة عشر عاماً في كيمبردج، وكان يوماً حاراً من شهر آب. منذ ذلك اليوم الذي أصبح فيه والداً بدأت ذكرى الحادث الذي كاد يُودي بحياته تنحسر حتى باتت تتلاشى تدريجياً عبر السنين. وعلى الرغم من أنه لن ينسى تلك الليلة مطلقاً، فإنها لم تعد عالقةً في ذهنه، لم تعد تطارده بالطريقة نفسها. لم تعد هذه الذكرى تخيم على حياته وتنغِّصها دون سابق إنذار كما كانت في السابق. عوضاً عن ذلك، تقهقرت تلك الذكرى لتصبح جزءاً من الماضي البعيد وجزءاً من مكانٍ أبعد من شارع بيمبيرتون. هذا اليوم؛ يوم عيد ميلاد ابنه، هو يومٌ لتكريم الحياة وليس لتلوينها بصبغة الموت. لذلك، يقرر أشوك في الوقت الراهن أن يترك أمر تفسير اسم ولده لنفسه.

- «لا يوجد سببٌ آخر، تصبح على خير»، يقول أشوك لغوغول، ثم ينهض عن السرير. يتوقف أشوك عند الباب، ثم يلف باتجاه غوغول ويسأله: «هل تعلم ماذا قال دوستوفيسكي يوماً»؟

يهز غوغول رأسه.

- «لقد خرجنا جميعاً من معطف غوغول»!

- «ماذا يعني ذلك»؟

- «ستفهم الجملة في يومٍ من الأيام. أطيب الأمنيات لك في هذا اليوم».

ينهض غوغول ويغلق الباب بعد مغادرة والده، الذي اعتاد دوماً أن يترك الباب موارباً، واعتقد غوغول أنها عادةٌ مزعجةٌ. يُحكم غوغول إغلاق الباب بالقفل المثبت على المقبض من باب الاحتياط، ثم يضع الكتاب على رفٍ علوي بين جزئيْ كتاب *الأخوة هاردي*. وبينما يتابع الاستماع إلى أغانيه، يستقر غوغول على سريره من جديد، عندها يخطر بباله أمرٌ ما. إن اسم «غوغول» ليس الاسم الأول للكاتب الذي يحمل هو اسمه الآن. «نيقولاي» هو اسمه الأول. «غوغول غانغولي»، اسم دلالٍ تحول إلى اسم رسمي، ليس هذا فقط، وإنما أصبح اسم العائلة لهذا المؤلف الاسمَ الأول لغوغول. لذلك يخطر في باله أيضاً أن ما من شخصٍ يعرفه في هذا العالم، في روسيا، في الهند أو في أمريكا أو في أي مكان، يحمل نفس اسمه، أو حتى له مصدر الاسم نفسه.

يخطط أشوك للحصول على إجازة تفرغ علمي العام القادم، ويخبر غوغول وسونيا أنهما سيسافران معاً إلى كلكتا لمدة ثمانية أشهر. عندما يخبره والداه بالأمر مساء أحد الأيام بعد تناول العشاء، يعتقد غوغول أنهما يمزحان. لكن يؤكد والداهما أنهما قاما بالفعل بحجز التذاكر، وتم ترتيب الأمر. «فكرا بالأمر كما لو كانت عطلةً طويلة»، يقول أشوك وأشيما لابنيهما المكتئبين. لكن غوغول يعلم أن مدة ثمانية أشهر لا تعد عطلة. تُفزعه فكرة قضاء ثمانية أشهر في حجرة يتشاطرها مع الآخرين، دون أسطواناته وجهاز الستيريو الخاص به، وبعيداً عن أصدقائه. إن قضاء ثمانية أشهر في كلكتا، من وجهة نظر غوغول، هي عملياً أشبه بالانتقال للعيش هناك، وهو احتمالٌ بعيد لم يخطر ببال غوغول مطلقاً

حتى هذه اللحظة. وبالإضافة إلى ذلك، فهو في السنة الثانية من المرحلة الثانوية. يشير غوغول إلى الأمر مستفسراً، «وماذا عن المدرسة»؟ عندها يذكِّره والداه أن معلميه في الماضي لم يمانعوا في تغيبه عن المدرسة من حينٍ إلى آخر. عندها أعطوه كراسات تمارين لمادتي الرياضيات واللغة الإنجليزية التي تجاهلها غوغول، وعندما عاد بعد شهرٍ أو شهرين، امتدح معلموه متابعته لدروسه. إلا أن مرشد غوغول التربوي يعبر عن قلقه عندما يخبره غوغول أنه سيفوِّت الفصل الثاني من الصف العاشر كاملاً. تدعو المدرسة أشوك وأشيما إلى الاجتماع بمرشد غوغول لمناقشة الخيارات المتاحة. يتساءل المرشد التربوي إن كان بالإمكان أن يلتحق غوغول بمدرسةٍ دوليةٍ في الهند، بيد أن أقرب واحدةٍ تقع في دلهي؛ أي تبعد ثمانمائة ميل عن كلكتا. عندها يقترح المرشد انضمام غوغول لوالديه بعد انتهاء العام الدراسي، وحتى ذلك الحين، يبقى مع أحد أقاربه حتى شهر حزيران. «ليس لدينا أقارب في هذا البلد»، تخبر أشيما المرشد التربوي. «لهذا السبب تحديداً نحن ذاهبون إلى الهند».

بعد أن أنهى غوغول أربعة أشهر في الصف العاشر أو كاد، وبعد عشاءٍ مبكرٍ تكوَّن من الأرز والبطاطا المسلوقة والبيض، وقد أصرت أشيما أن يتناوله غوغول وسونيا على الرغم من أنهما سيتناولان وجبةً أخرى على الطائرة، غادر غوغول أمريكا وقد حزم كتابي الهندسة الرياضية وتاريخ الولايات المتحدة مع أمتعته. أحكم أشوك إغلاق حقيبة غوغول بالإضافة إلى الحقائب الأخرى بالقفل، ثم ربطها بحبالٍ وألصق على كلٍ منها بطاقةً تحمل عنوان منزله في أليبور. دائماً ما يجد

غوغول تلك البطاقات غير مثبتةٍ كما يجب، وعندما ينظر إليها يشعر وكأن عائلته لا تعيش في شارع بيمبيرتون. غادرت العائلة في يوم عيد الميلاد مع مجموعةٍ ضخمةٍ من الحقائب إلى مطار لوغان، في حين كان يجب أن يكونوا في المنزل يفتحون الهدايا. أما سونيا التي كانت متكدرة المزاج جراء ارتفاعٍ بسيطٍ في درجة حرارتها سببه مطعوم التيفوئيد، فمازالت تتوقع أنٍ ترى شجرةً مزينةً بالأضواء عندما تدخل حجرة المعيشة في صباح اليوم التالي. لكنها لا ترى سوى حطام: بطاقات السعر التي كانت على الهدايا التي أُودعت الحقائب الآن لتوزع على الأقارب في الهند، وعلاقات ملابس بلاستيكية، والكرتون الذي نُزع من القمصان. يرتجف الجميع من البرد فقد غادروا المنزل دون ارتداء المعاطف أو القفازات، فهم ليسوا بحاجةٍ إليها حيث يتوجهون. وفضلاً عن ذلك فإنهم سيعودون في شهر آب؛ أي أن الصيف سيكون قد حل بالفعل. قام أشوك بتأجير المنزل لطالبيْن أمريكيين تعرف إليهما من خلال الجامعة؛ باربارا وستيف، وهما غير متزوجين. في المطار، يقف غوغول مع والده في طابور تسجيل الدخول وقد ارتدى الأخير جاكيتاً وربطة عنق؛ الملابس التي مايزال يعتقد أنه يجب ارتداؤها عند ركوب الطائرة. «أربعة أشخاصٍ في العائلة»، يقول أشوك عندما يصل إلى الموظف المسؤول، ويناوله أربع وثائق سفر، اثنتين أمريكيتين واثنتين هنديتين. «وجبتان هنديتان، رجاءً»، يضيف أشوك.

يجلس غوغول في الطائرة خلف والديه وسونيا التي جلست بجوارهما بعدة صفوفٍ؛ بعيداً عنهم في قسمٍ مختلفٍ تماماً. ينزعج والداه،

لكنه يخفي سروره لكونه يجلس وحده. عندما تقترب منه المضيفة مع عربة المشروبات، يجرب غوغول حظه ويطلب مشروب بلادي ماري[1] ليتذوق للمرة الأولى في حياته الطعم المعدني للكحول. توجهت الطائرة أولاً إلى لندن ثم إلى كلكتا عبر دبي. عندما حلقت الطائرة فوق جبال الألب نهض والده من مقعده ليلتقط صورةً لقممها المغطاة بالثلوج عبر زجاج النافذة. في الرحلات السابقة، كان غوغول يشعر بالبهجة لأنهم يحلقون فوق دولٍ عدة، وفي كل مرةٍ كان يتتبع مسار الرحلة على الخريطة الموجودة داخل جيب المقعد الذي يقع تحت الصينية الملحقة بالمقعد الأمامي، فيشعر نوعاً ما بروح المغامرة. إلا أنه يشعر بالإحباط هذه المرة، لأنهم يذهبون دائماً إلى كلكتا. وفضلاً عن زيارة الأقارب، لا يوجد شيء آخر يفعله غوغول في كلكتا. لقد زار غوغول المشتل وحديقة الحيوان وصالة فكتوريا ميموريال عشرات المرات. لكنهم لم يزوروا ديزني لاند أو جراند كانيون بعد. مرةً واحدةً فقط عندما تأخرت رحلتهم الوسطى في لندن، غادروا مطار هيثرو واستقلوا باصاً ثنائي الطابق ليتمتعوا بنزهةٍ في المدينة.

في المرحلة الأخيرة من الرحلة، كان على متن الطائرة عددٌ قليل من الركاب من غير الهنود. تعج القمرة الآن بمحادثاتٍ بالبنغالية، وكانت والدته قد تبادلت بالفعل العناوين مع العائلة التي تجلس على المقاعد المجاورة. تهرع أشيما إلى الحمام قبل هبوط الطائرة لتغير ملابسها في ذلك الحيز الصغير جداً، فتلبس «سارياً» جديداً. تُقدم الوجبة الأخيرة،

(1) مشروب كحولي يحتوي على عصير الطماطم. (المترجم)

التي تتكون من عجة البيض المطيبة بالأعشاب، وفوقها شريحة طماطم مشوية. يتلذذ غوغول بكل لقمة مدركاً أنه خلال الأشهر الثمانية القادمة سيختلف مذاق كل شيء. يرى غوغول من النافذة أشجار نخيلٍ وموزٍ وسماءً رتيبةً وكئيبةً. تلامس دواليب الطائرة الأرض، ثم يُرش جسم الطائرة بمُطهِّر. ينزل الجميع إلى مدرج الطائرات في مطار دم دم، ويستنشقون هواء الصباح المبكر الكريه الذي يسبب اضطراباً في المعدة. يتوقفون ليُلوحوا لأقاربهم الذين تجمهروا في صالة الاستقبال، وقد اعتلى الصغار أكتاف الأعمام. يلوح الجميع لآل غانغولي بحماسةٍ شديدةٍ. يشعر آل غانغولي بالراحة كالمعتاد عندما يعلمون أن جميع أمتعتهم وصلت سليمةً، ويشعرون براحةٍ أكبر لأن الجمارك لم تزعجهم. فُتح الباب الزجاجي، ومرةً أخرى وصلت عائلة غانغولي إلى أرض الوطن رسمياً، لا مزيد من رحلات الترانزيت؛ غمرهم أقرباؤهم بالعناق والقبلات وقرصات الوجنات والابتسامات. عددٌ لا يحصى من الأسماء على غوغول وسونيا أن يتذكراها، ليس مجرد العمة كذا والعم كذا بل مصطلحات بنغالية أكثر تحديداً مثل شقيقة الأم (الخالة)، وشقيقة الأب (العمة)، وشقيق الأم (الخال)، وزوجة الخال وشقيق الأب (العم)، وزوجة العم، حتى يتمكنا من تمييز أقارب والدتهما من أقارب والدهما، وإن كانت قرابة دم أو نسب. تذرف أشيما، الجميع يدعونها الآن مونو، دموع الفرح والراحة، أما أشوك، الجميع يدعونه الآن ميثو، فيُقبِّل وجنتي أشقائه، ويضم رؤوسهم بين يديه. يعرف غوغول وسونيا هؤلاء الأشخاص، لكنهما لا يشعران على غرار والديهما بالقرب منهم.

يتقمص أشوك وأشيما شخصيةً مغايرةً خلال دقائق معدودةٍ وأمام ناظري ولديهما؛ شخصية أكثر جرأةً وأقل تعقيداً، فيرتفع صوتاهما وتصبح ابتسامتهما أعرض، ويكشفان عن ثقةٍ لم يشهدها غوغول وسونيا في شارع بيمبيرتون. تهمس سونيا في أذن شقيقها بالإنجليزية قائلةً: «غوغلز، أنا خائفة»، ثم تبحث عن يده فتمسك بها وترفض أن تتركها.

يرافق حرس المطار آل غانغولي إلى سيارات الأجرة التي تنتظر في الخارج، ثم يغادرون المطار عبر الشارع المخصص للشخصيات المهمة، ويمرون بمكب نفاياتٍ هائل، ثم إلى قلب شمال كلكتا. وعلى الرغم من أن غوغول كان معتاداً على المناظر من حوله، فإنه مايزال يحدق في الرجال قصيري القامة وداكني البشرة الذين يجرون عربات الركاب، والمباني المتراصة المتداعية بشرفاتها ذات النقش الشبكي والمطارق والمناجل التي رُسمت على واجهاتها. يحدق غوغول في المسافرين إلى عملهم كل يومٍ، الذين يتمسكون بطريقةٍ خطيرةٍ بعربات الترام والحافلات، فيغدون مهددين بأن يُقذفوا في الشارع في أي لحظة، والعائلات التي تسلق الأرز وتغسل شعرها بالشامبو على رصيف المشاة. في شارع أميرست تقع شقة والدته التي تقطنها الآن عائلة خاله، وعندما يترجل غوغول وعائلته من التاكسي ينظر إليهم الجيران من نوافذ وأسطح منازلهم. برز ابنا غانغولي بأحذيتهما الرياضية ذات الألوان الزاهية باهظة الثمن، وقصات الشعر الأمريكية الطابع، وحقيبة الظهر المحمولة على كتفٍ واحد. عندما يدخلان المنزل، تُقدم لهما أكوابٌ من مشروب هورليك

الساخن[1]، وأطباق حلوى الجبن الإسفنجية المحلاة بالقطر، التي لا يشتهيانها ولكنهما يتناولانها بدافع الواجب فقط. طُلب إليهما أن يدوسا بقدميهما على قطعةٍ من الورق لتحديد مقاسها، ثم أخذها الخادم إلى محل باتا للأحذية ليبتاع لهما خفين بلاستيكيين ليرتدياهما داخل المنزل. فُكَّت الحبال عن الحقائب، ثم فُتحت ووُزعت الهدايا التي حازت إعجاب الجميع، الذين ارتدوها في الحال، ليتوثقوا من أن مقاساتها ملائمة.

يحاول غوغول وسونيا خلال الأيام التالية التأقلم مع فكرة النوم تحت شبكة البعوض، والاستحمام باستخدام طاسةٍ معدنيةٍ لسكب الماء على رأسيهما. في الصباح، يراقب غوغول أبناء خاله يرتدون زي المدرسة الأبيض والأزرق، ويشدون زجاجات الماء بنطاقٍ فوق صدورهم. تبقى العمة أوما في المطبخ طوال فترة الصباح لتزعج الخدم الذين يجلسون القرفصاء بجوار البالوعة وهم يفركون الأطباق المتسخة بالرماد، أو يسحقون كمياتٍ كبيرة من التوابل على ألواح حجرية تشبه شواهد الأضرحة. أما منزل آل غانغولي في أليبور، فيرى فيه غوغول الحجرة التي كان من الممكن أن يعيشوا فيها لو بقي والداه في الهند، والسرير ذا الأعمدة الأربعة، والسقف المصنوع من خشب الأبنوس، الذي صُمم ليناموا عليه معاً، وخزانة الملابس حيث كان من الممكن أن يحتفظوا بملابسهم.

يقضي آل غانغولي الأشهر الثمانية مع أقربائهم المتعددين، متنقلين بين منازل مختلفة عوضاً عن استئجار شقةٍ خاصةٍ بها. فعلى سبيل

(1) مشروب الحليب والشعير الساخن. (المترجم)

المثال، أقاموا في بوليغونغ وتوليغونغ وسولت ليك وبدج بدج متنقلين بسيارات الأجرة ذهاباً وإياباً عبر شوارع المدينة التي تكثر فيها المطبات. كل بضعة أسابيع، ينام غوغول على سريرٍ جديدٍ ويعيش مع عائلةٍ جديدةٍ وعليه أن يتعلم برنامجاً جديداً. عند تناول الطعام، تجلس العائلة على أرضيةٍ مغطاة بالطوب الأحمر أو الإسمنت أو مصطبةٍ مغطاةٍ بالحصى أو على طاولاتٍ أسطحها من الرخام البارد بحيث يصعب على غوغول وسونيا أن يسندا كوعيهما عليها. يسألهما أبناء العمومة وعماتهما وخالاتهما وأعمامهما وأخوالهما عن الحياة في أمريكا، وماذا يتناولان على الإفطار، وعن أصدقائهما في المدرسة. يتفرج الجميع على صور منزلهم في شارع بيمبيرتون، ويتساءلون قائلين: «سجادٌ في الحمام! تخيلوا ذلك»! ينشغل والده بكتابة الأبحاث وإعطاء محاضراتٍ في جامعة جودبور، أما والدته فتتسوق في نيوماركت، وتذهب إلى السينما وتلتقي بصديقات المدرسة القديمات. لا تطأ قدماها المطبخ مدة ثمانية أشهر. تتجول أشيما بِحُريةٍ تامة في كل أنحاء المدينة التي يجد غوغول صعوبةً في تمييز اتجاهاتها على الرغم من زياراته المتكررة لها. أما سونيا، فخلال ثلاثة أشهر، كانت قد قرأت روايات لورا إنجلز وايلدير التي أحضرتها معها، عشرات المرات. بين الحين والآخر، يفتح غوغول أحد كتبه المدرسية التي انتفخت بفعل الحرارة. وعلى الرغم من أنه أحضر معه حذاءه الرياضي، آملاً أن يتابع تمرينه للمشاركة في مسابقة الجري عبر البلاد، فإن من المستحيل أن يتمكن غوغول من الجري في هذه الشوارع المتصدعة المكتظة المحتقنة. في أحد الأيام، حاول غوغول العدو في الشارع، وكانت العمة أوما

تراقبه من سطح المنزل، فأرسلت خادماً وراءه خشية أن يضل الطريق.

كان من الأسهل على غوغول أن يستسلم لفكرة أنه حبيس الدار. في منزل والدي أشيما في شارع أميرست، يجلس غوغول إلى جوار طاولة الرسم الخاصة بجده، ويدس أصابعه في علبةٍ مليئةٍ بأقلام تلوين قد جفَّت. يرسم غوغول ما يراه عبر قضبان النافذة الحديدية: الأفق المتعرج، وأفنية المنازل، وميداناً مغطى بالحصى حيث يشاهد الخادمات يملأن جراراً نحاسية من بئرٍ تُسحب منه المياه بمضخة، والركاب الذين يترجلون من تحت المظلات المتسخة للعربات يهرعون إلى منازلهم حاملين صرراً مختلفة تحت المطر. في أحد الأيام، جلس غوغول على سطح المنزل يتأمل منظر جسر هاورا من بعيد، وبدأ يدخن سيجارة بيدي[1] الزهيدة الملفوفة بإحكام بورق الزيتون الأخضر برفقة أحد الخدم. من بين جميع الأشخاص الذين يحيطون بهم عملياً طوال الوقت، كانت سونيا حليفه الوحيد، فهي الشخص الوحيد الذي يتحدث ويجلس ويرى الأشياء بطريقته. وبينما ينام كل من في المنزل، يتشاجر غوغول مع سونيا حول من سيستخدم مسجل الجيب (الووكمان)، وحول مجموعة الأشرطة التي سجلها غوغول في حجرته في أمريكا، والتي تأثرت على ما يبدو بحرارة الجو المرتفعة هناك. من وقتٍ لآخر يعترفان بتوقهما الشديد والمؤلم للهامبيرغر أو لقطعةٍ من بيتزا البيبيروني أو لكوبٍ من الحليب البارد.

في فصل الصيف، يتفاجأ غوغول وسونيا عندما يعلمان أن والدهما قد خطط -أولاً- لرحلةٍ إلى دلهي، ليزوروا أحد أعمامهما ثم إلى أغرا

(1) (في الهند) «بيدي»؛ سيجارة رخيصة مصنوعة من التبغ الملفوف في ورقة. (المترجم)

ليزوروا تاج محل. ستكون رحلتهما الأولى خارج كلكتا، والمرة الأولى التي سيركبان فيها قطاراً هندياً. تغادر العائلة من محطة هاورا؛ تلك المحطة الشاسعة المرتفعة التي يتردد صدى الصوت في كل أرجائها، حيث يقوم حمالون حُفاة يرتدون قمصاناً قطنية حمراء بتكديس حقائب السامسونايت الخاصة بآل غانغولي على رؤوسهم، وحيث تنام عائلاتٌ بأكملها على الأرض، يتدثرون ويستلقون في صفوف. كان غوغول مدركاً للمخاطر التي قد يواجهونها، فقد أخبره أبناء عمه عن قُطاع الطرق الذين يتخفون في بيهار، لذلك يرتدي والده لباساً خاصاً تحت قميصه، له جيوب مخفية ليضع بداخلها النقود وتخلع والدته وسونيا حليهما الذهبية. يمشي أفراد العائلة على الرصيف متنقلين من مقصورةٍ إلى أخرى، باحثين عن أسمائهم في قائمة الأسماء الملصقة على الجدار الخارجي للقطار. يجلس كل واحدٍ منهم على السرير الأزرق المخصص له. أما السريران العلويان فيتدليان من الجدار للأسفل عندما يحين موعد النوم، وخلال النهار يُثبتان بمزلاجٍ مرن. يعطي جامع التذاكر كل واحدٍ منهم شرشفاً قطنياً سميكاً أبيضَ اللون وبطانيات صوفية رقيقة. في الصباح، ينظر الجميع من النوافذ الملونة في مقصورتهم المكيفة لمشاهدة المناظر الطبيعية. لكن، مهما كان النهار مشرقاً، فإن المشهد يبدو كئيباً رمادي اللون بسبب هذه النوافذ.

بعد مرور كل هذه الأشهر، لم يعتد آل غانغولي أن يكون أربعتهم وحدهم. في ولاية آغرا التي يزورها أشوك وأشيما وابناهما أيضاً للمرة الأولى، كانوا سياحاً لبضعة أيام، فأقاموا في فندقٍ مزوَّدٍ ببركة سباحة،

وارتشفوا الماء من قناني الماء لا من الصنبور، وتناولوا الطعام بالشوكة والسكين في المطاعم، ودفعوا فاتورتهم بالبطاقة الائتمانية. يتحدث أشوك وأشيما بلغةٍ هنديةٍ مكسرة، لذلك عندما يقترب منهما الأولاد الصغار ليبيعوهم بطاقاتٍ بريدية وحلياً زهيدة مصنوعة من الرخام، يُجبَر غوغول وسونيا على القول: «بالإنجليزية، رجاءً». يلاحظ غوغول أنهم كانوا، في مطاعم محددة، الهنود الوحيدين، باستثناء طاقم العاملين. تتجول العائلة مدة يومين حول الضريح المصنوع من المرمر، الذي يتوهج بألوان مختلفة حسب اللون الساقط عليه مثل الرمادي والأصفر والزهري والبرتقالي. يبدي آل غانغولي إعجابهم بتناسقه المثالي، ويقفون تحت المآذن- التي اعتاد السياح القفز منها ليلاقوا حتفهم- لالتقاط صور لهم. وبينما يتجولون حول قاعدة الضريح الضخمة، تقول أشيما لأشوك: «أريد صورةً لنا هنا، نحن الاثنين فقط»، لذلك تحت شمس آغرا الحارقة التي يصعب النظر إليها، والتي تطل على نهر يامونا الذي أصبح جافاً، يقوم أشوك بتعليم غوغول كيفية استخدام كاميرا نيكون، كيفية تركيز العدسة على الزاوية المرجوة، والانتقال من صورة إلى أخرى. يقوم مرشدٌ سياحيٌّ بإخبارهم أنه بعد اكتمال تاج محل قُطِع إبهام جميع البنائين وعددهم اثنان وعشرون ألفاً حتى لا يتكرر تصميم الضريح أبداً. في تلك الليلة، تستيقظ سونيا في حجرة الفندق وتصرخ معتقدةً أنها فقدت إبهاميها. «إنها مجرد أسطورة»، يقول والداها، إلا أن الفكرة ذاتها تسيطر على غوغول أيضاً. لم يؤثر فيه مبنى آخر إلى هذا الحد كما فعل هذا الضريح. في اليوم الثاني، حاول غوغول رسم القبة

وجزءاً من الواجهة الأمامية لتاج محل، لكنه لم يعد يشعر بهيبة المكان فيلقي بالرسم بعيداً. عوضاً عن ذلك ينغمس في قراءة الدليل ليدرس تاريخ الهندسة المغولية التي مكّنته من معرفة تسلسل الأباطرة المغول وأسمائهم: بابر، وهمايون، وأكبر، وجهنكير خان، وشاه جاهان، وأورانكزيب. في حصن آغرا، ينظر غوغول وعائلته من نافذة الحجرة التي سُجِن فيها شاه جاهان من قِبل ابنه. في سيكاندرا، إحدى ضواحي آغرا، تزور العائلة ضريح الإمبراطور أكبر، ويحدق الجميع في اللوحات الجصية المطلية بالذهب، الموجودة عند المدخل، التي شُوهت بالكسر والحرق ونهب الأحجار الكريمة المزدانة بها من خلال تقويرها بمدية، كما يحدقون في الرسومات والكتابات التي نُقشت في الجدار، ثم تتجول العائلة في الباحات والأديرة في مدينة فاتهيور سكري المهجورة؛ مدينة الإمبراطور أكبر، التي شُيدت من الحجر الرملي، في حين تحلق النسور والببغاوات فوق رؤوسهم. وعند ضريح شيخ الصوفية سالم شيشتي تقوم أشيما بربط خيوطٍ حمراء اللون في النافذة الرخامية المزودة بتكعيبة مطلة على الضريح، من أجل الحظ السعيد.

غير أن الحظ العاثر يلاحق العائلة في رحلة العودة إلى كلكتا. فبينما كان آل غانغولي في محطة بيناريس، طلبت سونيا من والدها أن يبتاع لها قطعة من فاكهة الكاكايا[1]، التي سببت لها حكةً لا تُطاق في شفتيها، ثم انتفختا ثلاثة أضعاف حجمها الطبيعي. في منتصف الليل وفي نقطة ما

(1) جاك فروت أو الكاكايا أو الجاكا أو الجاكية أو الجاكويرا: هي أكبر شجرة تحمل أكبر فاكهةٍ في العالم، يصل وزنها إلى 80 رطلاً. إنها ثمرة ضخمة، شوكية وبيضاوية، يعتقد أنها كانت أول شجرة نامية في الغابات الهندية المطيرة. (المترجم)

في ولاية بيهار، تعرض رجل أعمالٍ في مقطورة أخرى للطعن عندما كان نائماً، وسُرق منه مبلغٌ من المال يُقدر بثلاثمائة ألف روبية. لذلك توقف القطار خمس ساعاتٍ حتى أنهت الشرطة المحلية تحقيقاتها. لم يعلم آل غانغولي السبب وراء تأخر القطار حتى صباح اليوم التالي حين قُدِّمت وجبة الإفطار. كان الركاب وقتها منفعلين ومذعورين ويتحدثون جميعاً عن الموضوع ذاته. «استيقظي. لقد قُتل أحد ركاب القطار!» يخاطب غوغول سونيا من سريره العلوي. لم يشعر أحدٌ بالذعر أكثر من أشوك، الذي استرجع سراً حادث القطار ذاك في تلك الليلة، والحقل الذي وقع عنده الحادث. لكنه هذه المرة لم يسمع شيئاً، فلقد استغرق في النوم خلال وقوع حادثة القتل بأكملها.

عندما عادت العائلة إلى كلكتا، مرض غوغول وسونيا مرضاً شديداً. يُعلق أقرباؤهما على الأمر فيقولون إن السبب يعود إلى الهواء، والأرز، والرياح، فهما لا يستطيعان العيش في بلدٍ فقيرٍ. يعاني كلاهما من الإمساك، ثم يتبعه إسهال. يحضر الأطباء في المساء إلى المنزل يحملون حقائب طبية جلدية سوداء اللون وبداخلها سماعات الطبيب. يصف الأطباء مجموعة جرعات من دواء الإنتريكونول[1] ومنقوع حبوب النانخة[2] الذي يحرق حنجرتيهما. عندما تماثل غوغول وسونيا للشفاء، كان الوقت قد حان لعودتهما لأمريكا؛ ذلك اليوم الذي كانا مقتنعين أنه

(1) يستخدم الإنتريكونول لعلاج الإسهال والديسنتاريا. (المترجم)

(2) عشبة حولية لا يزيد ارتفاعها عن 50 سم. النبات يعطي مجموعة من الثمار على هيئة مظلة ذات لون أبيض تتحول بعد النضج إلى اللون البني المائل إلى الخضرة، والثمرة صغيرة تشبه في حجمها ثمار الخلة أوبذور الخردل. أما الجزء المستعمل من نبات النانخة فهو الثمار فقط. (المترجم)

لن يأتي أبداً، أصبح على بُعد أسبوعين فقط. أرسل أشوك أحد الخدم ليبتاع له الأكواب التي تُوضع فيها أقلام الرصاص المصنوعة في كشمير ليهديها لزملائه في الجامعة. أما غوغول فيشتري كتباً هزليةً هنديةً ليهديها لأصدقائه الأمريكيين. يراقب غوغول والديه في مساء اليوم الذي سيغادرون فيه، يقفان أمام الصور المؤطرة لأجداده الراحلين المعلقة على الحائط، وقد حنى كلٌّ منهما رأسه نحو الآخر، يبكيان كالأطفال. بعد ذلك تصحبهم قافلةٌ من سيارات الأجرة الأمباسدور عبر شوارع المدينة للمرة الأخيرة. تنطلق رحلتهم عند الفجر، لذلك يجب أن يغادروا المنزل في الظلام. تنطلق القافلة في شوارع فارغةٍ تماماً- بحيث لا يراهم أحد- باستثناء الترام بمصباحه الأمامي، فقد كان الشيء الوحيد الذي يتحرك في الشارع. يجتمع على شرفة المغادرين الصف ذاته من الأشخاص الذين استقبلوهم سابقاً في المطار واستضافوهم وأطعموهم وتملقوهم طوال الأشهر الماضية، والذين يشاركهم غوغول اسمه إن لم تكن حياته أيضاً، ليلوحوا مودعين. يعلم غوغول تماماً أن أقرباءه لن يبرحوا المكان حتى تحلق الطائرة مبتعدةً وتختفي أضواؤها المتقطعة في السماء. يعلم غوغول كذلك أن والدته ستجلس بصمتٍ محدقةً في الغيوم، والطائرة تعود بهم إلى بوسطن. أما غوغول فسرعان ما يحل الشعور بالراحة مكان الحزن الذي خيَّم على الأجواء. براحةٍ تامةٍ ينزع غوغول الورق المعدني الذي يغلف إفطاره، ويُخرج أدوات المائدة الفضية اللون من أكياس التغليف البلاستيكية المحكمة الإغلاق، ويطلب عصير البرتقال من مضيفة الخطوط الجوية البريطانية. بشعورٍ غامرٍ بالراحة أيضاً، يضع غوغول

سماعات الرأس ليشاهد الفيلم الكوميدي «الإثارة العظمى» (The Big Chill)، ويستمع إلى أفضل أربعين أغنية طوال الرحلة إلى وطنه؛ أمريكا.

يصل غوغول وعائلته خلال أربعٍ وعشرين ساعة إلى شارع بيمبيرتون. لا بد من جز العشب الذي نما كثيراً في شهر آب المشرف على الانتهاء. ترك المستأجرون ربع غالون من الحليب وخبزاً في الثلاجة وأربعة أكياس تسوق مليئة بالبريد على السلالم. في بادئ الأمر، ينام آل غانغولي معظم النهار ويستيقظون جل الليل ويلتهمون خبز التوست في الثالثة صباحاً، ويفرغون حقائبهم واحدةً واحدةً. وعلى الرغم من أنهم في المنزل الآن، فإن الحيز من حولهم والصمت المخيم يُشعرانهم بالإرباك. مازالوا يشعرون، نوعاً ما، أنهم في مرحلةٍ انتقاليةٍ، منفصلين عن حياتهم التي اعتادوها هنا، وأنهم يكرسون جهودهم لبرنامجٍ بديلٍ، ألا وهو الألفة التي يتشاركونها أربعتهم فقط. ولكن بحلول نهاية الأسبوع، بعد أن حضرت صديقات والدته ليبدين إعجابهن بالذهب، والساري الجديد الذي أحضرته معها، وبعد أن تمت تهوية الحقائب الثماني في الخارج، ثم وُضعت جانباً لحين الحاجة إليها، وبعد أن أفرغت أشيما خليط الحبوب المجففة المتبلة، والمكسرات في أوان حافظة، وبعد أن تناولت العائلة حبات المانجا المهربة على وجبة الإفطار مع حبوب الإفطار والشاي، عاد كل شيء لطبيعته وكأنهم لم يغادروا البلاد. «لقد أصبحت بشرتكما داكنةً جداً»! يقول أصدقاء والديهما بأسفٍ. في الواقع، لم يكن غوغول وسونيا بحاجةٍ لبذل جهدٍ كبيرٍ لتحقيق هذا الهدف. عاد آل غانغولي لحجراتهم الثلاث ولأسرَّتهم الثلاثة المنفصلة ولفرشاتهم

السميكة ووسائدهم وملاءات السرير الملائمة. بعد زيارةٍ واحدة للسوبرماركت، امتلأت الثلاجة وخزائن المطبخ بماركاتٍ تجاريةٍ مألوفة مثل سكيبي، وهود، وبمبل بي، ولاند أف ليكس. تدخل والدتهما المطبخ لتعد لهما وجباتهما من جديد. يجز والده العشب، ويقود سيارته ويعود إلى عمله في الجامعة. ينام غوغول وسونيا كما يحلو لهما ويشاهدان التلفاز ويعدان شطائر زبدة الفول السوداني والجيلي في أي وقتٍ من اليوم. مرةً أخرى، يتشاجران كما يشاءان ويزعجان بعضهما، ويصرخان ويصيحان، حتى إنهما يقولان لبعضهما «اخرس أو اخرسي». يستحم غوغول وسونيا بالماء الساخن، ويتحدثان مع بعضهما بالإنجليزية، ويركبان دراجتيهما في الحي. وبالإضافة إلى ذلك، يدعو غوغول وسونيا أصدقاءهما الأمريكان الذين سعدوا برؤيتهما جداً، لدرجة أنهم لم يسألوهما عن المكان الذي سافرا إليه. وهكذا طُويت الثمانية أشهر الماضية، وسرعان ما نسياها مثل ملابسٍ يتم ارتداؤها لمناسبةٍ معينةٍ أو لموسمٍ انقضى ثم، فجأةً، أصبحت غير ملائمة، ولا علاقة لها بحياتهما.

يعود غوغول إلى المدرسة الثانوية في أيلول ليبدأ السنة الأخيرة، فقد انضم إلى الصفوف المخصصة للطلبة المتفوقين في مادة الأحياء والتاريخ الأمريكي واللغة الإنجليزية، بالإضافة إلى صف علم حساب المثلثات المتقدم، وصف اللغة الإسبانية. يقرأ غوغول رواياتٍ مختلفة في صف اللغة الإنجليزية مثل *إيثان فروم*، و*غاتسبي العظيم*، و*الأرض الطيبة*، و*وسام الشجاعة الأحمر*. عندما حان دوره، اعتلى المنصة ليُلقي خطاب «غداً، وغداً، وغداً» من مسرحية ماكبث؛ أبيات الشعر الوحيدة التي

سيحفظها عن ظهر قلب بقية حياته. السيد وولسون، معلم غوغول، رجلٌ نحيلٌ، ولكنه قوي ولا يخجل من كونه خريج إحدى المدارس التحضيرية الباهظة[1]، وصوته عميقٌ على نحوٍ مدهش، وشعره أشقر يميل إلى الحمرة، وعيناه خضراوان صغيرتان، ولكنهما حادتان، ويرتدي نظاراتٍ تتميز بإطارها البارز. يُعَدُّ السيد ويلسون موضوعاً للتكهنات على مستوى المدرسة كلها، فقد ارتبط اسمه بفضيحةٍ تافهةٍ، لأنه كان متزوجاً من السيدة ساغون؛ معلمة اللغة الفرنسية. يرتدي السيد ويلسون سراويل قماش وستراتٍ مصنوعة من صوف شيتلاند[2] ذات لونٍ واحدٍ فاتح مثل الأخضر الزيتي الفاتح والأصفر والأحمر. يرتشف السيد ويلسون القهوة السادة باستمرار من الكوب الأزرق نفسه، المكسورة حافته، ولا يطيق أن يستمر في الحصة التي مدتها خمسون دقيقة دون أن يستأذن ليدخن سيجارةً في الحجرة المخصصة لاستراحة الأساتذة. وعلى الرغم من قِصر قامته، يتمتع السيد ويلسون بحضورٍ قياديٍّ ساحرٍ داخل الصف. يُعرف عنه أن من الصعب قراءة خط يده. يُعيد السيد ويلسون مواضيع التعبير للطلبة وعليها دوماً بقع داكنة دائرية الشكل من كوب القهوة أو بقع ذهبية اللون من كأس الويسكي الذي يشربه. في كل عام، يمنح السيد ويلسون علامة مقبول أو راسب لجميع الطلبة على الفرض الدراسي الأول: تحليلٌ لقصيدة «النمر» لويليام بليك. يصر عدد من طالبات الصف أن السيد ويلسون جذابٌ على نحوٍ لا يُوصف،

(1) Preppery: اشتقت هذه الكلمة من المدارس التحضيرية، التي تسبق التعليم الجامعي، ويلتحق بها طلاب الطبقة الغنية في الولايات الشمالية الشرقية في الولايات المتحدة. (المترجم)

(2) خيوط من صوف الخراف التي تنمو في جزر شيتلاند. (المترجم)

فهن شديدات الولع به!

يعد السيد ويلسون أول معلمي غوغول، الذين يعرفون غوغول المؤلف، ويهتمون بكتاباته. وبينما كان السيد ويلسون يقرأ قائمة الأسماء في اليوم الدراسي الأول، رفع نظره إلى الأعلى من المنصة، وقد اعتلت وجهه دهشةٌ محمودةٌ. على النقيض من المعلمين الآخرين، لم يتساءل السيد ويلسون إن كان «غوغول» اسمه حقاً أو اسم عائلته أواختصاراً لاسم آخر! لم يطرح السيد وولسون السؤال الذي طرحه آخرون بكل غباء: «ألم يكن كاتباً؟» بل نادى الاسم بطريقةٍ منطقيةٍ متقنةٍ دون توقفٍ أو تشككٍ أومحاولةٍ لكبح ابتسامته، تماماً كما نادى اسم برايان وإيريكا وتوم، ثم قال السيد ويلسون: «حسناً، ستتوجب علينا قراءة قصة (المعطف) أو قصة (الأنف)».

في صباح أحد أيام كانون الثاني، في الأسبوع الذي تلا عطلة عيد الميلاد، جلس غوغول على دُرجه بجوار النافذة ليراقب سقوط نُدَف الثلج العشوائية من السماء. في تلك اللحظة، أعلن السيد وولسون قائلاً: «سنكرِّس ربع الساعة هذه لمناقشة القصة»، وفي الحال علم غوغول ما سيحدث. وبينما يتزايد خوفه وينتابه شعورٌ بسيط بالغثيان، يراقب غوغول السيد ويلسون وهو يوزع كومة الكتب التي كانت على مكتبه؛ نصف دزينةٍ من نسخ مهلهلة من مختارات قصص قصيرة كلاسيكية للطلاب في المقاعد الأمامية. كانت نسخة غوغول، على وجه الخصوص، في حالةٍ يُرثى لها؛ زوايا الكتاب مهترئةٌ، وغلافه ملطَّخٌ ببقعٍ تميل إلى البياض، وتبدو كالعفن.

ينظر غوغول إلى محتويات الكتاب، فيجد نيقولاي غوغول بعد فوكنَر وقبل هيمنغواي. ينزعج غوغول من داخله عند رؤية الاسم مطبوعاً بأحرف كبيرة على الصفحة المتجعدة. بدا الاسم كلقطةٍ فوتوغرافيةٍ له، غير متقنةٍ، مما جعل بداخله رغبةً في الدفاع عن نفسه قائلاً: «أنا لست هذا»! يريد غوغول أن يرفع يده ويستأذن المعلم ليذهب إلى الحمام، ولكنه في الوقت نفسه لا يرغب في لفت الأنظار، لذلك يجلس غوغول ويتجنب النظر إلى زملائه، وينظر إلى صفحات الكتاب. حدد بعض القُراء السابقين أسماء بعض المؤلفين بوضع نجمةٍ بقلم الرصاص بجانب الاسم، ولكن لا تُوجد أي علامةٍ بجوار اسم نيقولاي غوغول. توجد قصةٌ واحدةٌ إلى جوار اسم كل كاتبٍ، وكانت «المعطف» القصة المختارة للمؤلف غوغول. بالنسبة إلى بقية الطلاب، لم يذكر السيد ولسون اسم غوغول، بل تناوبوا على قراءة سطور من قصة «القلادة» لغاي دي موباسان بصوتٍ مرتفع، فشعر غوغول بالراحة. ربما لا نية لدى السيد ولسون لتكليف الطلبة بقراءة «المعطف»، يتساءل غوغول وكله أمل. أو لعل السيد ولسون قد نسي الأمر. لكن، وبينما يدق الجرس وينهض الطلبة سويةً من مقاعدهم، يرفع السيد ولسون يده ويقول بصوتٍ مرتفع للطلبة الذين تزاحموا عند الباب: «اقرؤوا قصة غوغول لنناقشها غداً».

في اليوم التالي، كتب السيد ولسون عبارة «نيقولاي فازيليفيتش غوغول» بأحرف كبيرةٍ على السبورة، ثم حوط الاسم بمربعٍ وكتب تاريخ ميلاده ووفاته بين قوسين. يفتح غوغول دفتر الملاحظات

الموضوع على مكتبه وينسخ المعلومات على مضض. يُحدِّث غوغول نفسه قائلاً: إن الأمر ليس غريباً جداً، ففي نهاية المطاف، يوجد في الصف طالبٌ اسمه ويليام إن لم يكن إيرنست أيضاً. وبينما يكتب السيد وولسون بالطبشورة بيده اليسرى بسرعةٍ، بدأ قلم غوغول بالتباطؤ. تبقى صفحات دفتره الرخوة فارغةً، في حين تمتلئ صفحات زملائه بالمعلومات، الاحتمال الأكبر أن السيد وولسون سيمتحنه فيها قريباً: وُلد عام 1809 في مقاطعة بولتافا، وينتمي لعائلةٍ أوكرانيةٍ قوزاقيةٍ من الطبقة العليا. أما والده فكان مالك أرضٍ بسيطاً، وكان كاتباً مسرحياً كذلك، وتوفي عندما كان غوغول في السادسة عشرة من عمره. درس في معهد لايسم العالي في مدينة نيجين، ثم ذهب إلى سينت بطرسبرغ عام 1828، وبعد عامٍ التحق بقسم العلاقات العامة-الخدمة المدنية، في وزارة الشؤون الداخلية، ثم انتقل إلى وزارة شؤون البلاط حيث عمل في القسم المعني بممتلكات البلاط وأراضيه مابين عامي 1830-1831. بعد ذلك، عمل غوغول محاضراً في معهد الشابات حيث درَّس التاريخ، ثم في جامعة سانت بطرسبرغ. في عمر الثانية والعشرين أصبح غوغول صديقاً مقرباً من ألكسندر بوشكين[1]. في عام 1830، نشر غوغول أولى قصصه القصيرة. وفي عام 1836، عُرضت مسرحيته الكوميدية المفتش العام في سانت بطرسبرغ، إلا أن ردود فعل الجمهور المختلطة أفزعته، فغادر روسيا. قضى غوغول الاثني عشر عاماً التالية في أماكن مختلفة مثل باريس وروما وغيرها، ألّف خلالها الجزء الأول من روايته *أنفس*

(1) أمير شعراء روسيا، وكاتب روائي ومسرحي، ولد في موسكو في 6 يونيو عام 1799م. (المترجم)

ميتة، التي تعد أفضل أعماله.

يجلس السيد وولسون على حافة مكتبه واضعاً رِجْلاً فوق الأخرى، ويقلب صفحاتٍ صفراء اللون كتب عليها ملاحظاته. وإلى جانب تلك الصفحات يوجد كتابٌ سميكٌ عنوانه نفس منقسمة، يحكي سيرة حياة غوغول، وقد حدد السيد وولسون عدداً كبيراً من الصفحات باستخدام قصاصات من الورق.

«إنه ليس شخصاً عادياً»، قال السيد وولسون. «يُحتفى به في زمننا هذا كأكثر كُتّاب روسيا عبقرية. لكن، لم يفهمه أحدٌ في زمانه، ولعله لم يفهم نفسه أيضاً. يمكننا القول إنه يجسد عبارة: «عبقريةٌ غريبة الأطوار»، باختصار يمكن القول إن حياة غوغول كانت انحداراً ثابتاً نحو الجنون. وصفه الكاتب إيفان تورغينيف[1] كمخلوقٍ متقد الذهن، وغريب، وبائس. عُرف عنه أنه كان يعاني من وسواس المرض، والشك، وأنه كان محبطاً للغاية. وبالإضافة إلى ذلك، اتفق الجميع أنه كان شخصاً سوداوي المزاج للغاية، وكان يعاني من نوباتٍ من الكآبة المفرطة. وجد غوغول صعوبةً في إنشاء صداقاتٍ، ولم يتزوج قط، ولم يصبح أباً لأي طفل. يُعتقد أيضاً أنه مات بتولاً.

يحمر عنق غوغول وأذناه ووجنتاه ويجفل بصمتٍ كلما ذُكر الاسم. لم يخبره والداه أياً من تلك المعلومات. ينظر غوغول إلى رفاقه من حوله،

---

(1) روائي روسي ولد في 1818 وتوفي في 1883. كان إيفان تورغينيف في كتابة الرواية والمسرحيات والقصص القصيرة أشهر من نار على علم، ومن أعظم أعماله القصصية مجموعة قصص قصيرة بعنوان *مذكرات صياد*، وهي تمثل ركن الرواية الروسية الواقعية، كما تعد رواية *الآباء والبنون* من أعظم روايات القرن التاسع عشر. (المترجم)

لكنهم بدوا غير مكترثين، فقد انشغلوا بنسخ المعلومات التي سطرها السيد وولسون على اللوح الممتلئ بخطه الرديء، في حين يتابع الحديث ويراقب طلبته في آن معاً. يشعر غوغول، على نحوٍ مفاجئ، بالغضب من السيد وولسون، كما يشعر بالخيانة نوعاً ما.

قال السيد وولسون: «امتدت حياة غوغول الأدبية أحد عشر عاماً تقريباً، بعدما عجز عن الكتابة لفترةٍ مؤقتةٍ، وعانى انعدام الإلهام (writer's block). اتسمت السنوات الأخيرة من حياته بتدهورٍ جسديٍّ وعذابٍ عاطفيٍّ»، ثم أضاف السيد وولسون: «يئس غوغول من استرجاع عافيته وقُدرته على الإبداع، لذلك لجأ إلى عددٍ من المنتجعات والمصحات العقلية. في عام 1848، حج إلى فلسطين، ثم عاد في نهاية المطاف إلى روسيا. في موسكو، هجر غوغول، عام 1852، جميع الأنشطة الأدبية، وأحرق مخطوطة الجزء الثاني من رواية *أنفس ميتة*، محاولاً تقبُّل الواقع واقتناعاً بفشله، ثم حكم غوغول على نفسه بالإعدام، وشرع بتنفيذ انتحارٍ بطيء من خلال تجويع نفسه».

- «يا للفظاعة»! قال أحد الطلبة في الصف الخلفي. «لِمَ قد يرغب أي شخص في فعل ذلك»؟

يحدق بعض الطلبة في إيميلي غاردنر، التي يُقال إنها تعاني من مرض فقدان الشهية العصبي.

وفي حين يشير بأصبعه إلى الأعلى، يتابع السيد وولسون قائلاً: «في اليوم الذي سبق وفاته، قام الأطباء بغمره في حمام حساءٍ، وهم يسكبون مياهاً باردةً جداً على رأسه كمحاولةٍ لإنعاشه. ثم وضعوا سبع علقاتٍ

على أنفه، وثبّتوا يديه للأسفل ليمنعوه من إزالتها».

تنهَّد جميع الطلبة في آنٍ واحد باستثناء طالبٍ واحد، فاضطر السيد وولسون إلى رفع صوته بشكلٍ ملحوظٍ حتى يتمكن الطلبة من سماعه. يحدق غوغول في دُرجه فلا يرى شيئاً. بات غوغول مقتنعاً أن المدرسة بأكملها تستمع إلى محاضرة السيد وولسون، وأنه يتحدث عبر مكبرٍ للصوت. يضع غوغول رأسه على الدرج، ويسد أذنيه بيديه دون أن يراه أحد. لم يكن تجاهل صوت السيد وولسون كافياً. يتابع السيد وولسون: «بحلول مساء اليوم التالي، لم يكن غوغول واعياً تماماً، وكان هزيلاً للغاية، لدرجة أنه كان من الممكن لمس عموده الفقري عبر معدته. يغلق غوغول عينيه. تمنى غوغول لو كان بإمكانه ان يطلب من السيد وولسون التوقف. «توقف رجاءً». يحرك غوغول شفتيه دون أن يصدر صوتاً! ثم يسود الصمت. ينظر غوغول للأعلى، فيرى السيد وولسون يضع الطبشورة على حافة اللوح.

«سأعود في الحال»، يقول السيد وولسون، ثم يختفي ليدخن سيجارة. يبدأ الطلبة الذين اعتادوا هذا الروتين بالتحدث مع بعضهم. يتذمر الطلبة من قصة «المعطف»، التي اعتقدوا أنها طويلةٌ للغاية ويصعب فهمها. دار حديثٌ كذلك حول صعوبة قراءة الأسماء الروسية، واعترفوا أنهم تصفحوها فقط. أما غوغول فلم يعلِّق لأنه لم يقرأ القصة. لم يلمس غوغول الكتاب الذي أهداه إياه والده في عيد ميلاده الرابع عشر. بالأمس، وبعد انتهاء حصة السيد وولسون، دفع غوغول بالكتاب الذي أعطاه إياه السيد وولسون داخل الخزانة الخاصة

به في المدرسة، رافضاً أن يحمله معه إلى المنزل. يعتقد غوغول أن قراءة القصة تعني الثناء على مصدر اسمه وتقبله نوعاً ما. وبينما مايزال يستمع إلى تذمر زملائه، يشعر غوغول بالمسؤولية بطريقةٍ غريبةٍ، وكأنما يهاجم زملاؤه عمله الخاص.

يعود السيد وولسون ويجلس فوق مكتبه من جديد. يأمل غوغول أن يكون السيد وولسون قد انتهى من الجانب الخاص بحياة المؤلف غوغول. ماذا بقي ليُقال؟ يمسك السيد وولسون برواية *نفس منقسمة*. «هذا وصف للحظات الأخيرة من حياته»، يقول السيد وولسون، وهو يقلب صفحات الكتاب حتى يصل نهايته، ثم يقرأ: «تجمدت قدماه. يضع الطبيب تارازينكوف قربة ماءٍ ساخنٍ داخل السرير، لكنها لم تُجْدِ نفعاً، فلقد كان غوغول يرتعش. غطى العرق البارد وجهه النحيل. ظهرت هالاتٌ زرقاء حول عينيه. يحل الطبيب كليمينتوف مكان تارازينكوف ليأخذ الأخير قسطاً من الراحة. أراد الطبيب كليمينتوف أن يُريح الرجل الذي كان يحتضر فوصف له جرعة من الكالومل[1]، وأمر بوضع أرغفة خبزٍ حارٍ تحت جسده. بدأ غوغول بالأنين مرةً أخرى. كان يهذي بصوتٍ منخفضٍ طوال الليل. «استمر»، همس غوغول، «انهض، شغل الطاحونة». تدهورت صحة غوغول فأصبح أكثر هزالاً، وأصبح وجهه أكثر قتامةً وأنحف حتى بدا أجوف، وضعُف تنفسه حتى كان من الصعب سماعه. يبدو أنه أصبح أكثر هدوءاً، فعلى الأقل لم يعد غوغول يعاني. لفظ غوغول أنفاسه الأخيرة في الساعة الثامنة من صباح

(1) الكالومل: مطهر ومُسهل. (المترجم)

الحادي والعشرين من شباط من عام 1852، وهو لم يبلغ آنذاك الثالثة والأربعين من عمره.

لم يواعد غوغول أحداً في المدرسة الثانوية. لكنه يُعجب بفتاةٍ أو أخرى من صديقاته بصمتٍ، فلا يخبر أحداً. لا يرقص غوغول مع أي فتاةٍ، ولا يذهب إلى أي حفلة. يفضل غوغول وأصدقاؤه، كولن وجيسون ومارك، الاستماع إلى أغاني ديلين وكلابتون وفرقة الروك الإنجليزية «ذا هو(The Who)»، معاً، بالإضافة إلى قراءة نيتشه في أوقات فراغهم. لا يجد والدا غوغول حقيقة أن ولدهما لا يواعد إحداهن أو يستأجر بدلة توكسيدو لحفلة التخرج أمراً غريباً، فهما لم يُواعدا أحداً في حياتهما، لذلك لا مبرر لتشجيع غوغول على الأمر، وبالتأكيد ليس في عمره هذا. بل يحثانه عوضاً عن ذلك على الانضمام لفريق الرياضيات، والحفاظ على معدل الامتياز. أما والده فيضغط عليه ليدرس الهندسة، وربما في إم آي تي (MIT). لم يشك أشوك وأشيما بأن ابنهما مراهقٌ أمريكيٌّ بطريقته الخاصة، لكنهما لم يشعرا بالقلق وبخاصة مع حصوله على درجاتٍ ممتازةٍ وتجاهله الواضح للفتيات. فعلى سبيل المثال، لا يشك والداه مطلقاً أنه يدخن الحشيش، وهو -في الواقع- يقوم بذلك بين الحين والآخر عندما يجتمع مع أصدقائه في منزل أحدهم ليستمعوا لبعض الأسطوانات. لا تساورهم الشكوك أيضاً عندما يقضي الليل في منزل أحد أصدقائه، أو عندما يقود السيارة إلى البلدة المجاورة ليشاهد فيلم *استعراض روكي المرعب*[1]، أو داخل بوسطن ليتفرج على الفرق الاستعراضية في ميدان كينمور.

---

(1) فيلم إنجليزي، وهو فيلم رعب موسيقي وكوميدي من إخراج جيم شارمان، 1975. (المترجم)

في أحد أيام السبت، وقبل تقدمه لامتحان الكفاءة الدراسية (سات) مباشرةً، توجهت العائلة إلى كونيتيكت في عطلة نهاية الأسبوع، وتركت غوغول وحده طوال الليل، أول مرة في حياته. لم يخطر ببال والديه قط أنه سيذهب برفقة كولن وجيسون ومارك لحضور حفلةٍ ما عوضاً عن التدرب على الامتحانات الموقَّتة. دعاهم شقيق كولن الأكبر، وهو طالبٌ في السنة الأولى في الجامعة التي يُدرِّس فيها والد غوغول، إلى الحفلة. يلبس غوغول للحفلة ما يرتديه عادةً؛ جينز ليفيز وحذاء بلا كعب (توبسايدار) وقميصاً فضفاضاً مربع النقش. في جميع المرات التي ذهب فيها غوغول إلى الحرم الجامعي ليزور والده في قسم الهندسة أو يتلقى دروساً في السباحة أو يجري دورات عديدة في المضمار الخاص بالجامعة، لم يدخل سكن الطلبة مطلقاً. اقترب غوغول وأصدقاؤه وكانوا متوترين ويشعرون بالدوار قليلاً. وبينما كانوا داخل السيارة، نصحهم كولن قائلاً: «إذا سأل أحدهم، يقول أخي، إن علينا أن ندَّعي أننا من طلاب السنة الأولى في جامعة أميرست».

تشغل الحفلة الرواق كله، ويفتح جميع الطلبة أبواب حجراتهم. يدخل غوغول وأصدقاؤه أول حجرةٍ تمكنوا من الوصول إليها وكانت مزدحمةً ومظلمةً وحارةً. وبينما يشقون طريقهم عبر الحجرة باتجاه برميل البيرة، لا يلحظ أحدٌ وجود غوغول وأصدقائه الثلاثة. اضطروا جميعاً للانتظار بعض الوقت داخل حلقةٍ من المدعوين، وقد حملوا أكوابهم البلاستيكية وبدأوا بالصراخ حتى يُسمع صوتهم من صوت الموسيقى المرتفع. لكن كولن يرى شقيقه في الرواق وجيسون بحاجةٍ إلى الذهاب

إلى الحمام وماركو يريد كوباً آخر من البيرة. ينجرف غوغول نحو الرواق أيضاً. بدا وكأن الجميع يعرفون بعضهم، إذ يجدون أنفسهم يشاركون في محادثاتٍ يصعب الانخراط فيها. تختلط الموسيقى المنبعثة من الحجرات المختلفة بطريقةٍ غير مبهجةٍ داخل أذني غوغول. يشعر غوغول أن مظهره كاملٌ جداً إذا ما قورن بهذا الحشد من الجينزات الممزقة والقمصان ذات الأكمام القصيرة، المحيط به، ويخشى أنه ما كان عليه أن يغسل شعره أو أن يسرحه بأناقةٍ مفرطةٍ! في الوقت ذاته، لا يبدو الأمر مهماً فلا أحد يأبه. يمشي غوغول نحو نهاية الرواق، ثم يصعد بضع درجاتٍ ليجد رواقاً آخر مزدحماً ومزعجاً بالمثل. يرى في الزاوية زوجاً يُقبّل أحدهما الآخر وقد التصق جسداهما بالحائط. يقرر غوغول أن يتسلق مجموعة درجاتٍ أخرى بدل أن يشق طريقه إلى النهاية الأخرى للرواق. كان الرواق هذه المرة خاوياً؛ فسحةٌ مُغطّاة بسجادٍ لونه أزرق داكن وأبوابٌ خشبية بيضاء. لا وجود في هذا الحيز سوى للموسيقى والأصوات الخافتة القادمة من الطوابق السفلية. كان غوغول على وشك أن يعود أدراجه عندما فُتح أحد الأبواب وخرجت منه فتاةٌ جميلةٌ ممشوقةٌ ترتدي ثوباً مرقطاً له أزرار أمامية يبدو أنها ابتاعته من أحد المحلات الخيرية الزهيدة، وحذاءً مهترئاً من أحذية الدكتور مارتن[1]. أما شعرها فقصيرٌ ولونه بني داكن معقوف باتجاه وجنتيها، وغرتها ترتفع فوق حاجبيها. وجهها قلبي الشكل، وتضع أحمر شفاهٍ ساحراً.

(1) Doc Martin shoes: علامة تجارية لأحذية إنجليزية الصنع، تتميز بحواشيها البارزة وخيوطها الصفراء. (المترجم)

«عفواً، يفترض ألا أصعد إلى هنا، أليس كذلك»؟

«نظرياً، هذا طابقٌ خاصٌ بالفتيات. لكن ذلك لم يمنع دخول أي شاب من قبل». تأملته بعينيها كما لم تفعل أي فتاةٍ سابقاً. «أنت لا تأتي إلى هنا، أليس كذلك»؟ «لا»! أجاب غوغول وقلبه يخفق بسرعة، ثم تذكر هويته السرية لهذا المساء، فقال: «أنا طالبٌ مستجدٌ في جامعة أميرست».

وبينما تمشي الفتاة نحوه، تجيب: «هذا رائع، أنا كيم».

«سُعدت بلقائك»، يمد غوغول يده وتصافحه كيم لفترةٍ أطول مما يجب. للحظةٍ، تنظر كيم إلى غوغول بترقبٍ، ثم تبتسم فتكشف ابتسامتها عن سنَّين أماميَّين متداخلين قليلاً.

«هيا، سأريك المكان»، تقول كيم. ينزل كلاهما السلالم معاً، ثم تقوده إلى إحدى الحجرات لتسكب لنفسها كأساً من البيرة، وكذلك يفعل غوغول. وبينما تتوقف كيم لترحب ببعض الأصدقاء، يقف غوغول بجوارها ويشعر بالارتباك. يشق كلاهما طريقه نحو منطقةٍ عامةٍ حيث يوجد تلفازٌ، وآلة كولا، وأريكةٌ رثةٌ، ومجموعة مقاعد مختلفة. يجلسان على الأريكة ويتركان بينهما حيزاً ملحوظاً. تلاحظ كيم وجود علبة سجائر على الطاولة أمامها فتشعل سيجارة.

«حسناً»! تنظر كيم نحو غوغول بريبةٍ هذه المرة!

«ماذا»؟

«ألن تُعرِّف بنفسك»؟ يجيب غوغول: «آه، بلى»! لكنه لا يريد أن يخبرها باسمه. لا يريد أن يتحمل ردة فعلها أو أن يراقب عينيها الزرقاوين تتسعان عجباً. يتمنى غوغول لو كان هناك اسمٌ آخر يمكنه

استخدامه هذه المرة فقط حتى يتدبر أمره هذه الأمسية. لن يكون الأمر فظيعاً، فلقد كذب عليها من قبل حول جامعة أميرست. يمكنه أن يقدم نفسه ككولن أو جيسون أو مارك أو أي شخصٍ كان، حتى تستمر محادثتهما، ولن تكتشف الأمر، ولن تأبه أيضاً. هناك ملايين الأسماء التي يمكن اختيار واحدٍ منها. لكنه يدرك فيما بعد أنه لا حاجة للكذب، نظرياً على الأقل. يتذكر غوغول الاسم الآخر الذي اختاره والداه، والذي كان من المفترض أن يكون اسمه الحقيقي. يقول غوغول للمرة الأولى في حياته: «أنا نيكيل»؟ قالها بصوتٍ مترددٍ، وبدا متوتراً كذلك، وبنبرةٍ جعلت الجملة تبدو سؤالاً دون أن يقصد ذلك. ينظر إلى كيم، قاطب الحاجبين مستعداً لمواجهتها له؛ أن تصححه أو تسخر منه. يحبس غوغول أنفاسه. يشعر بوخزٍ خفيف في وجهه لا يعرف إن كان نتيجة شعوره بالانتصار أو الذعر.

لكن كيم تتقبل الاسم بصدرٍ رحب. «نيكيل»، تقول كيم، وتنفث سحابة دخانٍ رقيقة باتجاه السقف. تنظر إليه مرة أخرى وتبتسم، ثم تردد اسمه من جديد وتقول: «نيكيل. لم أسمع هذا الاسم من قبل. إنه اسمٌ جميلٌ».

يجلسان معاً فترة أطول، ويستمران في الحديث. يشعر غوغول بالذهول من سلاسة الأمر. كان غوغول شارد الذهن، ويكاد يستمع إلى كيم بصعوبة وهي تتحدث عن دروسها وبلدتها في كونيتيكت. يشعر غوغول في الحال بالذنب والبهجة وكأنما تحصَّن بدرعٍ خفي. يعلم غوغول أنه لن يرى كيم مرة أخرى، لذلك يتشجع، في تلك الأمسية،

فيقبلها بخفةٍ على شفتيها، وهي تتحدث إليه، ثم يدفع رجله برفقٍ نحو رجلها على الأريكة، ويتحسس شعرها بيده بسرعة. إنها المرة الأولى التي يقبل فيها أحداً، ويلامس وجهه وجسده وجه فتاةٍ وجسدها، ويشعر بنَفَسها عن قُرب. «لا أصدق أنك قبلتها، غوغول»! صرخ أصدقاؤه معاً، وهم في طريقهم إلى المنزل. يهز غوغول رأسه وهو في حالة ذهولٍ، وكان دهشاً مثلهم تماماً، وقد تدفقت داخله مشاعر التعجب والبهجة. كاد غوغول يقول: «لم أكن أنا»! لكنه لم يخبرهم أنه لم يكن «غوغول» الذي قبّل كيم، وأن غوغول لا علاقة له بالأمر.

5

كثيرٌ من الناس غيروا أسماءهم: ممثلون وكُتاب وثوار ومخنثون. يدرس غوغول في حصة التاريخ أن المهاجرين الأوروبيين غيروا أسماءهم عند وصولهم إلى جزيرة إيليس، كذلك فعل العبيد عند تحررهم. حتى نيقولاي غوغول، وعلى الرغم من أن غوغول لا يعلم تلك الحقيقة، فإنه غيَّر اسمه عندما كان في الثانية والعشرين، فقام بتبسيط اسم العائلة من غوغول يانوفسكي إلى غوغول فقط، عندما نُشرت أعماله في المجلة الأدبية (*ليتراري غازيت*). وفضلاً عن ذلك، نشر غوغول بعض أعماله تحت اسم «يانوف»، وفي إحدى المرات وقَّع أحد أعماله كما يلي: «OOOO» تكريماً لهذا الحرف الذي يظهر أربع مرات في اسمه.

فعل غوغول غانغولي الأمر ذاته في صيف عام 1986، في الأسابيع الهستيرية قبل مغادرته للعائلة، ومباشرةً قبل بداية سنته الأولى في جامعة ييل. يستقل غوغول القطار اليومي الذي يربط المدينة بالضواحي المحيطة بها، متجهاً إلى بوسطن، ثم في المحطة الشمالية، يركب المترو المعروف بجرين لاين إلى متجر ليتشمير. كان المكان مألوفاً بالنسبة

إليه، فلقد ارتاد المتجر عدداً لا يحصى من المرات مع عائلته لشراء أجهزة تلفازٍ ومكانس كهربائية جديدة، كما زار متحف العلوم في رحلةٍ ميدانيةٍ مع المدرسة، لكنه لم يزر هذا الحي وحده من قبل. وعلى الرغم من أنه دوّن الاتجاهات على ورقةٍ صغيرةٍ، فإنه يضل طريقه فترة وجيزة وهو متجه إلى محكمة الإثبات والسجلات العائلية في ميدلسيكس. يرتدي غوغول قميصاً أزرق (أوكسفورد شيرت) وسروال قماش كاكي اللون وسترة فضفاضة من قماش الكوردروي لونها بني فاتح ابتاعها من أجل المقابلات التي سيجريها في الجامعة، وكانت ثقيلة بالنسبة إلى هذا الجو الخانق. ارتدى غوغول أيضاً ربطة العنق الوحيدة لديه؛ الكستنائية المقلمة بخطوطٍ صفراء مائلة. في ذلك الوقت، شعر بالخجل من طول قامته التي لم تتجاوز ست أقدام، وجسده النحيل، وشعره البني الداكن الكثيف، الذي كان بحاجةٍ للتقصير قليلاً. أما وجهه فنحيفٌ، لكنه يبدو جذاباً فجأةً، وتظهر عليه علامات الذكاء، كما تبرز عظام وجهه، وبشرته ذهبية اللون صافيةٌ، وذقنه محلوقة. لقد ورث غوغول عيني والدته الواسعتين الثاقبتين، يعلوهما حاجبان حادان أنيقان، أما والده فورث منه البروز البسيط في مقدمة أنفه.

مبنى المحكمة قديمٌ مهيب ذو أعمدةٍ مكسوةٍ بالطوب، ويشغل وحدة مبانٍ كاملة في المدينة. أما المدخل، فهو ليس في مركز المبنى، بل يميل إلى الجانب قليلاً، ويكون الولوج إليه عبر بضع درجاتٍ تنحدر إلى الأسفل. يُفرغ غوغول جيوبه داخل المبنى، ثم يمر عبر جهاز الكشف المعدني كما لو كان في مطارٍ وعلى وشك الصعود إلى الطائرة. تُلطِّف برودة

جهاز التكييف الجو من حول غوغول، وتبهجه النقوش الجميلة في السقف الجصي، والأصوات التي يتردد صداها بلطفٍ في الجزء الداخلي من المبنى المغطى بالرخام. في الواقع، تخيل غوغول مكاناً أقل فخامةً من هذا، لكنه يدرك أن هذا هو المكان الذي يقصده الناس للحصول على الطلاق وحل النزاعات المتعلقة بوصايا الأشخاص الذين فارقوا الحياة. يطلب الموظف في كشك الاستعلامات من غوغول الانتظار في الطابق العلوي، في بقعةٍ تكتظ بطاولاتٍ مستديرةٍ حيث يتناول الجميع غداءهم. جلس غوغول وبدأ يهز رجله فقد نفد صبره. نسي غوغول أن يحضر كتاباً ليقرأه، ولذلك يلتقط جزءاً من صحيفة *غلوب*، التي يبدو أن أحدهم قد تخلص منها، فيتصفح مقالاً في صفحة الفنون عن لوحات هيلغا للكاتب أندرو وايث. أخيراً، يبدأ غوغول بالتدرب على توقيعه في هوامش الجريدة. يجرب رسمه بأساليب متنوعة، إذ لم تعتد يده زوايا حرف النون بالحجم الكبير (N) والنقطتين على حرف الآي (i's) الذي يتكرر في اسمه مرتين. يتساءل غوغول عن عدد المرات التي كتب فيها اسمه القديم أعلى أوراق الامتحانات والاختبارات القصيرة والواجبات اليومية التي لا تحصى، وعلى الكتب السنوية عندما كتب إهداءاتٍ لأصدقائه. كم مرة يكتب المرء اسمه في حياته؟ مليون مرة أو مليونين؟

لقد راودته فكرة تغيير اسمه للمرة الأولى قبل بضعة أشهر. كان يجلس في حجرة الانتظار في عيادة طبيب الأسنان، ويقلب صفحات عددٍ من مجلة *ملخص القارئ* (*Reader's Digest*). كان يقلب الصفحات

عشوائياً إلى أن استوقفه مقالٌ يحمل عنوان «التعميد الثاني». كتب مؤلف المقال العبارة التالية تحت العنوان الرئيس: «هل يمكنك أن تتعرف إلى هذه الشخصيات المشهورة»؟ تلت ذلك قائمة بأسماء أشخاص ثم، أسفل الصفحة وبأحرفٍ صغيرة، كُتبت أسماء الشخصيات المشهورة التي تتوافق مع هذه الأسماء مقلوبة. كان الاسم الوحيد الذي تمكن غوغول من تخمينه هو روبيرت زيمرمان، وهو الاسم الحقيقي لبوب ديلان. لم يعلم غوغول من قبل أن الاسم الحقيقي لموليير هو جون باتيست بوكلين، وليون تروتسكي هو ليف دافيدوفيتش برونشتاين، والرئيس الأمريكي جيرالد فورد هو ليزلي لينتش كينغ جونيور، والمغني إنجلبرت همبردنك هو أرنولد جورج دورسي. لقد قاموا جميعاً بتغيير أسمائهم، حسب المقال، ثم أضاف مؤلفه أن ذلك حقٌ لكل مواطنٍ أمريكي. قرأ غوغول أيضاً أن عشرات الآلاف من الأمريكيين يغيرون أسماءهم كل عام. فجأةً تخيل اسمه «غوغول» مضافاً إلى قائمة الأسماء، واسم «نيكيل» مطبوعاً بأحرف صغيرة رأساً على عقب.

في تلك الليلة، أثار غوغول الموضوع مع والديه على مائدة الطعام. بدأ غوغول الحديث بالتأكيد أنه لا يمانع أن يرى اسمه «غوغول» مكتوباً بخط اليد المزركش على شهادة الثانوية العامة، ومطبوعاً تحت صورته في الكتاب السنوي. ولا يمانع كذلك أن يراه مطبوعاً في طلبات الالتحاق باتحاد الجامعات الخاصة[1] وبجامعتي ستانفورد وبيركلي.

(1) Ivy League Colleges: اتحادٌ من ثماني جامعات خاصة تعتبر من أشهر وأقدم جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، تقع جميعها في الشمال الشرقي للولايات المتحدة، وتشير العبارة كذلك إلى رابطة اللبلاب، وهي رابطة رياضية تجمع تلك الجامعات.(المترجم)

ولكن أن يتحمل اسمه منذ اللحظة ولأربع سنواتٍ وأن يُكتَب على شهادة البكالوريوس، ثم أعلى السيرة الذاتية، وفي منتصف بطاقة العمل الخاصة به، فهذا أمرٌ آخر؟ يؤكد غوغول أنه يفضل الاسم الذي اختاره والداه عندما كان في الخامسة من عمره.

«ما جرى قد جرى»، يرد والده، «سيُفضي تغيير اسمك إلى الكثير من الفوضى. في الواقع، أصبح غوغول اسمك الرسمي الآن».

توافق أشيما أشوك الرأي فتقول: «إن الأمر معقد جداً، وأنت قد كبرت كثيراً على تغيير اسمك الآن»!

«لا، لست كذلك»! يصر غوغول، ثم يضيف: «أنا لا أفهم الأمر! لماذا منحتماني اسم دلالٍ في المقام الأول؟ ما الهدف منه»؟

«غوغول، تلك طريقتنا»، قالت والدته، «هذا ما يفعله البنغاليون».

يخبر غوغول والديه ما تعلَّمه في صف السيد ويلسون عن حياة الكاتب غوغول التعيسة واضطرابه العقلي وتجويعه لنفسه حتى الموت. «هل كنتما تعلمان هذه الأمور عن حياته»؟ سأل غوغول والديه.

- «نسيت أن تذكر أنه كان عبقرياً أيضاً»! قال والده.
- «أنا لا أستوعب الأمر! كيف تسمياني على اسم شخصٍ غريب الأطوار؟ لا أحد يأخذني على محمل الجد»!
- «من؟ من لا يأخذك على محمل الجد»؟ أراد والده أن يعرف، فرفع أصابعه من الطبق، ونظر إلى الأعلى نحو غوغول.

يكذب غوغول على والديه فيقول: «الناس»! كان هدف أشوك من وراء السؤال أن يدرك ابنه أن الشخص الوحيد الذي لم يأخذ غوغول

على محمل الجد، وتسبب له بكل هذا العذاب، ووعى باستمرار الإحراج الناجم عنه، وشعر بالبؤس بسببه، وشكك في الاسم، وتمنى لو كان اسماً مغايراً، هو غوغول نفسه. وعلى الرغم من ذلك، يستمر غوغول في الحديث ليخبر والديه أن عليهما أن يشعرا بالسعادة لأن اسمه الرسمي سيكون بنغالياً وليس روسياً.

وبينما تهز والدته رأسها تقول: «لا أعرف يا غوغول». تنهض أشيما لتجمع الأطباق، أما سونيا فتتسلل خلسةً إلى حجرتها ويبقى غوغول مع والده عند المائدة. جلس كلاهما وكان بإمكانهما سماع أشيما تنظف بقايا الطعام، وماء الصنبور يجري في الحوض.

بعد صمتٍ لفترةٍ قصيرةٍ، قال والده بهدوءٍ وبساطةٍ: «إذن فلتغير اسمك»، ثم يضيف والده: «كل شيء ممكن في أمريكا، فلتفعل ما شئت».

وهكذا حصل غوغول على نموذج ولاية ماساتشوسيتس لتغيير الاسم ليقدمها لمحكمة الإثبات والسجلات العائلية في ميدلسيكس، مرفقاً بنسخةٍ مصدقةٍ من شهادة ميلاده وشيك بنكي. أحضر غوغول النموذج لوالده، الذي نظر إليه لحظةً، ثم وقَّعه موافقاً، ومستخدماً التوقيع الذي يمهر به شيكاته وإيصالات بطاقة الائتمان نفسه، وقد ارتفع حاجباه قليلاً فوق نظارته، وفي داخله يحسب الخسارة! يكمل غوغول تعبئة النموذج في حجرته في وقتٍ متأخرٍ من تلك الليلة عندما خلد الجميع إلى النوم. وعلى الرغم من أن الطلب يتكون من صفحةٍ واحدةٍ قشدية اللون، فإن تعبئته استغرقت وقتاً أطول من تعبئة طلبات

الالتحاق بالجامعة. كتب غوغول على السطر الأول الاسم الذي يرغب في تغييره ومكان الولادة وتاريخها، ثم كتب اسمه الجديد ووضع توقيعه القديم على الطلب. جزءٌ وحيدٌ في الطلب استوقفه. طُلب منه أن يبرر رغبته في تغيير اسمه في ثلاثة أسطر تقريباً. جلس غوغول قرابة الساعة يتساءل ماذا سيكتب. في نهاية المطاف، ترك غوغول هذا الجزء من الطلب فارغاً.

نادى الحاجب على قضية غوغول في الوقت المحدد. دخل غوغول الحجرة وجلس على مقعدٍ خشبيٍّ طويلٍ فارغٍ في الخلف. تجلس قاضيةٌ، في منتصف عمرها، سوداء بدينة ترتدي نظاراتٍ هلالية الشكل على منصةٍ مقابل غوغول. تطلب الكاتبة وهي شابةٌ نحيلةٌ شعرها قصير من غوغول النموذج الذي عبأه، وتقوم بمراجعته قبل أن تعطيه للقاضية. لا يوجد داخل الحجرة أي زينةٍ باستثناء علم ولاية ماساتشوسيتس والولايات المتحدة ولوحة زيتية لقاضٍ ما. «غوغول غانغولي»، تناديه الكاتبة وتشير إليه ليقترب من المنصة. وعلى الرغم من حماسه الشديد لينجز المهمة حتى النهاية، يدرك غوغول وهو يشعر بحزنٍ مفاجئ، أنها المرة الأخيرة في حياته التي يسمع فيها هذا الاسم داخل سياق رسمي. وعلى الرغم من موافقة والديه على الأمر، يشعر غوغول أيضاً أنه يتخطاهما ليصحح خطأهما.

«سيد غانغولي، ما السبب وراء رغبتك في تغيير اسمك»؟ تسأله القاضية. لم يكن غوغول مستعداً لهذا السؤال، لذلك لم يكن لديه لبضع ثوانٍ أدنى فكرة عما يجب قوله. أخيراً يقول غوغول: «أسبابٌ شخصيةٌ»!

تنظر القاضية إليه وتنحني للأمام وتضع ذقنها في راحة يدها، ثم تقول: «هل لك أن تكون أكثر تحديداً»؟

في بادئ الأمر، لا يقول غوغول شيئاً، فهو غير مستعد لمزيدٍ من التوضيح. يتساءل غوغول إذا ما كان عليه أن يخبر القاضية بالقصة المعقدة كلها، عن رسالة جدة والدته التي لم تصل إلى كيمبردج، وعن أسماء الدلال والأسماء الجيدة، وما حدث في اليوم الأول في الروضة، لكنه عوضاً عن ذلك يأخذ نفساً عميقاً ويخبر جميع الموجودين داخل قاعة المحكمة ما لم يتجرأ يوماً على الاعتراف به أمام والديه. يقول غوغول: «إنني أكره اسم غوغول. لطالما كرهته».

«حسناً»، تقول القاضية، ثم تختم طلب غوغول وتوقعه وترجعه لكاتبة المحكمة التي تخبره أن الإشعار بالاسم الجديد يجب أن يُسلَّم لجميع الوكالات الأخرى، وأنه تقع على عاتقه مسؤولية تبليغ دائرة تسجيل السيارات والسواقين والبنوك والمدارس. طلب غوغول ثلاث نسخٍ مصدقة من الحكم القضائي المتعلق بتغيير اسمه؛ اثنتين له ونسخة لوالديه ليحتفظا بها في خزنتهما. لا يرافق أحدٌ غوغول في طقس العبور القانوني هذا، وعندما يغادر الحجرة لا يجد أحداً بانتظاره بباقة وردٍ أو بالوناتٍ أو كاميرا بولارويد للتصوير الفوري ليلتقط صورةً له ممجداً ذكرى هذه اللحظة. في واقع الأمر، لا تُعدُّ الإجراءات مهمةً، وعندما ينظر إلى ساعته يجد أن عشر دقائق فقط قد انقضت من لحظة دخوله حتى خروجه من قاعة المحكمة. يغادر غوغول مبنى المحكمة بعد ظهر ذلك اليوم الحار الرطب، يتصبب عرقاً، ومايزال مقتنعاً جزئياً أن ما

حدث كان حلماً. ركب غوغول العَبّارة باتجاه بوسطن، ثم مشى ممسكاً سترته الرياضية التي تدلت فوق كتفه بإصبعه، بجانب متنزه بوسطن العام، ثم عبْر حديقة بوسطن العامة، ومن فوق الجسور والطرق المتعرجة المحيطة بالبحيرة. تغطي غيومٌ كثيفةٌ، هنا وهناك، السماء التي لا تكاد تظهر، مثل بحيراتٍ صغيرة على الخريطة، في حين يهدد الهواء بسقوط المطر.

يتساءل غوغول إن كان ما يشعر به يشبه شعور شخصٍ مفرط البدانة عندما يخسر وزنه، أو شعور سجينٍ ينال حريته. أراد أن يقول للناس من حوله؛ أولئك الذين يتنزهون برفقة كلابهم أو يدفعون عربات أطفالهم أو يُلقون بالخبز للبط في البحيرة: «أنا نيكيل». وبينما يتجول غوغول في شارع نيوبيري، تبدأ حبات المطر بالهطول. يندفع غوغول باتجاه متجر نيوبيري كوميكس ليبتاع القرص المدمج لألبوم «نداء لندن» (London Calling)، و«عقول تتحدث، 77» (Talking Heads: 77)، بالنقود التي حصل عليها في عيد ميلاده، بالإضافة إلى ملصقٍ لتشي غيفارا كي يضعه على جدران حجرته في سكن الطلاب. يضع غوغول في جيبه طلباً للحصول على بطاقة أميريكان إكسبرس الخاصة بالطلبة، ويشعر بالامتنان لأنها البطاقة الائتمانية الأولى التي لا يُكتب فيها اسم غوغول بأحرف بارزةٍ أسفل البطاقة. يحثه هذا الشعور على مخاطبة أمينة الصندوق الجذابة، التي تضع حلقاً في أنفها، وشعرها مصبوغٌ باللون الأسود، وبشرتها فاتحةٌ للغاية، قائلاً: «أنا نيكيل». تناوله أمينة الصندوق ما تبقى له من نقود، ثم تنظر نحو الزبون التالي، إلا أن غوغول لا يأبه

كثيراً، فهو يفكر الآن بعدد النساء اللواتي يستطيع التقرب منهن بقية حياته، دون الاعتراض على اسمه.

وعلى الرغم من أن رخصة قيادته الجديدة تحمل اسم نيكيل، وأنه قص الرخصة القديمة بمقص الخياطة الخاص بوالدته، وأنه مزق الصفحات الأولى من كتبه المفضلة التي كتب عليها اسمه (غوغول)، فإنه وبعد مضيٍّ ثلاثة أسابيع ماتزال هناك عقبةٌ أمامه، فكل من يعرف غوغول في العالم ظل يناديه بالاسم ذاته. يدرك غوغول أن والديه وأصدقاءهما وأبناءهم وجميع أصدقائه في المدرسة الثانوية لن ينادوه إلا باسم غوغول. سيظل اسمه غوغول خلال العطلات وإجازة الصيف، وسيزوره «غوغول» من جديد كلما احتفل بعيد ميلاده. كل من حضر حفلة الوداع بمناسبة التحاقه بالجامعة كتب عبارة «حظاً موفقاً، غوغول» على بطاقة التهنئة. بدأ غوغول بتقديم نفسه باسم نيكيل في يومه الأول في جامعة نيوهفن، وبعد مغادرة والده وأمه وشقيقته سونيا المكان، وقد فاضت عيون الأخيرتين دمعاً، عبر طريق 95 السريع إلى بوسطن. كان زميلاه في السكن اللذان يشاطرانه الشقة، براندون وجوناثان، أول من ناداه باسمه الجديد، وقد أُبلغا مسبقاً في العطلة الصيفية عبر رسالةٍ إلكترونيةٍ أن اسمه غوغول. ترعرع براندون، وهو شابٌ طويلٌ نحيلٌ أشقر، في ولاية ماساتشوسيتس في مكانٍ ليس ببعيد عن المكان الذي ترعرع فيه غوغول، وارتاد أندوفير أيضاً. أما جوناثان، فشابٌ كوريٌّ يعزف على آلة التشيلو، وهو من ولاية لوس أنجلوس.

«هل (غوغول) اسمك الأول أو الأخير»؟ يرغب براندون في أن

يعرف. عادةً ما يزعج هذا السؤال غوغول، لكنه اليوم لديه إجابةٌ جديدةٌ: «في الواقع، إنه اسمي الأوسط»، يحاول غوغول تفسير الأمر، وهم يجلسون جميعاً في حجرة المعيشة المشتركة في شقتهم. «نيكيل هو اسمي الأول، ولكن أُهمل لسبب ما».

وبينما كان جوناثان مشغولاً بتجميع أجزاء الستيريو الخاص به، يومئ برأسه موافقاً غوغول، وكذلك يفعل براندون. «نيكيل»! ينادي براندون بعد فترةٍ قصيرةٍ، وبعد أن انتهوا من إعادة ترتيب الأثاث في حجرة المعيشة: «هل تريد أن تدخن بعض الحشيش»؟ بما أن كل شيء من حوله أصبح جديداً على نحوٍ مفاجئ، لا يشعر غوغول بالغرابة مطلقاً عند سماعه لاسمه الجديد. يعيش نيكيل الآن في ولايةٍ جديدةٍ ويحصل على رقم هاتفٍ جديد. يأكل وجباته على صينيةٍ في حجرات الاستراحة، ويستخدم حماماً مشتركاً في طابق مليء بالطلاب، ويستحم كل صباح داخل حمامٍ صغيرٍ أشبه بكشك. ينام نيكيل على سريرٍ جديدٍ أصرت والدته على ترتيبه قبل مغادرتها.

يقضي نيكيل الأيام الأولى المخصصة للتعرف على المكان مندفعاً حول الحرم الجامعي جيئة وذهاباً، عبر الممرات المتقاطعة المرصوفة بالحجارة، ومتجاوزاً برج الساعة والمباني التي تشبه الأبراج، والتي لها شرفاتٌ أشبه بالقلعة. ينزعج نيكيل بشدة، في بادئ الأمر، من الجلوس على العشب في الحرم الجامعي القديم كما يفعل الطلاب الآخرون، الذين يقرؤون بتمعنٍ أدلةً للمساقات المطروحة، أو يلعبون الفريسبي، ويتعرفون إلى بعضهم بين تماثيل يغطيها الصدأ لرجالٍ يجلسون على مقاعد ويرتدون رداءً

طويلاً. يُعِد نيكيل قائمةً بالأماكن التي يتوجب عليه زيارتها، فيرسم دائرةً حول المباني على الخريطة الخاصة بالحرم الجامعي. عندما يختلي بنفسه في حجرته، يطبع نيكيل طلباً على آلته الطابعة من نوع سميث كورونا ليبلِّغ مكتب المسجل العام بالتغيير الذي حدث على اسمه، ويزوده بنموذجٍ لتوقيعه السابق والحالي جنباً إلى جنب. يسلِّم غوغول الوثائق لسكرتيرةٍ، بالإضافة إلى نسخةٍ عن استمارة تغيير اسمه. يخبر نيكيل مرشد الطلاب المستجدين عن تغييره اسمه، بالإضافة إلى الشخص المسؤول عن إصدار هويته الجامعية وبطاقة المكتبة. وهكذا يصحح نيكيل الأخطاء الناجمة عن تغيير اسمه خلسةً دون أن يهتم بتفسير ما انشغل في عمله طوال اليوم لجوناثان وبراندون، ثم ينتهي الأمر على نحوٍ مفاجئ. بعد كل هذا العناء أصبح الأمر سهلاً للغاية. بعد وصول الطلاب القدامى والجدد وبدء المحاضرات، كان نيكيل قد مهد الطريق لكل من في الجامعة ليدعوه باسمه الجديد، من طلاب وأساتذة ومساعدين وحتى الفتيات في الحفلات المختلفة. يسجل نيكيل مساقاته الأربعة الأولى: مقدمة في تاريخ الفن، وتاريخ العصور الوسطى، واللغة الإسبانية، وعلم الفلك، لينهي المتطلبات العلمية الصعبة في خطته الدراسية، ثم يسجل في مساقٍ مسائي في اللحظة الأخيرة وهو فن الرسم. لا يخبر نيكيل والديه عن هذا المساق لأنه يعلم أنهما سيظنان أنه أمرٌ تافهٌ في هذه المرحلة من حياته، على الرغم من حقيقة أن جده كان فناناً، فلقد كان كلاهما منزعجاً لأن نيكيل لم يستقر بعد على تخصصٍ أومهنة محددة. يتوقع والداه، كبقية أصدقائهما البنغال، أن نيكيل إن لم يصبح مهندساً فسيكون طبيباً أو محامياً أو، في

أسوأ الظروف، عالماً في الاقتصاد. يذكِّره والده باستمرار أن تلك هي المجالات التي من أجلها قدموا لأمريكا، والمهن التي أكسبتهم الاحترام والأمان في المجتمع الأمريكي.

أما الآن، وبعد أن أصبح نيكيل، فلقد بات من السهل عليه تجاهل والديه وقلقهما عليه وحتى طلباتهما. يطبع نيكيل اسمه الجديد أعلى الصفحات التي كتب عليها فروضه وهو يشعر براحةٍ كبيرةٍ. يقرأ كذلك الرسائل الهاتفية التي تركها زملاؤه في السكن «لنيكيل»، وكتبوها على قصاصاتٍ متنوعةٍ من الورق في حجراتهم. فتح نيكيل حساباً جارياً وكتب اسمه الجديد على كتبه الجديدة أيضاً. في محاضرة اللغة الإسبانية يقول بالإسبانية: «اسمي نيكيل». في فصله الأول في الجامعة يربي نيكيل لحيةً أشبه بلحية التيس، ويدخن سجائر كاميل لايت في الحفلات، وهو يكتب فروضه كذلك، وقبل دخوله قاعة الامتحان. ويكتشف نيكيل بريان إينو[1] وإلفيس كوستيلو[2] وشارلي باركر[3]. يركب نيكيل المترو الشمالي المتوجه إلى منهاتن في إحدى عطلات نهاية الأسبوع برفقة جوناثان، ويحصل على هويةٍ مزورةٍ تسمح له بشراء المشروبات الكحولية في حانات نيوهفن. يمارس نيكيل الجنس للمرة الأولى في حفلة أُقيمت في كلية إزرا ستايل مع فتاةٍ ترتدي تنورة صوفية مربعة النقش وتحتها

(1) بريان بيتر جورج سانت جون لي باتيست دي لا سال إينو: معروفٌ مهنياً باسم بريان إينو أو ببساطة باسم إينو، كان موسيقاراً إنجليزياً وملحناً ومنتج تسجيلاتٍ ومغنياً، وهو معروف كواحدٍ من المبتكرين الرئيسين للموسيقى المحيطة. (المترجم)

(2) إلفيس كوستيلو: هو موسيقي ومغن ومؤلف إنجليزي. (المترجم)

(3) شارلي باركر: واسمه الأصلي تشارلز باركر الابن، عازف ساكسفون أمريكي لُقب بالطائر أو Yardbird لما له من طابعٍ ساخرٍ. (المترجم)

جوارب نسائية طويلة ضيقة للغاية لونها أصفر غامق وجزمة تشبه تلك التي يرتديها الجنود. عندما استيقظ نيكيل في الثالثة فجراً، كان يعاني من صداعٍ، واختفت الفتاة، ولم يستطع أن يتذكر اسمها. لكنَّ الأمر معقدٌ فهو لاَ يشعر أنه «نيكيل»، ليس بعد. ولعل حقيقة أن الأشخاص الذين يعرفونه اليوم كنيكيل ليس لديهم أدنى فكرة أن اسمه كان غوغول هي جزءٌ من المشكلة، فهم يعرفونه الآن ولم يعرفوه في الماضي. لكن، بعد ثمانية عشر عاماً كان فيها غوغول، يشعر أن شهرين أصبح فيهما «نيكيل» غير كافيين وغير منطقيين. يشعر غوغول أحياناً أنه يلعب دور توأمين في مسرحية ما؛ لايمكن تمييزهما بالعين المجردة، ولكنهما مختلفان تماماً. يشعر نيكيل أحياناً أيضاً أن اسمه القديم يقضُّ مضجعه دون سابق إنذارٍ، مثل الألم الذي ينبض في سِنِّه الأمامي، والذي شعر به طوال الأسابيع الماضية بعد حشوه، وكأنما يهدد للحظةٍ بالانفصال عن لثته، عند شربه القهوة أو الماء المثلج، ومرةً عندما كان في المصعد. يخشى نيكيل أن يُفتضح أمره وكأنها أحجيةٌ سيتمكن الآخرون من حل خيوطها. يرى نيكيل في كوابيسه اسمه الحقيقي مطبوعاً في الصفحة الأولى من صحيفة *ييل الإخبارية اليومية*. في إحدى المرات، يوقِّع نيكيل اسمه القديم بالخطأ على قسيمة بطاقته الائتمانية في محل بيع الكتب التابع للكلية. بين حينٍ وآخر، لا يجيب نيكيل إلا بعد سماع اسمه ثلاث مرات.

يكون الأمر مروعاً أكثر عندما يناديه الأشخاص الذين يعرفونه بغوغول باسمه الجديد نيكيل. فعلى سبيل المثال، عندما يهاتفه والداه صباح يوم السبت، يسألان إن كان نيكيل موجوداً إذا رد براندون أو

جوناثان. وعلى الرغم من أن هذا تحديداً ما طلبه من والديه، فإن نيكيل ينزعج لشعوره أنْ لا رابط يجمعه بهما؛ أنه ليس ابنهما. تقول أشيما لزملائه في السكن: «تفضلوا بزيارتنا برفقة نيكيل في عطلة نهاية الأسبوع»، حين زارت غوغول هي وأشوك في الحرم الجامعي عند نهاية الأسبوع المخصصة لزيارة الآباء في أكتوبر، وحينها قام نيكيل ورفاقه بالتخلص من زجاجات المشروبات الكحولية على عجل، ومنفضات السجائر، والجوزة (bong) الخاصة ببراندون بهذه المناسبة. لم يرق لغوغول استبدال اسمه الحقيقي باسمه الجديد. كان مافعلته والدته صحيحاً، ولكنه بدا غريباً على مسمعه وبخاصة عندما يتحدث إليه والداه بالإنجليزية لا بالبنغالية. يبدو الأمر أغرب عندما يخاطبه أحد والديه أمام أصدقائه الجدد فيناديه «نيكيل» مباشرةً: «نيكيل، ما رأيك أن ترينا المباني حيث تأخذ محاضراتك،» يقترح عليه والده. في مساء اليوم ذاته يخرج الجميع وبرفقتهم جوناثان لتناول العشاء في مطعم في شارع شابيل، ويزلُّ لسان أشيما عندما تسأله: «غوغول، هل قررت فيما يتعلق بتخصصك»؟ وعلى الرغم من أن جوناثان لا يسمع ما تقوله أشيما، فقد كان يصغي لأشوك، يشعر نيكيل أنه لا حول له أو قوة، ويشعر بالانزعاج أيضاً، ولكنه لا يستطيع أن يلوم والدته، فهو المتسبب بهذه الفوضى.

بعد أن أنهى نيكيل آخر محاضرةٍ له في الفصل الأول -وتحديداً يوم الجمعة- طلب منه والداه أن يعود إلى المنزل كل أسبوعين في عطلة نهاية الأسبوع. أطاع نيكيل والديه وإن كان كارهاً للأمر. يستقل القطار

التابع لشركة أمتراك (Amtrak)[1] إلى بوسطن، ثم يركب القطار الذي يربط المدينة بالضواحي، ويحمل حقيبة الدفيل[2] الخاصة به المليئة بكتبه وغسيله المتسخ. في بقعةٍ ما خلال هذه الرحلة التي استمرت ساعتين ونصف الساعة، يختفي نيكيل ويعود غوغول. يستقبله والده -اعتاد أن يهاتفه مسبقاً ليتأكد أن القطار سيغادر في موعده المحدد- في المحطة. يقود أشوك السيارة برفقة ولده في شوارع المدينة المشجرة، ويسأله عن دراسته. ما بين مساء يوم الجمعة وبعد ظهر يوم الأحد يجْهز غسيل غوغول ويعود الفضل لوالدته، لكنه يتجاهل كتبه الدراسية على الرغم من أنه كان ينوي أن يتابع دروسه، غير أنه لايستطيع أن ينجز الكثير في منزل والديه سوى الأكل والنوم. يشعر غوغول أن المكتب الذي في حجرته صغيرٌ للغاية، ويشعر كذلك أن ذهنه مشتتٌ بسبب صوت الهاتف ووالديه وسونيا، الذين كانوا يتحدثون ويتحركون في أرجاء المنزل. يشتاق غوغول لمكتبة ستيرلنغ حيث يدرس كل ليلة بعد تناول العشاء ولبرنامجه الليلي الذي تخلى عنه الآن. يشتاق كذلك لحجرته في سكن الطلبة في فارنام، وتدخين إحدى سجائر براندون، والاستماع إلى الموسيقى بصحبة جوناثان، وتمييز مؤلفي الموسيقى الكلاسيكية كلاً على حدة.

في المنزل، يشاهد غوغول قناة إم تي في الموسيقية مع سونيا، التي

(1) Amtrak (the National Railroad Passenger Corporation): الشركة الوطنية للنقل بالقطار. (المترجم)

(2) حقيبة مصنوعة من القماش السميك أسطوانية الشكل تُنسب إلى مدينة دفيل في بلجيكا حيث تُصنع. (المترجم)

تنشغل أيضاً في إجراء بعض التعديلات على جينزها، فتقصره بضعة إنشات وتخيط سحابين عند الكاحلين اللذين اضيقّا قليلاً. تحجز سونيا الغسالة في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، لأنها قامت بصبغ معظم ملابسها باللون الأسود. أصبحت سونيا الآن في المدرسة الثانوية، وتدرس اللغة الإنجليزية عند السيد وولسون وتشارك في حفلاتٍ راقصةٍ لم يرتدها غوغول في السابق قط، كما تذهب الآن إلى حفلاتٍ مختلطةٍ أيضاً. أزالت سونيا مقوِّم أسنانها لتكشف عن ابتسامةٍ أمريكيةٍ واثقةٍ مألوفةٍ. أما شعرها الذي كان في السابق يلامس كتفيها فقد قصته لها إحدى صديقاتها على نحوٍ غير متماثل. تخشى أشيما أن تصبغ سونيا خصلةً منه باللون الأشقر كما هددت أكثر من مرة، ولقد هددت أيضاً أنها ستحظى بالمزيد من الثقوب في شحمة أذنها في إحدى مراكز التسوق. تتجادل كلتاهما حول هذه الأمور بعنفٍ، فتبكي أشيما وتصفع سونيا الباب. يُدعى والداهما أحياناً في عطلة نهاية الأسبوع إلى بعض الحفلات، فيصران على مرافقة غوغول وسونيا لهما. يقوم المضيف أو المضيفة بإرشاد غوغول إلى حجرةٍ حيث يمكنه أن يدرس وحده، في حين تستمر الحفلة الصاخبة في الطابق السفلي، إلا أن الأمر ينتهي دوماً بمشاهدة التلفاز مع سونيا والأطفال الآخرين كما اعتاد أن يفعل طوال حياته. وبينما كانوا عائدين من إحدى الحفلات وفي طريقهم إلى المنزل، قال غوغول لوالديه: «إنني في الثامنة عشرة»! حقيقةٌ لا تشكل أي فرق بالنسبة إلى والديه. في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، يقترف غوغول خطأً عندما يتحدث عن نيوهفن واصفاً إياها بالمنزل، إذ يقول عندما

يسأله والده إن كان قد تذكر شراء صورة جامعة ييل التي يرغب والداه في إلصاقها على الزجاج الخلفي لسيارتهما: «عذراً، لقد تركتها في المنزل»! يثير رد غوغول غضب أشيما، فيشغل تفكيرها طوال اليوم. «ثلاثة أشهر فقط! استمع لنفسك»! تقول أشيما وتخبره أنها بعد أن قضت عشرين عاماً في أمريكا، لاتستطيع أن تتحدث عن شارع بيمبيرتون بوصفه منزلها!

لكن غوغول يشعر بالراحة أكثر في حجرته في ييل حيث يعجبه قِدَمها وجمالها الدائم. تعجبه كذلك حقيقة أن العديد من الطلبة سكنوها من قبله، بالإضافة إلى صلابة جدرانها المكسوة بالجص والألواح الخشبية الداكنة اللون، التي تغطي أرضيتها على الرغم من كونها تالفة ومبقعة. تستهويه أيضاً النافذة الناتئة[1]، وهي أول ما تراه عيناه كل صباح عندما ينظر إلى كنيسة باتيل. وقع غوغول في غرام الهندسة القوطية، التي تميز الحرم الجامعي، وافتتن بالجمال المادي حوله مما وثّق صلته بكل ما يحيط به بطريقةٍ لم يشعر بها في شارع بيمبيرتون. يجد غوغول في تفاصيل المباني مصدر إلهامٍ لرسوماته التخطيطية (السكيتشات) إذ يتوجب عليه تسليم نصف دزينة من الرسومات كل أسبوع لمساق الرسم الذي انضم إليه. تشمل هذه التفاصيل الدعامات الناتئة، والأقواس التي تبرز عند مدخل المبنى وتتميز بزخارف دقيقةٍ متشابكةٍ، وأبواب المدخل السميكة الدائرية الشكل، بالإضافة إلى الأعمدة الحجرية القصيرة الثخينة ذات اللون الوردي الفاتح. يسجل غوغول مساق «مقدمة في الهندسة

(1) النافذة الناتئة من سقفٍ مائلٍ ويطلق عليها الروشن. (المترجم)

المعمارية» في الفصل الدراسي الثاني، فيقرأ خلال الفصل عن كيفية تشييد الأهرامات والمعابد الإغريقية والكاتدرائيات في العصور الوسطى، ويدرس مخططاتها في الكتاب المنهجي للمادة. يتعلم غوغول عدداً لا يحصى من المصطلحات والكلمات التي تصنف تفاصيل هذه المباني القديمة، ويقوم بكتابتها على بطاقات فهرسةٍ منفصلة، ويجعل خلف كل بطاقة رسوماتٍ توضيحية. ومن هذه المصطلحات: العَتَب[1]، السطح المعمد[2]، الطبلة[3]، ولبنة العقد[4]. تشكل هذه الكلمات لغةً مغايرةً يتوق إلى معرفتها. يحتفظ غوغول بالبطاقات في علبة حذاءٍ، ويراجعها قبل الامتحان، ويحفظ عدداً أكبر من المصطلحات أكثر مما يحتاجه للامتحان. يحتفظ غوغول بعلبة البطاقات حتى بعد الانتهاء من الامتحان، ويضيف إليها المزيد من البطاقات في وقت فراغه.

في فصل الخريف، في السنة الثانية له في الجامعة، يستقل غوغول قطاراً مزدحماً بشكل لافت. كان يوم الأربعاء الذي يسبق عيد الشكر. يشق غوغول طريقه بصعوبةٍ عبر المقصورة وقد حمل حقيبة «الدفيل» المثقلة بالكتب الخاصة بمساق «الفن المعماري في عصر النهضة»، فلقد

---

(1) إطار تجميلي فوق الباب أو حول النافذة. (المترجم)

(2) السطح المعمد (entablature) يتكون من العناصر المعمارية الأفقية للنظام الكلاسيكي (Classical order) في العمارة اليونانية–الرومانية القديمة.

(3) في العمارة هي منطقة ثلاثية من الجدار المغلق في إطار الجزء العلوي للواجهة الأمامية (قوصرة)، وكثيراً ما تزين برسوماتٍ وتماثيل. وأحياناً يستخدم كمصطلح مرادف للإطار العلوي للبوابات والنوافذ. (المترجم)

(4) قطعة من الحجر أو غيره يتكون منها ومن غيرها بناء العقد، وأول ما عرف منها في العمارة العربية الإسلامية ما كان في قصر الحيرة الشرقي الذي بناه هشام بن عبد الملك عام 110 م– 728 ه، في بادية الشام. (المترجم)

توجب عليه أن يكتب بحثاً مصغراً عن الموضوع خلال الأيام الخمسة القادمة. احتل الركاب أجزاءً من الممر وجلسوا متجهِّمين على أمتعتهم. يصيح جامع التذاكر قائلاً: «الممر مخصص لتذاكر الوقوف فقط!»[1]، يتذمر أحد الركاب قائلاً: «أريد استرجاع نقودي». يتابع غوغول السير من مقصورة إلى أخرى باحثاً عن ممرٍ غير مكتظ حتى يتمكن من الجلوس. يلمح غوغول مقعداً فارغاً في عربة القطار الأخيرة. تجلس فتاةٌ بالقرب من النافذة، وتقرأ عدداً من مجلة *ذا نيويوركير*، وقد طوت بعض صفحاتها للخلف. وضعت بجانبها معطفاً من الجلد الصناعي لونه بني داكن وحوافه مكسوة بالفرو، مما دفع بالراكب الذي يتقدم نيكيل بمتابعة المسير. لكن شيئاً بداخله يخبره أن المعطف للفتاة، فيتوقف ويسألها: «هل هذا لك»؟

ترفع جسدها النحيل وبخفة وبحركة واحدة تضع المعطف بجانب مؤخرتها ورجليها. يميز نيكيل وجهها فلقد رآها سابقاً في الحرم الجامعي حيث صادفها في ممرات مباني الجامعة المختلفة عند توجهه لمحاضراته وخروجه منها. يتذكر أنها صبغت شعرها في السنة الأولى باللون التوتي، الذي كان لافتاً للنظر، وكان قصيراً لم يتجاوز ذقنها. أما الآن، فقد نما إلى كتفيها واكتسب لونه الطبيعي من جديد، وهو بني فاتح مع بعض الخصلات الشقراء هنا وهناك، وتفرقه بعيداً عن المنتصف، بالإضافة إلى كونه متعرجاً قليلاً. أما لون حاجبيها، فداكنٌ أكثر من شعرها، مما يضفي

(1) «Standing Room Only»: تعد هذه التذاكر أقل كلفةً، وتمنح عادةً إذا كان القطار مزدحماً، إذ تكون كل مقاعده مشغولة. (المترجم)

على خصالها الودودة تعبيراتٍ جادة. ترتدي جينزاً باهت اللون على نحوٍ جميل، وجزمة جلدية بنية اللون لها رباط أصفر ونعل كاوتشوك سميك. وترتدي الفتاة كذلك سترةً صوفيةً ذات جدلات، لونها رمادي كلون عينيها، وهي فضفاضة جداً، وأكمامها تغطي جزءاً من يديها. تبرز محفظةٌ رجاليةٌ بوضوح من الجيب الأمامي لجينزها.

- «مرحباً، أنا روث»، تقول الفتاة، وقد ميزت نيكيل بالطريقة المبهمة نفسها، التي ميزها بها.

«أنا نيكيل». يجلس نيكيل، وكان مرهقاً للغاية، فلم يستطع أن يرفع حقيبته ليضعها على الرف المخصص للأمتعة، الموجود فوق رأسه. لذلك، يحشرها تحت مقعده قدر المستطاع ويثني رجليه الطويلتين بطريقة خرقاء، ويدرك أنه يتصبب عرقاً. يفتح نيكيل سحاب سترة الباركة (parka)[1] التي كان يرتديها، ثم يدلك أصابعه التي ظهرت عليها خطوط متقاطعة خلَّفتها اليد الجلدية لحقيبته. تراقبه روث، ثم تقول: «أنا آسفة، أعتقد أنني كنت أحاول تأجيل أمرٍ لا مفر منه». مايزال نيكيل جالساً ويسمح لذراعه التي تحررت من ثقل حقيبته بالارتخاء، ثم يقول: «ماذا تقصدين»؟

«أردت أن يبدو الأمر وكأن شخصاً يجلس بجانبي، لذلك وضعت المعطف على الكرسي».

«في الواقع، إنها طريقةٌ ذكيةٌ. أحياناً أتظاهر بالنوم للسبب ذاته»، يعترف نيكيل، «لا يرغب أي شخصٍ بالجلوس بجانبي وأنا نائم».

---

(1) الباركة: سترة فرائية مقلنسة. (المترجم)

وبينما تضحك روث بهدوء، تضع خصلة من شعرها خلف أذنها. كان جمالها واضحاً وبسيطاً في آن واحد. لاتضع روث أي مساحيق تجميلية باستثناء قليلٍ من أحمر الشفاه الشفاف البراق. تظهر شامتان صغيرتان بنيتا اللون على خدها الأيمن، وهما الشيء الوحيد الذي يعكر صفو بشرتها المشمشية الفاتحة. أما يداها فنحيلتان صغيرتان، وأظافرها ليست مطلية، والجلد المحيط بهما خشن. تنحني روث للأمام لتضع المجلة في الحقيبة الموجودة عند قدميها وتُخرِج كتاباً آخر، وعندها يلمح نيكيل لبرهةٍ جسدها من فوق حزامها.

- «أتتوجهين إلى بوسطن»؟
- «إلى (ماين) حيث يعيش والدي. عليَّ أن أركب باصاً آخر في المحطة الجنوبية، لأربع ساعاتٍ أخرى. في أي كلية أنت»؟
- «كلية جوناثان إدواردز (J E)».

تخبره أنها في كلية سيليمان (Silliman)، وأنها ترغب في دراسة اللغة الإنجليزية. يقارن كلاهما تجربتيهما في الكلية حتى تلك اللحظة، فيكتشفان أنهما درسا مساق علم النفس 110 ذاته في فصل الربيع السابق. الكتاب الذي تحمله بين يديها، مسرحية *تيمون الأثيني*[1]، ورقي الغلاف، وعلى الرغم من أنها تُحدد الصفحة التي وصلت إليها بأصبعها، لا تقرأ منه كلمةً واحدةً. لا يأبه نيكيل أيضاً بفتح كتابه عن فن الرسم المنظوري الذي أخرجه من حقيبة الدفيل الخاصة به. تخبره روث أنها ترعرعت

(1) تيمون الأثيني (1623) بالإنجليزية Timon of Athens هي مسرحية للأديب الكبير شيكسبير. (المترجم)

في كميون[1] في ولاية فيرمونت، وكان والداها هبِّيْن، وتلقت تعليمها في المنزل حتى الصف السابع. والداها منفصلان، ويعيش والدها الآن مع زوجته، ويربيان حيوان اللاما في مزرعتهما. أما والدتها فهي باحثةٌ في علم الأنثروبولوجيا، وتُجري حالياً بحثاً ميدانياً عن القابلات في تايلاند.

لا يستطيع نيكيل أن يتصور نفسه وله مثل هذين الوالدين وهذه الخلفية، وعندما يصف لها نشأته، فإنها تبدو مملة مقارنةً بنشأتها. بيد أن روث تبدو مهتمةً فتسأله عن زياراته لكلكتا. تخبره كذلك أن والديها ذهبا إلى الهند قبل ولادتها لزيارة أحد المعتكفات الهندوسية[2] هناك. تسأله روث عن شكل الشوارع والبيوت هناك، لذلك يرسم نيكيل مخططاً لمنزل جديه لوالدته على الصفحة الأخيرة الفارغة في كتاب فن الرسم المنظوري، ثم يأخذها في جولة عبر الشرفات والأرضيات المكسوة بالفسيفساء، ويخبرها عن الجدران البيضاء التي تميل إلى الزرقة والمطبخ الحجري الضيق وحجرة المعيشة وما تحويه من أثاثٍ مصنوعٍ من الخيزران، الذي يبدو ملائماً لشرفةٍ ما. يرسم نيكيل المخطط بكلّ ثقةٍ، ويعود الفضل إلى مساق الرسم التخطيطي الذي يدرسه في الفصل الحالي. يشير نيكيل إلى الحجرة التي ينام فيها هو وسونيا عندما يذهبان لزيارة جدتهما، ويصف لها مشهد الأزقة الضيقة التي تنتشر على جانبيها محالٌ تجارية لها أسقف مغطاة بالصفيح المجعد. عندما ينتهي نيكيل، تأخذ روث منه الكتاب وتنظر إلى الرسم، ثم تتعقب الحجرات بأصبعها.

(1) الكميون وهي أصغر وحدات التقسيم الإداري. (المترجم)

(2) يطلق عليه أشرم، وهو موقع يلتقي فيه الناس من أجل تعلُّم الطقوس المقدسة (الهندوسية) أو أدائها. (المترجم)

تقول روث: «أحب أن أذهب إلى هناك»، وفجأة يتخيل نيكيل وجهها وذراعيها وقد اكتسبا سمرةً، وحقيبة ظهرٍ مربوطةً إلى كتفيها، وهي تمشي في شوارع شورينغي كما يفعل السياح الغربيون عادةً، وتتسوق في متجر نيوماركت، وتنزل في فندق الغراند.

وبينما يتحدث نيكيل وروث، تقوم امرأةٌ تجلس مقابلهما بتوبيخهما، فلقد كانت تحاول الحصول على قيلولة، إلا أن ذلك يحثهما على مزيدٍ من الحديث بصوتٍ منخفض وقد أمالا رأسيهما نحو بعضهما. لا يعلم نيكيل إلى أي ولايةٍ وصلا وأي محطاتٍ قطعا. وبينما يتحرك القطار على جسرٍ ما، يصدر صوتاً مدوياً كالرعد. أما غروب الشمس فكان جميلاً على نحوٍ مثيرٍ، وبخاصة الوهج الوردي الذي يلقيه على المنازل ذات الجدران الخشبية، التي تمتد على حافة المياه. تختفي هذه الظلال خلال دقائق ليحل محلها ذلك اللون الشاحب الذي يسبق الغسق. عندما يحل الظلام، يرى غوغول انعكاس صورتيهما في زاويةٍ من زوايا النافذة، وكأنها تحومان خارج القطار. تجف حنجرتاهما من الحديث، فيقترح نيكيل في مرحلةٍ ما التوجه إلى عربة المقهى. تطلب منه روث أن يحضر لها رقائق البطاطس وكوب شايٍ بالحليب. يعجبه أنها لا تهتم بإخراج محفظتها من جيب جينزها، وأنها بذلك تسمح له أن يدفع ثمن ما طلبته. يعود نيكيل وقد حمل كوباً من القهوة لنفسه ورقائق البطاطس والشاي لها، بالإضافة إلى كوبٍ ورقيٍّ مليء بالحليب أعطاه إياه الساقي بدل عبوة القشدة المألوفة. وفي حين يستمران في الحديث، تأكل روث رقائق البطاطس، وتمسح الملح حول شفتيها بظاهر يدها. تعرض روث على

نيكيل بعض الرقائق، وتناوله إياها الواحدة تلو الأخرى. يخبرها نيكيل عن الوجبات التي تناولها على متن القطارات الهندية عندما سافر برفقة عائلته إلى دلهي وآغرا، مثل: خبز الروتي، ويخنة الحبوب المجففة ذات المذاق الحامض قليلاً، اللذين طلبهما في محطة، ثم حصل عليهما ساخنين في المحطة التالية، وأقراص الخضراوات المهروسة المقلية التي تُقدم مع الخبز والزبدة على الإفطار. يخبرها كذلك عن الشاي، الذي يمكن ابتياعه من شباك القطار من رجلٍ يقف على رصيف المحطة، يسكبه من إبريقٍ عملاقٍ من الألمنيوم، وقد أضاف إليه الحليب والسكر مسبقاً، في أكواب فخارية غير مصقولة، يلقيها الزبائن فيها بعد على السكة، فتتهشم. يشعر نيكيل بالإطراء لتقدير روث لكل هذه التفاصيل، ويخطر في باله في تلك اللحظة أنه لم يتحدث مطلقاً عن تجاربه في الهند مع صديقٍ أمريكي من قبل.

يفترقان فجأة. يتجرأ نيكيل في اللحظة الأخيرة، فيطلب من روث رقم هاتفها ويكتبه على الكتاب نفسه، الذي رسم عليه مخطط منزل جدته. يتمنى غوغول لو كان بمقدوره الانتظار معها في المحطة الجنوبية حتى تركب الباص إلى ماين، ولكن عليه أن يستقل القطار الداخلي خلال عشر دقائق ليقله إلى الضواحي. يشعر غوغول أن العطلة لن تنتهي، فجلُّ ما يفكر فيه العودة إلى نيوهفن ومهاتفة روث. يتساءل كم مرةً التقيا في الممرات دون أن يدركا ذلك، وكم وجبةً تشاركاها بشكلٍ عفوي في مطعم الجامعة المعروف بكومينز (Commons). يسترجع بذاكرته مساق علم النفس 110، ويتمنى لو تسعفه ذاكرته فتمنحه صورةً

ما لها، تدون ملاحظات في الجانب الآخر من قاعة المحاضرات في كلية الحقوق، وقد انحنى رأسها نحو الدُّرج. يفكر غوغول بالقطار معظم الوقت، ويشتاق إلى الجلوس بجوارها مرة أخرى، ويتخيل وجهيهما يتوردان من حرارة المقصورة، ويتشنج جسداهما بالطريقة نفسها، وشعرها يتألق بفعل الأضواء الصفراء فوق رأسها. في رحلة العودة إلى الجامعة، يبحث غوغول عنها في كل مقطورة، الواحدة تلو الأخرى، لكنه لا يجدها، فينتهي به الأمر إلى الجلوس بجوار راهبةٍ مسنةٍ ترتدي رداءً بنياً، وغطاء أبيض بارزاً للرأس، يكاد يلامس شفتها العلوية إذا ما حنت رأسها إلى الأسفل، وتشخر طوال الطريق.

توافق روث في الأسبوع الثاني بعد عودتهما إلى ييل على أن تلقى نيكيل في متجر أتيكس لبيع الكتب، لاحتساء كوبٍ من القهوة. تصل روث متأخرةً عن الموعد بضع دقائق، وكانت ترتدي الجينز والجزمة نفسيهما، والمعطف السويدي البني ذاته، الذي ارتدته عندما تقابلا للمرة الأولى. تطلب روث الشاي مرةً أخرى. في بادئ الأمر، يشعر نيكيل بارتباكٍ لم يشعر به عندما كانا في القطار. كان المقهى صاخباً ومكتظاً، والطاولة التي تفصلهما عريضةٌ للغاية. بدت روث أكثر هدوءاً مما كانت عليه، تنظر إلى الأسفل نحو كوب الشاي، وتعبث بأكياس السكر، وتنظر بين الحين والآخر نحو الكتب التي تملأ الجدران. لكنهما سرعان ما يبدآن الحديث بسلاسةٍ كما فعلا في السابق، ويتبادلان حكايات عن عطلتيهما. يخبرها نيكيل كيف احتل المطبخ هو وسونيا، وقاما بحشو ديكٍ روميٍّ، وفرد عجينةٍ لعمل الفطائر، لأن والدتهما لا تحب القيام بهذين العملين خاصة.

يعترف غوغول لروث قائلاً: «بحثتُ عنك عند عودتي»، ويخبرها عن الراهبة التي كانت تشخر. ثم يتنزهان معاً عبر مركز الفنون البريطاني حيث يوجد معرضٌ ورقي لأعمال عصر النهضة، كان ينوي كلاهما زيارته. يمشي نيكيل مع روث حتى كلية «سيليمان» ويتفقان على تناول القهوة معاً بعد بضعة أيام. بعدما تودع نيكيل، تتباطأ روث عند البوابة وتنظر إلى الأسفل نحو الكتب التي ضمتها إلى صدرها، عندها يتساءل نيكيل إذا ما كان يتوجب عليه أن يقبلها، وهو تحديداً ما كان يرغب في عمله منذ ساعات، أو أنهما، في عقلها، مجرد أصدقاء. تبدأ روث بالمشي للخلف نحو المدخل، تبتسم له وتخطو عدداً لا بأس به من الخطوات قبل أن تلوح له للمرة الأخيرة، وتذهب مبتعدة.

يبدأ نيكيل بملاقاة روث بعد انتهائها من محاضراتها، لذلك يحفظ جدولها الدراسي. وبينما ينتظرها، ينظر نيكيل إلى المباني المحيطة، ويتجول تحت المداخل المقنطرة. بدت روث سعيدةً برؤيته دوماً، لذلك تترك صديقاتها لتحييه. «بالطبع إنها تميل إليك»، يقول جوناثان لنيكيل حيث ينصت الأول بصبرٍ، في إحدى الليالي في حجرة الطعام، إلى وصف نيكيل التفصيلي لحادثة تعرّفه بروث. بعد بضعة أيام، تبع نيكيل روث إلى حجرتها حيث نسيت كتاباً، وكانت بحاجة لاستخدامه في إحدى المحاضرات، فوضع يده على يدها عندما أمسكت بمقبض الباب. كانت زميلاتها في الحجرة في الخارج. وبينما بحثت روث عن الكتاب، انتظرها نيكيل في حجرة المعيشة فجلس على الأريكة. كان الوقت منتصف النهار والسماء الملبدة بالغيوم تمطر بخفة. «وجدتُه»، تقول روث. وعلى الرغم

من أن لديهما محاضرات، يجلس كلاهما على الأريكة ويقبلان بعضهما، حتى تأخر الوقت، فلم يزعجا نفسيهما بالذهاب إلى محاضرتهما.

يدرس نيكيل وروث في المكتبة معاً كل مساء، ويجلسان مقابل بعضهما حتى يمنعا نفسيهما من الهمس. تصحبه روث إلى صالة تناول الطعام الخاصة بها، ويصحبها كذلك إلى صالته. يصحبها نيكيل أيضاً إلى حديقة المنحوتات. يفكر نيكيل في روث طوال الوقت: وهو ينحني نحو اللوح المائل في محاضرة الرسم الهندسي، وتحت الأضواء البيضاء القوية في المرسم، وفي القاعة المعتمة حيث يأخذ مساق فن العمارة في عصر النهضة، وحين تومض صور الفلل البالادية[1] من جهاز عرض الشرائح على الشاشة. خلال بضعة أسابيع سيشرف الفصل الدراسي على الانتهاء، لذلك يجد نيكيل وروث نفسيهما محاصرين بالامتحانات والبحوث التي عليهما تسليمها، ومئات الصفحات التي يتوجب عليهما قراءتها. يخشى غوغول الشهر الذي سيفصله عن روث، والذي عليه تحمله خلال عطلة الشتاء أكثر من خشيته حجم العمل الدراسي الهائل الذي عليه القيام به. تخبر روث نيكيل بعد ظهر أحد أيام السبت، وقبل بدء الامتحانات النهائية، عندما كانا في المكتبة، أن زميلاتها في السكن سيخرجن طوال اليوم. يغادر كلاهما المكتبة ويمشيان معاً عبر كروس كامباس (Cross Campus) باتجاه كلية سيليمان، وحيث يقع سكن الطالبات، ثم يجلس بجوارها فوق سريرها غير المرتب. رائحة الحجرة

---

(1) الفلل البالادية في فينيتو من مواقع التراث العالمي، وهي مجموعة من أعمال المهندس المعماري أندريا بالاديو، أدرجتها اليونسكو على قائمة التراث العالمي عام 1994. (المترجم)

تشبه رائحتها؛ رائحة البودرة المعطرة التي تخلو من رائحة العطر الحادة. وضعت روث على الجدار، فوق مكتبها، ملصقاتٍ لمؤلفين مثل أوسكار وايلد، وفيرجينيا وولف. شعر كلاهما بخدرٍ في شفاههما ووجهيهما من شدة البرد ولذلك، في بادئ الأمر، لم يخلعا معطفيهما. تضع روث حذاءها المبطن بالفرو مقابلهما، ثم يستلقيان معاً. ترشد روث يد نيكيل من تحت سترتها الفضفاضة. لم يكن الأمر كذلك في المرة الأولى التي كان فيها مع فتاة. لا يتذكر نيكيل أياً مما حدث آنذاك، باستثناء أنه شعر بالامتنان فيها بعد، لأنه لم يعد بتولاً.

لكنَّ نيكيل يدرك كل التفاصيل هذه المرة؛ بطنها الدافئ، كيف ينسدل شعرها الناعم على الوسادة على شكل خصلاتٍ كثيفةٍ، وكيف تتغير ملامحها قليلاً عندما تستلقي. وبينما يلمس صدرها الصغير، الذي افترق عن بعضه، وبدت إحدى حلمتيه باهتة وأكبر قليلاً من الأخرى، تهمس في أذنه قائلةً: «نيكيل، أنت رائع»! يقبل حلمتي نهديها، وبينما تنحني نحوه برفق يقبل الشامات المبعثرة على بطنها، ويشعر بيديها فوق رأسه ثم فوق كتفيه، ثم ترشده نحو رجليها المتباعدتين. وبينما يتذوق ويشتم ما بين رجليها، يشعر غوغول بالحمق والسخافة، لكنه يسمعها تهمس اسمه وتخبره أنه شعور رائع. تعلم روث ما يجب عليها فعله؛ تفتح سحاب جينز نيكيل ثم تنهض لتحضر عازلاً أنثوياً من جارور مكتبها.

بعد مضي أسبوع يعود نيكيل إلى المنزل من جديد ويساعد سونيا ووالدته في تزيين شجرة عيد الميلاد، ويقدم يد العون لوالده، فيجرف

الثلج عن المدخل، ويتوجه إلى مركز التسوق ليبتاع بعض الهدايا في اللحظة الأخيرة. يتجول نيكيل حول المنزل ببطء، وكان مستغرقاً في التفكير، وقد بدا عليه القلق والاضطراب، لذلك يتظاهر أنه مصاب بالزكام. يتمنى لو كان بمقدوره ببساطة أن يستعير سيارة والديه، ويذهب إلى ماين ليرى روث بعد انقضاء عيد الميلاد، أو أن تتمكن هي من زيارته. تؤكد له روث أنه مرحبٌ به تماماً إن رغب في زيارتها، فوالدها وزوجته لن يمانعا مطلقاً. تضيف روث أن والدها سيسمح له بالنوم في حجرة الضيوف، ثم بإمكانه أن يتسلل إلى سريرها ليلاً. يتخيل نيكيل منزل المزرعة الذي وصفته له، ويتخيل نفسه يستيقظ على رائحة البيض المقلي، ويمشي في الحقول المهجورة المغطاة بالثلوج برفقة روث، إلا أن هذه الرحلة تتطلب منه أن يخبر والديه بأمر روث، وهو في الواقع لا يرغب بذلك. لا طاقة لديه لتحمل دهشة والديه وعصبيتهما، وشعورهما الصامت بخيبة الأمل، وتساؤلاتهما حول ردة فعل والدي روث، وإن كانت العلاقة جادة أم لا. وبقدر ما يشتاق نيكيل لرؤية روث، فإنه لا يتخيلها جالسةً عند طاولة المطبخ في منزله في شارع بيمبيرتون، مرتديةً جينزها وسترتها الفضفاضة، تتناول طعام والدته بلطف. لا يتصور كذلك أن يكون برفقتها في البيت والجميع يناديه «غوغول».

يتحدث نيكيل إلى روث بصوتٍ منخفض في المطبخ الفارغ عندما تخلد العائلة للنوم، ويحول تكلفة المكالمة على هاتفه في الجامعة. يرتب كلاهما ليلتقيا في يومٍ ما في بوسطن ليقضيا اليوم معاً في ميدان هارفارد. وصل ارتفاع الثلوجِ في الشارع في ذلك اليوم قدماً واحدة، وكان لون

السماء أزرق داكناً. يذهبان بدايةً إلى مسرح براتيل السينمائي، ويشتريان تذاكر للفيلم الذي كان على وشك أن يبدأ، ثم يجلسان في الشرفة الخلفية ويتبادلان القبل، مما دفع بعض الحضور إلى الالتفاف إلى الخلف والتحديق فيهما. يتناولان طعام الغداء في مقهى بامبيلونا حيث يطلبان شطائر لحم الخنزير المدخن، وحساء الثوم، ويجلسان في الزاوية بعيداً عن الآخرين. يتبادلان الهدايا، فروث تهديه كتاباً مستعملاً لرسومات الفنان غويا[1]، أما نيكيل فيهديها زوجاً من القفازات الصوفية الزرقاء، وشريط كاسيت وضع عليه خليطاً من الأغاني المفضلة لديه لفرقة البيتلز. يكتشف كلاهما وجود متجرٍ فوق المقهى مباشرةً يبيع كتب الفن المعماري فقط، وعندها يتصفح نيكيل أرفف الكتب، فيكافئ نفسه بشراء نسخة ورقية الغلاف من كتاب *رحلة إلى الشرق* للمهندس المعماري لوكوربوزييه[2]، لأنه يفكر في دراسة الفن المعماري، وإعلان ذلك لوالديه الفصل القادم. يتجول نيكيل وروث بعد ذلك ممسكيْن بيدي بعضهما، ويتبادلان القبل بين الحين والآخر وقد استندا إلى جدار مبنى ما، وفي الشوارع ذاتها التي دفعته فيها والدته في عربته صعوداً ونزولاً عندما كان طفلاً. يريها نيكيل منزل الأستاذ الجامعي الأمريكي حيث كان يعيش مع والديه قبل ولادة سونيا بزمن، ومنذ سنين طويلة يعجز نيكيل عن تذكرها. رأى نيكيل صوراً فوتوغرافية للمنزل، وأخبره والداه باسم الشارع. يبدو أن من

---

(1) الرسام الإسباني فرانسيسكو غويا (1810–182) . (المترجم)

(2) شارل إدوار جانيريه–كري، أو كما يُعرف لوكوربوزيي (-Charles-Édouard Jeanneret Gris) أو (Le Corbusier)؛ 1887–1965 معماري سويسري– فرنسي، وأحد رواد عمارة الحداثة في القرن العشرين. (المترجم)

يعيش في المنزل الآن، كائناً من كان، موجودٌ خارج البلاد، فالثلج يتراكم على درجات الشرفة، ويتجمَّع عددٌ من الصحف الملفوفة على ممسحة الأرجل. «أتمنى لو كان بمقدورنا الدخول. أتمنى أن نكون وحدنا»، يقول نيكيل. ينظر نيكيل إلى المنزل وبجانبه روث، التي تمسك يده بيدها المرتدية القفاز، ويشعر أنه عاجزٌ على غير العادة. وعلى الرغم من أن نيكيل لم يكن سوى طفلٍ رضيع حينها، فإنه يشعر بالخيانة نوعاً ما لعدم قدرته آنذاك على إدراك أنه في يومٍ من الأيام، وبعد سنين من الزمان، سيعود إلى هذا المنزل، ولكن تحت ظروفٍ مغايرةٍ، وأنه سيكون في غاية السعادة.

بحلول العام التالي، يعرف والداه القليل عن روث. فعلى الرغم من أن نيكيل زار بيت المزرعة في ماين مرتين، وقابل والد روث وزوجته، كانت شقيقته سونيا التي أصبح لديها اليوم حبيبٌ بالسر، الوحيدة في عائلته التي التقت روث خلال عطلة نهاية الأسبوع، عندما زارت الأولى نيوهفن. لم يبد والداه أي فضولٍ تجاه صديقته. لم يكن والداه فخورين أو مسرورين على الإطلاق بعلاقته بروث؛ ذلك الإنجاز الذي حققه في حياته! تخبره روث أنها لا تمانع رفض أهله لها، وأنها تجد الأمر رومانسياً. لكن نيكيل يعلم أن الأمر ليس صائباً، فهو يتمنى لو أن والديه يتقبلان روث ببساطة، كما تقبلته عائلتها دون أي ضغوطات. «أنت أصغر من أن ترتبط بهذه الطريقة»، يقول أشوك وأشيما. حتى إن كليهما يذهب إلى أبعد من ذلك، فيشيران إلى أمثلةٍ من رجالٍ بنغاليين يعرفانهم تزوجوا من أمريكيات وانتهى الأمر بالطلاق. يزداد الأمر سوءاً عندما يخبرهما

نيكيل أن الزواج آخر ما يفكر به. في بعض الأحيان، وبينما مايزال والداه يتحدثان، يضع نيكيل سماعة الهاتف رافضاً متابعة الحديث. يشفق نيكيل على والديه عندما يتحدثان إليه بهذه الطريقة، لأنهما يفتقران إلى تجربة الوقوع في الغرام في مرحلة الشباب. يشك غوغول أن والديه سُرّا عندما غادرت روث إلى جامعة أوكسفورد لفصلٍ دراسيٍ واحد. ذكرت روث منذ فترةٍ طويلةٍ اهتمامها بالذهاب إلى أكسفورد، وذلك في الأسابيع الأولى لتودد أحدهما إلى الآخر، عندما شعر كلاهما وكأن السنة الجامعية الأولى أشبه ببقعةٍ صغيرةٍ بعيدةٍ في الأفق. سألته روث إن كان يمانع تقديمها لطلبٍ للالتحاق بأكسفورد، لكنه على الرغم من أن فكرة ابتعادها جعلته يشعر بالاستياء، يرد نيكيل نافياً؛ بالطبع لا فستنقضي الأسابيع الاثنا عشر سريعاً.

خسر نيكيل فصل الربيع الذي قضاه دونها. كان يقضي معظم وقته داخل الأستوديو، وبخاصة ليلة الجمعة وفي عطلة نهاية الأسبوع التي كان يقضيها عادة برفقتها حيث كانا يتناولان الطعام في مطعم نيبلز، ثم يشاهدان فيلماً ما في صالة العرض الخاصة بكلية الحقوق. يستمع نيكيل إلى الأغاني التي تحبها روث مثل أغاني سايمون وغارفنكل، وأغاني نيل يونغ، وكات ستيفنز، ويبتاع لنفسه نسخاً جديدةً من الألبومات التي ورثتها روث عن والديها. يشعر نيكيل بالغثيان عندما يفكر بالمسافة التي تفصلهما، أو عندما يفكر أنه بينما يخلد إلى النوم ليلاً، تنحني روث أمام المغسلة في مكانٍ ما لتنظف أسنانها وتغسل وجهها بادئة يوماً جديداً. يشتاق إليها تماماً كما اشتاق والداه لأحبائهما في الهند طوال هذه السنين،

ولأول مرةٍ في حياته يعرف نيكيل هذا الشعور. بيد أن والديه يرفضان منحه المال ليسافر إلى إنجلترا في عطلة نهاية الفصل. ينفق نيكيل القدر القليل من المال الذي يحصل عليه من عمله في قاعة الطعام في الجامعة على المكالمات الدولية، إذ يتحدث إلى روث مرتين في الأسبوع. يتفقد نيكيل صندوق بريده في الجامعة مرتين في اليوم منتظراً رسائل أو بطاقاتٍ بريدية عليها الطابع البريدي المتعدد الألوان للصورة الجانبية لملكة بريطانيا. يحمل نيكيل هذه الرسائل والبطاقات معه داخل كتبه أينما ذهب. تكتب روث لنيكيل بقلم حبرٍ بنفسجي اللون قائلةً: «إن مساق شكسبير أفضل مساقٍ درسته على الإطلاق»، ثم تضيف: «مذاق القهوة هنا فظيع! الجميع هنا يقولون باستمرار (في صحتك)! أفكر بك طوال الوقت».

يحضر نيكيل في أحد الأيام حلقة نقاش عن الروايات الهندية المكتوبة بالإنجليزية. يشعر أنه ملزمٌ بالحضور، وبخاصة أن إحدى المشارِكات في الحلقة؛ أميت، هي ابنة عمه التي تعيش في بومباي، ولم يقابلها في حياته من قبل. طلبت منه والدته أن يرحب بأميت نيابةً عنها. يشعر نيكيل بالملل من نقاش المشاركين الذين يواصلون الحديث عن شيء أطلقوا عليه «الهامشية» وكأنها أشبه بحالةٍ طبيةٍ! يقضي غوغول معظم الوقت في رسم سكيتش للمشاركين الذين انكبوا على أوراقهم الموضوعة على طاولةٍ مستطيلةٍ. يقول أحد المشاركين وهو مختص في علم الاجتماع: «من منظور النظرية الغائية لا يمكن لـ آي بي سي ديز (ABCDs) أن يجيبوا على السؤال التالي: 'ما هو موطنكم'؟» لم يسمع نيكيل بهذا المصطلح

من قبل لكنه يستنتج في نهاية المطاف أنه يرمز إلى «الهندي الحائر المولود في الولايات المتحدة» (American–born Confused Deshi) ؛ أي إلى شخصٍ مثله. يتعلم نيكيل أيضاً أن حرف C قد يرمز لكلمة «المتناقض (conflicted)» وأن Deshi كلمةٌ عامةٌ تعني 'مواطن'. لكنه يعرف مسبقاً أنه عندما يتحدث والداه وأصدقاؤهما عن الهند يصفانها بـ Desh، إذن Deshi تعني المواطن الهندي كذلك. لكن نيكيل لا يفكر في الهند بهذه الطريقة بل إنها -كما يفعل جميع الأمريكيين- بالنسبة إليه «الهند» (India) وليس «Desh».

يجلس غوغول في مقعده جلسةً مترهلةً يتفكر في بعض الحقائق الغريبة. فعلى سبيل المثال، وعلى الرغم من أنه يفهم لغته الأم ويتحدثها بطلاقةٍ، فإنه لا يستطيع كتابتها أو قراءتها ولو بكفاءةٍ متواضعةٍ. كانت لغته الإنجليزية التي يتحدثها بلكنةٍ أمريكيةٍ مصدر تسليةٍ لامتناهيةٍ بالنسبة لأقاربه خلال رحلاته إلى الهند، وعندما يتحدث مع سونيا يهز الجميع- عماته وخالاته وأعمامه وأخواله وأبناؤهم- رؤوسهم منكرين عليهما ما يقولانه، ويرد المستمع دوماً: «لم أفهم كلمةً واحدةً»! إن التعايش مع اسمين، اسمٌ رسمي (جيد) واسم دلال، في مكانٍ لا يعني فيه الفرق بين الاثنين أي شيء، هو بالتأكيد رمزٌ للحيرة والفوضى في أعظم صورهما. يبحث نيكيل بين الحضور عن شخصٍ يعرفه. لم يكن الحاضرون جمهوره؛ العديد من الطلاب الذين يدرسون الأدب ويحملون حقائب كتب جلدية ويرتدون نظاراتٍ ذات أطر ذهبية ويكتبون بأقلام الحبر، العديد منهم ممن كانت روث ستلوح مرحبةً بهم. يوجد بين الحضور

أيضاً الكثير من «الهنود الحائرين المولودين في الولايات المتحدة». لم يكن لدى نيكيل أدنى فكرةٍ عن وجود هذا العدد منهم داخل الجامعة، فليس لديه أي صديقٍ من بينهم في كليته. يتجنب نيكيل هؤلاء، لأنهم يذكّرونه بالطريقة التي اختارها والداه للعيش، فهما يصادقان الآخرين لا لأنهم يحوزون إعجابهما، بل لأنهم يشاطرونهما الماضي ذاته! «لستَ عضواً في الجمعية الهندية هنا؟ لماذا؟» تسأله أميت عندما يذهبان إلى مقهى أنكور لاحتساء مشروبٍ ما. «لا يوجد لدي متسعٌ من الوقت»، يجيب نيكيل، ولكنه لا يخبر قريبته التي تسأله بنيةٍ حسنةٍ أنه يعتقد أن الانضمام إلى المؤسسة سيكون نفاقاً كبيراً من جانبه؛ تلك المؤسسة التي تحتفل طوعاً بمناسباتٍ أجبره والداه على حضورها في طفولته، وعندما كان مراهقاً أيضاً. «اسمي نيكيل الآن»! يخبر نيكيل قريبته أميت. فجأةً، يشعر نيكيل بالاكتئاب من عدد المرات القادمة التي يتوجب عليه أن يقول الجملة نفسها ليُذكّر من حوله باسمه الجديد، وبضرورة نسيان الاسم القديم. يشعر نيكيل وكأن أخطاءً مطبعيةً مثبتةٌ على صدره على الدوام!

في السنة الأخيرة له في الجامعة، يستقل نيكيل القطار وحده في عيد الشكر، متوجهاً إلى بوسطن. لم يعد هو وروث معاً. لم تعد روث من أوكسفورد بعد انقضاء الاثني عشر شهراً تلك، بل بقيت لإنهاء الفصل الصيفي، وفسَّرت الأمر أن أستاذاً جامعياً تُقدره جداً سيتقاعد بعد هذا الفصل، لذلك أرادت الانضمام إلى صفه. قضى نيكيل الفصل الصيفي في شارع بيمبيرتون. حظي بفترة تدريبية غير مدفوعة الأجر في شركة هندسيةٍ صغيرةٍ في كيمبردج، حيث خرج في مهماتٍ بسيطةٍ كجزءٍ من

دورةٍ في التصميم الهندسي قام خلالها بتصوير مواقع مجاورة، وأعد بعض الرسومات الهندسية. وحتى يتمكن نيكيل من جمع المال، عمل في غسل الصحون في مطعم إيطالي في البلدة التي يعيش فيها والداه. يذهب نيكيل إلى مطار لوغان قرب نهاية شهر آب ليرحب بروث. انتظرها عند بوابة القادمين واصطحبها إلى أحد الفنادق لليلةٍ واحدةٍ، ودفع من ماله الذي جناه من عمله في المطعم. تطل الحجرة على الحديقة العامة، وجدرانها مكسوةٌ بورق جدرانٍ سميكٍ مقلم، لونه قشدي وزهري. مارسا الغرام في سريرٍ مزدوج لأول مرة، لكنهما تناولا وجباتهما خارج الفندق حيث لم يتمكن أي منهما تحمل نفقة ما احتوته قائمة خدمة الغرف. تنزها معاً في شارع نيوبيري، وذهبا إلى مطعمٍ يوناني جعل موائده على الرصيف. كان الحر قائظاً. لم تتغير روث، ولكّن حديثها بات متبلاً بكلماتٍ وعباراتٍ اكتسبتها من إنجلترا مثل «في تصوري»، و«أفترض»، و«محتمل». تتحدث روث عن الفصل الدراسي السابق، وتخبر نيكيل كم أحبت إنجلترا ورحلتها إلى برشلونة وروما. أضافت روث أنها ترغب بالعودة إلى إنجلترا لتلتحق بكلية الدراسات العليا، ثم تقول: «أعتقد أن لديهم كلياتٍ جيدة تُدرِّس الفن المعماري. بإمكانك أن ترافقني». في صباح اليوم التالي يصحبها نيكيل إلى المحطة لتستقل الحافلة المتوجهة إلى ماين، لكن سرعان ما يجتمعان من جديد خلال بضعة أيام في نيوهفن، في شقةٍ استأجرها نيكيل في شارع هاو (Howe Street) مع بعض أصدقائه. يتشاجران، ثم يعترف كل منهما أن شيئاً قد تغير.

الآن، إذا التقيا صدفة في المكتبة أو في الشارع، يتجنب كلٌ منهما

الآخر. قام نيكيل بمحو رقم هاتفها وعنوانيها في أوكسفورد وماين. لكنه كلما صعد القطار لم يستطع التوقف عن التفكير ببعد ظهر ذلك اليوم الذي التقيا فيه قبل سنتين. كان القطار مكتظاً إلى أبعد الحدود كالعادة، جلس نيكيل هذه المرة في الردهة الأمامية لنصف مدة الرحلة. بعدما تجاوز القطار مدينة ويستيرلي وجد نيكيل لنفسه مقعداً فجلس وبين يديه دليل المواد المطروحة للفصل القادم. يشعر بأنه مشتت الفكر ومكتئبٌ لسببٍ ما، وكان يتوق إلى مغادرة القطار، وكذلك فإنه لا يأبه بإبعاد معطفه عن المقعد الذي بجواره أو ارتياد عربة المقهى لابتياع ما يشربه، على الرغم من أنه كان يشعر بالظمأ. يضع نيكيل جانباً دليل المواد ويفتح كتاباً استعاره من المكتبة قد يفيده في كتابة مشروع التخرج وموضوعه «مقارنة تصميم القصور في عصر النهضة في إيطاليا والعهد المغولي»، لكنه يغلق الكتاب بعدما قرأ بضع فقرات فقط. تتذمر معدة غوغول من الجوع ويتساءل ماذا أعد والده للعشاء، فوالدته وسونيا غادرتا إلى الهند لمدة ثلاثة أسابيع كي تحضرا زفاف أحد الأقارب، لذلك سيقضيان عيد الشكر في منزل أحد الأصدقاء. يميل غوغول برأسه على النافذة ويراقب المناظر الطبيعية التي اكتست بلون الخريف وهي تتلاشى أمام المياه الوردية والبنفسجية التي تطرحها طاحونة مصنع الأصباغ، ومحطات الطاقة الكهربائية، وخزان المياه الضخم الكروي الشكل الذي يعلوه الصدأ، والمصانع المهجورة ذات النوافذ الصغيرة المصطفة بجوار بعضها، المحطمة جزئياً وكأنها أتلفتها العثة. أما الأشجار، فأغصانها العلوية عارية، وما تبقى من الأوراق فهشٌ مثل الورق، ومصفر. يسير

القطار ببطء غير اعتيادي، فينظر نيكيل إلى ساعته ليدرك أن القطار متأخر عن موعده المحدد. في بقعةٍ ما خارج مدينة بروفيدانس يتوقف القطار عند حقلٍ كثير العشب، لكنه مهجور. يتوقف القطار هناك أكثر من ساعة، في حين يختفي قرص الشمس الأرجواني وراء الأفق الذي تحده الأشجار المصطفة بجوار بعضها.

تنطفئ الأضواء داخل القطار، ويصبح الهواء داخل القطار دافئاً على نحوٍ مزعج. يندفع جامعو التذاكر عبر المقطورات بقلقٍ. يُعلِّق الرجل الذي يجلس بجوار نيكيل قائلاً، «ربما انقطع سلكٌ ما». على الجانب الآخر تجلس امرأةٌ ذات شعرٍ أشيب، تقرأ وقد تدثرت بمعطفها حتى صدرها، ومن خلفه، يناقش طالبان شِعْر بين جونسون. يستطيع نيكيل أن يسمع صوت موسيقى أوبرا خافتة من جهاز الووكمان (مشغل الكاسيت المحمول) الخاص بأحد الركاب عندما يتوقف صوت محرك القطار. يُعجب نيكيل بمشهد الغسق ذي اللون الأزرق الياقوتي، الذي يراه من النافذة. يرى نيكيل أيضاً قطع غيارٍ لقضبان السكة الحديدية صدئةً مكدسةً في أكوام. بعد أن بدأ القطار بالتحرك من جديد أعلن المسؤولون في القطار عبر مكبرات الصوت أن سبب التأخير حالةٌ طبيةٌ طارئةٌ، إلا أن الحقيقة التي تمكن أحد الركاب من سماعها مصادفةً سرعان ما انتشرت، ألا وهي أن أحدهم انتحر عندما ألقى بنفسه أمام القطار.

يشعر غوغول بالصدمة والإحباط عند سماعه للخبر، ويستاء لشعوره بالانزعاج ولنفاد صبره، ثم يتساءل إن كانت الضحية رجلاً أو امرأة،

شاباً أو عجوزاً. يتخيل نيكيل هذا الشخص، يراجع جدول المواعيد نفسه الموجود في حقيبة ظهره، ليحدد بالضبط موعد وصول القطار واقتراب أضوائه الأمامية من المحطة. يُفوِّت غوغول قطار الضواحي الذي كان سيقله إلى بوسطن بسبب التأخير الذي وقع، لذلك يضطر إلى الانتظار أربعين دقيقة إضافية ليركب القطار التالي. حاول نيكيل أن يهاتف منزل والديه لكن ما من مجيب. يحاول أيضاً الاتصال بالجامعة حيث يعمل والده، فيستمر الهاتف في الرنين أيضاً. ثم يرى نيكيل والده في المحطة ينتظره على الرصيف المعتم، مرتدياً حذاءً رياضياً وبنطال قماش (كوردروي) ومعطف مطر ربط حزامه حول خصره، ووشاحاً صوفياً غزلته أشيما بنفسها، لفَّه حول عنقه، وقبعةً من صوف التويد، وقد بدا القلق على وجهه.

- «أعتذر للتأخير. منذ متى وأنت تنتظر»؟ يسأل نيكيل والده.

- «منذ السادسة إلا ربع»، يجيب والده. ينظر نيكيل إلى ساعته؛ إنها الثامنة تقريباً.

- «لقد وقع حادث».

- «أعلم، لقد هاتفتُ المحطة. ماذا حدث؟ هل تعرضت للأذى»؟

يهز نيكيل رأسه، «قفز أحدهم أمام القطار في مكانٍ ما في رود آيلاند. حاولتُ الاتصال بك. أعتقد أنهم اضطروا لانتظار الشرطة».

- «لقد قلقت عليك.».

«أتمنى أنك لم تنتظر في الخارج طوال الوقت في هذا البرد»؟ يتساءل نيكيل. ويدرك غوغول من عدم وجود أي رد فعلٍ لوالده أن هذا ما فعله

تماماً. يتساءل نيكيل أيضاً كيف كان حال والده دون والدته وشقيقته؛ إن كان يشعر بالوحدة. إلا أن والده ليس من ذلك النوع من الرجال الذي يمكن أن يعترف بذلك، أو أن يتحدث صراحةً عن رغباته أو تقلبات مزاجه أو احتياجاته. يمشي كلاهما نحو موقف السيارات، ثم يركبان السيارة، ويبدآن رحلتهما القصيرة باتجاه المنزل.

كانت ليلةً عاصفةً حتى إن السيارة اندفعت جانباً من وقتٍ إلى آخر، وتطايرت أوراق الأشجار البنية الكبيرة التي يعادل حجمها قدم إنسان على جانبي الطريق، حيث يكشفها وهج الأضواء الأمامية للسيارة. عادةً في مثل هذه الرحلات من المحطة إلى المنزل يسأله والده عدداً من الأسئلة تتعلق بدراسته ووضعه المالي ومشاريعه بعد التخرج. كان نيكيل متوتراً، لذلك يُقلِّب محطات الراديو، فيتحول من إي إم الإخبارية إلى محطة الراديو المحلي الموسيقية (NPR).

ينتظر والده انتهاء الفقرة الموسيقية، ثم يقول لحظة دخولهما إلى شارع بيمبيرتون، «أريد أن أخبرك بشيء».

- «ماذا»؟ يتساءل غوغول.

- «الأمر يتعلق باسمك».

ينظر غوغول إلى والده بحيرة، ثم يتساءل: «اسمي»؟

يغلق والده الراديو، ثم يقول: «غوغول».

قلةٌ اليوم ينادونه «غوغول»، لكنه ما عاد ينزعج أو يمانع عند سماع الاسم كما اعتاد في الماضي، وبخاصة بعد ثلاث سنواتٍ كان فيها معظم الوقت «نيكيل».

- «أنت تعلم أن ثمة سبباً وراء تسميتك غوغول»، يستمر والده في الحديث.

- «صحيح، فغوغول مؤلفك المفضل، أعلم ذلك».

«لا!» يرد والده. يوقف والده السيارة في المدخل الأمامي للمنزل، ويطفئ المحرك أولاً، ثم الأضواء الأمامية. يفك أشوك حزام الأمان وبيده يحرص على عودته إلى مكانه خلف كتفه الأيسر. «هناك سببٌ آخر»، يضيف والده.

وبينما يجلسان سويةً داخل السيارة، يتذكر أشوك حادثة القطار والحقل الذي يبعد مائتين وتسعة كيلومتراتٍ عن ولاية هاورا، ويسرد لابنه وهو يمسك بخفةٍ عجلة القيادة بأصابعه ويحدق في باب الكراج عبر الزجاج الأمامي للسيارة، حكايةَ القطار الذي استقله قبل ثمانية وعشرين عاماً، في تشرين الأول من عام 1961، عندما كان في طريقه لزيارة جده في ولاية جامشيدبور. يخبره عن تلك الليلة التي كاد فيها يفقد حياته، والكتاب الذي أنقذه، وعن السنة التالية التي قضاها طريح الفراش غير قادرٍ على الحركة.

يستمع غوغول لوالده مشدوهاً، محدقاً في وجهه. وعلى الرغم من أن بضعة إنشاتٍ تفصلهما عن بعضهما، يشعر غوغول للحظةٍ أنه يجلس إلى جوار شخصٍ غريبٍ، احتفظ بسرٍ، ونجا من مأساةٍ؛ رجلٍ له ماضٍ غامض، رجلٍ ضعيف عانى الكثير بطريقةٍ لا يمكن تصورها. يتخيل غوغول والده في العشرين من عمره، مثله الآن، يجلس داخل القطار كما كان غوغول قبل قليل، يقرأ قصةً، ثم يكاد يلقى حتفه. يحاول غوغول

جاهداً تخيل الريف البنغالي الغربي الذي رآه في مناسباتٍ معدودةٍ، وجسد والده المهشَّم بين مئات الجثث يُحمَل على نقالةٍ بعيداً عن مقصورات القطار الكستنائية اللون، التي قُلبت رأساً على عقب. يحاول غوغول، ضد فطرته، تخيل الحياة دون والده، وتصور العالم من غيره.

- «لماذا لا أعرف هذه المعلومات عنك»؟ يتساءل غوغول، وقد بدا صوته غليظاً، يحمل بين طياته اتهاماتٍ، لكن عينيه تتغشاهما الدموع. «لماذا لم تخبرني هذه القصة من قبل»؟
- «لم أشعر أن الوقت المناسب قد حان»! يرد والده.
- «لكن، الأمر يبدو لي وكأنك كذبت عليَّ طوال هذه السنين. لا يُبدي أشوك أي رد فعلٍ، وعندها يضيف غوغول متسائلاً: «لذلك أنت تعرج، أليس كذلك»؟
- «لقد وقع الحادث منذ أمدٍ بعيد. لم أرغب بإزعاجك».
- «لا يهم. كان يجب أن تخبرني».
- «ربما»! يعترف والده الذي يُلقي نظرةً خاطفة باتجاهه. يزيل أشوك مفتاح السيارة من خرم التشغيل. «هيا لا بد أنك جائع، الجو باردٌ داخل السيارة».

إلا أن غوغول لا يتحرك من مكانه، ومايزال يحاول جاهداً استيعاب المعلومات التي سمعها للتو، ويشعر بالإحراج والخجل على نحوٍ غريب، وأنه مخطئ. «بابا، أنا آسف».

يضحك والده بهدوء، ثم يقول: «لا ذنب لك فيما حدث».

- «هل تعلم سونيا بالأمر»؟ يسأل غوغول.

يهز والده رأسه، «ليس بعد، سأشرح لها الأمر في يومٍ ما. لا يعلم أحد بالأمر في هذا البلد سوى والدتك، وأنت الآن. غوغول، لطالما أردت أن أخبرك».

يكتسب اسم الدلال الخاص به، على نحوٍ مفاجئ، عندما ينطق به والده كما اعتاد غوغول أن يسمعه طوال حياته، معنىً مغايراً تماماً، وكأنما ارتبط بكارثةٍ اعتقد غوغول أنه جسَّدها لسنين طويلة، دون أن يقصد. «أهذا ما تفكر به عندما تفكر بي؟ هل أذكرك بتلك الليلة»؟

«مطلقاً»! يجيب والده في نهاية المطاف، ويضع يده على ضلوعه؛ إيماءة لطالما حيرت غوغول حتى اللحظة، «أنت تذكرني بكل ما حدث في حياتي بعد ذلك».

6

1994

يعيش غوغول الآن في نيويورك. تخرَّج غوغول في قسم الفن المعماري في جامعة كولومبيا في شهر أيار، ويعمل منذ ذلك الحين لدى شركةٍ في المنطقة التجارية وسط البلدة تشتهر بمنح عمولاتٍ للعاملين لديها على نطاقٍ واسع. لم يكن هذا العمل ما تخيله غوغول لنفسه عندما كان طالباً، فقد رغب في العمل في مجال تصميم المنازل وترميمها. أخبره مرشده في الجامعة أن هذا العمل سيتحقق فيما بعد، أما الآن فمن المهم أن يتدرب لدى شركةٍ مرموقةٍ. يطل المكتب حيث يعمل غوغول على جدار المبنى المجاور، المغطى بالقرميد البني المائل إلى الصفرة، الذي تمكن رؤيته من النافذة التي تسمح بتهوية المكان. يعمل غوغول مع فريقٍ لتصميم الفنادق والمتاحف ومقراتِ شركات رئيسة في مدن لم يزرها من قبل مثل: بروكسل، وبوينس آيريس، وأبوظبي وهونغ كونغ. أما مساهماته الهندسية فعارضةٌ وغير مهمة، ولم تكن من إبداعه وحده قط، فالأمر لا يتجاوز بئر السلم أو منوراً أو رُواقاً أو أنابيب تكييف. لكن

يعلم غوغول أن أي جزءٍ في المبنى مهما كان بسيطاً، يعد جوهرياً على أي حال. بعد كل سنوات الدراسة هذه واللحظات الحرجة والمشاريع التي لم تُنفذ، يجد غوغول الأمر مرضياً عندما يعلم أن لجهوده غاياتٍ عملية. كان غوغول مجداً، فقد عمل لوقتٍ متأخر من الليل، وحتى في عطلات نهاية الأسبوع، واضعاً تصاميمه باستخدام جهاز الحاسوب، وراسماً لمخططاتٍ تمهيدية، وكاتباً لمواصفاتٍ، وصانعاً نماذج مصغرة من البوليسترين والورق المقوى، ليقيسها بمقياس الرسم. يقطن غوغول اليوم في ستوديو في حي مورننغسايد هايتس، له نافذتان تطلان على جهة الغرب، ويقع في شارع أمستردام. ليس من السهل إيجاد المدخل، فهو بابٌ زجاجيٌّ مخدوش من الأعلى، ويقع بين كشكٍ للجرائد وصالونٍ للعناية بالأظافر. كان الاستوديو أول شقةٍ يعيش فيها غوغول بمفرده بعد سلسلةٍ متغيرة من رفقاء السكن الذين شاركوه المكان في مرحلة الجامعة وكلية الدراسات العليا. يمكن سماع ضجة الشارع من شقته، فعندما يتحدث غوغول عبر الهاتف والنوافذ مفتوحة، غالباً ما يسأله الشخص الذي يتحدث إليه إذا ما كان يتحدث من هاتفٍ عمومي. أما المطبخ فشُيد في المدخل، وهو مساحةٌ صغيرةٌ للغاية لدرجة أن الثلاجة تبعد عن المطبخ عدة أقدام، فقد وضعها غوغول بالقرب من باب الحمام. يوجد إبريق لغلي الماء فوق الموقد، إلا أن غوغول لم يملأه بالماء مطلقاً، وتوجد محمصة خبز فوق منضدة المطبخ لم يوصلها غوغول بالقابس الكهربائي قط.

يشعر والدا غوغول بالانزعاج بسبب دخله القليل، لذلك يرسل له

والده بعض المال بالبريد حتى يساعده في دفع الإيجار وفواتير بطاقته الائتمانية. شعر والداه بداية بخيبة الأمل لأنه التحق بجامعة كولومبيا. كانا يأملان أن يختار إم آي تي (معهد ماساتشوسيتس للتقنية)، حيث قُبل في قسم الفن المعماري أيضاً، غير أن غوغول لم يرغب في العودة إلى ماساتشوسيتس؛ إلى المدينة الوحيدة التي يعرفها والداه في أمريكا، بعد أن قضى أربع سنين في نيوهفن. لم يرغب غوغول في ارتياد الجامعة نفسها التي تخرج فيها والده، وأن يعيش في شقةٍ في سنترال سكوير كما فعل والداه في الماضي، ثم يعود لزيارة الشوارع التي يتحدث عنها والداه بشوق. لم يرغب غوغول بالعودة إلى منزل والديه في عطلة نهاية الأسبوع ومرافقتهما للمشاركة في طقوس البوجا[1] وحضور الحفلات البنغالية.

يفضل غوغول مدينة نيويورك؛ تلك المدينة التي لا يعرفها والداه جيداً، ولا يدركان جمالها، ويخشيانها أيضاً. تعرف غوغول على المدينة قليلاً خلال السنوات التي قضاها في ييل، وعبر الزيارات الميدانية التي قام بها مع زملائه في قسم الفن المعماري. وبالإضافة إلى ذلك، حضر غوغول بعض الحفلات في جامعة كولومبيا. كان غوغول يستقل المترو الشمالي أحياناً برفقة روث، فيزوران المتاحف وحي فيلاج السكني الشهير في نيويورك، أو يتصفحان بعض الكتب في متجر ستراند لبيع الكتب. لم يزر غوغول نيويورك عندما كان طفلاً إلا مرةً واحدةً بصحبة عائلته، بيد أن الرحلة لم تفده في معرفة ماهية المدينة. ذهبت العائلة في إحدى

(1) البوجا في الهندوسية طقسٌ دينيٌ يمارسه الهندوس في مناسباتٍ عديدةٍ من أجل الصلاة أو إظهار الاحترام للآلهة أو الغورو، والغرض من التواصل مع الآلهة أو الغورو الحقيقي هو الحفاظ على الاستمرارية والعلاقة بين العالم المادي والعوالم الداخلية الغامضة. (المترجم)

المرات، في عطلة نهاية الأسبوع، لزيارة أصدقاء بنغال كانوا يعيشون في كوينز، فاصطحبوهم في جولةٍ في مدينة منهاتن. كان غوغول حينها في العاشرة من عمره، وسونيا في الرابعة. «أريد أن أرى شارع السمسم»! قالت سونيا، معتقدةً أنه مَعلم حقيقي في المدينة، وبكت عندما سخر منها غوغول. خلال الجولة، مرت العائلة بمركز روكفلر[1]، وحديقة سنترال بارك، وناطحة السحاب إمباير ستيت. أخفض غوغول رأسه تحت نافذة السيارة، محاولاً رؤية مدى ارتفاع المبنى. علّق والداه بشكلٍ مستمر على حجم الأزمة المرورية وأعداد المشاة والضجة، وقالا حينها إن كلكتا لم تكن بهذا السوء مقارنةً بمدينة منهاتن. يتذكر غوغول أنه أراد أن يترجل من السيارة ليصعد إلى قمة إحدى ناطحات السحاب، مثلما فعل والده مرةً عندما اصطحبه إلى قمة ناطحة سحابٍ في مجمع برودينشال في بوسطن، حين كان صغيراً. لكن، سُمح لهم بمغادرة السيارة مرةً واحدة فقط عندما وصلوا إلى شارع لينغستون، ليتناولوا الكثير من الطعام الهندي في مطعمٍ هندي، ويشتروا حاجياتهم من البقالة الهندية، ويبتاعوا السواري المصنوعة من البوليستر، والأجهزة الكهربائية التي تعمل على قوة 220 فولت لإهدائها للأقارب في كلكتا. بالنسبة إلى والديه، يزور المرء مدينة منهاتن لهذا السبب. يتذكر غوغول أنه تمنى لو أن والديه تنزها في سنترال بارك، واصطحباه إلى متحف التاريخ الطبيعي ليرى الديناصورات، أو حتى ليركب المترو في منهاتن،

---

(1) مركز روكفلر هو مجمع مكون من 19 بناية تجارية تغطي 22 فداناً بين الشارع الثامن والأربعين والحادي والخمسين في مدينة نيويورك، وقد بني عام 1939 من جانب أسرة روكفلر؛ إحدى أشهر العائلات الثرية في الولايات المتحدة. (المترجم)

لكنهما لم يبديا أي اهتمام بمثل هذه الأمور.

في إحدى الليالي، يُحدِّث إيفان- أحد المصممين الذين يعمل معهم غوغول، وكان شخصاً ودوداً- غوغول بشأن مرافقته إلى حفلةٍ في شقةٍ تشغل الدور العلوي بأكمله في حي ترايبيكا في منهاتن، صممها أحد الشركاء في العمل، وتستحق المشاهدة. أما المضيف، فهو راسيل، صديقٌ قديمٌ لإيفان يعمل لدى الأمم المتحدة، وقضى بضع سنين في كينيا، لذلك تكتظ الشقة بالأثاث والتماثيل والأقنعة الإفريقية المثيرة للإعجاب. يتخيل غوغول حفلةً فيها مائة شخصٍ يملؤون حيزاً شاسعاً؛ ذلك النوع من الحفلات التي يصل إليها الشخص، ثم يغادر دون أن يلحظه أحد. لكن، عند وصول إيفان وغوغول كانت الحفلة على وشك الانتهاء، وكان هناك زهاء اثني عشر شخصاً يجلسون حول منضدةٍ منخفضةٍ محاطةٍ بالوسائد، يتناولون عنباً شهياً وجبناً. في مرحلة ما، يرفع راسل- وهومريض سكري- قميصه ويحقن نفسه عند المعدة بالأنسولين، وإلى جانب راسل توجد امرأةٌ لا يستطيع غوغول أن يُبعد ناظريه عنها. تجثو المرأة على ركبتيها وتدهن قطعة بسكويت بكمية وافرة من الجبن الفرنسي ولا تلتفت لما يفعله راسل. وعوضاً عن ذلك، تتجادل مع رجلٍ يجلس مقابلها حول فيلم من إخراج بونويل[1]. «كُفَّ عن ذلك! لقد كان فيلماً رائعاً»، تقول المرأة بنبرةٍ عاليةٍ لعوب، وكانت في الوقت ذاته ثملةً بعض الشيء. كان شعرها الأشقر متسخاً، وقد سرحته على شكل كعكةٍ غير مرتبةٍ، وتتدلى بعض الخصلات بعشوائيةٍ وجاذبيةٍ

(1) لويس بونويل (1900–1983) مخرج إسباني، حصل أيضاً على الجنسية المكسيكية وعمل في إسبانيا، والمكسيك، وفرنسا، والولايات المتحدة. (المترجم)

حول وجهها. كانت جبهتها عريضةً وملساء، وعظام الفك لديها بارزة بطريقةٍ غريبةٍ. أما عيناها فتميلان إلى الخضرة، وتحيط حلقة رفيعة سوداء ببؤبؤهما. ترتدي المرأة بنطال كابري[1] حريرياً وقميصاً بلا أكمام يكشف عن السمرة التي اكتسبها جسدها. «ما رأيك بالفيلم»؟ توجه المرأة السؤال لغوغول، وتَجُرُّه دون سابق إنذارٍ إلى موضوع النقاش. وعندما يخبرها أنه لم يشاهده، تشيح بوجهها عنه.

وبينما يقف غوغول ساكناً ينظر إلى الأعلى محدقاً في قناعٍ خشبيٍّ مهيب يتدلى فوق دَرَجٍ معدني، وتكشف عيناه المجوفتان المَعينيَّتا الشكل والفم الأجوف كذلك الجدار المبني من الطوب الأبيض الذي يقبع خلفه، تقترب منه المرأة ذاتها مرةً أخرى. «يوجد قناعٌ مخيفٌ أكثر من هذا في حجرة النوم»، تقول المرأة، مُكشِّرة ثم مرتعدة خوفاً، «تخيل أن يكون هذا أول شيء تراه عندما تفتح عينيك في الصباح». يتساءل غوغول، من طريقة قولها لهذه الجملة، إن كانت تتحدث بناءً على تجربةٍ سابقةٍ؛ إن كانت عشيقة راسل الحالية أو السابقة؛ إن كان هذا ما تحاول التلميح إليه.

اسمها ماكسين. تسأله عن تخصص الفن المعماري في جامعة كولومبيا، وتذكر أنها التحقت بكلية برنارد للفنون[2] لدراسة تاريخ الفن. وبينما تتحدث لغوغول، تتكئ ماكسين على عمودٍ خلفها،

(1) بنطال الكابري (الكابريز) هو أحد أنواع البناطيل، ويلبس عادة في الجو المعتدل، وصمم ليصل إلى منتصف الساق أو تحت الركبة. بناطيل الكابري رائجةٌ عند النساء أكثر من الرجال. (المترجم)

(2) تبعد كلية برنارد الخاصة بضع خطواتٍ عن جامعة كولومبيا التي تمولها وتدعمها. (المترجم)

وتبتسم له براحةٍ تامةٍ وتشرب الشامبانيا. يعتقد غوغول في بادئ الأمر أنها أكبر منه عمراً؛ أي أقرب للثلاثين منها للعشرين. يشعر غوغول بالدهشة عندما يعرف أنها تخرجت في كلية الفنون في السنة التالية لالتحاقه بكلية الدراسات العليا، وتزامن وجودهما معاً في جامعة كولومبيا لعام كاملٍ، وأنهما عاشا على بُعد ثلاثة مبانٍ عن بعضهما، وعلى الأرجح تصادف وجودهما في مسرح برودواي في الوقت نفسه دون أن يدركا ذلك، أو التقيا صدفةً في أثناء صعودهما الدرج الشهير المؤدي إلى المركز الإداري لجامعة كولومبيا، المعروف بالمكتبة التذكارية (Low Memorial Library)، أوفي مكتبة أفيري [1] (Avery) للفن المعماري والفنون الجميلة. يُذكِّره الأمر بروث؛ عاش كلاهما على مقربةٍ من بعضهما، ولكن كغرباء. تخبره ماكسين أنها تعمل كمحررٍ مساعد لدار نشرٍ متخصصة في الكتب الفنية. المشروع الحالي الذي تعمل عليه هو كتابٌ عن الرسام الإيطالي أندريا مانتيجنا، ويثير غوغول إعجابها عندما يتذكر أن لوحات مانتيجنا الجصية موجودةٌ في مدينة مانتوفا الإيطالية وقصر دوجي في إيطاليا[2]. يتحدثان معاً بطريقةٍ متصنعةٍ قليلاً، وسخيفةٍ، فيعتقد غوغول الآن أنها نوعٌ من الغَزل، لكنه يشعر كذلك أن الحديث الذي يتبادلانه عشوائيٌّ على نحوٍ يائسٍ وعابر. بإمكان غوغول أن يتبادل هذا النوع من الحديث مع أيٍّ كان، إلا أن ماكسين تركز انتباهها كاملاً على غوغول الذي يُحدِّق بدوره في عينيها اليقظتين،

(1) The Avery Architectural and Fine Arts Library. (المترجم)

(2) قصر دوجي هو قصر قوطي في مدينة البندقية في إيطاليا، وكان القصر مقر إقامة دوجي أو دوق البندقية. (المترجم)

فتجعله يشعر للحظاتٍ معدودةٍ أنه محور عالمها.

تهاتفه صباح اليوم التالي فتوقظه. إنها العاشرة صباحاً من يوم الأحد، ومايزال غوغول في السرير يشعر بألمٍ في رأسه من تأثير الويسكي والمياه الغازية التي تناولها خلال الأمسية الفائتة. يرد غوغول على الهاتف بصوتٍ أجش، وقد بدا عليه الضيق إذ توقع والدته على الجانب الآخر من الهاتف تسأله كيف كانت عطلة نهاية الأسبوع. يشعر غوغول من نبرة صوت ماكسين أنها استيقظت منذ ساعاتٍ وتناولت إفطارها وقرأت صحيفة *التايمز* كاملةً. «أنا ماكسين، من الليلة السابقة»، تقول ماكسين التي لا تتكبد عناء الاعتذار عن إيقاظها له. تخبره أنها وجدت رقمه في دليل الهاتف، على الرغم من أنه لا يتذكر أنه أخبرها باسم عائلته. «يا إلهي، إن شقتك مزعجةٌ»، تُعلق ماكسين. تدعوه ماكسين لتناول طعام العشاء في منزلها دون ترددٍ أو حرجٍ. تحدد ليلة الجمعة، وتخبره عن عنوانها، فهي تسكن في مكانٍ ما في شيلسي. يفترض غوغول أنها حفلة عشاءٍ، فيسألها أن يحضر معه شيئاً، فتخبره أنه المدعو الوحيد.

ثم تضيف قائلةً: «ربما يجب عليَّ أن أحذرك، فأنا أعيش مع والدي». تقلل هذه المعلومة غير المتوقعة من حماسه وتربكه. يسألها إن كان والداها يمانعان قدومه للمنزل، ولذلك ربما عليهما أن يلتقيا في مطعمٍ ما.

تسخر ماكسين من اقتراحه بطريقة تجعله يشعر بأنه مغفلٌ دون أن يفصح لها عن ذلك: «لم عساهما يمانعان»؟

يستقل غوغول سيارة أجرةٍ من مكتبه إلى الحي حيث تسكن ماكسين، ويتوقف في أثناء ذلك عند متجرٍ للمشروبات الروحية فيشتري زجاجة

نبيذ. كانت أمسيةً منعشةً في شهر أيلول، فالجو معتدلٌ لكنه ماطرٌ باستمرار، ومازالت أوراق الصيف الكثيفة تتعلق بالأغصان. تتوجه سيارة الأجرة نحو مبنى بعيدٍ هادئٍ يقع بين الجادة التاسعة والعاشرة. كان هذا الموعد الغرامي الأول لغوغول منذ فترةٍ طويلة، فباستثناء بعض العلاقات العابرة في جامعة كولومبيا لم يلتزم غوغول بعلاقةٍ جادة منذ علاقته بروث. لم يدرك غوغول معنى هذا الموعد المرتب مع ماكسين، لكن بقدر ما تبدو شروط هذه الدعوة غريبةً، لم يكن بوسعه رفضها. ينتابه الفضول بشأنها وينجذب نحو جرأتها في ملاحقته، بل يشعر بالإطراء أيضاً.

شعر غوغول بالذهول عند رؤيته المنزل الذي يجسد الهندسة الإغريقية، فنظر إليه بإعجابٍ عدة دقائق كأنه سائح قبل فتح البوابة. يلاحظ غوغول الحافة المقوصرة للنوافذ، والأعمدة الدوريسية[1]، والجدران المقوسة التي تعلوها، والباب الأسود المكسو بألواحٍ خشبيةٍ متصالبة. يصعد بضع درجاتٍ منخفضة عند مدخل المنزل عبر درابزين من الحديد المقوى. أما الاسم الذي كُتب تحت جرس المنزل فهو راتليف. تصل ماكسين إلى الباب بعد بضع دقائق من سماعها الجرس، كانت تلك الدقائق كافيةً ليتأكد مرةً أخرى من العنوان الذي كتبه على قصاصةٍ وضعها في جيب سترته. تنحني ماكسين نحوه واقفةً على قدمٍ واحدةٍ، في حين تثني رجلها الأخرى وترفعها للخلف قليلاً، ثم تُقبِّله

(1) Doric pilasters ( ) (*الأعمدة الدوريسية*)؛ والدوريسي: هو أحد ثلاثة نظم قديمة من العمارة اليونانية الكلاسيكية والنظامان الآخران هما الإيوني والكورنثي. (المترجم)

على وجنته. كانت حافية القدمين، ارتدت بنطالاً صوفياً أسود فضفاضاً وسترةً صوفيةً قشدية اللون. على حد علم غوغول لم ترتدِ ماكسين شيئاً تحت السترة باستثناء صدرية. سرحت ماكسين شعرها إلى الأعلى بالطريقة غير المتقنة نفسها. تعلق ماكسين معطف غوغول المطري على حمالة المعاطف، ويضع مظلته داخل حامل المظلات. يَلْمح غوغول نفسه بسرعةٍ في مرآةٍ داخل البهو، فيرتب شعره وربطة عنقه.

تقوده ماكسين للأسفل عبر مجموعة درجاتٍ تؤدي إلى المطبخ الذي يبدو أنه يشغل طابقاً كاملاً من المنزل. توجد منضدةٌ خشبيةٌ كبيرةٌ عند إحدى زوايا المطبخ، وخلفها يوجد بابٌ زجاجي (French door) يفضي إلى الحديقة. أما الجدران، فمزينةٌ برسومات ديوكٍ وأعشاب ومقالٍ نحاسية. بعض الصحون وأطباق التقديم الفخارية الكبيرة معروضةٌ على أرففٍ ليس لها واجهةٌ زجاجيةٌ، إلى جانب مئات كتب الطبخ، وموسوعات الأطعمة، ومجلدات تحتوي على مقالات عن الأكل. تقف امرأةٌ عند منضدة التقطيع الموجودة بجانب أدوات الطبخ تقوم بقص نهايات قرون الفاصوليا التي تكومت أمامها، بالمقص.

«هذه والدتي؛ ليديا»، تقول ماكسين، ثم تشير نحو كلبٍ سبنيلي[1] صغيرٍ لونه بني يميل إلى الحمرة، غلبه النعاس تحت الطاولة، وتقول: «وهذا سيلاس».

ليديا طويلة القامة ونحيلةٌ مثل ابنتها، شعرها بنيٌّ منسدلٌ وقصيرٌ، يحد وجهها بطريقةٍ تضفي عليه لمحةً شبابيةً. يبدو أن ليديا تنتقي

---

(1) نوع من كلاب الصيد ذو أذن متدلية وشعر متموج ناعم. (المترجم)

ملابسها بعنايةٍ، بالإضافة إلى الحلي الذهبية التي ترتديها في أذنيها وحول حنجرتها. لفَّت ليديا حول خصرها مريلةً لونها أزرق داكنٌ وارتدت حذاءً جلدياً لامعاً. وعلى الرغم من أن التجاعيد ظاهرةٌ في وجهها، وبشرتها مبقَّعةٌ قليلاً، فإنها أجمل من ماكسين، وملامحها تبدو أكثر اتساقاً، وعظام وجنتيها أكثر ارتفاعاً، وعيناها مرسومتان بجاذبية.

«يسرني أن ألتقي بك نيكيل»، تقول ليديا وتبتسم بابتهاجٍ. وعلى الرغم من أنها تنظر إليه باهتمامٍ، فإنها لا تتوقف عن العمل، ولا تمد يدها لمصافحته.

تسكب له ماكسين كأس نبيذٍ، ولا تسأله إن كان يفضل شرب شيء آخر. «هيا، سأريك المنزل»، تقول ماكسين. تصعد به خمس قلباتٍ[1] متتالياتٍ من درجاتٍ غير مكسوةٍ بالسجاد، تصدر صريراً بسبب وزنهما مجتمعاً. كان تقسيم البيت بسيطاً: حجرتان فسيحتان جداً في كل طابق، كان غوغول واثقاً أن الواحدة منهما أكبر من شقته. يُبدي غوغول إعجابه، بأسلوبٍ مهذبٍ، بقوالب الجص المجوفة، والبحرات التي تزين السقف، والأرفف الرخامية التي تعلو الموقد؛ تلك التفاصيل التي يعرف غوغول كيف يتحدث عنها مطولاً بذكاءٍ. أما الجدران، فمطليةٌ بألوانٍ زاهيةٍ مثل الوردي الداكن، والأرجواني الفاتح، والأخضر الفستقي، ومزدحمةٌ باللوحات والرسومات والصور الفوتوغرافية. في إحدى الحجرات، يرى غوغول لوحةً زيتيةً لفتاةٍ صغيرةٍ يفترض أنها ماكسين تجلس في حضن ليديا الشابة الفاتنة، التي ترتدي ثوباً أصفر

---

(1) القلبة: سلسلة من الدرجات موجودة في مستوى مائل واحد. (المترجم)

بلا أكمام. وعلى امتداد الأروقة في كل طابقٍ توجد أرفف يصل ارتفاعها إلى السقف، تزدحم بجميع الروايات التي يجب على المرء أن يقرأها في حياته، والسِّيَر والدراسات المتخصصة في حياة جميع الفنانين الضخمة الحجم، وجميع كتب الفن المعماري التي تلهف غوغول لاقتنائها. وإلى جانب تلك الفوضى، توجد بساطةٌ تروق لغوغول، فالأرضيات غير مغطاةٍ بالسجاد، وكل ما صُنع من الخشب كان أملس خالياً من النقوش، ومعظم النوافذ لا تغطيها ستائر، وذلك لإبراز حجمها.

الطابق العلوي بأكمله لماكسين. حجرة النوم مطليةٌ باللون المشمشي، ويوجد في الخلف سريرٌ أرجله معقوفة، وكذلك الحال بالنسبة إلى لوحة الرأس[1]، وحمامٌ طويلٌ يتميز بلونيه الأحمر والأسود. يمتلئ الرف الذي يعلو المغسلة بالكريمات المختلفة التي تستخدمها ماكسين لعنقها وحنجرتها وعينيها وقدميها، بعضها يستخدم في النهار وبعضها الآخر في الليل، وبعضها يمكن وضعه في الشمس والآخر في الظل. من خلال حجرة النوم يمكن الدخول إلى حجرة المعيشة الرمادية، التي تستخدمها ماكسين كخزانةٍ، فأحذيتها وحقائبها اليدوية وملابسها إما مبعثرةٌ على الأرض أو متكدسة فوق أريكةٍ باهتة اللون أو أن ماكسين ألقت ببعضها على أظهر الكراسي. لا تشكل رقع الفوضى هذه أي فرقٍ، فهذا منزلٌ مثيرٌ للإعجاب، ولا يمكن لمثل هذه الأمور أن تشتت انتباه غوغول، لذلك يُغفَر لقاطنيه الفوضى وإغفال ترتيبه.

وبينما ينظر غوغول نحو السقف، يعلق قائلاً: «هذه النوافذ

(1) Sleigh bed: يشبه هذا السرير المزلجة بسبب أرجله ولوحة الرأس المقوسة. (المترجم)

الإغريقية[1] جميلةٌ». تلتفت ماكسين نحوه وقد بدا عليها الإرباك، ثم تتساءل: «ماذا»؟

«هكذا يُطلق عليها»، يشير غوغول نحو النوافذ الصغيرة، ثم يضيف: «إنها شائعةٌ في المنازل التي تنتمي إلى تلك الحقبة[2]».

تنظر ماكسين للأعلى، ثم تنظر إليه وقد بدا عليها الإعجاب بثقافة غوغول، فتقول: «لم أعرف ذلك من قبل».

يجلس غوغول إلى جوار ماكسين على الأريكة الباهتة، ويتصفحان أحد كتب المنضدة الصغيرة التي شاركت في تحريرها، وموضوعه ورق الجدران الفرنسي في القرن الثامن عشر، وترتكز صفحات أحد جانبي الكتاب على ركبتيهما. تخبره ماكسين أنها ترعرعت في هذا المنزل، وتذكر -عرَضاً- أنها كانت تعيش قبل ستة أشهرٍ مع رجلٍ في بوسطن، إلا أن العلاقة لم تنجح. عندما يسألها غوغول إن كانت لديها مخططاتٌ للبحث عن مكانٍ خاصٍ بها، تجيب إن الفكرة لم تخطر ببالها. «إن استئجار منزلٍ في المدينة أمرٌ مزعج»، تقول ماكسين، «وبالإضافة إلى ذلك، فأنا أحب هذا المنزل. في الواقع، لايوجد مكانٌ آخر أُفضِّل أن أعيش فيه». وعلى الرغم من رقيها، يرى غوغول أن فكرة انتقالها للعيش مع والديها من جديد، بعد فشل علاقتها الغرامية، عتيقة الطراز على نحوٍ محبب. لا

(1) Frieze-band window: يطلق عليها أيضاً 'طُنف' في فن العمارة، وتعرف كذلك بنافذة إفريز، وقد اشتهرت في فن العمارة الإغريقي. (المترجم)

(2) يقصد غوغول النصف الأول من القرن التاسع عشر ميلادي. الإحياء الإغريقي أو الإحياء اليوناني هو اسم الذي يُطلق على الطراز المعماري المنتشر في أوروبا وروسيا والولايات المتحدة الأميركية خلال تلك الفترة، الذي استمدَّ أبرز خصائصه من فن العمارة اليونانية. (المترجم)

يتخيل غوغول نفسه يقوم بالأمر ذاته في هذه المرحلة من حياته.

يلتقي غوغول والد ماكسين عند العشاء؛ رجلٌ طويل القامة وسيمٌ وشعره أشيب كثيف، وعيناه كعيني ماكسين الخضراوين الباهتتين، يرتدي نظاراتٍ مستطيلة الشكل تجثو عند منتصف أنفه. «كيف حالك؟ أنا جيرالد»، يقول والدها، ويومئ برأسه، ثم يصافحه. يعطي جيرالد غوغول مجموعةً من أدوات المائدة الفضية ومناديل من القماش، ويطلب منه أن يعدَّ المائدة. يفعل غوغول ما يُؤمر به مدركاً أنه يلمس الممتلكات اليومية لعائلةٍ لا يكاد يعرفها. «نيكيل، ستجلس هنا»، يشير جيرالد إلى أحد الكراسي، بعد أن انتهى غوغول من توزيع فضيات المائدة. يحتل غوغول مكانه عند أحد جوانب المائدة مقابل ماكسين. يجلس جيرالد وليديا عند نهايتي المائدة. لم يتناول غوغول الغداء في ذلك اليوم حتى يتمكن من مغادرة المكتب في الموعد المناسب من أجل موعده الغرامي مع ماكسين، ولقد انتشى في الحال بعد شربه النبيذ، الذي كان أكثر تركيزاً وعذوبةً من النبيذ الذي اعتاد شربه. يحس غوغول بألمٍ محبَّب في صُدغيه، ويشعر فجأةً بالامتنان لهذا اليوم، والمكان الذي قاده إليه. تُشعل ماكسين زوجاً من الشموع، ويملأ جيرالد الكؤوس بالنبيذ، وتقدم ليديا الطعام في أطباقٍ كبيرةٍ بيضاء. قطعة ستيك رقيقة لُفت ورُبطت بخيطٍ ووُضِعت داخل كميةٍ وافرةٍ من الصلصة الداكنة، أما الفاصوليا الخضراء المسلوقة، فكانت مقرمشة. يمرر الجميع أولاً زبديةً كبيرةً تحتوي على حبات بطاطس صغيرةٍ دائريةٍ مشويةٍ حمراء اللون، ثم طبق السلطة. يُقدِّر الجميع المذاق الرائع للطعام، ويمتدحون طراوة

اللحم والمذاق الطازج للفاصولياء. ما كانت أمه لتُقدم هذا العدد القليل من الأطباق لأي ضيفٍ. كانت ستركز على طبق ماكسين، وتصر على تناولها طبقاً ثانياً وثالثاً. كانت المائدة ستكتظ بأطباق متنوعة، ليقوم الجميع بسكب الطعام بأنفسهم. لكن ليديا لا تبدي أي اهتمام بطبق غوغول، ولا تشير إلى وجود المزيد من الطعام. وبينما يتناول الجميع طعامهم، يجلس سيلاس على قدمي ليديا، التي تقطع كميةً سخيةً من قطعة اللحم الموجودة في طبقها وتطعمها له براحة يدها.

يشرب أربعتهم زجاجتي نبيذٍ، ثم يفتحون الثالثة. كانت عائلة راتليف صاخبةً للغاية على مائدة الطعام، ومتعنتةً حيال مواضيع لا يهتم بها والداه مثل الأفلام، والمعارض الصغيرة التي تُقام داخل المتاحف، والمطاعم الجيدة، وتصميم الحاجيات التي تستخدم يومياً. يتحدث آل راتليف عن مدينة نيويورك ومتاجرها وأحيائها ومبانيها، التي يكرهونها أو يحبونها، بألفةٍ وسلاسةٍ تجعلان غوغول يشعر أنه لا يكاد يعرف المدينة. يتحدثون عن هذا المنزل الذي اشتراه جيرالد وليديا في السبعينيات، عندما لم يرغب أحدٌ في العيش في المنطقة آنذاك، وعن تاريخ الحي، وأستاذ الأدب الكلاسيكي الشهير كليمينت كلارك مور، الذي عمل في المعهد العالي لتعليم اللاهوت[1]، الواقع على الجانب الآخر من الشارع. «كان البروفيسور مور مسؤولاً عن تقسيم المناطق السكنية المحلية»، يقول جيرالد، «وهو بالطبع مؤلف قصيدة 'إنها الليلة التي تسبق عيد الميلاد'». لم يعتد غوغول هذا النوع من الحديث عند تناول

(1) تتبع هذه المعاهد في الغرب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. (المترجم)

الطعام، والانغماس في طقوسٍ طويلةٍ لتناول وجبةٍ ما، والآثار البهيجة التي تخلفها زجاجات النبيذ، وفتات الطعام، والكؤوس الفارغة، التي تزدحم بها المائدة. يشعر غوغول أن هذا العشاء لم يعد خصيصاً لأجله، وأن آل راتيلف يتناولون الطعام كل ليلةٍ بهذه الطريقة. جيرالد محام، أما ليديا فتعمل كقيِّمةٍ على الأقمشة والمنسوجات في متحف المتروبوليتان للفنون. سُر كلاهما وأُعجبا، في الحال، بخلفية غوغول التعليمية، وحقيقة أنه قضى سنواتٍ في جامعتي ييل وكولومبيا، وبعمله كمختصٍ في الفن المعماري، وبملامحه المتوسطية (عينيه وشعره وبشرته الداكنة). وبينما تتأمله ليديا في وهج الشموع المشتعلة، تُعلق في مرحلة ما خلال تناولهم العشاء قائلةً: «يمكن أن تكون إيطالياً».

يتذكر جيرالد أنه ابتاع لوح شوكولاتة فرنسية في طريقه إلى المنزل؛ يزيل جيرالد الغلاف عن اللوح الذي كان مهشماً، ثم يمرره للجميع. أخيراً، يتغير موضوع النقاش فيتحدث الجميع عن الهند. يطرح جيرالد بعض الأسئلة عن ظهور الأصولية الهندوسية؛ موضوعٌ لا يعرف غوغول عنه الكثير. وبينما تتحدث ليديا مطولاً عن السجاد الهندي وفن الفسيفساء، تأتي على ذكر مساقٍ درسته في الجامعة عن «الستوبا»[1] أو أماكن التأمل الهندوسية. لم يتعرف آل راتليف من قبل على شخصٍ زار كلكتا. «لدى جيرالد زميل عمل هندي قضى شهر العسل في الهند. عاد ومعه صور فوتوغرافيةٌ رائعةٌ لقصرٍ شُيد على بحيرةٍ ما. هل يقع هذا

(1) ستوبا: بناء يشبه التلة، ويحوي آثاراً بوذية، ورماد الأموات، ويستخدم في العادة من قبل البوذيين للتأمل، ووفقاً لاعتقاد البوذيين، فإنه يحوي بقايا رمادٍ من بوذا أو أحد طلابه أو طلاب طلابه. (المترجم)

القصر في كلكتا»؟

«لا، بل في مقاطعة أودابور»، يجيبه غوغول، «لم أزرها من قبل. تقع كلكتا في الشرق، بالقرب من تايلاند».

تحدق ليديا في طبق السلطة، وتفتش عن قطعة خسٍّ ضالةٍ، ثم تأكلها بأصابعها. بدت أكثر استرخاءً الآن، تبتسم بسرعةٍ وقد توردت وجنتاها من تأثير النبيذ. «كيف تبدو كلكتا؟ هل هي جميلة»؟

يندهش غوغول من السؤال، فعادةً يسأله الآخرون عن الفقر والمتسولين والجو القائظ في كلكتا. «فيها بعض المناطق الجميلة»، يجيب غوغول. «فيها معالم معمارية جميلةٌ تعود للعهد الفيكتوري البريطاني، لكن معظمها بدأت تضمحل».

«يبدو أنها تشبه البندقية. هل يوجد في كلكتا قنوات مياه»؟ يتساءل جيرالد. «تتكون القنوات خلال الرياح الموسمية فقط، عندما تفيض المياه في الشوارع. أعتقد أن هذا أقرب ما تكون فيه كلكتا شبيهةً بالبندقية».

«أرغب في زيارة كلكتا»، تقول ماكسين، وكأنها حُرمت من ذلك طوال حياتها. تنهض ماكسين وتمشي نحو الموقد، ثم تقول: «أرغب بقليلٍ من الشاي. هل يرغب أحدكم بكوبٍ من الشاي»؟

لكن جيرالد وليديا لا يرغبان بشرب الشاي هذه الليلة، بل يفضلان مشاهدة شريط فيديو للمسلسل التلفيزيوني «أنا، كلوديوس». يقف كلاهما ويهمّان بمغادرة الحجرة دون أن يرفعا طبقيهما. عوضاً عن ذلك، يحمل جيرالد كأسيهما وما تبقى من النبيذ. «عمت مساءً يا عزيزي»، تقول ليديا وتقبل غوغول بخفةٍ على وجنته. وبينما يصعدان الدرج،

تُصدر أقدامهما صريراً.

وفي حين ترتشف الكوب تلو الآخر من الشاي الصيني (لابسانغ سوشُنغ)، الذي سكبته في كوبٍ كبيرٍ ثقيلٍ وأضافت إليه الحليب، تقول ماكسين لحظة أصبحا وحدهما: «أعتقد أنك لم تقابل والديْ أي فتاةٍ في الموعد الأول من قبل»!

- «لقد استمتعت بمقابلتهما، إنهما رائعان للغاية».

- «تلك طريقةٌ للتعبير عن الأمر»!

يبقى كلاهما عند المائدة بعض الوقت، يتحدثان وصوت المطر يرتد بهدوءٍ في الحيز المُسيَّج، الذي يقع خلف البيت. انكمشت الشموع، وبدأت تقطر على المائدة. أما سيلاس الذي كان يعدو برفقٍ على الأرض، فتوجه نحو غوغول ودفع برأسه نحو رجله، ثم نظر إلى الأعلى وهز ذيله. ينحني غوغول للأسفل ويربت على سيلاس، من قبيل التجربة.

- «لم يكن لديك كلبٌ قَط، أليس كذلك»؟

- «لا».

- «ألم ترغب في امتلاك واحدٍ»؟

- «بلى، عندما كنت صغيراً. لكن لم يرغب والداي في تحمل مسؤولية حيوانٍ أليفٍ، بالإضافة إلى أننا كنا نسافر إلى الهند كل سنتين».

يدرك غوغول في تلك اللحظة أنها المرة الأولى التي يذكر فيها والديه أمام ماكسين ويتحدث عن ماضيه. يتساءل غوغول إن كانت ماكسين ستطرح المزيد من الأسئلة عن الموضوعين. عوضاً عن ذلك، تقول ماكسين: «يبدو أن سيلاس يحبك. في الواقع يصعب إرضاؤه».

ينظر غوغول إلى ماكسين، ويراقبها وهي تفك شعرها، فتتركه ينسدل على كتفيها قبل أن تلفه حول يدها تلقائياً. تبادله النظرة، ثم تبتسم. مرةً أخرى، يدرك غوغول الجزء العاري من جسدها تحت السترة الصوفية التي كانت ترتديها.

«يجب أن أذهب»، يقول غوغول، لكنه سُرَّ عندما قبِلت ماكسين عرضه لمساعدتها في تنظيف المائدة قبل مغادرته. يعمل كلاهما بتباطؤ، يملآن غسالة الأواني، ويمسحان مائدة الطعام ومائدة التقطيع، ويغسلان قدور الطبخ والمقالي ثم يجففانها. يتفقان على الذهاب إلى سينما فيلم فورم بعد ظهر يوم الأحد لمشاهدة العرض المزدوج[1] للمخرج مايكل أنجلو أنطونيوني، الذي شاهدته ليديا مع جيرالد مؤخراً، وقاما بتزكيته خلال العشاء.

«سأسير معك إلى المترو»، تقترح ماكسين بعد انتهائهما من تنظيف المكان، وتضع سلسلة حول رقبة سيلاس. «إنه بحاجةٍ إلى الخروج»، تضيف ماكسين. يصعدان إلى الطابق العلوي حيث مدخل المنزل، ثم يرتديان معطفيهما. يسمع غوغول صوت التلفاز الخافت عبر السقف. يتوقف غوغول عند منبسط الدرج الأخير ثم يقول: «لقد نسيت أن أشكر والديك».

- «على ماذا»؟

- «لاستضافتهما لي. من أجل العشاء».

---

(1) عادة متبعة في صناعة السينما، إذ يتمكن مرتادو السينما من مشاهدة فيلمين بسعر فيلمٍ واحدٍ. (المترجم)

تمسك ماكسين بذراع غوغول، ثم تقول: «بإمكانك أن تشكرهما في المرة القادمة».

يشعر غوغول منذ البداية أنه اندمج بسهولةٍ في حياة آل راتليف. إنه نمطٌ من الضيافة يختلف عما اعتاده. وعلى الرغم من أنهم كرماء، فإنهم لا يبذلون جهداً مضاعفاً لاستضافة شخصٍ ما، بل كانوا واثقين أن نمط حياتهم سيروق غوغول، وفي الواقع كانوا على حق. ينشغل جيرالد وليديا بمشاريعهما، لذلك لا يعترضان طريق ماكسين وغوغول اللذين يأتيان ويغادران المنزل كيفما شاءا، للذهاب إلى السينما وتناول العشاء في الخارج. يرافق غوغول ماكسين المتسوق من المتاجر في جادة ماديسون، التي يكون الولوج إليها عبر بابٍ كهربائي يفتح عند الضغط على الزر الكهربائي، لشراء السترات المحبوكة من صوف الكشمير، والكولونيا الإنجليزية الباهظة الثمن، التي تبتاعها ماكسين دون تروٍ أوشعورٍ بالذنب. يرتادان مطاعم معتمة تبدو متواضعة، وسط البلد، حيث الطاولات صغيرةٌ جداً، والفواتير ضخمةٌ للغاية. ينتهي بهما المطاف دائماً في منزل والدي ماكسين، حيث تتوافر الجبنة الشهية، أو معجون كبد الإوز، لتناول وجبةٍ خفيفةٍ، والنبيذ الجيد الذي لا ينضب أبداً. وبينما يمسكان بكأسي نبيذ، يغطس كلاهما داخل حوض الاستحمام الخاص بماكسين، ذي الأرجل المخلبية، وأحياناً يضعان زجاجة ويسكي الشعير الخالص على أرضية الحمام بجوار حوض الاستحمام. عندما يحل الليل، ينام غوغول مع ماكسين في الحجرة التي ترعرعت فيها، على فرشةٍ ناعمةٍ كبيرةٍ، ممسكاً جسدها الدافئ مثل فرنٍ، ويطارحها الغرام في تلك الحجرة التي تقع فوق

الحجرة التي يرقد فيها جيرالد وليديا. عندما يضطر غوغول إلى العمل حتى وقتٍ متأخرٍ يعود بكل بساطةٍ إلى منزل ماكسين التي تنتظره لتتناول العشاء معه، ثم يصعدان إلى حجرة نومها. لا يمانع جيرالد وليديا عندما ينضم إليهما غوغول وماكسين في الصباح، في المطبخ الموجود في الطابق السفلي، وشعرهما غير مسرح ليحتسيا كوباً من القهوة الفرنسية بالحليب، مع شرائح محمصةٍ من الخبز الفرنسي والمربى. خجل غوغول من مواجهة والدي ماكسين في الصباح عندما نام في منزلهما المرة الأولى، لذلك استحم مسبقاً، وارتدى قميصه المجعد وبنطاله اللذين كان يلبسهما في اليوم السابق قبل التوجه إلى المطبخ. إلا أن جيرالد وليديا يبتسمان عند رؤيته، وقد ارتديا رداء الحمام، ويقدمان له كعكعاً محلى ساخناً ابتاعاه من مخبزهما المفضل الموجود في الحي، وأجزاء من الصحيفة ليقرأها.

يقع غوغول في غرام ماكسين بسرعةٍ، وفي الوقت نفسه يحب منزلها ونمط حياة جيرالد وليديا، فمعرفة ماكسين والوقوع في غرامها يعني معرفة كل هذه الأشياء ومحبتها. يعشق غوغول الفوضى التي تحيط بماكسين؛ مئات الأشياء التي تغطي أرضية حجرتها، والمنضدة الصغيرة الموجودة إلى جانب السرير، وبعض عاداتها مثل عدم إغلاق باب الحمام عندما تستخدمه وبخاصة عندما يكونان وحدهما في الطابق الخامس من المنزل. يفتتن غوغول بطُرقها الشعثاء التي تشكل تحدياً لذوقه الميال إلى البساطة أكثر فأكثر. يتعلم غوغول أن يُحب الطعام الذي تتناوله ماكسين ووالداها مثل عصيدة دقيق الذرة، وطبق الريزوتو[1]، وحساء السمك،

(1) ريزوتو: طبقٌ إيطالي يُقدَّم عادةً كطبق جانبي، ويتكون عادةً من الأرز والجبن. (المترجم)

وحساء لحم العجل والخضراوات، واللحم المشوي في ورق البرشمان.
بات غوغول يتوقع ثقل أدوات المائدة الخاصة بآل راتليف بين يديه، وتعلم أن يترك مناديل المائدة مطويةً جزئياً على حجره. يتعلم غوغول أيضاً أن جبن البارميزان لا يُبشَر على أطباق المعكرونة التي تحتوي على أطعمة بحرية. وبالإضافة إلى ذلك، يتعلم ألا يضع ملاعق السلطة الخشبية في غسالة الصحون كما فعل في إحدى الأمسيات عندما كان يساعد في تنظيف المائدة. يتعلم أيضاً أن يستيقظ في وقتٍ أبكر مما اعتاده، عندما يبيت في منزل آل راتليف، إذ يُوقظه نباح سيلاس في الطابق السفلي، الذي يرغب في الخروج إلى نزهته الصباحية. يتعلم كذلك أن يتوقع كل صباح صوت سدادة الفلين الصادر عن فتح زجاجة نبيذٍ جديدةٍ.

كانت ماكسين صريحةً مع أصدقائها السابقين، فهي تُري غوغول صورهم التي احتفظت بها في ألبوم الصور ذي الغلاف المزركش، الذي يبدو مثل سطح قطعةٍ من الرخام، وتتحدث عن علاقاتها تلك دون حرجٍ أو ندم. تمتلك ماكسين موهبة قبول حياتها؛ وبينما يتعرف عليها أكثر فأكثر، يُدرك أنها لا تتمنى أن تكون شخصاً آخر خلاف ما هي عليه، أو لو أنها نشأت في مكانٍ آخر أو بطريقةٍ مغايرةٍ. تشكل تلك الحقيقة، من وجهة نظر غوغول، الاختلاف الأكبر بينهما، وهو أهم من أوجه الاختلاف الأخرى، كالمنزل الجميل الذي ترعرعت فيه، والتعليم الذي تلقته في المدارس الخاصة. وفضلاً عما سبق، يندهش غوغول من قدرة ماكسين على محاكاة والديها، واحترام ذوقيهما وطريقة حياتهما.

تناقش ماكسين مع والديها على مائدة العشاء كتباً ولوحاتٍ وأشخاصاً يعرفونهم، كما لو كانت تتجادل مع أحد أصدقائها. لا يفضي النقاش إلى الغضب الذي يشتعل داخله عند جداله والديه. لا يوجد أي نوعٍ من الالتزام. وعلى النقيض من والديه، لا يجبرها والداها على فعل أي شيء، ورغم ذلك فإن ماكسين مخلصةٌ لهما، وتعيش سعيدةً إلى جانبهما.

تدهش ماكسين عند معرفتها أموراً معينة عن حياة غوغول، مثل حقيقة أن جميع أصدقاء والديه من البنغال، وأن زواجهما كان مرتباً، وأن والدته تطهو طعاماً هندياً كل يوم، وأنها ترتدي الساري، وتضع علامة الزواج على جبينها. «حقاً»؟ تتساءل ماكسين، وتكاد لا تصدقه. «لكنك مختلفٌ جداً. ما كنت لأعتقد أن الأمر كذلك»! لا يشعر غوغول بالإهانة، لكنه مدركٌ تماماً أنهما مختلفان. إن ظروف زواج والديه يصعب تصورها من جانبه، لكنها شائعةٌ في الوقت ذاته، فكل أصدقائهما وأقربائهما تقريباً تزوجوا بالطريقة ذاتها. غير أن حياتهما لا تشبه حياة جيرالد وليديا، فعلى سبيل المثال تتلقى ليديا جواهر ثمينة في عيد ميلادها، ويحضر لها جيرالد وروداً دون سببٍ محدد، ويُقبِّلان بعضهما أمام الجميع، ويذهبان معاً إلى المدينة في نزهة على الأقدام أو لتناول العشاء كما يفعل غوغول وماكسين. وعندما يراهما غوغول، وقد جلسا متربعين على الأريكة ووضع جيرالد رأسه على كتف ليديا، يتذكر أنه لم يشهد طوال حياته لحظةً عبَّر فيها والداه عن عاطفتهما تجاه بعضهما. مهما كان نوع الحب الذي يربط والديه، فهو أمرٌ خاصٌ تماماً، لا يمكن الاحتفاء به أمام الآخرين. «يا له من أمرٍ كئيب»! تعلق ماكسين عندما يعترف غوغول بهذه الحقيقة. وعلى

الرغم من أن غوغول ينزعج عند سماعه لرد فعلها، لا يملك إلا أن يتفق معها. في أحد الأيام، تسأله ماكسين إن كان والداه يرغبان في أن يتزوج من امرأةٍ هنديةٍ. تطرح ماكسين السؤال بدافع الفضول، دون أن تتأمل الحصول على إجابةٍ محددةٍ. يشعر غوغول بالغضب من والديه في تلك اللحظة، متمنياً لو كانا مختلفين عما هما عليه. «لا أعلم»، يجيب غوغول، «أعتقد أن تلك رغبتهما، لكنها ليست مهمةً بالنسبة إلي».

قلما تزور ماكسين غوغول، ولا يقتربان معاً من حيِّه لأي سببٍ كان، وحتى الخصوصية المطلقة التي قد يحظيان بها هناك لم تكن فكرةً جذابةً. مع ذلك، وفي بعض الليالي التي يقيم فيها والداها حفل عشاء لا ترغب في حضوره، وأحياناً دون سببٍ معينٍ، تظهر ماكسين لغوغول في شقته الصغيرة، فيعبق المكان برائحة عطر زهرة الجاردينيا الخاص بها، ويكتظ المكان بمعطفها وحقيبتها الجلدية الكبيرة البُنية، فيتطارحان الغرام على أريكة الفوتون، وحركة المرور تقعقع في الأسفل. يتوتر غوغول عند قدومها إلى شقته، مدركاً أنه لم يُعلِّق شيئاً على الجدران، ولم يهتم بشراء مصابيح ليستبدل إنارة السقف الكئيبة. في إحدى تلك الزيارات، ولم تكد ثلاثة أشهر تمضي على لقائهما الأول، تقول ماكسين في نهاية المطاف: «آه نيكيل! إن هذا المكان فظيع»! ثم تضيف: «لن أسمح لك بالعيش هنا». عندما قالت والدته الشيء ذاته تقريباً حين زارت شقته برفقة والده للمرة الأولى، جادلها ودافع بحماسةٍ عن مزايا حياته المنعزلة البسيطة للغاية. لكن عندما انتقدت ماكسين المكان، ثم أضافت قائلةً: «عليك أن تنتقل للعيش معي»، شعر غوغول بسعادةٍ غامرةٍ. في تلك المرحلة كان

غوغول يعرف ماكسين جيداً، ليوقن أنها لا تعرض شيئاً إلا إذا كانت تعني ما تقوله. مع ذلك، يتردد غوغول عندما يفكر في رأي والديها. تستهجن ماكسين تردد غوغول، فتقول: «والداي يحبانك»! بنبرةٍ واثقةٍ وقد عنت كل كلمةٍ تماماً، مثل كل ما تنطق به. وهكذا ينتقل غوغول، بصورة ما، للعيش مع ماكسين، فيحضر معه بعض الحقائب التي تحتوي على ملابسه فقط، ولا شيء آخر. يُبقي غوغول أريكة الفوتون ومنضدته وإبريق تسخين الماء ومحمصته الكهربائية وجهاز التلفاز وبقية أشيائه في جادة أمستردام. يستمر جهاز الرد الآلي في تسجيل الرسائل الواردة إليه، ويستمر غوغول في استقبال بريده هناك عبر صندوق بريدٍ معدني لم يُكتب عليه أي اسم.

يحصل غوغول على مفاتيح منزل آل راتليف خلال ستة أشهرٍ من انتقاله للعيش معهم؛ وهي مجموعة مفاتيح تقدمها له ماكسين في سلسلة فضية من مجوهرات تيفاني. أصبح غوغول يناديها الآن «ماكس» على غرار والديها. يأخذ غوغول قمصانه إلى مغسلة الملابس الموجودة عند ناصية الشارع حيث يقع منزل ماكسين. في حمام ماكسين، يضع غوغول فرشاة أسنانه وماكينة حلاقته فوق حافة المغسلة حيث تعم الفوضى. يستيقظ غوغول مبكراً بضع مراتٍ في الأسبوع حتى يركض مع جيرالد قبل ذهابهما إلى العمل، على امتداد نهر هدسون، ثم نزولاً باتجاه مدينة باتري بارك، ثم يعودان أدراجهما. يتطوع غوغول ليصطحب سيلاس في نزهةٍ، فيمسك بسلسلته، وهو يدس أنفه ليشتم الأشجار، ويزيل غوغول براز سيلاس الدافئ باستخدام كيسٍ بلاستيكيٍّ. يقضي غوغول

عطلة نهاية الأسبوع بأكملها مختبئاً داخل المنزل، حيث يقرأ كتباً يستعيرها من الرف الخاص بجيرالد وليديا، ويبدي إعجابه بضوء الشمس الذي يتسرب عبر النوافذ الضخمة غير المزخرفة خلال النهار. بات غوغول يفضل الآن أرائك ومقاعد معينة دون غيرها. عندما لا يكون داخل المنزل يستحضر غوغول بذاكرته اللوحات والصور الفوتوغرافية المعروضة على الجدران على نحوٍ مرتب. يشير غوغول إلى ضرورة ذهابه إلى الأستوديو حيث كان يقيم في السابق ليعيد ضبط شريط جهاز الرد الآلي، ويدفع الإيجار والفواتير.

في عطلة نهاية الأسبوع، غالباً ما يساعد غوغول جيرالد وليديا في التحضير لحفلات العشاء الخاصة بهما، فيذهب للتسوق لشراء بعض الحاجيات، ويساعد ليديا في تقشير التفاح، وتنظيف الجمبري[1]، وتقشير المحار، وينزل إلى القبو برفقة جيرالد ليُحضر المزيد من المقاعد وزجاجات النبيذ. يقع غوغول في غرام ليديا قليلاً، وفي طريقة تبسيطها للأمور، فهي لا ترتبك ولا تقلق كثيراً. تثير حفلات العشاء تلك دهشته حين يدعو جيرالد وليديا دزينةً تقريباً من الضيوف، الذين يجلسون حول مائدة الطعام حيث الشموع المشتعلة؛ خليطٌ مُنتقى بعنايةٍ من الرسامين والمحررين والأساتذة الجامعيين وأصحاب المعارض، يتناولون الأصناف المختلفة من الأطباق الواحد تلو الآخر، ويتحدثون بذكاءٍ حتى نهاية الأمسية. تختلف حفلات جيرالد وليديا عن حفلات والديه العاصفة، حيث يُدعى ما لا يقل عن ثلاثين شخصاً، يجرُّون خلفهم

(1) يكون ذلك من خلال إزالة الوريد الأسود من ظهر الجمبري. (المترجم)

أطفالهم. يقدم السمك واللحم جنباً إلى جنب، والكثير من الأطباق التي يتناوب الضيوف على تناولها، وتقدم في القدور التي طُهيت فيها، وتُوضع على مائدةٍ مزدحمةٍ للغاية. يجلس الضيوف في أي بقعة كانت؛ داخل حجرات المنزل المختلفة، وينتهي نصف المدعوين عادةً من تناول الطعام قبل النصف الآخر. وعلى النقيض من جيرالد وليديا اللذين يتصدران الحفل، يتصرف والداه مثل متعهدي حفلاتٍ في منزلهما، فتجدهما قلقين ومتيقظين، ينتظران حتى تتكدس أطباق جميع الضيوف بجانب حوض المطبخ، حتى يتمكنا في نهاية المطاف من تناول الطعام. وبينما تتصاعد الضحكات عند مائدة جيرالد وليديا ويفتحان زجاجة نبيذٍ جديدة، ويرفع غوغول كأسه ليملأه مرةً أخرى، يشعر غوغول أحياناً أن حقيقة انغماسه في حياة عائلة ماكسين تعد خيانةً لعائلته. لا يُعزى ذلك ببساطة إلى حقيقة أن والديه لا يعلمان بأمر ماكسين، وأنهما لا يملكان أدنى فكرةٍ كم من الوقت يقضيه معها ومع جيرالد وليديا، وإنما حقيقة أن حياة جيرالد وليديا مؤمنةٌ- حياةٌ لن تتوافر لوالديه أبداً- إلى جانب بحبوحة العيش التي ينعمان فيها. لا يستطيع غوغول تخيل والديه يجلسان إلى مائدة جيرالد وليديا، ويستمتعان بطبخ ليديا، ويُقدِّران اختيار جيرالد للنبيذ. لا يتصورهما غوغول وهما يشاركان الحضور النقاش في إحدى حفلات العشاء تلك. لكن، ها هو غوغول؛ وهو أشبه بإضافةٍ مرحبٍ بها في عالم آل راتليف، يفعل كل ما سبق ليلةً تلو الأخرى.

يختفي جيرالد وليديا في شهر حزيران في منزل البحيرة في نيوهامشير.

إنه طقسٌ لا يمكن التخلي عنه، فالأمر أشبه بهجرةٍ سنويةٍ إلى البلدة حيث يعيش والدا جيرالد طوال العام. تتراكم سلسلةٌ من الحقائب القماشية الكبيرة الحجم، والصناديق المصنوعة من الكرتون المقوى، المليئة بالمشروبات الكحولية، وأكياس التسوق المكدسة بالطعام، والصناديق الخشبية الممتلئة بزجاجات النبيذ، لبضعة أيام في رواق المنزل. يُذكِّره المشهد بوالديه عندما يستعدان للسفر إلى كلكتا كل بضع سنين، عندما تكتظ حجرة المعيشة بحقائب الأمتعة التي حزمها والداه، ثم أعادا توضيبها مرةً أخرى حتى تتسع لأكبر عددٍ من الهدايا التي يحملانها لأقربائهما في الهند. وعلى الرغم من تحمس والديه، فكثيراً ما رافق كل هذه التحضيرات بعض الرزانة والجدية، إذ يشعر أشوك وأشيما بالقلق واللهفة لمعرفة من غيَّبه الموت عندما يستقبلهما عددٌ أقل من الأقارب في مطار كلكتا. بيد أن أشوك وأشيما يُعدان نفسيهما لهذه اللحظة ليواجها نبأ موت بعض الأقارب الذين كانوا أحياء عند زيارتهما للهند آخر مرة. وبغض النظر عن عدد المرات التي سافرت فيها العائلة إلى كلكتا، كان والده قلقاً دائماً إزاء سفر أربعتهم كل هذه المسافة العظيمة. كان غوغول مدركاً أنه نوعٌ من الالتزام؛ إحساسٌ بالواجب يدفعهم دوماً إلى العودة إلى الوطن. لكن نداء المتعة يستدعي جيرالد وليديا إلى نيوهامشير. وبينما كان غوغول وماكسين في العمل، يغادر جيرالد وليديا منتصف النهار دون إحداث أي جلبةٍ. وعلى إثر سفرهما، تختفي بعض الأشياء مثل سيلاس وبعض كتب الطبخ ومُحضِّرة الطعام وبعض الروايات والأقراص المدمجة وآلة الفاكس حتى يتمكن جيرالد من التواصل مع

زبائنه، وسيارة الفولفو العائلية التي يوقفها آل راتليف في الشارع. تكتب ليديا ملاحظة صغيرة تقول فيها: «لقد انطلقنا»، ويليها عددٌ من حرفي X وO- «قبلاتنا وحبنا لكما»- وتضعها فوق منضدة التقطيع في المطبخ.

فجأةً، يصبح المنزل في شيلسي تحت تصرف غوغول وماكسين فقط. يتجول كلاهما في الطوابق السفلية ويتطارحان الغرام على عددٍ هائلٍ من قطع الأثاث وعلى الأرض ومنضدة التقطيع وحتى فوق الأغطية اللؤلؤية اللون، الخاصة بسرير جيرالد وليديا. في عطلة نهاية الأسبوع، يتجولان عاريين من حجرة إلى أخرى ومن طابق إلى آخر صعوداً ونزولاً عبر خمس قلبات من السلالم.

يتناولان الطعام في حجراتٍ مختلفةٍ حسب مزاجهما، إذ يفرشان لحافاً قطنياً قديماً على الأرض، وأحياناً يتناولان طعاماً جاهزاً يسكبانه في أواني الصيني الفاخرة الخاصة بجيرالد وليديا، ويخلدان للنوم في ساعاتٍ غريبةٍ، وأشعة الشمس الحارقة في نهار الصيف الطويل تخترق جسديهما عبر النوافذ الفسيحة جداً. وبينما تشتد حرارة الصيف، يتوقف غوغول وماكسين عن طهي أطباق معقدة، لذا يقتاتان على السوشي والسلطة والسلمون المسلوق البارد. وعوضاً عن النبيذ الأحمر يشربان النبيذ الأبيض. والآن وقد باتا وحدهما في المنزل، يشعر غوغول أكثر من قبل أنه يعيش بالفعل مع ماكسين. لكنه، لسببٍ ما، يشعر أنه يعتمد على آل راتليف أكثر من كونه يتصرف كشخصٍ بالغٍ مستقل. يشعر غوغول أنه حرٌ؛ لا يُتوقع منه شيء، ولا يتحمل أي مسؤوليةٍ في هذا المنزل،

وكأنما كان يعيش في منفى اختياري بعيداً عن حياته الاعتيادية. وعلى الرغم من غياب جيرالد وليديا، فمايزال غوغول يستشعر وجودهما بقوة في حياته اليومية، وإن كانا لم يتعمدا ذلك. فها هي كتبهما التي يقرأها، وموسيقاهما التي يستمع إليها، وباب منزلهما الأمامي الذي يفتحه عندما يعود من العمل، ورسائلهما الهاتفية التي يدونها.

وعلى الرغم من جمال المنزل، يدرك غوغول أن به بعض العيوب التي تظهر في أشهر الصيف، لذلك بدا منطقياً أن يتجنبه جيرالد وليديا في تلك الفترة كل عام. لا يحتوي البيت على نظامٍ لتكييف الهواء، فلم يهتم كلاهما بتركيبه، لأنهما لا يوجدان في المنزل عندما يشتد الحر، وبالإضافة إلى ذلك، لم تُزود نوافذ المنزل الكبيرة بمنخل. لذلك فإن الحجرات قائظةٌ خلال النهار. أما في الليل، فمن الضروري ترك النوافذ مفتوحةً على مصراعيها، وهكذا يكون غوغول ضحية حشرات البعوض التي تتربص به وتطن في أذنيه، مخلفةً وراءها نتوءاتٍ حقيرةٍ مستفزةٍ بين أصابع قدميه وعلى ذراعيه وفخذيه. يرغب غوغول بشدة في الحصول على شبكةٍ واقيةٍ من البعوض ليكسو بها سرير ماكسين، فيتذكر الأسرَّة التي ينام عليها هو وسونيا عند زيارتهما كلكتا، والتي يعلوها غطاءٌ رقيقٌ من النايلون، أزرق اللون، مثبتٌ بقوائم السرير الأربع، وتُقحم أطرافه تحت الفرشة بإحكام؛ مشكلاً حجرةً مؤقتةً صغيرة الحجم لايمكن للبعوض اقتحامها. في بعض الأحيان لا يطيق غوغول الوضع، فيشعل الضوء، ويقف فوق السرير باحثاً عن البعوض، ممسكاً بيده مجلةً قد لفها أو خُفاً، في حين تتوسل إليه ماكسين- التي لايزعجها البعوض، فهو

لا يقترب منها- أن يعود إلى النوم. يرى غوغول البعوض في بعض الأحيان على الجدار المشمشي اللون، فيبدو له مثل بقعةٍ صغيرةٍ باهتةٍ محتقنةٍ بدمائه، على بُعد بضعة إنشاتٍ من السقف، لذلك كان يصعب على غوغول قتلها.

يتخذ غوغول من العمل عذراً حتى لا يذهب إلى منزل والديه في ماساتشوسيتس طوال فصل الصيف. تتنافس الشركة حيث يعمل غوغول مع شركاتٍ أخرى لإنشاء فندق خمس نجوم جديدٍ في ميامي. عند الساعة الحادية عشرة ليلاً، لايزال غوغول يعمل إلى جانب معظم المصممين الآخرين في فريقه، بجدٍ، لينهوا المخططات الهندسية ومجسماتها بحلول نهاية الشهر. عندما يرن جرس هاتفه يتمنى أن تكون ماكسين، تهاتفه لتلاطفه حتى يغادر المكتب، لكنها والدته.

«لماذا تهاتفيني هنا في هذا الوقت المتأخر»؟ يسألها غوغول وقد شتته صوت والدته، على الرغم من أن عينيه مازالتا تحدقان في شاشة الحاسوب. «لأنك ليس في شقتك»، تجيب والدته. «أنت لا توجد في شقتك مطلقاً. لقد هاتفتك في منتصف الليل ولم تكن هناك»!

يكذب غوغول فيقول: «لا، ماما». ثم يتابع قائلاً: «أحتاج إلى النوم، لذلك أُغلق الهاتف». ترد والدته: «لا أستطيع أن أتخيل لماذا يرغب شخصٌ في امتلاك هاتفٍ فقط حتى يقوم بإغلاقه»!

- «إذن، هل هناك سبب لاتصالك»؟

تطلب منه والدته أن يزورهم في عطلة نهاية الأسبوع القادمة؛ يوم السبت الذي يسبق عيد مولده.

«لا أستطيع»، يكذب غوغول، ويدعي أن لديه موعداً نهائياً لتسليم مشروعٍ في العمل. في الواقع، سيذهب في ذلك اليوم إلى نيوهامشير برفقة ماكسينْ لمدة أسبوعين. لكن والدته تصر على حضوره لأن والده سيغادر إلى أوهايو في اليوم التالي؛ ألا يرغب غوغول بمرافقتهم إلى المطار ليودع والده؟

يعرف غوغول القليل عن خطة والده لقضاء تسعة أشهرٍ في جامعةٍ صغيرةٍ في مكانٍ ما خارج كليفلاند، وأنه تلقَّى هو وزميل له منحةً تمولها جامعة زميله هذا لإنجاز أبحاثٍ لصالح شركةٍ ما هناك. أرسل له والده قصاصةً تخص المنحة نُشرت في صحيفة الجامعة، تظهر فيها صورة والده واقفاً أمام مبنى قسم الهندسة، وكُتب تحتها: «منحةٌ رائعةٌ للبروفيسور غانغولي». اعتقد غوغول في بادئ الأمر أن والديه سيغادران معاً، وأنهما سيغلقان المنزل أو سيؤجرانه لبعض الطلاب. لكن والدته فاجأتهما قائلةً إنه لا يوجد ما تفعله في أوهايو لمدة تسعة أشهر، وإن والده سيكون مشغولاً طوال النهار في المختبر، لذلك فهي تفضل أن تبقى في ماساتشوسيتس، وإن كان ذلك يعني بقاءها في المنزل وحدها.

«لماذا يجب أن أراه وهو يغادر إلى الطائرة»؟ يسأل غوغول والدته. يعلم غوغول جيداً أن والديه لا يعدان السفر أمراً اعتيادياً، فحتى أبسط الرحلات لا بد أن يشهداها مودعين أو مستقبلين. يتابع غوغول فيقول: «أنا ووالدي نعيش في ولايتين مختلفتين أصلاً. فأنا، عملياً، أبعُدُ عن أوهايو المسافة ذاتها التي تفصلني عن بوسطن».

- «هذه ليست طريقة تفكير! غوغول، أرجوك! أنت لم تأت إلى

المنزل منذ شهر أيار».

- «أمي، أنا أعمل. إنني مشغول. وبالإضافة إلى ذلك، لن تأتي سونيا».

- «سونيا تعيش في كاليفورنيا، أما أنت فقريبٌ منا جداً».

- «اسمعي يا أمي، لا استطيع القدوم في عطلة نهاية الأسبوع تلك»، يجيب غوغول. تتسرب الحقيقة من بين شفتيه ببطء، فهو يعلم أنها دفاعه الوحيد في هذه المرحلة. «سأذهب في عطلةٍ، ولقد أعددت للأمر مسبقاً».

- «لماذا تنتظر حتى اللحظة الأخيرة لتخبرنا بهذه الأمور»؟ تسأله والدته. «ما نوع العطلة؟ ماهي مخططاتك»؟

«سأقضي أسبوعين في نيوهامشير»، يجيب غوغول. «آه»! ترد والدته التي لم يبد عليها الاندهاش، لكنها كانت مرتاحةً لما سمعت. «لم هذا المكان تحديداً دون غيره؟ ما الفرق بين نيوهامشير وهنا»؟ تتساءل والدته.

- «سأذهب مع فتاةٍ أواعدها حالياً. يمتلك والداها منزلاً هناك».

وعلى الرغم من أن والدته لا تقول شيئاً لفترةٍ وجيزةٍ، يعلم غوغول تماماً ما تفكر فيه؛ إنه على استعدادٍ لقضاء العطلة مع والديْ امرأةٍ ما بدل رؤية والديه.

- «أين يقع هذا المكان تحديداً»؟

- «لا أعلم بالضبط. في مكانٍ ما بين الجبال».

- «ما اسمها»؟

- «ماكس».

- «هذا اسم صبي»!

يهز غوغول رأسه. «لا، أمي. إنه ماكسين».

وهكذا، في طريقهما إلى نيوهامشير، يوافق غوغول أخيراً على التوقف عند شارع بيمبيرتون لتناول طعام الغداء. لا تمانع ماكسين، ففي نهاية المطاف يجب أن يمرا بشارع بيمبيرتون في طريقهما إلى نيوهامشير، وبالإضافة إلى ذلك، دفع الفضول ماكسين آنذاك إلى التعرف على والديه. ينطلقان من نيويورك في سيارةٍ مستأجرةٍ وقد امتلأ صندوق السيارة بمؤن طلبها جيرالد وليديا من خلال بطاقةٍ بريديةٍ كتبا خلفها ما يحتاجانه: نبيذ، وأكياس معينة من المعكرونة المستوردة، وعلبة كبيرة من زيت الزيتون، وقوالب سميكة من جبنة البارميزان والإسياجو الإيطالية. وعندما يسألها غوغول لم تلك المؤن ضرورية؟ تجيبه ماكسين إنهما ذاهبان لمكانٍ منعزلٍ، وإنهما إذا اعتمدا على المتجر العام الموجود، فلن يجدا ما يقتاتان عليه باستثناء رقائق البطاطس، وخبز وندر، والمشروبات الغازية. يخبرها غوغول في طريقهما إلى ماساتشوسيتس أموراً اعتقد أنها يجب أن تعرفها مسبقاً، مثل أنهما لن يتلامسا أو يُقبِّل أحدهما الآخر أمام والديه، وأن النبيذ لا يقدم مع وجبات الطعام.

توضح ماكسين قائلةً، «يوجد الكثير من النبيذ في صندوق السيارة».

- «لا يهم»، يخبرها غوغول. «لا يملك والداي نازعة السدادة الفلينية».

ترى ماكسين أن مثل هذه القيود أمرٌ مسلٍ؛ فالأمر بالنسبة إليها

أشبه بتحدٍ ستعيشه بعد ظهر هذا اليوم؛ أمرٌ غريبٌ غير اعتيادي! لا تربط ماكسين غوغول بعادات والديه، فهي ماتزال لا تصدق أنها أول صديقةٍ يصطحبها إلى منزل والديه. لم يشعر غوغول بالإثارة تجاه المشهد المرتقب، بل أراد أن ينتهي منه في أسرع وقتٍ ممكن. لحظة ترجلهما من السيارة عند منزل والديه، يشعر غوغول أن المنظر من حول ماكسين كان غريباً عليها: مراكز التسوق، ومبنى المدرسة الثانوية الحكومية الممتد على مساحةٍ كبيرةٍ، وواجهته مكسوة بالقرميد؛ تلك المدرسة التي تخرَّج فيها هو وسونيا، والمنازل ذات الأسطح الخشبية القريبة بعضها من بعض على نحوٍ غير مريح، وقد شُيدت على قطعة أرضٍ غزيرة العشب، لكنها لا تتجاوز ربع هكتار، واللافتة التي كُتب عليها «أطفال يلعبون». يعلم غوغول أن نمط الحياة هذا الذي يفخر به والداه لا يَمتُّ لماكسين بأيِّ صلةٍ ولا تهتم به، لكنها على الرغم من ذلك تقع في غرام غوغول.

تغلق شاحنةٌ صغيرةٌ لشركة تركيب أجهزة الأمان مدخل منزل والديه، لذلك يوقف السيارة المستأجرة في الشارع بجوار صندوق البريد عند حافة المرجة الخضراء. يقود غوغول ماكسين عبر الممر المكسو بالحجارة، المؤدي إلى المنزل، ثم يقرع الجرس لأن والديه يبقيان الباب الأمامي مغلقاً بالمفتاح دوماً. تفتح والدته الباب. يرى غوغول أن والدته متوترةٌ، فهي ترتدي أفضل سارٍ لديها، وتضع أحمر الشفاه، وتتطيب بالعطر، على النقيض من سروال القماش الكاكي، والقميص ذي الأكمام القصيرة، والحذاء الجلدي الناعم الأملس دون كعب، الذي يرتديه غوغول وماكسين.

«مرحباً أمي»، ينحني غوغول نحو والدته ويقبلها بسرعة. هذه ماكسين. ماكس، هذه والدتي أشيما».

وبينما تنحني ماكسين نحو أشيما لتقبلها أيضاً، تقول لها: «أخيراً! كم هو لطيفٌ أن أقابلك أشيما». تقدم ماكسين لأشيما سلةً مغلفةً بورق السيلوفان، ممتلئةً بمعجون كبد الإوز المعلب ومرطبانات من مخلل الخيار، وصلصة التوابل المعروفة بالشوتني، ثم تقول: «هذه من أجلك». يعلم غوغول أن والديه لن يفتحا أياً من محتويات السلة، ومن ثم لن يستمتعا بمذاقها. لكنه، على الرغم من ذلك، لم يقنع ماكسين بالعدول عن الأمر عندما ذهبت للتسوق من محل البقالة الشهير دين وديلوكا (Dean and DeLuca) لملء سلتها التي ستهديها لأشيما. يدخل غوغول المنزل دون أن ينزع حذاءه ليلبس الخف الذي يحتفظ به والداه في خزانة الأحذية الموجودة في الرواق. تعود والدته إلى الموقد حيث كانت تقلي كميةً من السامبوسة التي ملأت المكان بسديم من الدخان.

وبينما ترفع أشيما السامبوسة من الزيت بملعقة مثقبّة، وتضعها في طبقٍ غطته بورق النشاف، تخاطب ماكسين قائلةً: «والد نيكيل في الطابق العلوي مع مندوب شركة أجهزة الإنذار. أعتذر، سيكون العشاء جاهزاً خلال دقيقة»، ثم تضيف قائلةً: «توقعت وصولكما بعد نصف ساعةٍ».

- «لماذا نركب نظام أمان»؟ يتساءل غوغول بدهشةٍ.

- «إنها فكرة والدك لأنني، الآن، سأعيش وحدي». تضيف أشيما أن حادثتي سطوٍ وقعتا مؤخراً في الحي. «تُرتكب جرائم هذه الأيام حتى في المناطق السكنية الجيدة مثل منطقتنا»، تقول أشيما لماكسين وهي تهز رأسها.

تقدم لهما والدته كأسين من مخفوق اللبن والفواكه الرغوي الزهري اللون، وكان كثيفاً ومُطيَّباً بماء الورد. يجلس الجميع في حجرة المعيشة المُعدَّة للضيوف فقط، فلا تجلس العائلة فيها عادةً. ترى ماكسين صور غوغول وسونيا عندما كانا في المدرسة وقد وضعتها أشيما أمام خلفيةٍ زرقاء رماديةٍ، ورتبتها فوق الرف الذي يعلو المدفأة، بالإضافة إلى صور بورتريه[1] لأفراد العائلة من تصوير أستوديو أولان ميل (Olan Mill). تتفرج ماكسين مع أشيما على ألبوم الصور الذي يحوي صور غوغول عندما كان طفلاً. تُبدي ماكسين إعجابها بخامة القماش المصنوع ساري أشيما منه، وتذكر أن والدتها تعمل كقيمة على الأقمشة والمنسوجات في متحف «المِت» (The Met).

- «المت»، تتساءل أشيما.

- «متحف المتروبوليتان للفنون»، تفسر ماكسين الأمر لأشيما.

- «أمي، لقد زرتِ المتحف من قبل؛ ذلك المتحف الكبير الذي يقع في الجادة الخامسة. إنه المبنى ذو الدرجات العديدة، الذي اصطحبتك إليه لتشاهدي المعبد المصري، أتذكرين»؟

- «نعم أذكر. لقد كان والدي فناناً»، تخبر أشيما ماكسين وتشير إلى إحدى لوحاته التي رسمها بالألوان المائية، والمعلقة على الحائط.

يسمع الجميع صوت خطوات والده الذي كان ينزل الدرج. يدخل أشوك حجرة المعيشة وإلى جانبه رجلٌ يرتدي زياً مخصوصاً، ويمسك بيده

(1) هو تصوير شخصٍ أو مجموعةٍ من الأشخاص، ويشبه فن البورتريه، وأهم العناصر المؤثرة في تصوير البورتريه هي الإضاءة، فقد يتغير تعبير الوجه والشخصية التي يعكسها بتغيير الضوء الساقط عليه. (المترجم)

لوحةً يكتب عليها ملاحظاته. وعلى النقيض من والدته، لم يكن والده متأنقاً البتة. يرتدي أشوك بنطالاً قطنياً بنياً، وليس فضفاضاً، وقميصاً قصير الأكمام متجعداً قليلاً، وقد تركه منهدلاً فوق البنطال، بالإضافة إلى الخف الذي يرتديه عادةً داخل المنزل. بدا شعْر أشوك الأشيب متناثراً وخفيفاً أكثر مما كان عليه كما يتذكر غوغول آخر مرة رأى فيها والده، وكرشه ملحوظٌ أكثر كذلك. «هذه نسختك من إيصال الاستلام. إذا واجهتَ أي مشكلةٍ، فكلُّ ما عليك الاتصال بالرقم الذي يبدأ بـ(800)»، قال الرجل الذي يرتدي زيّ شركة أنظمة الأمان، مخاطباً أشوك.

- «مرحباً والدي. أحب أن تقابل ماكسين»، يقول غوغول لوالده.
- «مرحباً»، يرفع أشوك يده كما لو كان سيحلف يميناً. لا يجلس أشوك معهم، وعوض ذلك يتوجه إلى ماكسين بالسؤال: «هذه سيارتك في الخارج»؟
- «إنها مستأجرة».
- «من الأفضل أن توقفيها في الممر الأمامي»، يقول والده لماكسين.
- «لا يهم. مكانها لا بأس به»، يرد غوغول.
- «الحذر واجبٌ»، يصر والده. إن أطفال الحي ليسوا حذرين. في إحدى المرات أوقفتُ سيارتي في الشارع، فارتطمت كرة بيسبول بالنافذة، فكسرتها. يمكنني أن أوقفها لكِ إن شئتِ»؟
- «أنا سأوقفها في الممر الأمامي». ينهض غوغول، وقد انزعج من خوف والديه الأزلي من وقوع كارثةٍ. عند عودة غوغول كانت والدته قد وضعت الغداء على المائدة، وكان دسماً جداً بحيث لا

يتلاءم مع الجو الحار. وبالإضافة إلى السامبوسة، قدمت أشيما شرائح الدجاج المكسوة بفتات الخبز، ويخنة الحمص بالتمر الهندي، والبرياني بلحم الخروف، وصلصة الشوتني، وقد أعدتها مستخدمةً البطاطس التي زرعتها في الحديقة. يعلم غوغول أن تحضير هذه الوجبة استغرق والدته أكثر من يوم، وعلى الرغم من ذلك يحرجه حجم الجهد الذي بذلته. ملأت أشيما الكؤوس بالماء مسبقاً، وجهزت الأطباق والشوكات والمناديل الورقية ووضعتها على المائدة في حجرة الطعام؛ تلك المائدة بمقاعدها غير المريحة، ذات الظهر المرتفع، المنجَّدة بقماشٍ مخمليٍّ ذهبيٍّ، وهي تستخدم في المناسبات الخاصة فقط.

وبينما مازالت أشيما تحوم بين حجرة الطعام والمطبخ، لتُنهي قلي الحبات الأخيرة من السامبوسة، تقول: «تفضلوا، يمكنكم أن تبدؤوا».

يتصرف والداه بتحفظٍ لوجود ماكسين، لذلك يحافظان على المسافة بينهما وبينها، ولا يُظهران حماسهما كما اعتادا مع ضيوفهما البنغال. يسألانها عن الجامعة التي تخرجت فيها، وعن عمل والديها. بيد أن ماكسين لم تأبه بطريقتهما الخرقاء في الترحيب بها، وحاولت تشجيعهما على الإفصاح عما يدور في خلدهما، وهي تصغي إليهما باهتمامٍ بالغٍ، فيتذكر غوغول لقاءهما الأول، عندما حاولت إغواءه بالطريقة نفسها التي تتبعها مع والديه. تتوجه ماكسين بالسؤال لأشوك فتستفسر عن موضوع بحثه الذي سيشرع به في جامعة كليفلاند، ثم تسأل أشيما عن عملها الجزئي في المكتبة العامة المحلية، الذي حصلت عليه مؤخراً. لم

يكن غوغول يصغي بالفعل إلى موضوع الحديث الدائر، لقلقه المفرط حيال حقيقة أن عائلته لم تعتد تمرير الأطباق على المائدة، أو مضغ الطعام بأفواه مغلقةٍ تماماً. تنحني ماكسين نحو غوغول وتمرر أصابعها خلال شَعره بعفويةٍ تامةٍ، وعندها يتجنب والداه النظر إليهما. يشعر غوغول بالراحة عندما يرى ماكسين تأكل الأطباق التي أعدتها والدته بشهيةٍ، وتسأل والدته عن طريقة إعداد هذا الطبق أو ذاك، وتخبرها أنها لم تتناول طعاماً هندياً أشهى من هذا في حياتها كلها، وتقبل كذلك عرض والدته بتغليف بعض الساموسة وشرائح الدجاج ليتناولانها خلال رحلتهما.

تعترف والدته لماكسين أنها تشعر بالتوتر لوجودها في البيت وحدها بعد مغادرة أشوك إلى كليفلاند، وعندها تقول لها ماكسين إنها ستشعر بالمثل لو كانت محلها. تذكر ماكسين أن لصاً اقتحم منزل والديها عندما كانت في المنزل وحدها. عندما تخبرهما ماكسين أنها تعيش مع والديها، تتساءل أشيما بدهشة: «حقاً؟ اعتقدتُ ألا أحد يفعل ذلك في أمريكا»، ثم تضيف ماكسين أنها وُلدت وترعرعت في مانهاتن، وعندها يهز أشوك رأسه ويقول: «إن نيويورك مدينةٌ مزعجةٌ؛ الكثير من السيارات والمباني الشاهقة الارتفاع. يحكي أشوك لماكسين قصة ذهابهما إلى نيويورك لحضور حفل تخرج غوغول من جامعة كولومبيا، حين قاد أشوك السيارة. خلال خمس دقائق كسر لصٌ صندوق السيارة، وسرق حقائبهما، فاضطرا لحضور الحفل دون سترةٍ وربطة عنق.

عندما يقترب الجميع من الانتهاء من تناول الطعام، تقول أشيما: «من المؤسف أنكما لا تستطيعان البقاء لتناول العشاء». غير أن والده يحثهما

على الانطلاق قائلاً: «من الأفضل ألا تقودا السيارة في الظلام».

يحتسي الجميع الشاي بعد ذلك ويتناولون حلوى الأرز[1]، التي أعدتها والدته خصيصاً بمناسبة عيد ميلاده. يحصل غوغول على بطاقة تهنئةٍ من هولمارك، موقعةً من والديه، وشيكٍ مصرفيٍّ بقيمة مائة دولار، وسترةٍ قطنيةٍ لونها أزرق نيلي من فيلينز.

تستحسن ماكسين فكرة تقديم السترة كهدية، ثم تقول: «سيحتاج نيكيل هذه السترة في المكان الذي سنتوجه إليه، فالحرارة تنخفض ليلا».

أحضانٌ وقبلاتٌ في الممر الأمامي خارج المنزل بادرت بها ماكسين، ثم يبادلها أشوك وأشيما الأحضان والقبلات بطريقةٍ خرقاء. ترجو أشيما ماكسيم أن تزورهما مرةً أخرى. أما أشوك فيناول غوغول قصاصةً من الورق كتب عليها رقم هاتفه الجديد في أوهايو وموعد تفعيله.

- «أتمنى لك رحلةً ممتعةً إلى كليفلاند»، يقول غوغول لوالده، «وأتمنى لك التوفيق في مشروع بحثك الجديد».
- «حسناً»، يربت أشوك على كتف غوغول، ويقول: «سأشتاق إليك»، ثم يضيف بالبنغالية، «تذكر أن تتفقد أحوال والدتك الآن وفيما بعد».
- «والدي، لا تقلق. سأراك في عيد الشكر».
- «نعم. أراك لاحقاً»، يرد والده، ثم يقول: «غوغول، أتمنى لكما رحلةً آمنةً».

في بادئ الأمر، لا يُلقي غوغول بالاً لزلة لسان والده. لكن، بمجرد

(1) يتكون هذا الطبق من الأرز والحنطة والشعيرية المسلوقة والحليب والسكر والمكسرات. (المترجم)

دخولهما السيارة وربطهما حزام الأمان تسأله ماكسين: «ماذا دعاك والدك للتو»؟

يهز غوغول رأسه. «لا يهم، سأشرح لك الأمر فيما بعد». يشغل غوغول السيارة ويحركها إلى الخلف، في حين يقف والداه ملوِّحيْن لتوديعهما حتى اللحظة الأخيرة. تخاطبه والدته بالبنغالية قائلةً: «هاتفنا لنطمئن أنكما وصلتما بأمان»، بيد أن غوغول يلوح لهما، وينطلق مبتعداً، متظاهراً أنه لم يتمكن من سماعها.

شعر غوغول بالراحة لعودته إلى عالم ماكسين، وتوجه بالسيارة شمالاً عبر حدود الولاية. لبعض الوقت، لا يشعر غوغول باختلاف المكان حوله؛ هي السماء الممتدة نفسها وشريط الطرق السريعة ذاته، ومتاجر المشروبات الكحولية الكبيرة، وسلسلة مطاعم الأكل السريع الممتدة على جانبي الطريق. تعرف ماكسين الطريق، لذلك لا حاجة للرجوع إلى الخريطة. لقد زار غوغول نيوهامشير من قبل برفقة عائلته مرةً أو مرتين ليستمتعوا بالطبيعة الخضراء، وقاد والده السيارة طوال اليوم، وتوقفوا على جانب الطريق لالتقاط بعض الصور والاستمتاع بالمنظر الطبيعي، لكن غوغول لم يبتعد إلى هذا الحد من قبل باتجاه الشمال. يمر غوغول وماكسين بمزارع شاسعة، ويشاهدان أبقاراً ترعى في المراعي، وصوامع غلالٍ حمراء اللون، وكنائس شُيدت من الخشب المطلي باللون الأبيض، وحظائر جُعلت أسقفها من الصفيح الذي أصبح صدئاً، فضلاً عن المدن الصغيرة المتناثرة. لا تعني أسماء المدن أي شيء بالنسبة إلى غوغول. يترك غوغول وماكسين الطريق السريع وراءهما، ويتابعان طريقهما نحو

طريقٍ ضيقٍ شديد الانحدار ذي مسارين يمتدان في الاتجاه ذاته، وتبدو الجبال على جانبي الطريق مثل أمواجٍ حليبية شاهقةٍ توقفت عن الحركة قبالة السماء. تبدو الغيوم النحيلة التي تتدلى عند قمم الجبال مثل خيوط الدخان المتصاعدة من بين الأشجار. يرى غوغول غيوماً أخرى تُلقي بظلالها عبر الوادي. في نهاية المطاف تمر بعض السيارات على الطريق المفتقر إلى شواخص تشير إلى أي نوعٍ من الخدمات المقدمة للسياح، أو حتى أماكن للتخييم. لا يرى غوغول سوى المزيد من المزارع والغابات والأزهار الزرقاء والبنفسجية التي افترشت جانبي الطريق. ليس لدى غوغول أي فكرةٍ عن مكانهما أو إلى أي حدٍّ ابتعدا. تخبره ماكسين أنهما ليسا ببعيدين عن كندا، وبقليلٍ من التشجيع والحماس بإمكانهما أن يقودا السيارة حتى يصلا إلى مونتريال.

ينحدر الطريق بغوغول وماكسين باتجاه طريقٍ ترابيٍّ طويل يمتد وسط غابةٍ ينمو فيها نبات الشوكران[1] وأشجار البتولا بكثافةٍ. لا يوجد ما يحدد مكانهما، فما من صندوق بريدٍ أو أي شواخص. في بادئ الأمر لا يرى غوغول أي منزلٍ، بل مجرد نباتاتٍ سرخسيةٍ كبيرةٍ لونها أصفر ليمي[2] تغطي الأرض. تتسبب إطارات السيارة بتراشق الأحجار الصغيرة عشوائياً. وتُلقي الأشجار بظلالها المتباينة على غطاء محرك السيارة، ثم يتضح المشهد جزئياً عندما يقتربان من منزلٍ متواضعٍ

(1) الشوكران: جنس نباتي عشبي من النباتات المغطاة البذور ذات الحولين، العالية السمية من الفصيلة الخيمية، ويستخلص منه سم الشوكران، وهو مركب شبه قلوي. (المترجم)

(2) يقع اللون الليمي بين اللونين الأصفر والأخضر، لكنه أقرب إلى الأصفر، وسُمي كذلك نسبةً إلى الليم، وهو نوع من الحمضيات. (المترجم)

سقفه مكسوٌّ بألواح خشبية بَهُت لونها البني بفعل الشمس، ويحيط به سورٌ منخفضٌ شُيد من حجارةٍ مسطحةٍ. تقف الفولفو الخاصة بجيرالد وليديا فوق العشب، فلا يوجد كراجٌ خاص بالمنزل. يترجل غوغول وماكسين من السيارة، وتمسك ماكسين بيد غوغول، وتقوده خلف المنزل، ويشعر غوغول أن أطرافه قد تصلبت من جلوسه ساعاتٍ داخل السيارة. وعلى الرغم من أن الشمس بدأت تغيب فمايزال دفؤها ملموساً، والهواء متثاقلٌ لكنه عليل. وبينما يقتربان، يرى غوغول أن باحة المنزل التي تمتد لمساحةٍ معينةٍ سرعان ما تختفي عندما يرى بحيرةً عميقةً جداً وبراقةً أكثر من السماء، تطوِّقها أشجار الصنوبر، وترتفع الجبال خلفها. كانت البحيرة أكبر مما توقع؛ مسافةٌ لا يمكنه أن يتخيل نفسه يقطعها سباحةً.

«لقد وصلنا»، تنادي ماكسين بصوتٍ مرتفعٍ وتلوح بذراعيها. يمشيان باتجاه والدي ماكسين، اللذين كانا يجلسان على مقعدي أديرونداك الخشبيين[1] فوق العشب، عاريي الرجلين وحافيي القدمين. يجري سيلاس باتجاههما ويقفز ويعوي عبر المرجة الخضراء. كان جيرالد وليديا أسمر وأنحف من ذي قبل، وارتديا ملابس بسيطةً للغاية. فعلى سبيل المثال، كان جيرالد يرتدي سروالاً قصيراً مجعداً أزرق وقميص بولو بَهُت لونه الأخضر من كثرة الاستعمال. كان ذراعا ليديا سمراوين مثل ذراعي غوغول. أما جيرالد، فبدا محروقاً! كانت الكتب ملقاةً

(1) مقاعد خشبية تستخدم في الحدائق، وسميت كذلك نسبة إلى جبال آديروانداك، وهي سلسلة جبال تقع في الجزء الشمالي الشرقي من ولاية نيويورك، حيث صُنعت هذه المقاعد أول مرة. (المترجم)

تحت قدميهما مفتوحةً ومقلوبةً باتجاه الأرض. تحوم حشرة اليعسوب الفيروزية اللون فوقهما، ثم تنطلق سريعاً بحركةٍ ملتويةٍ. يلف جيرالد وليديا رأسيهما باتجاه غوغول وماكسين للترحيب بهما، في حين يحجبان الشمس الساطعة عن عينيهما. «مرحباً بكما في الفردوس»، يقول جيرالد.

كانت حياتهما في هذا المنزل تناقض حياتهما في نيويورك. فالبيت - مثلاً- كان معتماً وعفناً قليلاً ومكتظاً بأثاثٍ قديم بسيطٍ غير متناسق. توجد بعض أنابيب المياه المُعرَّاة في الحمام، وأسلاكٌ متشابكةٌ عند عتبات الأبواب، ومسامير بارزة من دعامات السقف الأفقية. توجد على الجدران مجموعة فراشاتٍ محلية ثُبِّتت داخل إطارٍ، وورقةٌ بيضاء رقيقة توضح خريطة المنطقة، وصور فوتوغرافية للعائلة التقطت بجوار البحيرة عبر السنين. ستائر قطنية مزركشةٍ بمربعاتٍ تتدلى من قضيبٍ رفيعٍ أبيض فوق النوافذ. وعوضاً عن البقاء مع جيرالد وليديا، يخلد غوغول وماكسين إلى النوم داخل كوخٍ غير مدفأ يقع أسفل الممر المؤدي للمنزل الرئيس. لا تتجاوز مساحة الكوخ مساحة حجرةٍ واحدةٍ، فلقد شيده جيرالد وليديا في الأصل لتلعب ماكسين داخله عندما كانت طفلةً صغيرة. توجد خزانةٌ صغيرةٌ ذات أدراج، وطاولةٌ بسيطةٌ صغيرة الحجم تفصل سريرين مفردين متماثلين عن بعضهما، ومصباحٌ له غطاءٌ من الورق المقوى، مزركشٌ بمربعاتٍ، وخزانتان خشبيتان حيث تحتفظ ليديا بلُحفٍ إضافية. أما السريران، فغطتهما ليديا ببطانيتين كهربائيتين قديمتين. يوجد في الزاوية ابتكارٌ بسيطٌ يُصدر همهمة يفترض أن تُبقي الوطاويط بعيداً. أما سقف الكوخ فثُبت جزئياً بقطع أشجارٍ لم يتم

تقشيرها وتجهيزها جيداً، ويوجد فراغٌ بين نهاية أرضية الكوخ وبداية الجدران المقامة عليها، حتى إن المقيم داخل الكوخ يتمكن من رؤية خطٍ رفيعٍ من العشب الذي نما بينهما. تنتشر الحشرات الميتة في كل مكان، بعضها سُحق على زجاج النوافذ وعلى الجدران، والآخر قضى في برك مياهٍ تشكلت خلف الصنبور. وبينما كانا يفرغان حقائبهما، قالت ماكسين: «الأمر يشبه رحلة تخييمٍ»، لكن غوغول لم يشارك في حياته في مثل هذه الرحلات. وعلى الرغم من أن المكان يبعد ثلاث ساعاتٍ فقط عن منزل والديه، فإنه يعد عالماً مجهولاً بالنسبة إليه، وإجازةً لم يحظ بها من قبل.

يقضي غوغول النهار جالساً مع عائلة ماكسين على لسانٍ بحريٍّ يطل على البحيرة المتلألئة ذات اللون الأخضر القريب من لون حجر اليشب[1]، ومن حوله منازل مختلفة وقوارب الكنو، التي قُلبت رأساً على عقب. يقفز الشرغوف[2] بالقرب من الشاطئ. يتصرف غوغول مثل الآخرين، فيجلس على كرسيٍّ قابلٍ للطي، ويعتمر قبعةً قطنيةً، ويدهن ذراعيه بكريم واقٍ من أشعة الشمس من وقتٍ إلى آخر، ويقرأ، لكن النعاس سرعان ما يغلبه، ولم يكد ينهي صفحةً واحدةً. يمشي غوغول في المياه الضحلة، ثم يسبح باتجاه رصيف الميناء، عندما يصبح كتفاه دافئيْن، حيث يخلو الرمل من الحجارة أو الطحالب، ويتميز الرصيف بكونه أملس مطاوعاً تحت قدميه. ينضم جَدّا ماكسين، هانك وإيديث،

(1) اليشب أو «اليشم»، بالإنجليزية: (Jade) هو من الأحجار الكريمة، ويُتّخذ للزينة وجلب الحظ. عادةً ما يكون لونه أخضر، لكنه يوجد بجميع الألوان ما عدا الأزرق. (المترجم)

(2) الشرغوف: فرخ الضفدع. (المترجم)

اللذان يعيشان على بعد بضعة منازل فقط قرب البحيرة بين حينٍ وآخر إلى العائلة. يحضر هانك- وهو أستاذٌ جامعيٌّ متقاعدٌ متخصصٌ في علم الآثار الكلاسيكية- معه دوماً مجلداً صغيراً للشعر الإغريقي ليقرأه، وتتموج أصابعه الطويلة المبقعة بحروق الشمس، أعلى صفحات الكتاب. في مرحلةٍ ما، ينهض غوغول، ويبذل جهداً كبيراً ليخلع حذاءه وجواربه، ثم يمشي داخل الماء حتى يغطي بطة ساقيه، وينظر إلى المشهد من حوله، واضعاً يديه على وركيه، ورافعاً ذقنه في الهواء بزهو. أما إديث فامرأةٌ نحيلةٌ، يجعلها حجمها الصغير المتناسق تبدو مثل فتاةٍ صغيرةٍ، شعرها الأشيب قصيرٌ، ووجهها متجعدٌ بشدة. سافرا معاً إلى بعض الدول مثل إيطاليا واليونان ومصر وإيران. «لم نصل إلى الهند»، تقول إيديث لغوغول. «كنا نرغب برؤية الهند بشدةٍ».

يمشي غوغول برفقة ماكسين طوال النهار حول ممتلكات العائلة، حافييْ القدمين، ومرتديين لباس السباحة. يجري غوغول مع جيرالد حول البحيرة، وعلى الطرق الترابية المُنهِكة، التي ترتفع تارةً ثم تنحدر بشدةٍ تارةً أخرى، والتي لم يطرقها الكثير من المارة، مما يمكّنهما من الجري وسط الطريق بحريةٍ. يتوقف غوغول وجيرالد عند منتصف الطريق حيث توجد مقبرةٌ صغيرةٌ لعائلة راتليف، وحيث ستدفن ماكسين في يومٍ من الأيام، ليلتقطا أنفاسهما. يقضي جيرالد معظم وقته في حديقة خضراواته، ولقد اسودت أظافره بشكل دائم من زراعته الخس والأعشاب بعنايةٍ. في أحد الأيام، يسبح غوغول وماكسين إلى منزل هانك وإيديث ليتناولا طعام الغداء الذي تكون من شطائر سلطة

البيض، وحساء الطماطم المعلب. في بعض الليالي، عندما يشتد الحر في الكوخ، يحملان مصباحاً يدوياً، وقد ارتديا منامتاهما، ثم يتمشيان باتجاه البحيرة ليسبحا عاريَيْن. يسبحان في المياه المعتمة تحت ضوء القمر، وتعلق الأعشاب البحرية بأطرافهما، ويتابعان السباحة حتى يصلا إلى الرصيف المجاور. تُولِّد المياه المحيطة بجسد غوغول العاري إحساساً غير مألوف، فيشعر بالإثارة فيتطارحان الغرام عند عودتهما، فوق العشب الذي يبتل من جسديهما. ينظر غوغول إلى الأعلى نحو ماكسين، وينظر خلفها، ثم إلى السماء التي تزخر بعدد هائلٍ من النجوم لم يره متجمعاً في آنٍ واحدٍ من قبل؛ كانت أشبه بمجموعةٍ كبيرةٍ من الأحجار الكريمة التي اختلطت بالغبار.

وعلى الرغم من أنه لا يوجد شيء بعينه ليفعله المرء، فإن الأيام توسم بميسم خاص، فالحياة هنا تتصف بقسوةٍ معينةٍ، وتفرض بعض الأمور نفسها، في حين يمارس الجميع بعضها الآخر بملء إرادتهم. فعلى سبيل المثال، يستيقظ الجميع صباحاً على زقزقة العصافير شديدة الاهتياج عندما يظهر شريطٌ من الغيوم الوردية اللون في السماء ناحية الشرق. ويتناول الجميع الإفطار في السابعة صباحاً على الشرفة المغلقة بنوافذ زجاجية من جميع الجهات، والمطلة على البحيرة التي يتناولون بجوارها جميع الوجبات الأخرى. يتكون الإفطار عادةً من مربى منزلي الصنع يُفرد على شريحةٍ سميكةٍ من الخبز. أما أخبار العالم، فيعرفونها من خلال الصحيفة المحلية النحيلة، التي يحضرها جيرالد كل يوم عند عودته من المتجر العام الموجود في المكان. في وقتٍ متأخرٍ من بعد الظهيرة يستحم

الجميع ويتأنقون من أجل تناول العشاء. يجلسون معاً، ويضعون كؤوس الشراب على العشب الأخضر، ويتناولون شرائح الجبن التي أحضرها غوغول وماكسين معهما من نيويورك، ويراقبون غروب الشمس خلف الجبال، والوطاويط التي تنطلق مسرعةً بين أشجار الصنوبر، التي تسمق عالياً، حتى إنها تناهز ارتفاع مبنى يتكون من عشرة طوابق، وقد عُلقت أثواب السباحة على حبل الغسيل لتجف. كانت وجبة العشاء بسيطةً: ذرةٌ مسلوقةٌ يبتاعها جيرالد من أكشاك المزارع المجاورة، ودجاجٌ باردٌ، ومعكرونةٌ بصلصة البيستو الإيطالية[1]، وطماطم من حديقة المنزل تُقطع إلى شرائح، ويرش عليها قليلٌ من الملح، وتُوضع في طبق. تخبز ليديا الفطائر المقرمشة وفطائر توت العليق التي التقطتها بنفسها. تختفي ليديا بين الحين والآخر، طوال النهار، لتبحث عن قطعٍ عتيقة الطراز في البلدات المجاورة. لا يوجد تلفازٌ يمكن مشاهدته في المساء، بل مجرد جهاز ستيريو قديم، يستمعون عبره إلى سيمفونيةٍ ما أحياناً أو موسيقى الجاز. في أول يومٍ ماطرٍ يُعلِّمه جيرالد وليديا لعب الورق. غالباً ما يخلد كلاهما للنوم عند التاسعة، ونادراً ما يرن الهاتف في المنزل الرئيس.

يُقدِّر غوغول تدريجياً انعزاله التام عن العالم، ويتنامى اعتياده على الهدوء، ورائحة الخشب الدافئ بفعل أشعة الشمس، والأصوات الوحيدة التي كان يسمعها غوغول على فتراتٍ متباعدةٍ؛ صوت محرك القارب الآلي الذي يعبر المياه، وصرير أبواب المنخل المثبتة على الأبواب

(1) بيستو، صلصة إيطالية خضراء مصنوعة من الريحان والصنوبر والثوم وزيت الزيتون. (المترجم)

الخارجية. يهدي غوغول رسماً للمنزل الرئيس بقلم الرصاص لليديا وجيرالد، كان قد رسمه بعد ظهر أحد الأيام، عندما كان عند الشاطئ، وهو أول رسمٍ يعدِّه منذ سنوات لا علاقة له بعمله. يعلقها جيرالد وليديا فوق رفّ المدفأة المزدحم إلى جانب كومةٍ من الكتب والصور الفوتوغرافية، ويَعِدان أن يضعاها في إطار. يبدو الأمر وكأن العائلة تملك كل قطعةٍ من الطبيعة المحيطة؛ لا المنزل فقط، وإنما كل شجرةٍ وكل ورقة عشب. لا يُحكِم آل راتليف إغلاق أي بابٍ، سواء كان باب المنزل الرئيس، أو الكوخ حيث ينام هو وماكسين. يمكن لأيٍّ كان أن يدخل المكانين. يفكر غوغول بجهاز الإنذار في منزل والديه، ويتساءل لِمَ لا يستطيعان أن يشعرا بالراحة تجاه العالم المادي المحيط بهما بالطريقة نفسها. يمتلك آل راتليف القمر الذي يطفو طيفه على سطح البحيرة، والشمس والغيوم. إنه مكان شعروا بطيبته، وهو جزءٌ منهم كفردٍ من العائلة. تروق لغوغول كثيراً فكرة زيارة المكان ذاته سنةً تلو أخرى، غير أن غوغول لا يتخيل والديه يعيشان في منزلٍ مثل هذا المنزل، ويلعبان الورق بعد ظهر الأيام الماطرة، ويراقبان النيازك في السماء ليلاً، ويجتمع جميع أقربائه بطريقةٍ منظمةٍ على شريطٍ ضيقٍ من الأرضٍ المغطاة بالرمل. إنه حافزٌ لم يشعر به والداه من قبل؛ الحاجة إلى الابتعاد عن كل ما هو حولك. سيشعر والداه بالوحدة هنا، إذ سيلحظان أنهما الهنديان الوحيدان في المكان. لن يرغبا في الخروج في نزهةٍ على الأقدام كما يفعل هو وماكسين وجيرالد وليديا كل يومٍ تقريباً، على الممرات الجبلية الوعرة المرتفعة لمراقبة غروب الشمس فوق الوادي. ما كان والداه ليهتما

بتطييب الطعام بالريحان الطازج الذي ينمو بوفرةٍ في حديقة جيرالد، أو أن يقضيا يوماً كاملاً في غلي التوت البري لصنع المربى. لن ترتدي والدته ثوب السباحة. لا يشعر غوغول بالحنين للإجازات التي يقضيها برفقة والديه، ويدرك الآن أنها لم تكن إجازاتٍ حقيقيةً قط، بل كانت أشبه برحلةٍ استكشافيةٍ مربكةٍ لم تُفضِ حقاً إلى معرفة المكان، فالأمر لم يتجاوز السفر إلى كلكتا، أو زيارة معالم المدينة في أماكن لم ينتموا إليها فعلاً، ولم يرغبوا في زيارتها مرةً أخرى أبداً. في بعض العطلات الصيفية خرجت العائلة في رحلاتٍ طويلةٍ في سياراتٍ (فان) كبيرةٍ، مستأجرةٍ برفقة عائلةٍ أو عائلتين بنغاليتين، إلى تورونتو أو أتلانتا أو شيكاغو، حيث يوجد أصدقاءٌ بنغالٌ آخرون. يتجمع الآباء عادةً في المقعد الأمامي، ويتناوبون على قيادة المركبة، ويسترشدون بخريطةٍ حددوا عليها وجهتهم مسبقاً. يجلس جميع الأطفال في المقعد الخلفي ويحملون حافظاتٍ بلاستيكيةٍ بداخلها يخنة البطاطس المتبَّلة بالكاري وخبز البوري البارد، الذي قُلي في اليوم السابق، ولُف بورق التغليف المعدني، ليتناولوها على إحدى الطاولات المخصصة للنزهات عندما يتوقفون في أحد متنزهات الولاية التي يتوجهون إليها. يقيمون في الفنادق الزهيدة المنتشرة على الطريق العام، وتنام عائلاتٌ بأكملها داخل حجرةٍ واحدةٍ، ويسبحون داخل بِركٍ يمكن رؤيتها من الطريق.

في يوم من الأيام، ذهب جيرالد وليديا وغوغول وماكسين للتجديف بقارب الكنو في البحيرة. تُعلِّم ماكسين غوغول كيفية التجديف الصحيح؛ كيف يوجه المجداف نحو زاوية معينةٍ، ثم

يسحب إلى الخلف، عبر المياه الساكنة الرمادية. تتحدث ماكسين بإجلالٍ عن عطلات الصيف التي تقضيها هنا. تخبره ماكسين أن هذا هو مكانها المفضل في العالم كله، ويدرك أن هذا المشهد الطبيعي؛ مياه هذه البحيرة تحديداً حيث تعلمت السباحة للمرة الأولى، هو جزءٌ منها، أكثر من منزلها في شيلسي. تعترف أنها هنا فقدت عذريتها عندما كانت في الرابعة عشرة في منزلٍ مبنيٍّ على حافة الماء، مع فتى كانت عائلته تقضي عطلة الصيف في المكان. يفكر غوغول في نفسه عندما كان في الرابعة عشرة، وكيف كان شخصاً مختلفاً عما هو عليه الآن، فلم يكن في حياته شيء مميزٌ سوى أن الجميع كانوا يدعونه غوغول! يتذكر رد فعل ماكسين عندما أخبرها بحكاية اسمه الثاني، وهما يغادران منزل والديه. «هذا ألطف ما سمعته في حياتي كلها»، قالت ماكسين. ثم لم تذكر الأمر مجدداً، وكأن هذه الحقيقة المهمة الخاصة بحياته اختفت من ذاكرتها كما فعل كثيرون آخرون. يدرك غوغول كذلك أن هذا المكان سيكون متاحاً لها دائماً. يُسهِّل هذا المكان تصور ماضيها ومستقبلها، وتخيلها وهي تتقدم في العمر؛ عندما يظهر بعض الشعر الأشيب بين خصلات شعرها، لكن وجهها سيبقى جميلاً، في حين سيكتسب جسدها الممشوق بعض الوزن، فتصبح أقل نشاطاً مما كانت عليه، وتجلس على كرسيٍّ مخصصٍ للشاطئ، وقد اعتمرت قبعةً عريضةً مرنةً. يتخيلها غوغول تعود إلى المكان حزينةً، لتدفن والديها، وتُعلِّم أطفالها السباحة في البحيرة؛ تقودهم في الماء بكلتا يديها، وتعلمهم القفز من حافة الرصيف ليغوصوا في الماء.

هنا، يحتفل غوغول بعيد ميلاده السابع والعشرين، وهو أول عيد ميلادٍ في حياته لا يقضيه مع والديه، سواء في كلكتا أو شارع بيمبيرتون. تعد ليديا وماكسين عشاءً خاصاً بهذه المناسبة، فلقد قضتا أياماً تقرآن كتب الطهي عند الشاطئ. قررتا أن تعدا طبق البائيا الإسباني[1] فتقودان العربة إلى ماين لابتياع بلح البحر، والبطلينوس. تُحضِّر ليديا وماكسين كعكعةً إسفنجية بدءاً من الصفر. تضع كلتاهما مائدة الطعام على المرجة الخضراء، وإلى جانبها بعض الطاولات المخصصة للعب الورق، ليكون هناك متسعٌ للجميع. وبالإضافة إلى هانك وإيديث، تدعو ليديا بعض الأصدقاء من المنازل المجاورة للبحيرة. حضرت النساء وقد ارتدين قبعاتٍ من القش وفساتين من الكتان. تمتلئ المرجة الأمامية بالسيارات، ويلهو الأطفال فيركضون بينها. يجلس الضيوف بجوار البحيرة يتحدثون، وتنخفض درجة الحرارة، فتصبح مياه البحيرة باردةً منعشةً، ذلك أن الصيف قارب على الانتهاء. يتذمر الحضور من القوارب الآلية، ويثرثرون حول مالك المتجر العام الذي هربت زوجته مع رجلٍ آخر وتسعى إلى الحصول على الطلاق. وبينما يقود جيرالد غوغول نحو زوجين كانا مهتمين ببناء توسعةٍ لكوخهما، يقول في مرحلة ما: «هذا هو المعماريُّ الذي أحضرته ماكس معها». يتحدث غوغول للزوجين عن مخططاتهما، ويعدهما بزيارة الكوخ ليلقي عليه نظرةً قبل مغادرته المكان. تسأله باميلا، وهي امرأةٌ في منتصف العمر كانت تجلس إلى جانبه عند العشاء، عن عمره عندما تركت عائلته الهند وانتقلت للعيش في أمريكا.

(1) بائيا؛ طبقٌ إسبانيٌّ يتم إعداده من الأرز واللحم والخضار والمحار. (المترجم)

- «أنا من بوسطن»، يقول غوغول.

يتبين لغوغول أن باميلا من بوسطن أيضاً، لكنه عندما يخبرها عن اسم الضاحية حيث يعيش والداه، تهز رأسها وتقول: «لم أسمع بها من قبل»! ثم تتابع، فتقول: «كانت لي صديقةٌ ذهبت مرةً إلى الهند».

- «آه، أي منطقةٍ في الهند زارت»؟

- «لا أعلم. كل ما أذكره أنها عندما عادت كانت نحيلةً للغاية، وكنت أحسدها جداً»، تضحك باميلا. «ولكنكَ محظوظ لما أنت عليه»، تضيف باميلا.

- «ماذا تقصدين»؟ يتساءل غوغول.

- «أعني، لابد أنك لا تمرض عندما تذهب هناك».

«في حقيقة الأمر، هذا ليس صحيحاً»، يقول غوغول، وقد انزعج قليلاً. ينظر غوغول نحو ماكسين، ويتمنى أن تراه لكنها كانت منهمكةً في الحديث مع الضيف الذي يجلس بجوارها. «نحن نمرض طوال الوقت، ويجب أن نحصل على مطعومٍ قبل سفرنا هناك. يكرِّس والداي جزءاً كبيراً من الحقيبة للأدوية التي يحملانها معهما إلى الهند».

- «لكنك هندي»، تقول باميلا عابسةً، ثم تضيف: «أعتقد أن المناخ هناك لن يؤثر عليك، فلديك جينات مقاومة».

- «باميلا، إن نيك أمريكي»، تقول ليديا وهي تنحني عبر الطاولة، فتنقذ غوغول من الحوار الدائر. «لقد وُلد هنا». تنظر ليديا نحو غوغول من جديد، ويدرك من تقاسيم وجهها أنها، بعد مضي كل هذه الأشهر، غير واثقةٍ مما تقوله. «أليس كذلك»؟ تتساءل ليديا.

تُسكَب الشمبانيا مع الكعكة. يرفع جيرالد كأسه ويعلن: «في صحة نيكيل، عيد ميلادٍ سعيدٍ»، يغني كل من في هذه المجموعة التي عرفته لأمسيةٍ واحدةٍ فقط، والتي ستنساه في اليوم التالي. يتذكر غوغول وسط ضحكات البالغين الثملين وصراخ أطفالهم الذين يجْرون حفاةً يلاحقون اليراعات على المرجة الخضراء، أن والده غادر إلى كليفلاند قبل أسبوع، وأنه الآن يعيش في شقةٍ وحده، وأن والدته الآن وحدها في المنزل في شارع بيمبيرتون. يعلم غوغول أن عليه أن يهاتف والده ليطمئن أنه وصل بأمان، وليطمئن كيف تتدبر والدته أمرها وحدها، إلا أن هذه الهموم لا معنى لها هنا بين ماكسين وعائلتها. في تلك الليلة، وبينما كان غوغول يرقد في الكوخ إلى جوار ماكسين، يُوقظه صوت الهاتف في المنزل الرئيس الذي كان يرن باستمرار. ينهض غوغول من سريره مقتنعاً أن والديه يهاتفانه ليتمنيا له عيد ميلادٍ سعيداً، ويشعر بالخجل أنهما سيوقظان جيرالد وليديا. يتعثر غوغول فوق المرجة الخضراء، ولكن عندما تلامس قدماه العاريتان العشب البارد، يسود الصمت ويدرك حينها أن رنين الهاتف لم يكن سوى حلمٍ. يعود غوغول للنوم ويحشر جسده بجانب جسد ماكسين الدافئ حيث كانت تغط في النوم، ثم يطوق خصرها النحيل بذراعيه ويُثبِّت ركبتيه خلف ركبتيها. يرى غوغول من النافذة، الفجر يتسلل إلى السماء، في حين كانت حفنةٌ من النجوم ماتزال مرئيةً، وأشكال أشجار الصنوبر والأكواخ المحيطة بالمكان تتضح تدريجياً. يبدأ طائرٌ ما بالتغريد، ثم يتذكر غوغول أن والديه لا يستطيعان الوصول إليه، فهو لم يعطهما

رقم الهاتف حيث يقيم الآن، وآل راتليف ليسوا مدرجين في دليل الهاتف أيضاً. يتذكر كذلك أنه ينعم بالحرية هنا، إلى جانب ماكسين في هذه البرية المنعزلة.

7

تجلس أشيما عند طاولة المطبخ تكتب عبارات تهنئةٍ بعيد الميلاد على بطاقاتٍ بريديةٍ. يبرد كوب شاي الليبتون الذي تحمله في يدها ببطء. ثلاثة دفاتر عناوين مفتوحةٌ أمامها، ويوجد على الطاولة أيضاً ثلاثة أقلام تخطيط وجدتها في درج المكتب في حجرة غوغول، وكومةٌ من بطاقات التهنئة، وقطعة إسفنج صغيرةٍ رطبةٍ لتغلق بها المظاريف. أقدم دفاتر العناوين هذه اشترتها قبل ثمانية وعشرين عاماً من محلٍ ثابتٍ لبيع القرطاسية في ميدان هارفارد، له غلافٌ أسود، خشن الملمس، وصفحاته الزرقاء جُمعت معاً بشريطٍ مطاطي. أما الدفتران الآخران فأكبر حجماً وأجمل، ومايزال اللسان الأبجدي لكلٍّ منهما سليماً. لأحدهما غلافٌ مبطنٌ لونه أخضر داكن، وصفحاته ذات حوافٍ ذهبية اللون. أما الدفتر المفضل لديها، فهو الذي قدمه غوغول لها في عيد ميلادها، وتشبه صفحاته اللوحات المعلقة على جدران متحف الفنون الحديثة. كُتبت أرقام هواتف لم يُجدد أصحابها على الصفحات الأخيرة من كل دفتر، بالإضافة إلى أرقام الخطوط الجوية التي تبدأ بـ 800، والتي سافروا على

متنها من كلكتا وإليها، وأرقام الحجوزات، وبعض الرسومات العابثة بقلم الحبر الجاف، التي رسمتها وهي تنتظر الرد على مكالماتها.

يجعل وجود ثلاثة دفاتر عناوين منفصلة مهمتها الحالية معقدةً نوعاً ما. لا تؤمن أشيما بحذف الأسماء أو دمجها في دفترٍ واحدٍ، وإنما تتفاخر بكل معلومةٍ دونتها في كل دفتر، فالدفاتر الثلاثة، تشكل سجلاً لكل من عرفت عبر السنين، هي وأشوك، من أصدقائهما البنغال؛ كل الأشخاص الذين كانت محظوظةً لمشاطرتهم الأرز في هذا البلد الأجنبي. تتذكر أشيما عندما اشترت أقدم هذه الدفاتر، وكان ذلك عندما وصلت إلى أمريكا مباشرةً، في أولى رحلاتها خارج الشقة دون مرافقة أشوك لها، عندها شعرت أشيما أن الدولارات الخمسة التي كانت في حقيبتها ثروة بالفعل. تتذكر أشيما أنها اختارت الدفتر الأصغر حجماً والأزهد أسلوباً، وقالت: «أرغب في شراء دفتر العناوين هذا رجاءً»، ثم وضعته على منضدة البائع، وقلبها يخفق خوفاً من عدم فهمه كلامها. لم ينظر البائع نحوها، ولم يقل شيئاً سوى ثمن الدفتر. عندما عادت إلى الشقة كتبت أشيما عنوان والديها في كلكتا؛ في شارع أميرست، ووالدي زوجها في ولاية أليبور، ثم عنوان شقتها في سينترال سكوير، حتى لاتنساه، على صفحات الدفتر الفارغة الزرقاء. كتبت كذلك الرقم الفرعي الخاص بأشوك في إم. أي. تي، وأدركت حينها أنها تكتب اسمه للمرة الأولى في حياتها، وكتبت اسمه الأخير كذلك. كان هذا عالمها آنذاك.

صنعت أشيما بطاقات عيد الميلاد بنفسها هذا العام، وقد راودتها هذه الفكرة من كتابٍ وجدته في قسم الحِرف في المكتبة. عادةً تبتاع أشيما

صناديق كاملةً من البطاقات من المتجر المتعدد الأقسام حيث تحصل على خصمٍ مقداره خمسون بالمائة في شهر كانون الثاني، وبحلول الشتاء التالي تنسى أين وضعت الصناديق. تحرص أشيما على اختيار البطاقات التي كُتب عليها «إجازةٌ سعيدةٌ» أو «تهانينا بحلول الموسم الجديد»، لتتحاشى البطاقات التي تحمل صور ملائكةٍ، أومشاهد تصور ميلاد السيد المسيح، وتفضل ما اعتبرتها صوراً علمانيةً بحتةً مثل زلاجةٍ تُجرُّ فوق حقلٍ مغطى بالثلج، أو متزلجين فوق بركةٍ صغيرةٍ متجمدةٍ. تحمل بطاقات هذا العام رسماً صنعته بنفسها لفيلٍ مزينٍ بمجوهراتٍ حمراء وخضراء، ثم ألصقته على ورقٍ فضي. ما الفيل إلا محاكاةٌ لرسمٍ رسمه والدها من أجل غوغول قبل سبعةٍ وعشرين عاماً على هوامش إحدى الرسائل. احتفظت أشيما برسائل والديها على الرف العلوي لخزانتها داخل حقيبةٍ كبيرةٍ بيضاء، اعتادت حملها في السبعينيات، إلى أن انقطعت يد الحقيبة. تفرغ أشيما الحقيبة فوق سريرها مرةً كل عام، وتقرأ الرسائل من جديد مكرسةً يوماً كاملاً لقراءة كلمات والديها، وتبكي مطولاً. تقرأ أشيما من جديد مشاعرهم وقلقهم الذي عبروا عنه بإخلاصٍ عبر رسائل كتبوها كل أسبوع وأرسلوها عبر القارات؛ تفاصيل كل الأخبار التي نقلوها إليها، ولم تكن لها أي علاقةٍ بحياتها في كيمبردج، لكنها، على أي حال، ساعدتها على الصمود آنذاك. تفاجأت أشيما بقدرتها على محاكاة رسم والدها، فهي لم ترسم شيئاً منذ أن كانت طفلةً، فقد افترضت أنها نسيت ما علَّمها إياه والدها وما ورثه ابنها، فيما يتعلق بإمساك القلم بثقةٍ، ورسم خطوط جريئةٍ انسيابية. تقضي أشيما اليوم

أكمله وهي ترسم الفيل على أوراق مختلفة، تلونه، وتشذب أطراف الورقة للحجم المطلوب، ثم تأخذ الرسم إلى مركز النسخ في الجامعة. قادت أشيما السيارة بنفسها طوال المساء، متنقلةً بين متاجر مختلفةٍ في البلدة، بحثاً عن مغلفاتٍ حمراء تتسع للبطاقات التي أعدتها.

تجد أشيما وقتاً كافياً لإنجاز مثل هذه الأعمال، كونها تعيش وحدها حالياً. لايوجد الآن ولأسابيع، من تطعمه أو تسليه أو تتحدث إليه. الآن، تعيش أشيما تجربة العزلة في عمر الثامنة والأربعين؛ تلك التجربة التي يعرفها زوجها وابنها وابنتها، ويزعمون أنهم لا يمانعون في خوضها. «العزلة ليست أمراً صعباً»، يخبرها أبناؤها. «يجب أن يعيش كل شخصٍ وحده في مرحلةٍ ما». لكن أشيما تشعر أنها أكبر من أن تتعلم هذه المهارة. تكره أشيما العودة في المساء إلى منزلٍ مظلمٍ فارغٍ، والنوم على جانبٍ من السرير، والاستيقاظ على الجانب الآخر. كانت أشيما في بادئ الأمر تعمل بجدٍ، فمثلاً تجدها تنظف خزائن الملابس، وتفرك خزائن المطبخ من الداخل، وتتخلص من بقايا الطعام الموجودة على أرفف الثلاجة، وتنظف الجوارير المخصصة للخضراوات. وعلى الرغم من وجود نظام الأمان في المنزل، تجفل أشيما منتصف الليل معتقدةً أنها سمعت صوتاً في مكانٍ ما في المنزل، أو صوت نقرٍ سريعٍ يجري في الجدران عندما تسري الحرارة في الأنابيب. لليالٍ عديدة، تتفقد أشيما باستمرار، مراراً وتكراراً، أقفال النوافذ لتتأكد أنها محكمة الإغلاق. في إحدى الليالي استيقظت أشيما على صوت طرقٍ متكرر على الباب الأمامي، فهاتفت أشوك في أوهايو. وبينما تضع الهاتف اللاسلكي على أذنها، تتوجه أشيما للطابق

السفلي وتنظر من العين السحرية. وعندما فتحت الباب في نهاية المطاف، وجدت أن باب المنخل هومصدر الصوت، إذ نسيت أن تقفل المزلاج، فكان الباب يتأرجح بعنفٍ بسبب الرياح.

الآن تغسل أشيما ملابسها مرةً في الشهر. لم تعد تنفض الغبار أو حتى تلاحظ تراكمه. تتناول الطعام فوق الأريكة، أمام التلفاز، وهو مجرد وجباتٍ بسيطةٍ تتكون من خبز التوست وقليلٍ من الزبد ويخنة الحبوب المجففة التي تعدها في قِدرٍ صغير للطبخ يكفيها لأسبوعٍ كامل، وأحياناً تعد معها بعض الأومليت إن كان لديها الطاقة الكافية لإعداده. تتناول أشيما الطعام أحياناً بطريقة غوغول وسونيا عندما يزوران منزل والديهما، إذ يقفان أمام الثلاجة، ويتناولان الطعام مباشرةً دون تكبد عناء تسخينه أو حتى سكبه في طبقٍ ما. أصبح شعر أشيما خفيفاً وأشيب، ومازالت تفرقه من المنتصف، لكنها تسرحه على هيئة كعكة بدلاً من الضفيرة، كما اعتادت في الماضي. باتت أشيما ترتدي نظاراتٍ ثنائية البؤرة مؤخراً، تتدلى من سلسلةٍ حول رقبتها إلى طيات ساريها. تعمل أشيما في المكتبة العامة بعد الظهر ثلاثة أيامٍ في الأسبوع، وسبتين في الشهر الواحد، تماماً كما فعلت سونيا عندما كانت في الثانوية. إنها الوظيفة الأولى لها في أمريكا، ووظيفتها قبل زواجها أيضاً. تُجيِّر أشيما شيكاتها الزهيدة باسم أشوك الذي يودعها في حسابهما المشترك. تعمل أشيما في المكتبة لقضاء وقت فراغها. اعتادت أشيما ارتياد المكتبة بشكلٍ منتظمٍ لسنواتٍ عدة، فكانت تصحب أطفالها في الماضي إلى الساعة المخصصة لقراءة قصةٍ ما، وتتصفح مجلاتٍ وكتباً تتعلق بأشكال غُرَز نسج الصوف، وفي أحد الأيام

سألتها السيدة باكستون- مديرة المكتبة- إن كانت مهتمةً بعملٍ جزئي في المكتبة. في بادئ الأمر لم تتجاوز مهامها تلك التي أوكلت لطالبات الثانوية، والتي تتلخص في إعادة الكتب المستعارة عند إرجاعها إلى مكانها الصحيح، والتأكد أن أجزاء كل رفٍ مرتبةٌ أبجدياً بدقةٍ، وأحياناً نفض الغبار بمنفضة الريش عن كعوب الكتب. رممت أشيما الكتب القديمة، ووضعت أغلفةً لحماية الكتب الجديدة، وهي، بالإضافة إلى ذلك، تصنف كل جديدٍ في واجهة العرض شهرياً حسب الموضوع، كالبستنة، وسير الرؤساء، والشعر والتاريخ الإفريقي- الأمريكي. بدأت أشيما مؤخراً العمل في المكتب الرئيس حيث ترحب بالزوار الدائمين، كلاً باسمه، وهم يدخلون إلى المكتبة، وتملأ النماذج الخاصة بالاستعارة من المكتبات الأخرى عبر المكتبة المحلية. كانت أشيما ودودةً مع النساء الأخريات اللواتي يعملن في المكتبة، واللائي كان أولادهن، مثل أولاد أشيما، بالغين. و يعيش عددٌ منهن، فضلاً عن ذلك، وحدهن، على غرار أشيما الآن، لكنهن مطلقات. إنهن أول صديقاتٍ أمريكياتٍ حظيت بهن أشيما في حياتها كلها. تجلس النساء في الحجرة المخصصة للموظفين لاحتساء الشاي، ويثرثرن حول رواد المكتبة المنتظمين، ومخاطر المواعدة في منتصف العمر. بين حينٍ وآخر، تدعو أشيما صديقاتها من المكتبة إلى منزلها لتناول الغداء، ويخرجن للتسوق في عطلة نهاية الأسبوع في متاجر البيع بالتجزئة.

يأتي أشوك للمنزل مرةً كل ثلاثة أسابيع. يستقل سيارة أجرةٍ إلى المنزل، فعلى الرغم من أن أشيما تقود السيارة حول المدينة، لكنها ليست

على استعدادٍ لقيادة السيارة على الطريق السريع لتصل إلى مطار لوغان. عندما يكون زوجها في المنزل تتسوق أشيما وتطهو الطعام كما اعتادت في السابق. يلبيان معاً دعوة الأصدقاء لتناول العشاء، ويقود أشوك السيارة عبر الطريق السريع، لكن لا يرافقهما غوغول وسونيا اللذان لم يعودا طفلين، إذ يدرك أشوك وأشيما بحزنٍ أنهما لن يجلسا مطلقاً في المقعد الخلفي لمرافقتهما وقد أصبحا بالغين. خلال زيارته للمنزل يُبقي أشوك ملابسه داخل حقيبة سفره وأدوات الحلاقة الخاصة به داخل حقيبةٍ صغيرةٍ يضعها بجوار المغسلة. يقوم أشوك بالأعمال التي لا تعرف أشيما بعدُ كيفية القيام بها. فعلى سبيل المثال، يدفع أشوك الفواتير، ويجمع العشب بالمدمة عن المرجة الأمامية، ويملأ سيارتها بالوقود من محطة الخدمة الذاتية. كانت زياراته أقصر من أن تُحدث تغييراً، ويبدو الأمر كأنه ساعات قليلة يحل بعدها يوم الأحد، لتعود بمفردها من جديد. عندما ينفصلان عن بعضهما يتحدثان عبر الهاتف كل ليلةٍ عند الساعة الثامنة. أحياناً لا تجد أشيما ما تفعله بعد تناولها العشاء، فتجد نفسها في السرير عند تلك الساعة وقد ارتدت رداء النوم، وتشاهد جهاز التلفاز الصغير الأسود والأبيض الذي مازالا يمتلكانه منذ عقود، والذي وضعته عند جانبها من السرير، تختفي صورته تدريجياً، والإطار الأسود يحيط بالشاشة دوماً. إذا لم تجد شيئاً لائقاً مهذباً تشاهده، فإنها تتصفح بعض الكتب التي أحضرتها من المكتبة، والتي تشغل الآن مكان أشوك على السرير.

إنها الثالثة بعد الظهر. يبدو أن حرارة الشمس قد استُنزِفت وبدأت

تتلاشى من السماء. كان أحد تلك الأيام التي يبدو أنها تنتهي بعد دقائق من بدئها، مقاومةً نية أشيما أن تقضيها في شيء مثمرٍ، فإذا بظلام المساء الحتمي يشتت انتباهها. إنه أحد تلك الأيام التي تتوق فيها أشيما إلى تناول العشاء عند الخامسة. لطالما كرهت أشيما هذا الجانب من الحياة؛ الأيام الأولى الباردة القصيرة من فصل الشتاء، عندما يحل الظلام بعد الظهيرة بساعاتٍ قليلةٍ. لا تتوقع أشيما الكثير من هذه الأيام، بل تنتظر، ببساطةٍ، انقضاءها. تستسلم أشيما في نهاية المطاف، فتسخن عشاءها بسرعةٍ، وترتدي رداء النوم، وتُشغل البطانية الكهربائية التي تفترش السرير. ترتشف شايها الذي أصبح بارداً للغاية، فتنهض لتملأ إبريق الشاي من جديدٍ صانعة لنفسها كوباً آخر. ذبلت نباتات البتونيا التي زرعتها في الحوض الملحق بالنافذة في عطلة يوم الذكرى[1]- يوم اجتمع غوغول وسونيا معاً في المنزل- وتحولت إلى سويقاتٍ بنية مرتجفةٍ، وكانت تنوي طوال الأسابيع الماضية أن تجتثها من جذورها. سيؤدي أشوك هذه المهمة، هكذا تفكر أشيما، وعندما يرن جرس الهاتف ويقول زوجها مرحباً، كان مطلبها هذا أول ما نطقت به. تستطيع أشيما سماع ضجةٍ عند أشوك، فتسأله قائلةً: «هل تشاهد التلفاز»؟

- «أنا في المستشفى»، يجيب أشوك.

- «ماذا حدث»؟ تتساءل أشيما مذعورةً، وتطفئ الموقد من تحت إبريق تسخين الماء الذي بدأ يُصفِّر، وتشعر بضيقٍ في صدرها،

(1) يوم الذكرى (Memorial Day) هو يوم عطلةٍ فدراليةٍ في الولايات المتحدة الأمريكية، يُحتفل به في آخر يوم اثنين من شهر مايو، لتكريم الجنود الأمريكيين، الذين قتلوا في ساحات المعارك. (المترجم)

وتخشى أن أشوك قد تعرض لحادثٍ ما.

- «إن معدتي تؤلمني منذ الصباح»، يقول أشوك لأشيما إن السبب قد يعزى لشيء تناوله، فلقد دعاه بعض الطلبة البنغال الذين التقاهم في كليفلاند، والذين مازالوا، على ما يبدو، يتعلمون كيفية الطهي، للعشاء ليلة أمس، حيث تناول طبقاً مُريباً يُفترض أنه برياني بالدجاج. تتنفس أشيما الصعداء، فتزفر بصوتٍ مسموعٍ، وقد شعرت بالارتياح أن الأمر ليس خطيراً. «إذن، تناول قرصاً من ألكاسيلتزر المضاد للحموضة»، تقول أشيما.
- «لقد فعلت لكنه لم يساعدني كثيراً. جئت إلى غرفة الطوارئ، لأن جميع عيادات الأطباء مغلقة اليوم».
- «أنت تجهد نفسك في العمل. أنت لم تعد طالباً، أليس كذلك؟ أتمنى أنك لا تعاني من قرحة»! ترد أشيما.
- «لا. أتمنى ذلك أيضاً».
- «من أوصلك إلى المستشفى»؟
- «لا أحد. أنا هنا وحدي. الأمر ليس سيئاً إلى هذا الحد».

تُشفق أشيما على أشوك لأنه قاد سيارته وحده إلى المستشفى. فجأةً تشعر أنها تشتاق إليه، وتتذكر فترات بعد الظهر قبل سنواتٍ عندما انتقلا للعيش في هذه البلدة، وكان أشوك يفاجئها، فيعود من الجامعة إلى البيت منتصف النهار، فيتلذذان بتناول غداءٍ بنغاليٍّ معتبر، عوضاً عن الشطائر التي اعتادا تناولها آنذاك. فيسلقان الأرز، ويسخنان الطعام المتبقي من الليلة السابقة، ويملآن معدتيهما، ويجلسان إلى مائدة الطعام،

ويتحدثان، ثم يشعران بالنعاس وقد أُتخما، بعد أن غدت راحتا يديهما مصفرتين وجافتين.

- «ماذا قال الطبيب»؟ تسأل أشيما أشوك الآن.
- «لم أره بعد. يبدو أن عليَّ الانتظار طويلاً. سأطلب منكِ معروفاً».
- «ماذا»؟
- «هاتفي الطبيب ساندلر غداً. على أي حال، اقترب موعد الفحص الطبي الذي أجريه عادةً عنده. احجزي لي موعداً السبت القادم، وتأكدي إن كانت عيادته مفتوحةً في ذلك اليوم».
- «حسناً».
- «لا تقلقي، أنا أشعر بالتحسن الآن. سأهاتفك عندما أعود إلى المنزل».

«حسناً». تغلق أشيما الهاتف ثم تُعِدُّ لنفسها كوباً من الشايِ، وتعود إلى الطاولة. تكتب أشيما على أحد المظاريف الحمراء: «هاتفي الطبيب ساندلر»، وتسنده إلى جانب وعائي الملح والفلفل. ترتشف الشاي، وتجفل فجأةً عندما ترى طبقةً رقيقةً من سائل غسل الصحون على هذا الجانب من حافة الكوب، وتوبخ نفسها لإهمالها غسل الكوب جيداً. تتساءل أشيما إن كان يتوجب عليها مهاتفة غوغول وسونيا لتخبرهما أن والدهما في المستشفى. لكنها سرعان ما تُذكِّر نفسها أن أشوك ليس نزيلاً في المستشفى، عملياً، وأنه لو كان هذا اليوم أي يومٍ آخر من أيام الأسبوع، لكان أشوك الآن في عيادة الطبيب يخضع لفحص طبي روتيني. لقد كان صوته طبيعياً، وإن بدا عليه التعب قليلاً، ربما،

ولكنه لا يتألم.

وهكذا، تعود أشيما لمشروعها. تكتب أشيما أسماءهم جميعاً؛ اسم زوجها الذي لم تنطقه في حضوره مطلقاً، ثم اسمها، ويليه اسما ولديها غوغول وسونيا، مرةً تلو الأخرى عند نهاية كل بطاقة. ترفض أشيما أن تستبدل غوغول بنيكيل، على الرغم من أنها تعلم أنه يفضل ذلك. لا ينادي الآباء أبناءهم بأسمائهم الرسمية. تلك الأسماء لا مكان لها داخل العائلة. تكتب أشيما الأسماء الواحد تحت الآخر، فقد رتبتها تنازلياً حسب العمر: أشوك، وأشيما، وغوغول وأخيراً سونيا. تقرر أشيما أن ترسل بطاقةً لكل واحدٍ منهم، وتكتب أسماءهم أعلى البطاقة: واحدة لزوجها ترسلها إلى شقته في كليفلاند، وأخرى لغوغول في نيويورك وتضيف أشيما اسم ماكسين أيضاً. وعلى الرغم أن أشيما كانت مهذبةً معها عندما أحضرها غوغول إلى المنزل، فهي لا ترغب أن تصبح ماكسين كنتها. تفزع أشيما عندما خاطبتها ماكسين باسمها، وكذلك فعلت مع أشوك. على أي حال، إن غوغول يواعدها منذ أكثر من عام. تدرك أشيما الآن أن غوغول يقضي لياليه مع ماكسين، وينام إلى جوارها تحت السقف ذاته حيث ينام والداها أيضاً، وهذا تحديداً ما ترفض أشيما أن تخبر به أصدقاءها البنغال. تملك أشيما رقم هاتف المنزل، ولقد هاتفته مرةً، ولكنها عندما سمعت صوت امرأةٍ، وكانت بالتأكيد والدة ماكسين، لم تترك أي رسالة. تعلم أشيما أيضاً أن عليها أن تتقبل هذه العلاقة. أخبرتها سونيا بذلك، وكذلك فعلت صديقاتها في المكتبة. ترسل أشيما أيضاً بطاقةً لسونيا ورفيقتيها في السكن في سان

فرانسيسكو. تتطلع أشيما لعيد الميلاد حين سيجتمع أربعتهم. مازالت تشعر بالانزعاج لأن غوغول وسونيا لم يتمكنا من الحضور إلى المنزل في عيد الشكر هذا العام. كان جواب سونيا، التي تعمل في وكالةٍ بيئيةٍ، وتدرس لتتقدم لامتحان القبول في كلية الحقوق، أن المسافة بعيدةٌ جداً. أما غوغول الذي اضطر للعمل في اليوم التالي لعيد الشكر بسبب مشروعٍ ما كلفته به الشركة، فقضى العطلة مع عائلة ماكسين في نيويورك. ولأن أشيما حُرمت من صحبة والديها عندما انتقلت للعيش في أمريكا، فهي تجد استقلال ولديها وحاجتهما إلى الحفاظ على مسافةٍ بينها وبينهما أمراً لن تفهمه أبداً. لم تجادلهما مطلقاً. عدم المجادلة بات أمراً عليها تعلمه أيضاً. تذمرت أشيما لصديقاتها في المكتبة، أن على الوالدين في نهاية المطاف أن يتوقفا عن افتراض أن أبناءهم يرغبون بصدقٍ في المجيء إلى المنزل في العطلات، وعندها أخبرتها صديقاتها أنه أمر حتمي. لذلك تقضي أشيما عيد الشكر مع أشوك وحدهما، ولأول مرةٍ منذ سنوات لا يهتمان بشراء ديكٍ رومي. تكتب أشيما أسفل البطاقتين اللتين تزمع إرسالهما إلى غوغول وسونيا عبارة: «مع حبي، ماما». أما تلك التي تنوي إرسالها لأشوك فتكتب «أشيما» فقط!

تتجاهل أشيما صفحتين تمتلئان بعناوين خاصةٍ بابنتها وابنها. بدا الأمر وكأنها قد أنجبت عابريْ سبيلٍ. إن أشيما الآن الحارس الأمين على كل هذه الأسماء وأرقام الهواتف التي حفظتها في الماضي عن ظهر قلب، والتي ما عاد ابناها يتذكرانها. تفكر أشيما في الشقق المعتمة الحارة التي سكنها غوغول عبر هذه السنين، بدءاً بسكن الطلبة في نيوهفن،

وشقته الآن في مانهاتن ذات المشعاع (شبكة التدفئة المركزية)، الذي تقشَّر سطحه، والجدران المتشققة. فعلت سونيا مثل أخيها فسكنت حجرةً جديدةً كل عام، منذ أن أصبحت في الثامنة عشرة من عمرها، وفي كل مرةٍ ثمة رفيقاتٌ جديداتٌ في السكن، كان يتوجب على أشيما أن تسجل أسماءهن حتى تتذكرهن عندما تهاتف ابنتها. تفكر أشيما في شقة زوجها في كليفلاند، وكيف ساعدته عندما زارته في إحدى عطلات نهاية الأسبوع على الاستقرار فيها، فابتاعت له قدوراً وأطباقاً زهيدةً، كتلك التي كانت تستخدمها عندما عاشت في كيمبردج، على النقيض من القدور والأطباق البراقة الزاهية من متجر ويليامز سونوما للأدوات المنزلية، التي يهديها إياها ولداها هذه الأيام. ابتاعت أشيما كذلك ملاءاتٍ ومناشف وبعض الستائر الشفافة وكيساً كبيراً من الأرز. عاشت أشيما في خمسة منازل فقط طوال حياتها: شقة والديها في كلكتا، ومنزل والدي أشوك الذي سكنته لشهرٍ واحدٍ فقط، والمنزل الذي استأجراه في كيمبردج حيث سكن آل مونتغيمري في الطابق العلوي، والشقة التي وفرتها الجامعة لهما داخل الحرم الجامعي، وأخيراً المنزل الذي يمتلكانه الآن. حياةٌ كاملةٌ في خمسة منازل.

من حينٍ إلى آخر، تنظر أشيما من النافذة نحو السماء التي تلونت باللون الأرجواني الفاتح مطلع هذا المساء، وتزينت بخطَّين متوازيين ورديي اللون يزيدانها إشراقاً وحيوية، ثم تنظر نحو الهاتف المثبت على الجدار، وتتمنى لو أنها تسمع صوت رنينه. ستبتاع أشيما هاتفاً خليوياً لتهديه لأشوك في عيد الميلاد. تتابع أشيما العمل في هذا المنزل الساكن

تحت ضوءٍ خافتٍ، ولا تأبه بالراحة على الرغم من الألم الذي تشعر به في رسغها، ولا تزعج نفسها بالنهوض لتشعل المصباح الموجود فوق الطاولة، أو حتى الأضواء الخارجية التي تنير الساحة المكسوة بالعشب، أو تلك الموجودة في الحجرات، حتى تتمكن من سماع رنين الهاتف.

تجيب أشيما قبل أن يكتمل رنين الهاتف، لكن المتصل لم يكن سوى أحد المُسوِّقين عن بُعد؛ إنه شخصٌ مسكينٌ اضطر إلى العمل في عطلة نهاية الأسبوع، يسأل بصوتٍ يخلو من الحماس إن كانت السيدة آآآآ...

«غانغولي»، فتجيب أشيما بصوتٍ حادٍ قبل أن تغلق الهاتف.

عند الشفق، يتحول لون السماء إلى أزرق باهتٍ، لكنه كثيفٌ، فتبدو الأشجار والمرجة وأشكال المنازل المجاورة قاتمةً للغاية فوق خلفيةٍ باهتةٍ، تماماً مثل صورةٍ ظِلِّية. إنها الخامسة فجراً ولم يتصل زوجها بعد. تهاتفه أشيما في شقته لكنه لا يجيب. تعاود الاتصال بعد عشر دقائق، ثم تعاود الكرَّة بعد عشر دقائق إضافية. إنه صوتها على جهاز الرد الآلي حيث تذكر رقم الهاتف، ثم تطلب من المتصل أن يترك رسالته. تستمع أشيما في كل مرةٍ تهاتف فيها أشوك إلى النغمة، لكنها لا تترك أي رسالةٍ. تفكر أشيما في الأماكن التي يُحتمل أن يكون قد توقف أشوك عندها في طريق عودته إلى المنزل: الصيدلية ليشتري الدواء الذي وصفه له الطبيب، والسوبرماكت ليبتاع ما يأكله. بحلول الساعة السادسة ما عادت أشيما قادرةً على إلهاء نفسها بإغلاق المظاريف وإلصاق الطوابع البريدية عليها؛ تلك المظاريف التي قضت اليوم كله في كتابة عناوين أصحابهاعليها. تهاتف أشيما خدمة دليل الهاتف الصوتي، وتطلب

تحويلها إلى موظف البدالة في كليفلاند، ثم تهاتف المستشفى التي أخبرها أشوك أنه ذهب إليها. تطلب أشيما قسم الطوارئ ويتم تحويلها من قسمٍ إلى آخر في المستشفى. تخبر أشيما كل من يطلب منها الانتظار: «إنه هناك يجري فحوصاتٍ فقط». حتى تلك اللحظة تهجت أشيما الاسم الأخير لزوجها آلاف المرات: «غين مثل غرين»، و«نون مثل نابكن»، وهكذا. تنتظر أشيما حتى تكاد تغلق الهاتف، وتتساءل في الوقت نفسه إن كان زوجها يحاول الآن مهاتفتها من المنزل، فتندم لأنها لا تمتلك خدمة نداء الانتظار[1]. يتم قطع الاتصال من الطرف الآخر، فتهاتف أشيما المستشفى مرةً أخرى. «غانغولي»، تقول أشيما. طُلب منها الانتظار من جديد. تجيب امرأةٌ بدا من صوتها أنها ربما تناهز سونيا عمراً. «نعم، أعتذر لأنك اضطررت إلى الانتظار. من المتحدث، رجاءً»؟

- «أشيما غانغولي؛ زوجة أشوك غانغولي. من يتحدث إليَّ، رجاءً»؟
- «فهمت. أعتذر سيدتي. أنا الطبيبة المتدربة التي فحصت زوجك».
- «لقد انتظرتُ نصف ساعةٍ تقريباً. هل مايزال في المستشفى أم لعله غادرها»؟
- «سيدتي، أنا آسفة»، تعتذر الطبيبة الشابة مرةً أخرى، «لقد حاولنا الوصول إليك». تخبرها الطبيبة أن المريض أشوك غانغولي؛ زوجها، قد فارق الحياة (انتهت صلاحيته!) !expired.
- «انتهت صلاحيته» عبارة تُستخدم في وصف بطاقات الإعارة في المكتبة أو اشتراكٍ في مجلةٍ ما. لبضع ثوانٍ، لا تُؤثر الكلمة في أشيما.

---

(1) خدمةٌ هاتفيةٌ تنبه المستخدم إلى وجود مكالمةٍ أخرى في الانتظار. (المترجم)

- «لا، لا. لا بد أنك مخطئة»، ترد أشيها بهدوءٍ، تهز رأسها، وثمة ضحكةٌ مقتضبةٌ تصدر من حنجرتها رغماً عنها. «لم تكن حالة زوجي طارئةً. كان يعاني من ألمٍ في معدته، ليس إلا»!

- «أعبر عن أسفي سيدة... (غانغولي)؟ أليس كذلك؟»".

تستمع أشيها للطبيبة التي تخبرها أن أشوك تعرض لأزمةٍ قلبيةٍ حادة، وأن جميع محاولات إنعاشه فشلت، ثم تسألها إن كانت ترغب بالتبرع بأيٍ من أعضاء زوجها، وإن كان يوجد أي شخصٍ في كليفلاند للتعرف على الجثة. وعوضاً عن تقديم إجاباتٍ، تُنهي أشيها المكالمة ومازالت الطبيبة تتحدث، فتضع السماعة في مكانها بقوةٍ وتُبقي يدها فوقها لدقيقةٍ كاملةٍ وكأنها أرادت أن تكبح الكلمات التي سمعتها للتو. تحدق أشيها في كوب الشاي الفارغ الموجود أمامها، ثم في إبريق تسخين الماء الموضوع فوق الموقد، الذي اضطرت لإطفائه حتى تتمكن من سماع صوت زوجها قبل بضع ساعاتٍ. ترتجف أشيها بقوةٍ، وتشعر فجأةً أن حرارة المنزل انخفضت عشرين درجةً، أقل مما هي عليه في الواقع. تشد ساريها بقوةٍ حول كتفيها مثل شالٍ. تنهض أشيها وتمشي بانتظامٍ عبر حجرات المنزل وتشعل كل المصابيح داخلها، وعمود النور المطل على المرجة في الخارج، والمصباح الكشاف في الكراج، وكأنها ستستقبل هي وأشوك ضيوفاً. تعود أشيها إلى المطبخ فتحدق في كومة البطاقات التي وضعتها على الطاولة داخل مظاريف حمراء شعرت بسعادةٍ غامرة عندما ابتاعتها، وكان معظمها جاهزاً لإرساله بالبريد. دوَّنت أشيها اسم زوجها عليها جميعاً. تفتح أشيها دفتر العناوين الخاص بها، عاجزة فجأةً عن تذكر رقم

هاتف ابنها، الذي كانت تحفظه عن ظهر قلب. ما من مجيبٍ في مكتب غوغول أو شقته، لذلك تحاول الاتصال برقم ماكسين الذي كتبته من قبل. كانت أشيما قد دونت الرقم، إلى جانب أرقام أخرى، تحت الحرف «غ»، الذي يرمز لغاغولي وغوغول في آنٍ معاً.

تعود سونيا إلى المنزل قادمةً من سان فرانسيسكو لتكون إلى جوار والدتها. أما غوغول فيسافر جواً من لاغوارديا إلى كليفلاند وحده. يغادر في وقتٍ مبكرٍ من صباح اليوم التالي على متن أول طائرةٍ متوافرةٍ متجهةٍ إلى كليفلاند. يحدق غوغول عبر نافذة الطائرة في اليابسة من تحته، في البقع المتفرقة المغطاة بالثلوج في ميدويست، وفي الأنهار المتعرجة التي تلألأت تحت أشعة الشمس. ينعكس ظل الطائرة المتغير على الأرض. كانت الطائرة فارغةً تقريباً، بعض الركاب من الرجال والنساء في الدرجة السياحية؛ أشخاصٌ اعتادوا مثل هذه الرحلات، والسفر في مثل هذه الساعات، يعملون على حواسيبهم المحمولة أو يقرؤون الصحيفة اليومية. لم يعتد غوغول مثل هذه الرحلات الوضيعة، والمقصورة الضيقة، وحمل حقيبةٍ واحدةٍ صغيرةٍ للغاية بحيث يمكن وضعها في الخزانة المخصصة لذلك، التي توجد فوق رأسه. عرضت عليه ماكسين أن ترافقه لكنه رفض. لا يرغب أن يرافقه شخصٌ لا يكاد يعرف والده أو قابله مرةً واحدةً فقط. رافقته ماكسين مشياً على الأقدام عند الفجر، إلى الجادة التاسعة. لم تُسرِّح شعرها والنعاس بدا واضحاً على وجهها وقد ارتدت معطفها وحذاءها فوق المنامة. سحب غوغول نقوداً من الصراف الآلي، ثم نادى على سيارة أجرة كانت تعبر الشارع. كانت

معظم المدينة، بما فيها جيرالد وليديا، مازالت تغط في النوم.

في الليلة السابقة، رافق غوغول ماكسين إلى حفلة توقيع كتابٍ لأحد أصدقاء ماكسين من المؤلفين، ثم ذهبا بعد ذلك مع مجموعةٍ صغيرةٍ من الأصدقاء لتناول طعام العشاء. بحلول العاشرة تقريباً عادا إلى منزل والديها كالمعتاد، منهكيْن، وكان الوقت قد تأخر جداً، وفي طريقهما إلى الطابق العلوي، توقفا ليتمنيا لجيرالد وليديا ليلةً طيبةً حيث جلس الأخيران على الأريكة، وتدثرا ببطانيةٍ وهما يرتشفان النبيذ بعد وجبة العشاء، وأخذا يشاهدان فيلم فيديو فرنسياً. كانت المصابيح مطفأةً، لكن غوغول تمكن بفضل وهج شاشة التلفاز أن يرى ليديا تسند رأسها على كتف جيرالد، وقد وضع كلاهما قدميه فوق حافة منضدة القهوة الصغيرة. يبعد جيرالد ناظريه عن الشاشة ليلمح غوغول، ثم يقول: «آه، نيك. اتصلت والدتك». «مرتين»، تضيف ليديا. يشعر غوغول بالإحراج، ثم يضيف كلاهما أنها لم تترك أي رسالةٍ. كانت والدته تهاتفه أكثر من السابق هذه الأيام، لأنها تعيش وحدها الآن. كل يوم؛ إذ يبدو أنها كانت في حاجةٍ إلى سماع صوت ابنيها. كانت تهاتفه في العمل أو تترك له رسائل على جهاز الرد الآلي في شقته، ويتلقاها بعد مضي أيام. قرر غوغول أنه مهما كان الأمر يُمكنه الانتظار حتى الصباح. وبينما يحوِّط خصر ماكسين بذراعيه يقول غوغول: «شكراً جيرالد»، ثم يغادر الحجرة. لكن الهاتف يرن من جديد. «نعم»، يقول جيرالد، ثم يوجه حديثه لغوغول: «إنها شقيقتك هذه المرة».

يستقل غوغول سيارة أجرةٍ من المطار إلى المستشفى، وتصدمه

برودة الجو في أوهايو التي كانت أبرد بكثير من نيويورك، وطبقات الثلج الكثيفة التي تكسو الأرض. المستشفى مجمعٌ مبنيٌّ من حجارةٍ قشدية اللون على قمة تلةٍ ليست شديدة الانحدار. يدخل غوغول إلى قسم الطوارئ ذاته، الذي دخله والده في اليوم السابق. يقوم غوغول بتزويد الموظف باسم والده، فيخبره الأول أن يتوجه بالمصعد إلى الطابق السادس، ثم ينتظر غوغول في حجرةٍ فارغةٍ حيث كانت الجدران مطليةً باللون الأزرق الداكن. ينظر غوغول إلى ساعة الحائط التي تبرعت بها عائلة شخصٍ ما اسمه يوجين آرثر، بالإضافة إلى بقية الأثاث الموجود في الحجرة. لا توجد أي مجلاتٍ في حجرة الانتظار تلك أو جهاز تلفازٍ، بل مجموعة من المقاعد المجنحة المتشابهة، وُضِعت جميعها في صفٍ واحدٍ، وكانت ملاصقةً للجدران، ونافورة ماءٍ في إحدى زوايا الحجرة فقط. يرى غوغول عبر الباب الزجاجي رواقاً أبيض، وبعض الأسرَّة الفارغة. لم يكن المكان مضطرباً، فما من أطباء أو ممرضات يهرعون في الممرات. يراقب غوغول المصعد؛ يتوقع أن يطل عليه والده ليأخذه، وبإيماءةٍ بسيطةٍ منه يشير إلى أن وقت مغادرة المكان قد حان. عندما يفتح المصعد أبوابه يرى غوغول عربةً تتكدس داخلها صواني الإفطار وقد غُطيت محتوياتها فبدت مثل القبة، بالإضافة إلى عبواتٍ كرتونية صغيرة من الحليب. يشعر غوغول بالجوع فجأةً، ويتمنى لو أنه احتفظ بقطعة الخبز المدورة التي ناولته إياها المضيفة على الطائرة. كانت آخر وجبةٍ تناولها غوغول هي وجبة العشاء في الليلة السابقة، وقد تناولها في ذلك المطعم البهيج الصاخب في الحي الصيني. انتظر غوغول وماكسين وأصدقاؤها

ساعةً كاملةً على الرصيف ليحصلوا على مائدةٍ داخل المطعم، ثم، في نهاية المطاف، تناولوا الحبار المملح والمطيب بالثوم المعمر والبطلينوس مع صلصلة الفاصوليا الداكنة التي تفضلها ماكسين. شرب الجميع كفايتهم من النبيذ في حفلة توقيع الكتاب، لذلك ارتشفوا كؤوس البيرة وأكواب شاي الياسمين البارد ببطء. وكان والده، طوال ذلك الوقت، ميتاً في المستشفى.

داخل حجرة الانتظار، يظهر رجلٌ في منتصف العمر، قصير القامة، حسن المظهر، له لحيةٌ اختلط فيها الشعر الأشيب بالأسود. يرتدي الرجل معطفاً أبيض فوق ملابسه، يمتد إلى ركبتيه، ويحمل لوحة الملاحظات الخاصة بالمرضى. «مرحباً»، يقول الرجل مبتسماً بعطف.

- «هل أنت- هل كنت طبيب والدي»؟

- «لا، أنا السيد دافينبورت، وسأصطحبك إلى الطابق السفلي».

يرافق السيد دافينبورت غوغول عبر مصعدٍ مخصصٍ للأطباء والمرضى إلى الدور الأدنى في مبنى المستشفى. يقف السيد دافينبورت إلى جانب غوغول في المشرحة، ويُزيل الملاءة عن وجه أشوك ليتعرف غوغول على جثة والده. كان وجه والده شاحباً منتفخاً على نحوٍ غريبٍ. فقدت شفتاه لونهما تقريباً، لكنهما تعبران عن كبرياءٍ مميز. يدرك غوغول أن والده يرقد عارياً تحت الملاءة البيضاء، فيشعر بالخجل، مشيحاً بوجهه عن جثة والده للحظة. يعاود غوغول النظر إلى وجه والده، لكنه يتفحصه عن قُرب هذه المرة، ومايزال يعتقد أنه ربما وقع خطأٌ ما، وأن تربيتةً على كتف والده ستُوقظه. الشيء الوحيد الذي كان مألوفاً

لغوغول هو شارب والده، والشعر الزائد على خديه، وذقنه التي حلقها قبل أقل من أربعٍ وعشرين ساعة على ما يبدو.

ينظر غوغول إلى السيد دافينبورت، ثم يقول: «إن نظاراته مفقودة».

لا يجيب السيد دافينبورت، لكنه بعد بضع دقائق يقول: «سيد غوغول، هل هذه جثة والدك»؟

«نعم، إنه والدي»، يصغي غوغول لنفسه وهو ينطق بهذه الكلمات. بعد لحظاتٍ يدرك غوغول أن السيد دافينبورت قد أحضر له كرسياً ليجلس عليه، وأنه تنحى جانباً. يجلس غوغول. يتساءل إن كان يجب عليه أن يلمس وجه والده؛ أن يلمس جبهته كما اعتاد والده أن يفعل عندما يرقد هو مريضاً، ليتحقق إن كان محموماً. لكنه يشعر بالذعر، فيجلس على كرسيه ساكناً. في نهاية المطاف، يرتب غوغول شارب والده بسبابته، ثم حاجبيه وبعض شعر رأسه؛ هذه الأجزاء من جسد والده، التي يعلم غوغول أنها مازالت تنبض فيها الحياة بصمتٍ.

يسأل السيد دافينبورت غوغول إن كان مستعداً لمغادرة الحجرة، ثم يغطي الأول وجه أشوك بالملاءة من جديدٍ، ويقود غوغول خارج المشرحة. يصل الطبيب المقيم ويشرح لغوغول بدقةٍ كيف تعرض والده للأزمة القلبية ومتى، ويفسر له لِمَ عجز الأطباء عن فِعل أي شيء. يستلم غوغول الملابس التي كان والده يرتديها، وهي بنطالٌ فضفاضٌ لونه أزرق نيلي، وقميصٌ أبيض مقلمٌ باللون البني، وكنزةٌ صوفيةٌ رمادية اللون دون أكمام، ماركة إل إل بين (L. L. Bean)، أهداها له غوغول وسونيا في عيد الميلاد، أحدَ الأعوام، وجوارب بنيةٌ داكنةٌ، وحذاءٌ بني

فاتح، ونظارته، ومعطفٌ واقٍ من المطر، ووشاحٌ. تملأ ملابس أشوك كيس تسوق ورقي. يوجد كتابٌ داخل المعطف هو الكوميديون لغراهام غرين، صفحاته صفراء، وحروفه صغيرة. يفتح غوغول الكتاب فيجد أن والده اشتراه مستعملاً، فقد كُتب عليه اسم شخصٍ غريبٍ؛ روي غودوين. تسلم غوغول مظروفاً منفصلاً يحتوي على محفظة والده ومفاتيح سيارته. يخبر غوغول المسؤولين في المستشفى أن لا حاجة لأي طقوسٍ دينية، ويخبرونه بالمقابل أن رفات والده سيكون جاهزاً خلال بضعة أيام. يخيرونه بين استلام رفات والده بنفسه من مركز تجهيز الجنائز وخدماتها، الذي يقترحه المستشفى، أو أن يرسل بالبريد مع شهادة الوفاة، إلى منزل والديه في شارع بيمبيرتون مباشرةً. يطلب غوغول قبل مغادرته أن يرى بدقة المكان في حجرة الطوارئ حيث كان والده على قيد الحياة للمرة الأخيرة. يبحث الموظف المسؤول في جدولٍ ما عن رقم السرير حيث لفظ أشوك أنفاسه الأخيرة، وقد رقد عليه الآن شابٌ كانت ذراعه معلقةً بحمالةٍ تتدلى من رقبته، لكن معنوياته، من ناحيةٍ أخرى، عاليةٌ، ويتحدث عبر الهاتف. يلمح غوغول الستائر التي طوقت والده جزئياً عندما فارق الحياة. ستائر مزركشةٌ بأزهارٍ خضراء ورمادية، ومثبتةٌ بشبكةٍ بيضاء من الأعلى، وهي مثبتةٌ بدورها بكلاباتٍ معدنيةٍ تتدلى من السقف، وتتحرك على سكةٍ معقوفة لها شكل حرف U.

مازالت سيارة والده المستأجرة، التي وصفتها له والدته الليلة الماضية عبر الهاتف، تقف في الباحة المخصصة للزوار في موقف السيارات. لحظة تشغيله المحرك يجفل غوغول من صوت المذياع الذي يملأ أذنيه وهو

يبث الأخبار. لطالما كان والده دقيقاً حيال إطفاء المذياع عند وصوله وجهته. في الواقع، لا يوجد ما يشير إلى أن والده كان يقود هذه السيارة. لا توجد أي خرائط للطريق، أو قصاصات ورقٍ، أو أكواب فارغة، أو فكة نقود، أو إيصالات استلام. يجد غوغول في محفظة السيارة بيانات التسجيل، والكتيب الذي يحمل معلومات المالك. يقضي غوغول بضع دقائق في قراءة الكتيب، ويقارن ما كُتب فيه بخصائص عداد السيارة. يُشغِّل غوغول المساحات ثم يطفئها، ويجرب المصابيح الأمامية على الرغم من ضوء النهار. يطفئ غوغول المذياع ويقود السيارة في هدوءٍ تام في هذا الجو القارس، وفي فترة ما بعد الظهيرة الكئيبة تلك، عبر شوارع هذه المدينة غير الساحرة، التي تخلو من المعالم المميزة، والتي لن يزورها غوغول مرةً أخرى. يتَّبع غوغول التعليمات التي أعطتها له الممرضة في المستشفى ليصل إلى الشقة حيث كان والده يعيش، ويتساءل إن كان هذا هو الطريق نفسه الذي سلكه والده عندما قاد سيارته إلى المستشفى. وكلما مرَّ غوغول بمطعمٍ، حاول الانعطاف إلى شارعٍ فرعي، لكنه سرعان ما وجد نفسه داخلَ منطقةٍ سكنية، شُيدت فيها قصورٌ من الطراز الفكتوري، على مروجٍ تغطيها الثلوج، وثمة ممرات مشاةٍ يكسوها الجليد على شكل أشرطة.

كانت شقة والده جزءاً من مجمع يُطلق عليه بارونز كورت (بلاط البارون). تصطف صناديق بريديةٌ فضيةٌ كبيرةٌ للغاية تتسع لبريد شهرٍ بأكمله، وراء البوابة. وبينما يقود غوغول سيارة والده إلى داخل المكان، يومئ رجلٌ كان يقف في الخارج أمام المبنى الأول الذي كُتب عليه

«مكتب تأجير العقارات» وكأنها ميَّز السيارة. هل اعتقد خطأً أن أشوك يقود السيارة؟ يتساءل غوغول، تجعله هذه الفكرة يشعر بالارتياح. كان الرقم والاسم هما الشيئان الوحيدان اللذان يميزان كل مبنى عن الآخر. وعلى جانبي كل مبنى يوجد المزيد من الوحدات السكنية المتطابقة، التي كانت بارتفاع ثلاثة طوابق، وتحيط جميعها بطريقٍ لولبي فسيح للغاية. كانت لتلك المباني واجهةٌ من الطراز التيودوري[1]، وشرفاتٌ معدنيةٌ صغيرةٌ جداً، وتكسو قطعٌ خشبيةٌ رقيقةٌ قاعدة كل درجةٍ. ينزعج غوغول بشدةٍ من التماثل القاسي لتلك المباني أكثر من انزعاجه من المستشفى أو حتى من منظر وجه والده. عندما يفكر غوغول أن والده عاش هنا وحيداً طوال الأشهر الثلاثة الماضية يشعر برغبةٍ في البكاء للمرة الأولى، لكنه يعلم أن والده لم يمانع في العيش هنا، وأنه لم يشعر بالإهانة بسبب هذه الأمور. يوقف غوغول السيارة أمام المبنى حيث كان يسكن والده، ويبقى داخلها فترةً كافيةً ليراقب زوجين مسنَّين مفعمين بالحيوية، ظهرا أمام المبنى يحملان مضارب تنس. يتذكر غوغول أن والده أخبره أن معظم السكان كانوا إما متقاعدين أو مطلقين. توجد ممراتٌ مخصصةٌ للمشي، ومجمعٌ صغيرٌ لممارسة الرياضة، وبحيرةٌ صغيرةٌ اصطناعيةٌ تحيط بها مقاعد خشبيةٌ طويلةٌ وأشجار الصفصاف.

تقع شقة والده في الطابق الثاني. يفتح غوغول الباب، ثم يخلع حذاءه ويضعه على السجادة البلاستيكية التي لا بد أن والده وضعها في هذا المكان ليحافظ على نظافة السجادة المخملية الفاخرة ذات اللون الأبيض

(1) نسبةً إلى أسرة تيودور الملكية، التي حكمت إنجلترا خلال الفترة من 1485 إلى 1603. (المترجم)

الضارب إلى الصفرة، التي تغطي الأرضية كلها. يرى غوغول زوجاً من أحذية والده الرياضية، والخف الذي يرتديه داخل المنزل. يُفضي باب الشقة إلى حجرة معيشةٍ فسيحةٍ. يوجد بابٌ زجاجيٌّ جرار إلى يمين الحجرة، وإلى اليسار يوجد المطبخ. لم يعلق والده أي شيء على الجدران العاجية، التي يبدو أنها حديثة الطلاء. يفصل نصف جدارٍ المطبخ من جانبٍ واحد، وهذا أحد التفاصيل التي رغبت بها والدته في بيتهما حتى تتمكن من الطهي والتحدث إلى الآخرين في الحجرة المجاورة. وضع والده صورةً على الثلاجة يظهر فيها غوغول وسونيا ووالدتهما، ثبتها أشوك بقطعةٍ مغناطيسيةٍ حصل عليها، على ما يبدو من أحد البنوك المحلية. التُقِطت الصورة في مدينة فاتحبور سيكري، حيث وقفوا جميعاً وقد ربطوا خرقاً على أقدامهم لحمايتها من السطح الصخري الحار. كان غوغول طالباً مستجداً في المرحلة الثانوية، نحيلاً ومتجهِّمَ الوجه، وكانت سونيا فتاةً صغيرةً، ووالدته ترتدي الشلوار قميص[1]، الذي كانت تخجل من ارتدائه أمام أقربائها في كلكتا، فقد توقعوا دائماً أن يروها مرتديةً الساري. يفتح غوغول خزائن المطبخ العلوية أولاً، ثم السفلية. كانت معظمها فارغةً. يجد غوغول أربعة أطباقٍ، وكوبيْن من الفخار، وأربع كؤوسٍ زجاجية. يجد أيضاً في أحد الجوارير سكيناً واحدة، وشوكتين تشبهان تلك التي في منزل والديه. في خزانةٍ أخرى يجد علبة أكياس الشاي، وبسكويت بيك فرينز المُحلى، وكيساً يحتوي

(1) سلوار كاميز أو شالوار قميص *Shalwar kamee* : أحد أكثر الأزياء شيوعاً بين رجال باكستان ونسائها، ويتكون من سروالٍ واسعٍ فضفاضٍ وقميصٍ خارجي فضفاض. (المترجم)

على خمسة أرطال من السكر لم يسكبه والده في السكرية، وعلبة حليبٍ مركز. توجد كذلك أكياسٌ صغيرةٌ من البازلاء المجففة المقشرة الصفراء، وكيسٌ بلاستيكيٌّ كبيرٌ من الأرز. يقبع قدرٌ كهربائيٌ لطهي الأرز على منضدة المطبخ بطريقةٍ حذرةٍ، ولم يكن القابس موصولاً بالكهرباء. على حافة الموقد اصطفت مجموعة مرطباناتٍ تحتوي على بهاراتٍ مختلفةٍ قامت والدته بتصنيفها فكتبت عليها الاسم بخط يدها. وجد غوغول تحت حوض المطبخ ويندكس منظف الزجاج، وسلةً وعلبةً تحتوي على أكياس للقمامة، وإسفنجةً واحدةً.

يتفقد غوغول بقية الشقة. خلف حجرة المعيشة توجد حجرة النوم التي كانت خاليةً باستثناء السرير، ومقابلها يقع حمامٌ ليس له نوافذ. وعلى حافة المغسلة وضع والده عبوةً من كريم بوندز المرطب والمنظف للبشرة، الذي اعتاد والده أن يستخدمه بعد الحلاقة. يبدأ غوغول العمل في الحال؛ يفتش حجرة النوم، ثم يضع مرطبانات البهارات وكريم بوندز ومجلة التايمز التي وجدها بجانب سرير والده في كيسٍ من أكياس القمامة. «لا تحضر أي شيء من حاجياته إلى المنزل»، قالت له والدته عبر الهاتف. «إنها ليست طريقتنا»، أضافت والدته. في بادئ الأمر، لا تستوقفه الأشياء الموجودة، لكنه عندما دخل المطبخ شعر بالذنب حيال هدر الطعام وإلقائه في القمامة. لو كان والده في مكانه، لأخذ ما تبقى من كيس الأرز وأكياس الشاي ووضعها داخل حقيبته. كان والده يمقت هدر أي شيء، لدرجة أنه كان يتذمر من أشيما إذا ما ملأت إبريق تسخين الماء أكثر من حاجتها الفعلية.

خلال زيارته الأولى إلى القبو، يرى غوغول طاولةً ترك عليها المستأجرون أشياء مختلفةً لمن شاء أن يأخذ منها، مثل كتبٍ وأشرطة فيديو وكسرولة بيضاء لها غطاءٌ زجاجيٌّ شفاف. سرعان ما تكتظ الطاولة بالمكنسة الكهربائية الخاصة بوالده، وبقِدْر طهي الأرز الكهربائي، ومشغل أشرطة الكاسيت، والتلفاز، والستائر التي كانت لاتزال مثبتةً بالقضيب البلاستيكي القابل للطي. أما الكيس الذي أحضره غوغول من المستشفى، فيحتفظ بمحتوياته، وهي محفظة والده التي حوت أربعين دولاراً، وثلاث بطاقاتٍ ائتمانيةٍ، ورزمةً من إيصالات الاستلام، وصوراً فوتوغرافيةً لغوغول وسونيا عندما كانا طفلين. يحتفظ غوغول كذلك بصورة العائلة التي كانت على الثلاجة.

يستغرق الأمر وقتاً أطول مما توقعه، وتجعله مهمة تفريغ ثلاث حجراتٍ يشعر بالإنهاك. يندهش غوغول من عدد أكياس القمامة التي تمكن من ملئها، ومن عدد المرات التي صعد فيها الدرج ونزل. عندما انتهى غوغول بدأ الظلام يسود. يُعِد غوغول قائمةً بأسماء الأشخاص الذين يتوجب عليه مهاتفتهم قبل انقضاء يوم العمل هذا؛ مكتب تأجير العقارات، والجامعة، ومؤسسة الخدمات العامة. يُعِّبر عددٌ من الأشخاص الذين لم يقابلهم في حياته عن أسفهم، فيقولون: «نحن آسفون جداً»، ويقول أحد زملاء والده: «لقد رأيناه يوم الجمعة»! يقول آخرون: «لا بد أنها صدمةٌ بالنسبة إليكم». يخبره مكتب تأجير العقارات أنْ لا حاجة للقلق، فسيرسلون من ينقل الأريكة والسرير. عندما ينهي غوغول مهامه، يقود سيارته عبر المدينة إلى التاجر الذي أجّر والده

السيارة، ثم يستقل سيارة أجرةٍ، فيعود إلى مجمع بارونز كورت. يلاحظ غوغول في الرواق قائمة خدمة توصيل البيتزا، فيطلب بيتزا، وبينما ينتظر وصولها يهاتف والدته. كان هاتف المنزل مشغولاً لساعةٍ كاملةٍ، وعندما تمكن من مهاتفة والدته تخبره إحدى صديقات العائلة أن والدته وسونيا خلدتا للنوم. تملأ الضجة منزل والديه، وعندها يدرك غوغول كم كان المكان هادئاً من حوله. يفكر غوغول بالنزول إلى القبو، واسترجاع مشغل أشرطة الكاسيت والتلفاز. وعوضاً عن ذلك، يهاتف غوغول ماكسين، ويصف لها تفاصيل يومه، ويشعر بالذهول لمجرد التفكير أنها كانت معه عندما حدث الأمر، وأنه استيقظ في سريرها وبين ذراعيها.

- «كان يجب أن أذهب معك»، تقول ماكسين، «مايزال بإمكاني القدوم وسأصل بحلول الصباح».
- «لقد انتهيت. لا يوجد ما أفعله هنا. سأعود غداً على متن أول طائرةٍ».
- «لن تقضي الليل هناك، أليس كذلك نيك»؟ تسأله ماكسين.
- «أنا مضطرٌ. لا توجد أي رحلةٍ الليلة».
- «أعني في شقة والدك».

يشعر غوغول أنه لا بد أن يدافع عن شقة والده، فبعد كل هذا الجهد يشعر أن عليه أن يحمي هذه الحُجرات الفارغة. «لا أعرف أحداً هنا»، يجيب غوغول.

- «من أجل الرب، اخرج من هذا المكان، واحجز حجرةً في فندقٍ ما».

- «حسناً»، يقول غوغول. يتذكر غوغول آخر مرةٍ رأى فيها والده قبل ثلاثة أشهر؛ صورته يلوح مودِّعاً، وهو يغادر المنزل مع ماكسين إلى نيوهامشير. لا يتذكر غوغول متى كانت آخر مرةٍ تحدث فيها إلى والده. قبل أسبوعين؟ أربعة؟ لم يعتد والده مهاتفته بشكلٍ متكررٍ كما تفعل والدته.

- «لقد كنتِ معي»، يخبرها غوغول.

- «ماذا»؟

- «آخر مرةٍ رأيتُ فيها والدي. لقد كنتِ معي».

- «أعلم ذلك. أنا آسفةٌ للغاية. عدني بأنك ستذهب إلى فندقٍ ما».

- «نعم. أعدك».

ينهي غوغول المكالمة، ويفتح دليل الهاتف، ويفتش عن خياراتٍ ليقضي ليلته في فندقٍ ما. اعتاد غوغول أن يطيعها ويستمع إلى نصيحتها. يتصل بأحد الأرقام، ويرد عليه صوتٌ متسائلاً: «مساء الخير، هل يمكنني مساعدتك»؟ يستفسر غوغول عن توفر حجرةٍ شاغرةٍ لهذه الليلة. وبينما ينتظر غوغول الجواب، ينهي المكالمة. في الواقع، لا يرغب في النوم في حجرةٍ مجهولة الهوية. مادام داخل شقة والده، فهو لا يرغب في تركها فارغةً. يستلقي غوغول على الأريكة وسط الظلام، دون أن يبدل ثيابه، ويتغطى بسترته؛ يفضل غوغول الأريكة على الفرشة المقلمة في حجرة النوم. يستلقي في الظلام لساعاتٍ، يغفو ثم يصحو، ثم يغفو من جديد. يفكر غوغول في والده، وأنه كان يسكن هذه الشقة صباح الأمس! ماذا كان يفعل عندما بدأ يشعر بالتوعك؟ هل كان عند الموقد

يعدُّ الشاي؟ هل جلس على الأريكة حيث يستلقي غوغول في هذه اللحظة؟ يتخيل غوغول والده عند الباب ينحني ليربط شريط حذائه. يرتدي معطفه ووشاحه، ثم يقود سيارته إلى المستشفى. يتوقف عند الإشارة الضوئية، ويستمع إلى النشرة الجوية على المذياع، ولم تخطر بباله فكرة الموت. أخيراً، يلاحظ غوغول ضوءاً ضارباً إلى الزرقة يتسلل عبر الحجرة. يراقب السماء تبيض، ويُنصت وهمهمة حركة السير الخافتة تحل مكان السكون التام، إلى أن يستسلم، فجأةً، لنوم عميق لبضع ساعاتٍ، لا يفكر في أي شيء، ولا يزعجه أي أمر، مُلقياً بلا حراك ثقل جسده على الأريكة.

يستيقظ غوغول مجدداً في العاشرة، عندما يسطع ضوء الشمس داخل الحجرة. يشعر بألمٍ ثقيلٍ متواصلٍ في الجانب الأيمن من رأسه ينبع من أعماق جمجمته. يفتح غوغول باب الشرفة الزجاجي الجرار، ويقف في الخارج. تحترق عيناه من التعب والإجهاد. يحدق غوغول في البركة الاصطناعية التي أخبره والده في إحدى المكالمات الهاتفية أنه يدور حولها عشرين مرةً كل مساء قبل تناوله وجبة العشاء، وأن ذلك يعادل مسافة ميلين. عددٌ قليلٌ من الأشخاص عند البركة الآن يتمشون مع كلابهم، وزوجان يمارسان بعض التمارين الرياضية، جنباً إلى جنب، يؤرجحان ذراعيهما ويغطيان أذنيهما بمدُفِّئ الأذن الناعم الملمس. يرتدي غوغول معطفه ويذهب إلى الخارج، محاولاً المشي حول البركة دورةً واحدة. في بادئ الأمر، يرحب بالهواء البارد الذي يلامس وجهه، لكن سرعان ما يصبح البرد قاسياً ودون رحمة، متغلغلاً في جسده، ودافعاً بنطاله

من الخلف، ليلتصق برجليه، لذا يعود إلى الشقة. يستحم غوغول، ثم يرتدي الملابس نفسها التي لبسها في اليوم السابق. يطلب لنفسه سيارة أجرةٍ، لكنه ينزل إلى القبو للمرة الأخيرة حتى يتخلص من المنشفة التي استعملها للتو، وجهاز الهاتف الأخضر ذي الأزرار. تأخذه سيارة الأجرة إلى المطار، ثم يصعد الطائرة متوجهاً إلى بوسطن. ستكون سونيا ووالدته بالإضافة إلى بعض أصدقاء العائلة في انتظاره عند بوابة الوصول. يتمنى غوغول لو أن الوضع كان مختلفاً؛ لو كان بإمكانه ركوب سيارة أجرةٍ أخرى تسير به في طريقٍ سريعٍ مغايرٍ، فيؤجل اللحظة الحتمية؛ لحظة لقائه بهم. يشعر غوغول بالذعر من رؤية والدته أكثر مما شعر عندما رأى جثة والده في المشرحة. يدرك غوغول الآن مشاعر الذنب التي أخفاها والداه لعجزهما عن فعل أي شيء عندما فارق والداهما الحياة في الهند، ووصولهما بعد أسابيع وأحياناً أشهر من الوفاة، حين لم يتبق شيء يمكن فعله.

لطالما بدت الرحلة إلى كليفلاند وكأنها أبديةٌ، لكن هذه المرة، وبينما يحدق غوغول من نافذة الطائرة، فإنه لا يرى شيئاً، ويشعر بهبوط الطائرة السريع داخل صدره. يدخل غوغول إلى الحمام قبل الهبوط مباشرةً، ويحاول التقيؤ داخل المرحاض المعدني. يغسل وجهه وينظر في المرآة. باستثناء شعر لحيته الذي نما، لأنه لم يحلق ذقنه اليوم، لم تتغير ملامحه. يتذكر غوغول، عند وفاة جده لأبيه في السبعينيات، أن والدته صرخت وهي ترى أشوك يحلق شعر رأسه بالكامل بموس حلاقةٍ يُستعمل لمرةٍ واحدةٍ. خلال عملية الحلق هذه، جرح أشوك فروة رأسه في أماكن

مختلفة. ارتدى والده قبعةً إلى العمل ليخفي الجروح التي تكونت عليها قشور. «توقف. إنك تؤذي نفسك»، قالت أشيما لأشوك. رد أشوك باب الحمام، ثم أحكم إغلاقه. وعندما انتهى، خرج أصلع، وبدا رأسه منكمشاً. بعد مرور بضع سنواتٍ فهم غوغول دلالة ما فعله والده؛ إن واجب الابن البنغالي أن يحلق رأسه على إثر وفاة والده. كان غوغول آنذاك أصغر من أن يفهم، فعندما فتح والده باب الحمام ضحك لرؤية والده المفجوع، حليق الرأس، أما سونيا التي كانت مجرد طفلةٍ فبكت عند رؤية والدها.

خلال الأسبوع الأول، لم تبق عائلة أشوك وحدها مطلقاً. ما عادوا عائلةً مكونةً من أربعة أفرادٍ، وإنما ضم المنزل الآن عشرة أشخاصٍ وأحياناً عشرين، جاؤوا ليجلسوا بهدوءٍ في حجرة المعيشة، يحتسون الشاي مطأطئي الرؤوس، محاولين تعويضهم عن خسارة الوالد. تزيل أشيما علامة الزواج القرمزية عن جبينها، كما تخلع كذلك حليَّ الزواج؛ الأساور المعدنية التي انتزعتها بالقوة بمساعدة كريم مرطب، بالإضافة إلى الأساور الأخرى التي كانت ترتديها دائماً. تصل بطاقات العزاء والورود باستمرارٍ إلى المنزل، من زملاء والده في الجامعة، وزميلات أشيما في المكتبة، ومن الجيران الذين لم تربطهم علاقةٌ وطيدةٌ بأشوك وأشيما، فلم تتجاوز عادةً التلويح بالأيدي من أمام منازلهم. يهاتف الأصدقاء أشيما من الساحل الغربي، وتكساس، وميتشغين وواشنطن دي سي. شعر جميع الأصدقاء المدونة أسماؤهم في دفتر العناوين الخاص بوالدته- وهي تُضيف إليه المزيد من الأسماء دوماً ولا تحذف أياً منها-

بالصدمة عند سماعهم نبأ وفاة أشوك. أشوك الذي تخلى عن كل شيء حتى يعيش هنا ويحصل على حياةٍ أفضل، ثم يفارق الحياة هنا! يرن الهاتف باستمرار، يشعر آل غانغولي بألمٍ في آذانهم من كثرة الحديث مع كل هؤلاء الأشخاص، ويصيب حناجرهم الوهن من تفسير ما حدث مرةً تلو أخرى. لا، لم يكن مريضاً، يقول أفراد عائلة أشوك؛ لقد كان أمراً غير متوقع البتة. تنشر الصحيفة المحلية نعياً قصيراً يذكر اسم أشيما وغوغول وسونيا، وينوه إلى أن ابنيْ أشوك تلقيا تعليمهما في مدرسة البلدة. تهاتف العائلة أقرباءها في الهند عند منتصف الليل، ولأول مرةٍ في حياتهم ينقل آل غانغولي الأخبار المحزنة لأقربائهم لا العكس.

يتناول غوغول ووالدته وسونيا طوال الأيام العشرة التي تلت وفاة والده وجبة الحداد التي تخلو من اللحوم أو السمك. يتناولون الأرز ويخنة الحبوب المجففة والخضراوات المحضرة دون أي إضافاتٍ. يتذكر غوغول تناوله الوجبة ذاتها حين كان صغيراً، عند وفاة جدَّيه، ويتذكر كذلك توبيخ والدته له في أحد الأيام عندما تناول الهامبيرغر في المدرسة. يتذكر أنه شعر بالملل والانزعاج آنذاك لأنه أُجبر على ممارسة طقسٍ لايعرفه أحدٌ من أصدقائه، لتكريم ذكرى أشخاصٍ لم يقابلهم سوى بضع مراتٍ في حياته. يتذكر غوغول والده يجلس على المقعد ولم يحلق ذقنه، يحدق فيهم ولا يتحدث إليهم. يتذكر أيضاً تناولهم تلك الوجبات في صمتٍ تام، في حين أطفأ والده جهاز التلفاز. الآن، وبينما يجلسون معاً حول مائدة الطعام في المطبخ عند السادسة والنصف كل مساء، حيث يبدو من النافذة وكأن منتصف الليل قد حلَّ، ومقعد والده فارغٌ، كانت

تلك الوجبة التي تخلو من اللحوم الشيء المنطقي الوحيد. لا يمكن التخلي عن هذه الوجبة، بل على النقيض، كان ثلاثتهم يشعرون بالجوع بصورةٍ غريبةٍ لعشر أمسياتٍ، يتوقون لتذوق تلك الوجبة الخالية من النكهة في أطباقهم. يشكل تناول هذه الوجبة أساس يومهم: صوت الطعام عند تسخينه داخل المايكرويف، وثلاثة أطباقٍ يتم إخراجها من خزانة المطبخ العلوية، ثم يُسكَب الماء في ثلاث كؤوسٍ زجاجية. أما ما تبقى؛ المكالمات الهاتفية، والورود التي تملأ المكان، والزوار، والساعات التي يقضونها معاً في حجرة المعيشة دون أن ينطقوا كلمة واحدة، فكلها لا تعني شيئاً. لا يعترف أيٌّ منهم أنهم يجدون العزاء في هذه الوجبة، لأن الوقت الذي يقضونه في تناولها هو الوقت الوحيد الذي يختلون فيه بأنفسهم، ويجتمعون معاً كعائلةٍ، بعيداً عن الآخرين، فحتى مع وجود بعض الزوار الذين يتسكعون في المنزل، هم وحدهم من يتقاسم وجبة الحداد تلك. تساعد هذه الوجبة التي يتناولونها لعشرة أيام في تخفيف حزنهم قليلاً، فالغياب المفروض على أطعمةٍ بعينها يستحضر، نوعاً ما، وجودَ والدهم.

يدعو آل غانغولي أصدقاءهم في اليوم الحادي عشر، معلنين بذلك نهاية الحداد. لا بد من ممارسة طقسٍ دينيٍّ على الأرض في إحدى زوايا حجرة المعيشة. وبينما يرتل رجل الدين الترانيم باللغة السنسكريتية، يُطلب من غوغول أن يجلس أمام صورة والده. قضت العائلة يوماً كاملاً قبل بداية هذه المراسم تبحث في ألبومات الصور عن صورةٍ لأشوك حتى يتم وضعها داخل إطار. لا توجد صورةٌ منفردةٌ لوالده

الذي كان غالباً من يقوم بالتقاط الصور. قررت العائلة أن تقص إحدى الصور التي تظهر فيها أشيما إلى جانبه وقد وقفا معاً أمام البحر. بدا والده مثل مواطني نيوإنجلند، مرتدياً سترةً فرائية مقلنسة ووشاحاً. تأخذ أشيما الصورة إلى أستوديو سي فيز (CVs) لتقوم بتكبيرها. وتُحضِّر العائلة وجبةً متنوعةً من السمك واللحم الذي ابتاعته أشيما صباح أحد الأيام القارسة من الحي الصيني وسوق هايماركيت، ويعدونها كما أحبها والدهم؛ مع الكثير من البطاطس والكزبرة الطازجة. عندما يغمضون أعينهم، فإن الأمر أشبه بإقامة حفلةٍ، فرائحة الطعام اليوم تعبق بالمكان. كانت سنوات الترفيه الماضية كافيةً لتهيئتهم لهذه المناسبة. تخشى أشيما ألا يكون الأرز كافياً فتشعر بالقلق، يأخذ غوغول وسونيا معاطف الضيوف ويضعونها على السرير في حجرة الضيوف في الطابق العلوي. يحضر جميع الأصدقاء الذين تعرَّف عليهما والداهما خلال الثلاثين عاماً، ليُظهروا احترامهم لذكرى أشوك، وتصطف سياراتهم القادمة من ست ولاياتٍ مختلفةٍ على امتداد شارع بيمبرتون بأكمله. تقود ماكسين سيارتها من نيويورك إلى منزل والدي غوغول، فتُحضِر له الملابس التي يتركها عادةً في منزلها، وكمبيوتره المحمول، والبريد الخاص به. يمنحه رؤساؤه في العمل إجازةً لمدة شهرٍ كاملٍ. كانت رؤية ماكسين وتعريف سونيا بها في هذا الظرف صدمةً نوعاً ما. لم يكترث غوغول هذه المرة كيف سيبدو المنزل وأكوام أحذية الضيوف المتكدسة عند المدخل، لماكسين. كان بإمكان غوغول أن يرى أن ماكسين تشعر أنها عديمة الفائدة، وأنها لا تنتمي لهذا المنزل الذي يعج بالبنغاليين. وعلى الرغم من ذلك، لا

يتكبد عناء ترجمة ما يقوله الناس من حولها أو تقديمها للآخرين أو حتى الجلوس بالقرب منها. يسمع غوغول ماكسين تقدم عزاءها لوالدته قائلةً: «أنا آسفةٌ جداً»، مدركاً أن وفاة والده لا تؤثر فيها مطلقاً. «لا يمكنكما أن تبقيا بجوار والدتكما للأبد»، تقول ماكسين لغوغول بعد انتهاء المراسم، وحين تنفرد به في حجرته في الطابق العلوي حيث تجلس إلى جانبه عند حافة السرير، ثم تضيف ماكسين بصوتٍ رقيقٍ: «أنت تعلم ذلك»، وتضع يدها على خده. يحدق فيها غوغول ويبعد يدها عن خده فيضعها في حجرها.

- «أشتاق إليك نيكيل».

يومئ غوغول.

- «ماذا عن ليلة رأس السنة»؟ تسأله ماكسين.

- «هل مازلت ترغب في الذهاب إلى نيوهامشير»؟ تحدث كلاهما سابقاً في هذا الأمر، واقترحت ماكسين أن يذهبا وحدهما، فستمر ماكسين لتأخذه بعد انقضاء عيد الميلاد، ليبقيا معاً في منزل البحيرة. ستُعلِّمه ماكسين التزلج على الجليد.

- «لا أعتقد ذلك»!

وبينما تميل ماكسين رأسها جانباً، تقول: «قد تفيدك هذه الرحلة». تنظر ماكسين في الحجرة من حولها، ثم تقول: «حتى تبتعد عن كل هذا».

- «لا أريد أن أبتعد عن هذا». يجيب غوغول.

في الأسابيع التالية، وبينما يُزين جيرانهم أسيجة منازلهم ونوافذها بأضواء ملونةٍ، وأكوامٌ من بطاقات التهنئة تصل إلى منزل أشوك، يقوم

كل واحد منهم بعملٍ معينٍ اعتاد والده القيام به. فعلى سبيل المثال، تفتح والدته صندوق البريد كل صباحٍ لتحضر الصحيفة، وتقود سونيا السيارة إلى البلدة فتشتري حاجيات المنزل الأسبوعية، ويدفع غوغول الفواتير ويزيل الثلوج التي تسد مدخل المنزل. وعوضاً عن ترتيب بطاقات التهنئة بعيد الميلاد فوق رف المدفئة، تَلْمح أشيما عنوان المرسِل المدون عليها، ثم تتخلص منها دون أن تفتحها.

يبدو كل عملٍ بسيطٍ كإنجازٍ عظيم. تقضي والدته ساعاتٍ على الهاتف، وتغير الأسماء الخاصة بالحسابات البنكية والرهن العقاري والفواتير، لكنها غير قادرةٍ على إيقاف تيار البريد غير المرغوب فيه، الذي سيستمر في التوافد لسنين، والمُوجَّه إلى زوجها المتوفى. يمارس غوغول رياضة الجري في فترة ما بعد الظهر الكئيبة المملة. يقود سيارته أحياناً إلى الجامعة، ويُوقفها خلف القسم حيث عمل والده، ثم يبدأ الجري في شوارع الجامعة، داخل هذا الكون المحدود الساحر المتنوع الألوان، الذي شكَّل عالم والده خمسة وعشرين عاماً تقريباً. أخيراً، بدأ آل غانغولي في عطلات نهاية الأسبوع زيارة منازل أصدقاء والديهما في الضواحي المجاورة. يقود غوغول السيارة في طريقٍ معين، في حين تفضل سونيا طريقاً آخر، وفي كل الأحوال تجلس أشيما في المقعد الخلفي. في منزل الأصدقاء، تروي والدتهما حكاية مهاتفتها للمستشفى. في كل مرةٍ تردد أشيما العبارة ذاتها: «لقد ذهب أشوك إلى المستشفى لأنه أحس بألمٍ في معدته»، ثم تصف التفاصيل المتعلقة بفترة ما بعد ظهيرة ذلك اليومٍ؛ كيف تزينت السماء بخطين متوازيين ورديي اللون، ورزمة

بطاقات التهنئة بعيد الميلاد، وكوب الشاي بجانبها، ترويها كلها بطريقةٍ مفزعةٍ لا يتحمل غوغول أن يستمع إليها مرةً بعد مرة. يقترح عليها أصدقاؤها أن تسافر إلى الهند لتزور شقيقها وأقرباءها بعض الوقت. غير أن أشيما لا ترغب، للمرة الأولى في حياتها، أن تهرب إلى كلكتا؛ ليس الآن على الأقل. ترفض أشيما الابتعاد عن المكان الذي أسس فيه زوجها حياته، وعن البلد الذي فارق فيه الحياة. «الآن أدرك السبب لماذا ذهب إلى كليفلاند»، تخبر أشيما أصدقاءها، وترفض نطق اسمه حتى بعد مماته. «كان يُعلمني كيف أعيش وحدي».

يركب غوغول القطار ويعود إلى نيويورك مطلع شهر كانون الثاني، بعد انقضاء العطلات التي لم يحتفلوا بها، وخلال الأيام الأولى من العام الجديد الذي لم يشهده والده. تبقى سونيا مع أشيما، وتفكر في استئجار شقةٍ في بوسطن أو كيمبردج حتى تكون قريبةً من والدتها. ترافق أشيما وسونيا غوغول إلى المحطة ليودعانه. تقفان على رصيف المحطة في هذا البرد القارس؛ عائلته التي تقلصت، ثم تنحنيان للأمام حتى تتمكنا من رؤية غوغول، الذي لوَّح لهما من وراء الزجاج الملون، لكنهما لا تريانه. يتذكر غوغول عندما كانت العائلة بأكملها تأتي إلى المحطة كل مرةٍ يغادر فيها إلى ييل خلال السنة الجامعية الأولى. وعلى الرغم من أن رحلته إلى الجامعة باتت عبر السنين أمراً اعتيادياً، فإن والده ظل ينتظر دوماً على الرصيف حتى يغيب القطار عن ناظريه. يطرق غوغول على زجاج النافذة بمفاصل أصابعه، إلا أن القطار يبدأ بالتحرك، في حين تحاول والدته وسونيا جاهدتين تحديد مكانه.

يتحرك القطار إلى الأمام محدثاً صوت قعقعةٍ، ويشق طريقه وسط زحام المودعين، من جانبٍ إلى آخر، ويصدر عن المحرك صوتٌ يشبه صوت المروحة في محرك الطائرة. تدوي صفارة القطار بشكلٍ متقطع بنغمةٍ حزينةٍ. يجلس غوغول إلى الجانب الأيسر من القطار. كان ضوء الشمس قوياً على وجهه. أُلصِقت تعليمات إزالة النافذة في حالة الطوارئ على الزجاج، وتتكون من ثلاث خطواتٍ. تغطي الثلوج الأرض البنية اللون. تقبع الأشجار مثل الرماح، ومازالت أوراقها الجافة النحاسية اللون تتشبث من الموسم السابق ببعض الأغصان. يرى غوغول الواجهة الخلفية من المنازل المبنية من الطوب والخشب، ومروجاً خضراء صغيرةً تغطيها الثلوج. تتوقف سلسلةٌ متماسكةٌ من غيوم الشتاء قبل أن تصل الأفق. يُتوقع هطول المزيد من الثلوج الكثيفة. يسمع غوغول شابةً ما في مكان ما من المقصورة، تتحدث عبر الهاتف الخليوي إلى صديقها، وتضحك بلطفٍ. تتحدث عن مكانٍ يلتقيان فيه لتناول العشاء عند وصولها المدينة، وتتذمر قائلةً: «أشعر بمللٍ شديد». سيصل غوغول إلى نيويورك عند العشاء أيضاً. ستكون ماكسين في محطة بين (Penn Station) تنتظره تحت لوحة الرحلات القادمة والمغادرة، لترحب به وهو أمرٌ لم تكترث به في السابق.

يظهر مشهد طبيعي على نحوٍ مفاجئ، ثم يتقلص تدريجياً، القطار يُلقي بظله العابر على المباني المتشابهة الممتدة على مدى واسع. تشبه السكة الحديدية سلماً لانهائياً يمتد إلى الأمام لا إلى الأعلى، راسخاً في الأرض. ثُبتت السكة بين محطتي ويسترلي وميستك عند زاويةٍ حادةٍ، وغُرست في

أرضٍ منحدرةٍ، لذلك كان القطار بأكمله مهدداً بالسقوط. وعلى الرغم من أن المسافرين الآخرين نادراً ما يُعلِّقون على هذا الأمر، فإن ردة فعلهم، على الاهتزاز المفاجئ الناتج عن التحويل من محرك الديزل إلى المحرك الكهربائي عند الوصول إلى نيوهيفن مثلاً، واضحةٌ تماماً. لطالما أيقظ هذا التغيير اللحظي غوغول من قيلولته أو قاطع قراءته لكتابه أو اندماجه في محادثةٍ ما أو فكرةٍ ما تدور في خلده. إلى اليسار، يميل القطار ليتجه جنوباً إلى نيويورك، وإلى اليمين يتجه إلى بوسطن. يفكر غوغول دوماً خلال تلك الفترة الوجيزة التي تهدد بخطرٍ محتملٍ، بالقطار الآخر الذي لم يره في حياته، والذي كاد يقتل والده؛ بالكارثة التي منحته اسمه.

يمشي القطار الآن في خطٍ مستقيم متجاوزاً زاوية الميلان الحادة. مرةً أخرى يشعر غوغول بحركة القطار في المنطقة السفلية من ظهره. لأميالٍ عدة، تعانق السكة الحديدية المحيط الذي كان قريباً للغاية، بحيث تلامس أمواجه السكة. تتكسر الأمواج الصغيرة على بُعد إنشاتٍ بسيطةٍ من الشاطئ. يرى غوغول جسراً شُيد من الحجارة، وجُزُراً مبعثرةً بدت الواحدة منها بحجم حُجرةٍ، ومنازل جميلةً بيضاء ورمادية تطل على مناظر بهيجةٍ. يرى غوغول كذلك بيوتاً أشبه بالصناديق ترتفع فوق سيقانٍ خشبيةٍ. يجثم طائر مالك الحزين الذي يشعر بالوحدة وطائر الغاق فوق أعمدةٍ خشبيةٍ باهتة اللون. تتجمع القوارب ذات الصواري العارية، فيزدحم بها الميناء الصغير. إنه مشهدٌ كان والده سيقدره جداً، ويُذكِّره بالمرات العديدة التي صحبهم فيها في رحلةٍ إلى الشاطئ في فترة ما بعد الظهيرة أيام الأحد الباردة. في بعض المرات كان البرد قارساً

فاضطروا إلى البقاء داخل السيارة في موقف السيارات، ينظرون إلى الماء، في حين يحتسي والداه الشاي من الترموس الحافظ للحرارة، الموجود في المقعد الأمامي، وأبقى والده المحرك يعمل ليشعروا بالدفء. ذهبت العائلة في إحدى المرات إلى كيب كود[1]، فقاد والده السيارة على امتداد قطعة اليابسة المتعرجة، حتى عجز عن مواصلة التقدم أكثر. تابع غوغول ووالده سيراً على الأقدام عبر حائل الأمواج[2]؛ ذلك الشريط الصخري العملاق الرمادي الشديد الانحدار، ثم سارا فوق اللسان الضيق الملتوي، الممتد داخل المياه، حتى بلغا الحافة المستدقة. توقفت والدته بعد بضع صخور وفضَّلت الانتظار إلى جانب سونيا التي كانت أصغر من أن تتابع المسير مع والدها وشقيقها. «لا تبتعدا كثيراً، فلا أستطيع رؤيتكما»، تحذرهما أشيما. في منتصف الطريق، بدأت رجلاه تؤلمانه، لكن والده تابع المسير وكان يتوقف أحياناً ليمد يده لمساعدة غوغول، في حين يستند الأول إلى صخرةٍ ما فيتحدب جسده. عندما سارا فوق هذه الصخور التي كان بعضها منعزلاً عن الصخور الأخرى، وبعيداً عنها كثيراً، لدرجة أن غوغول وأشوك كانا يتوقفان ليفكرا في أفضل طريقةٍ للوصول إلى الصخرة التالية، حوطتهما المياه من كلا الجانبين. كان فصل الشتاء في بدايته، والبط يسبح في البرك التي خلَّفها المدُّ على الشاطئ. تدفقت الأمواج في اتجاهين. «إنه صغيرٌ جداً»، تنادي والدته، «هل تسمعني؟ إنه أصغر من أن يبتعد إلى هذا الحد». توقف غوغول، فلعل

(1) كيب كود: شبه جزيرة في ماساتشوسيتس. (المترجم)

(2) حائل الأمواج: جدارٌ أو حاجزٌ لوقاية المرفأ أو الشاطئ من عَزْم الأمواج. (المترجم)

والده يتفق مع ما قالته أشيا. وعوضاً عن ذلك استنكر والده قائلاً: «ماذا تقولين؟ هل أنت صغيرٌ جداً؟ لا، لم أعتقد ذلك»!

عند نهاية الحائل، كان ثمة حقلٌ من الخيزران الأصفر ناحية اليمين ومن ورائه كثبانٌ، والمحيط خلفهما. توقع غوغول أن يعود والده أدراجه، لكنهما تابعا طريقهما وبدآ المشي فوق الرمال. سارا معاً ناحية اليسار على امتداد مياه المحيط، متجهيْن إلى المنارة، ومرَّا بهياكل قوارب صدئة، وسلاسل ظهور أسماكٍ سميكةٍ للغاية مثل أنابيب ملتصقةٍ بجماجم صفراء، ونورسٍ نافقٍ كان الريش على صدره ملطخاً بالدماء حديثاً. بدآ بالتقاط صخورٍ صغيرةٍ لونها أسود باهتٌ مقلمةٌ بخطوط بيضاء، وحشياها في جيوبهما التي تدلت على الجانبين. يتذكر غوغول آثار قدمي والده على الرمال، وبسبب عرجه كانت فردة حذائه اليمنى تنقلب نحو الخارج من ناحية أصابع قدمه عند المشي، وتندفع اليسرى للأمام مباشرةً. كان ظلاهما في ذلك اليوم نحيلين وطويلين على نحوٍ غير طبيعي، وقد انحنيا للأمام بالقرب من بعضهما، وكانت الشمس خلفهما في هذا الوقت المتأخر من فترة ما بعد الظهيرة. توقفا مرةً أخرى ليتأملا عوامةً خشبيةً متشققةً طُلِيت باللونين الأزرق والأبيض لها شكل البارسول؛ المظلة الواقية من الشمس. كان سطحها مغطّى بخيوطٍ رقيقةٍ بنية من أعشاب البحر، ومكسواً كذلك بقشرةٍ رقيقةٍ من محار البرنقيل[1]. رفع والده العوامة وتفحصها وأشار إلى المحار الحي

---

(1) البرنقيل (Barnacle) : محارٌ يعيش في المياه المالحة، يلتصق بالأشياء تحت الماء. ويوجد على دعامات أرصفة الموانئ والصخور والسلاحف والحيتان وقيعان السفن. (المترجم)

المتعلق بقاعها. أخيراً، وقفا بالقرب من المنارة، مرهقيْن، تحيط بهما المياه من ثلاث جهاتٍ. تميزت مياه الميناء بلونها الأخضر الفاتح، ومن ورائها سماءٌ زرقاءٌ صافيةٌ. شعر غوغول ووالده بالحر من تأثير المجهود الذي بذلاه، فقاما بفتح معطفيْهما. ابتعد والده قليلاً ليقضي حاجته. ثم سمع غوغول والده يصرخ محتجاً، «قطعنا كل هذا الطريق ولن نحصل على صورةٍ واحدةٍ»! يهز أشوك رأسه متحسراً، فلقد تركا الكاميرا مع أشيما. بدأ أشوك بتفريغ جيوبه من الصخور وإلقائها في البحر. «إذن، نحن مضطرون لتذكر هذا المشهد»، قال أشوك. نظرا حولهما نحو البلدة التي تلونت باللونين الرمادي والأبيض، وسطع بريقها على الجانب الآخر من الميناء، ثم بدآ رحلة العودة، ولفترةٍ وجيزةٍ من الزمن حاولا ألا يخلفا وراءهما المزيد من آثار أقدامهما، فداسا بأحذيتهما على الآثار السابقة التي صنعوها للتو. ازدادت سرعة الرياح للغاية فأرغمتهما على التوقف بين الحين والآخر.

- «غوغول، هل ستتذكر هذا اليوم»؟ سأله والده الذي التفت للوراء لينظر إلى ابنه الذي وضع يديه على أذنيه، فبدتا مثل غطاء الأذن على جانبي رأسه.
- «إلى متى عليَّ أن أتذكره»؟

كان بإمكان غوغول سماع ضحكات والده مع تسارع الرياح وتباطئها. وقف أشوك هناك حتى يتمكن غوغول من اللحاق به، ثم مدَّ يده له وقد اقترب منه.

- «حاول أن تتذكره دائماً»، قال أشوك عندما لحق به غوغول، ثم

قاده ببطء عبر الحائل إلى حيث كانت والدته وسونيا بانتظارهما.

«تذكر أننا ذهبنا معاً في هذه الرحلة، وأننا ذهبنا سوية إلى مكانٍ لم تتبق بعده بقعةٌ أخرى يمكن الوصول إليها».

8

مرَّ عامٌ كاملٌ على وفاة والده. مايزال غوغول يعيش في نيويورك، ويستأجر الشقة ذاتها في جادة أمستردام. يعمل غوغول لدى الشركة نفسها. وبعيداً عن غياب والده عن هذه الحياة إلى الأبد، فإن الاختلاف البارز الوحيد في حياته، هو غياب ماكسين. كانت ماكسين صبورةً في بادئ الأمر، ثم سمح غوغول لنفسه بالعودة إلى حياتها لفترةٍ وجيزةٍ، فكان يعود بعد العمل إلى منزل والديها؛ عالمهما الذي لم يتغير مطلقاً. في البداية، تحملت ماكسين صمته على مائدة العشاء، وتجاهله لها في السرير، وحاجته إلى التحدث مع والدته وشقيقته سونيا كل ليلة، وزيارتهما في عطلة نهاية الأسبوع دونها. لكن ماكسين لم تفهم السبب وراء استثنائها من خطة العائلة السفر إلى كلكتا في ذلك الصيف لزيارة أقربائهم، ونثر رماد أشوك في نهر الغانغ. سرعان ما بدآ يتجادلان حول هذا الأمر وأمور أخرى إلى أن تمادت يوماً ما واعترفت أنها تشعر بالغيرة من والدته وشقيقته، وبدا ذلك اتهاماً مبطناً صَدَمت غوغول سخافتُه، إلى درجة أنه لم تكن لديه الطاقة الكافية لمواصلة الجدال. لذا، وبعد وفاة والده بأشهرٍ

قليلة، خرج غوغول من حياة ماكسين إلى الأبد. علم غوغول مؤخراً، عندما التقى بجيرالد وليديا في إحدى صالات العرض، بأمر خطبة ماكسين لرجلٍ آخر.

في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، ركب غوغول القطار إلى ماساتشوسيتس، إلى المنزل حيث عُلقت صورة والده التي استُخدمت خلال مراسم التأبين، على جدران الرواق في الطابق العلوي. في الذكرى السنوية لوفاة والده، وفي عيد ميلاد والده الذي لم تحتفل به العائلة قط عندما كان أشوك على قيد الحياة، تقف أشيما وغوغول وسونيا أمام صورة أشوك، ويضعون إكليلاً من بتلات الورود حول الإطار، ويمسحون عبر الزجاج جبين والدهم بمعجون خشب الصندل. إنها صورة والده، ما يدفع غوغول إلى العودة إلى المنزل دوماً، أكثر من أي شيء آخر. وفي أحد الأيام، عندما خرج غوغول من الحمام، وبينما كان متجهاً إلى حجرة نومه، لمح وجه والده المبتسم، الذي غاب عنهم الآن، فأدرك أكثر من ذي قبل أن والده ميتٌ حقاً.

أصبحت زياراته، الآن، لمنزل والديه مختلفةً. غالباً ما تقوم سونيا بطهي الطعام، ومازالت تعيش مع والدته في حجرتها القديمة التي شغلتها عندما كانت فتاةً صغيرةً. تغادر سونيا المنزل في الخامسة والنصف صباحاً، أربعة أيامٍ في الأسبوع، وتركب الباص لتستقل القطار الذي يأخذها إلى وسط مدينة بوسطن. تعمل سونيا مساعدة محامٍ، وتقدمت كذلك بطلباتٍ للالتحاق بكليات الحقوق القريبة من مكان عملها. تُقِلُّ سونيا والدتها في عطلة نهاية الأسبوع إلى حفلات الأصدقاء، وإلى

هايماركيت صباح كل سبت. لقد أصبحت والدتهما أنحف مما كانت عليه، وبات شعرها أشيب. شعر غوغول بالحزن يعتصر قلبه عندما لاحظ للمرة الأولى مفرق شعرها الأبيض ومعصميها العاريين. تخبره سونيا كيف تقضي والدته أمسياتها وحدها في السرير، عاجزة عن النوم، تشاهد التلفاز دون أن ترفع صوته. يقترح غوغول في إحدى عطلات نهاية الأسبوع أن يذهبوا جميعاً إلى أحد الشواطئ حيث كان والده يحب التنزه. وافقت والدته في بادئ الأمر، وابتهجت عند سماع الفكرة، ولكن ما إن أوقفوا السيارة في موقف السيارات العاصف، وترجلت أشيما من السيارة، حتى عادت وقالت لولديها أنها ستنتظر داخل السيارة.

يتحضَّر غوغول ليتقدم لامتحان نقابة المهندسين، الذي يُعقد على مدار يومين. يومان عصيبان سيجعلان من غوغول معمارياً مرخصاً، يمكنه أن يصمم رسوماتٍ هندسية تحمل اسمه، وأن يضع الختم الخاص به على تصاميمه. يدرس غوغول في شقته، وأحياناً في إحدى المكتبات في جامعة كولومبيا، ليحيط بحقائق تتعلق بمهنته مثل الكهرباء والمواد والقوى الأفقية في الطبيعة[1]. ينضم غوغول إلى صفٍ دراسيٍّ لمراجعة معلوماته، ومساعدته في اجتياز الامتحان. يلتقي الطلاب في هذا الصف مساءً، بعد العمل، مرتين في الأسبوع. يستمتع غوغول بالجلوس داخل حجرة الصف كمُتلقٍ فقط، فيستمع إلى المحاضر الذي يخبره ماذا عليه أن يفعل. يذكِّره هذا الصف بنفسه عندما كان طالباً،

(1) قوى الطبيعة التي تعمل في اتجاهٍ أفقي، مثل الرياح والزلازل وضغط التربة، على أساسات البناء. (المترجم)

وقت كان والده على قيد الحياة. كان صفاً صغيراً من ناحية عدد الطلبة، وسرعان ما تعرف بعضهم إلى بعض، وأصبح العديد منهم يخرجون معاً، ليستمتعوا بمشروبٍ ما. وعلى الرغم من أنهم دعوا غوغول للانضمام إليهم، فإنه كان يرفض دوماً. ثم، في أحد الأيام، وبينما هموا بالخروج من حصة الصف، اقتربت منه امرأةٌ، وقالت: «إذن، ما هو عذرك»؟ ولما لم يكن لديه أي عذرٍ، رافقهم تلك الليلة دون أن يُدعى. اسمها بريدجيت. جلست إلى جانبه عند البار (المشرب). كانت جذابةً للغاية؛ شعرها البني قصيرٌ جداً؛ تلك القَصَّة التي تبدو فظيعةً على معظم النساء. تتكلم بريدجيت ببطءٍ وتأنٍ. ترعرعت بريدجيت في الجنوب، في نيوأورلينز. تخبره أنها تعمل لدى شركةٍ صغيرةٍ يمتلكها زوجان، تقع في مبنى مغطى بحجرٍ رمليٍّ بني يميل إلى الحمرة، في بروكلين هايتس. يتحدث غوغول وبريدجيت بعض الوقت عن المشاريع التي يعملان عليها، وعن المهندسين المعماريين الذين يحوزون إعجابَهما مثل غروبيوس وفان دير روه وسارينين. هما في العمر نفسه، لكن بريدجيت متزوجةٌ. تلتقي بريدجيت بزوجها في عطلات نهاية الأسبوع، فهو أستاذٌ جامعي في إحدى جامعات بوسطن. عندها يتذكر غوغول والديه، وكيف عاش كلٌّ بمفرده خلال الأشهر الأخيرة من حياة والده. «لا بد أن الأمر صعبٌ»، يخاطبها غوغول، فتجيبه: «قد يكون كذلك، فإما هذا أو أنَّ عليه قبول وظيفةٍ مؤقتةٍ في نيويورك». وتخبره بريدجيت عن المنزل الذي استأجره زوجها في بروكلين، أنه فسيحٌ جداً، ومبنيٌّ على الطراز الفيكتوري، وإيجاره يعادل نصف ما يدفعانه مقابل شقتهما

التي تحوي حجرة نومٍ واحدةٍ في موراي هيل. تقول إن زوجها أصر على وضع اسمها على صندوق البريد، وصوتها على جهاز الرد الآلي. حتى إنه أصر أن يُعلق بعض ملابسها داخل الخزانة، وأن يحتفظ بأحمر شفاهها في خزانة الأدوية الصغيرة. تخبره أن زوجها يستمتع بمثل هذه الأوهام، ويجد فيها كل العزاء، في حين تعدُّها بريدجيت مجرد وسيلةٍ للتذكير بما هو مفتقدٌ. في تلك الليلة، يتشارك غوغول وبريدجيت سيارة أجرةٍ تقلهما إلى شقته. تستأذن بريدجيت من غوغول لتستعمل الحمام، وعند عودتها تكون قد خلعت خاتم زواجها. عندما كانا معاً، تاق غوغول بشدةٍ إلى مطارحتها الغرام، فلقد مضى وقتٌ طويل منذ أن ضاجع امرأةً. وعلى الرغم من ذلك، لا يفكر غوغول في رؤيتها مجدداً. عندما انطلق في أحد الأيام برفقة نسخته من الدليل الهندسي الخاص بمدينة نيويورك ليستكشف فن العمارة في جزيرة روزفيلت، لم يخطر بباله أن يطلب منها أن ترافقه. يتطلع غوغول إلى رفقة بريدجيت مرتين في الأسبوع فقط، عندما يلتقي بها في الصف الهندسي. لم يتبادلا رقمي هاتفيهما، ولا يعرف غوغول أين تسكن بالضبط. ترافقه بريدجيت دائماً إلى شقته، لكنها لا تقضي الليل هناك البتة. تعجبه فكرة وضع حدودٍ للعلاقة، فهو لم يعش مثل هذه التجربة مع امرأةٍ لم تتعمق علاقته بها، ولا تتوقع منه الكثير. لا يعرف غوغول اسم زوجها ولا يرغب في معرفته كذلك. وبينما كان غوغول يهم بركوب القطار في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، متوجهاً إلى ماساتشوسيتس ليزور والدته وسونيا، وصل قطارٌ آخر قادمٌ من الجنوب، وتساءل غوغول إن كان زوج بريدجيت

على متن ذلك القطار قادماً لزيارتها. فجأةً يتخيل غوغول المنزل الذي يعيش فيه الزوج وحده، مشتاقاً إليها، وقد وضع اسم زوجته التي تخونه على صندوق البريد، وأحمر شفاهها إلى جانب أدوات حلاقته، عندها فقط يشعر غوغول بالذنب.

تسأله والدته من وقتٍ إلى آخر إن كانت لديه صديقةٌ جديدةٌ. في الماضي كانت والدته تثير الموضوع بطريقةٍ عدوانيةٍ نوعاً ما، لكنها اليوم مفعمةٌ بالأمل، وقلقةٌ قليلاً في الوقت ذاته. حتى إنها تسأله إن كان بالإمكان إصلاح ذات البين مع ماكسين. عندما يشير غوغول إلى حقيقة أن ماكسين لم ترق لها، تجيب والدته أن ذلك ليس مهماً، فالمهم أن يستمر في حياته. يحاول غوغول أن يحافظ على هدوئه خلال هذه الحوارات مع والدته، ويتجنب اتهامها بالتدخل في حياته كما فعل في السابق. وعندما يخبرها غوغول أنه لم يبلغ الثلاثين بعد، ترد أشيما أنها عندما كانت في عمره احتفلت بذكرى زواجها العاشرة. يدرك غوغول الآن، دون أن تشير والدته إلى هذه الحقيقة، أن موت والده دفع ببعض التوقعات مثل رغبة والدته في رؤيته مستقراً.

لا يشعر غوغول بالقلق إزاء كونه عازباً حتى هذه اللحظة، لكنه يدرك أيضاً إلى أي حدٍ يزعج هذا الأمر والدته. تحاول والدته توضيح وجهة نظرها عبر إخبار غوغول عن حفلات الخطبة والزفاف الخاصة بأبناء أصدقائها البنغال، الذين ترعرع معهم غوغول عندما كان طفلاً في ماساتشوسيتس، وحتى تلك الخاصة بأبناء عمومته في الهند. وتذكر الأحفاد الذين وُلدوا كذلك. وبينما كان غوغول يتحدث مع والدته عبر

الهاتف في أحد الأيام، تسأله إن كان مستعداً لمهاتفة واحدةٍ عرفها في طفولته، اسمها موشومي مازومدار. يتذكرها غوغول بصعوبة. هي ابنة صديقيْ والديه، وقد عاشوا في ماساتشوسيتس لفترةٍ وجيزة، ثم غادروا إلى نيوجيرسي، عندما كان في المدرسة الثانوية. كانت موشومي تتحدث بلكنةٍ بريطانيةٍ، وحملت في الحفلات، كتاباً على الدوام. هذا جلُّ ما يذكره غوغول عنها، فلم تكن التفاصيل جذابةً أو غير جذابةٍ بالنسبة إليه. تخبره والدته أن موشومي أصغر منه بسنةٍ واحدة، وأن لها شقيقاً أصغر منها بكثير، وأن والدها كيميائيٌّ معروفٌ مُنح شهادة براءة اختراع. والدتها رينا ماشي ووالدها شوبير ميشو، ثم تضيف أشيما أن والديها حضرا من نيوجيرسي للمشاركة في جنازة والده، إلا أن غوغول لا يتذكرهما. تعيش موشومي في مدينة نيويورك حالياً، حيث التحقت ببرنامج الدراسات العليا في جامعة نيويورك. كان من المفترض أن تتزوج موشومي قبل عام، فقد دُعيت أشيما وغوغول وسونيا إلى حفل الزواج، لكن خطيبها الأمريكي تراجع عن الخطبة بعد أن تم حجز الفندق وأُرسلت الدعوات لحضور حفل الزفاف ووُضعت قائمة هدايا العروسين. الآن، بات والداها قلقيْن عليها. لعلها بحاجةٍ إلى صديق! لِمَ لا يهاتفها غوغول؟

تسأله والدته إن كان بحوزته قلمٌ ليدوِّن رقم هاتف موشومي، فيكذب غوغول ويجيب نعم ولا يستمع إليها وهي تسرد الرقم. لا نية لديه لمهاتفة موشومي، فامتحانه بات قريباً، وبالإضافة إلى ذلك، وبقدر ما يرغب غوغول في إسعاد والدته، فإنه يرفض أن تدبر لقاءه بامرأةٍ

ما. يرفض غوغول الهبوط إلى هذا الحد. في المرة التالية التي يزور فيها منزل والديه، تثير والدته الموضوع مرةً أخرى. يُدوِّن غوغول هذه المرة رقم هاتف موشومي، لأن والدته كانت معه في الحجرة نفسها، لكن الوضع مايزال كما كان في السابق، فلم تكن لدى غوغول نيةٌ لمهاتفتها. بيد أن والدته كانت مثابرةً، فذكرته مرةً أخرى أن والدي موشومي قدما لحضور جنازة والده، وأن مهاتفة موشومي هي أقل ما يمكن فعله. فنجانٌ من الشاي، التحدث معاً؛ ألم يكن لديه الوقت الكافي لذلك؟

يلتقيان عند المشرب في حانة إيست فيلاج؛ المكان الذي اقترحته موشومي عندما هاتفها غوغول. إنه مكانٌ صغيرٌ جداً، معتم وهادئ، وليس سوى حجرةٍ مربعةٍ بداخلها ثلاث منضدات فقط، وُضعت كلٌّ منها بين كرسيين قبالة جدارٍ واحد. تجلس موشومي عند المشرب، وتقرأ كتاباً ورقي الغلاف، وعند وصول غوغول ترفع ناظريها عن الكتاب لتنظر إليه. وعلى الرغم من أنها كانت بانتظاره، شعر غوغول أنه كان يقاطعها. وجهها نحيلٌ وقسمات وجهها ماكرةٌ على نحوٍ محببٍ، وحاجباها رفيعان مستقيمان. جفناها عريضان وعيناها مرسومتان عند الجفن العلوي بالكحل، بجرأةٍ واضحةٍ على طريقة ممثلات الستينيات. تفرق موشومي شعرها من المنتصف، وتلفه بإحكامٍ عند مؤخرة رأسها، وترتدي نظارة أنيقة ذات إطارٍ بارز. كانت ترتدي تنورةً صوفيةً رمادية وبلوزة صوفيةً زرقاء، كلتاهما ضيقتان للغاية. تغطي جوارب ضيقة سوداء غير شفافة ساقيها. وضعت موشومي مجموعة أكياس تسوقٍ أسفل كرسيها. لم يهتم غوغول عندما هاتفها بسؤالها عن شكلها، فلقد

افترض أنه سيميزها بسهولة، لكنه الآن لم يعد واثقاً إن كانت الشخص المطلوب.

- اقترب منها وسألها: «موشومي؟»

«مرحباً»، ترد موشومي بنبرةٍ اعتيادية، وتغلق الكتاب الذي كانت تقرأه، ثم تقبِّله على وجنتيه. كان غلاف الكتاب غير مزركشٍ وعاجي اللون، وعنوانه مكتوبٌ بالفرنسية. اختفت لكنتها البريطانية، وهي إحدى الأمور القليلة التي يتذكرها عنها. كانت لكنتها أمريكية تماماً، مثل لكنة غوغول، وصوتها أجشٌّ منخفض؛ الصوت ذاته الذي أدهش غوغول عبر الهاتف. طلبت موشومي لنفسها كأس مارتيني مع حبات الزيتون، وإلى جانبها توجد علبة سجائر دنهيل زرقاء.

وبينما يجلس غوغول على الكرسي بجانبها، طالباً كأساً واحداً من الجعة،

تخاطبه موشومي قائلةً: «نيكيل»،

- «نعم».

- «كنقيض لغوغول»!

- «نعم».

انزعج غوغول عندما هاتفها ولم تعرفه حين عرَّف بنفسه باسم نيكيل. كانت تلك المرة الأولى التي يواعد فيها امرأةً عرفته في الماضي باسمه الآخر. بدت موشومي حذرةً ومتشككةً قليلاً على الهاتف مثله تماماً. كان حديثهما عبر الهاتف مقتضباً وغريباً. «أتمنى ألا تمانعي مهاتفتي إياك»، بدأ غوغول الحديث، بعد أن شرح لها أنه غيَّر اسمه.

«دعني أتحقق من دفتر مواعيدي»، قالت موشومي عندما سألها غوغول إن كانت متفرغةً مساء الأحد لتخرج معه لشرب شيء ما، ثم سمع غوغول صوت قدميها تطقطق فوق الأرضية الخشبية العارية.

تأملته للحظةٍ، ثم لوت شفتيها على نحوٍ لعوبٍ. «على ما أذكر، أنت أكبر مني بعامٍ واحدٍ، يا غوغول دادا (أخي الكبير غوغول)، لقد وجَّهني والداي إلى مهاتفتك». يشعر غوغول بالساقي وهو يرمقهما بنظرةٍ خاطفةٍ، محاولاً تخمين ما يريدانه. باستطاعة غوغول أن يشم عطر موشومي، شذاه ساحرٌ لا يقاوم، يُذكِّره برائحة الطحالب الرطبة، وفاكهة البرقوق. يشعر غوغول بالارتباك بسبب هدوء المكان وحميميته.

«دعينا نتحدث عن موضوعٍ آخر».

تضحك موشومي، وتقول: «سأشرب نخب ذلك».

- «بالطبع، لم أفعل ذلك»، تضيف موشومي.

- «فعلتِ ماذا»؟

- «لم أنادك غوغول دادا مطلقاً. في الواقع لا أذكر أننا تحدثنا معاً».

- يرتشف مشروبه، «ولا أنا».

بعد توقفٍ وجيزٍ عن الكلام، تقول موشومي: «لم أفعل ذلك من قبل». تتحدث موشومي بنبرةٍ عمليةٍ، ومع ذلك تتجنب النظر إلى غوغول.

يعرف غوغول عم تتحدث موشومي. وعلى الرغم من ذلك يسألها قائلاً: «لم تفعلي ماذا»؟

- «الخروج في موعدٍ مدبرٍ من جانب والدتي».

- «إنه ليس مدبراً تماماً»، يقول غوغول.
- «لا»؟
- «إن أحدنا يعرف الآخر نوعاً ما».

ترفع موشومي كتفيها مستهجنةً، ثم تبتسم ابتسامةً صغيرةً، وكأنها مازالت غير مقتنعةٍ، وقد بدت أسنانها متراصةً، لكنها لم تكن مستويةً تماماً، وتقول: «أظن، أظن ذلك».

يراقبان معاً الساقي يثبت قرصاً مدمجاً في مشغل الأقراص الموضوع على رفٍ أعلى الجدار، واضعاً شيئاً من موسيقى الجاز. كان غوغول ممتناً لتشتيت الانتباه هذا.

- «شعرتُ بالأسى عند سماعي نبأ وفاة والدك».

وعلى الرغم من أنها بدت متعاطفةً على نحوٍ صادق، تساءل غوغول إن كانت تتذكر والده. كان على وشك أن يسألها، لكنه عوضاً عن ذلك أومأ متطامناً.

- «شكراً». كانت تلك جلَّ ما يستطيع التفكير به من كلام.
- «كيف تتعايش والدتك مع الأمر»؟
- «على نحوٍ جيد أعتقد».
- «هل تتدبر أمرها وحدها»؟
- «تعيش سونيا معها الآن».

«آه، جيد. لا بد أنك مرتاحٌ لهذا الأمر». تتناول موشومي علبة السجائر، وتزيل الغطاء الذهبي عنها. تعرض موشومي على غوغول

سيجارةً، ثم تتناول علبة الكبريت الموجودة داخل منفضةٍ موضوعةٍ على البار. تُشعل موشومي سيجارتها. «هل مازلتم تعيشون في المنزل ذاته الذي اعتدتُ زيارته»؟ تتساءل موشومي.

- «نعم».
- «مازلتُ أذكره».
- «هل تتذكرينه»؟
- «أذكر أن المدخل حيث تقف سيارة والدك، كان إلى اليمين حين تواجه المنزل. وكان ثمة ممرٌّ مكسوٌّ بالحجارة يخترق المرجة الخضراء».

أدهشته قدرتها على تذكر هذه التفاصيل بدقةٍ، وأثارته. «آه، لقد أدهشتني»!

- «أذكر كذلك مشاهدة التلفاز لفترةٍ طويلةٍ داخل حجرةٍ كانت أرضيتها مغطاةً بسجادةٍ سميكةٍ، لونها ذهبيٌّ داكنٌ».

تأوه غوغول قائلاً: «مازالت موجودة».

تعتذر موشومي لعدم حضورها الجنازة، لأنها كانت في باريس في ذلك الوقت. كانت تعيش هناك بعد تخرجها في جامعة براون. وهي، الآن، مرشحةٌ للانضمام إلى برنامج الدكتوراة في الأدب الفرنسي في جامعة نيويورك. تعيش موشومي في مدينةٍ نيويورك منذ عامين، وقد عملت الصيف الماضي في وظيفةٍ مؤقتةٍ مدة شهرين، في مكتبٍ تجاريٍّ تابعٍ لفندقٍ باهظ الأجرة يقع وسط المدينة. تَلخَّص عملها في مراجعة

استطلاع الرأي الخاص بالنزلاء، الذين يملؤونه عند مغادرتهم الفندق، وتصنيفه، ثم نسخه وتوزيعه على الأشخاص المعنيين. شغل هذا العمل البسيط يومها بالكامل. دهشت موشومي من شدة اهتمام النزلاء باستطلاع الرأي، والجهد الذي يبذلونه لتعبئته. تذمروا من الوسائد التي كانت إما قاسيةً جداً أو ناعمةً للغاية، أو من عدم وجود متسع كافٍ حول المغسلة لوضع أدوات التجميل، على سبيل المثال، أو من أن خيطاً سُلَّ من غطاء السرير المزخرف، على الرغم من أن معظم هؤلاء النزلاء لم يدفعوا كلفة الإقامة في الفندق، بل كانوا مشاركين في مؤتمراتٍ مختلفةٍ، وتحملت الجهة المعنية فاتورة الفندق. تذمر أحدهم حول وجود قليلٍ من الغبار تحت زجاج لوحةٍ هندسيةٍ وُضعت فوق المكتب.

يضحك غوغول، ويقول: «ربما أنا من تذمر من ذلك».

تضحك موشومي.

- «لمَ تركتِ باريس، وجئت للعيش في نيويورك؟ أعتقد أنك تفضلين دراسة الأدب الفرنسي في فرنسا»!
- «انتقلت إلى نيويورك بسبب الحب»، تُدهشه صراحتها. «أنت تعرف بالتأكيد المأساة التي وقعت قبل حفل الزفاف»؟
- «ليس تماماً»، يكذب غوغول.
- «حسناً، يجب أن تعرف»، تهز موشومي رأسها. «إن كل بنغالي يعيش في إيست كوست يعلم بما حدث». تتحدث موشومي عن الأمر بلامبالاةٍ، لكن غوغول يشعر بمرارةٍ في صوتها. «في الواقع، أنا واثقةٌ أنك دعيت أنت وعائلتك إلى حفل الزفاف».

يحاول غوغول جاهداً أن يغير الموضوع، فيسألها: «متى كانت آخر مرةٍ التقينا فيها»؟

- «صحِّحني إن كنتُ مخطئةً، أعتقد أنها كانت حفلة تخرجك من المدرسة الثانوية».

يعود غوغول بذاكرته إلى الوراء، فيتذكر قبو الكنيسة المضيء، الذي استأجره والداه وأصدقاؤهما أحياناً، ولاسيما لإقامة حفلاتٍ كبيرة. هو المكان ذاته، الذي عُقدت فيه عادةً الصفوف المدرسية يوم الأحد. على جدران الأروقة تدلَّت أشغالٌ يدويةٌ، وعُلقت شعاراتٌ خاصةٌ بالمسيح. تذكر غوغول الطاولات الكبيرة الطويلة القابلة للطي، التي ساعد والده في فردها، وألواح الطباشير المثبتة في الجدران، وسونيا تقف فوق كرسي وتكتب على اللوح كلمة «تهانينا».

- «هل كنتِ هناك»؟ يسأل غوغول.

تومئ موشومي برأسها. «كانت الحفلة مباشرةً قبل انتقالنا إلى نيوجيرسي. جلستَ بجوار أصدقائك الأمريكيين من المدرسة. حضر عددٌ قليلٌ من أساتذتك. بدا عليك الإحراج من كل شيء».

يهز غوغول رأسه. «لا أذكر أنك كنتِ هناك. هل تحدثتُ معك»؟

- «لقد تجاهلتني تماماً. لكن لم يكن الأمر مهماً». تبتسم موشومي، ثم تقول: «أنا واثقة أنني أحضرتُ معي كتاباً إلى الحفلة».

يحتسيان المزيد من الشراب. بدأ المشرب يكتظ بالناس، والطاولات تزدحم بمجموعاتٍ صغيرةٍ من الأشخاص الذين يجلسون على جانبي

كل طاولة. تدخل مجموعةٌ كبيرةٌ من الأشخاص إلى المكان، ويقف الآن وراء غوغول وموشومي عددٌ كبيرٌ من الزبائن الذين يطلبون مشروباتٍ مختلفة. عندما وصل غوغول إلى المكان، أزعجه خلوه من الزوار وهدوؤه، فشعر كأنه مراقبٌ. لكنه الآن ينزعج أكثر بسبب ازدحامه.

- «أصبح الوضع جنونياً قليلاً هنا»، يقول غوغول.

- «عادةً لا يكون الأمر هكذا أيام الأحد، هل نغادر المكان»؟ تسأله موشومي.

- يفكر غوغول ثم يرد: «ربما».

يطلبان الفاتورة، ثم يغادران معاً إلى الخارج، لينعما بهذا المساء المنعش من أمسيات شهر تشرين الأول. يلمح غوغول ساعته، فيرى أن ساعةً واحدةً لم تنقضِ بعد.

- «أين اتجاهك»؟ تسأله موشومي، بطريقةٍ تجعله يدرك أنها تفترض أن الموعد قد انتهى.

لم يخطط غوغول لاصطحابها إلى العشاء، بل كان ينوي العودة إلى شقته بعد الشراب وأن يدرس قليلاً، ثم يطلب بعض الطعام الصيني. لكنه الآن يجد نفسه يقول إنه يفكر في تناول بعض الطعام، فيسألها إن كانت ترغب في الانضمام إليه.

- «أحب ذلك»، تجيب موشومي.

يعجز كلاهما عن التفكير في مكانٍ مناسبٍ لتناول الطعام، فيقرران أن يتنزها سيراً على الأقدام قليلاً. يعرض عليها غوغول أن يحمل أكياس التسوق، وعلى الرغم أنها كانت خفيفة جداً، قبِلت موشومي، وأخبرته

أنها كانت تتسوق في متجر سوهو(SoHo) حيث توجد تخفيضاتٌ على بعض الماركات العالمية، مباشرةً قبل التقائهما في البار. يقفان أمام مطعمٍ صغيرٍ يبدو أنه فتح للتو. يقرآن قائمة الطعام المكتوبة بخط اليد، والملصقة على النافذة، والمراجعة التي نُشرت في مجلة *التايم* قبل بضعة أيام عن المطعم. يشوش انعكاس صورتها على الزجاج انتباهه؛ نسخةٌ أكثر صرامةً مما تبدو عليه في الواقع، ولسببٍ ما كانت نسخةً مذهلةً فاتنةً.

«هل نجربه»؟ يسألها غوغول، ويبتعد عنها متجهاً نحو باب المطعم. كانت الجدران في الداخل مطليةً باللون الأحمر. تحيط بها ملصقاتٌ قديمةٌ تُروج لأنواعٍ من النبيذ، وشاخصاتٌ مروريةٌ، وصور فوتوغرافية التُقطت في باريس، رُتِّبت جميعها فوق الرف المخصص للصور.

وبينما يراقبها غوغول تحدق في الجدران، يعترف لموشومي قائلاً: «لا بد أن المكان يبدو لك تافهاً»!

تهز رأسها رافضةً، ثم تقول: «في الواقع تبدو عليه معالم الأصالة».

تطلب موشومي كأساً من الشمبانيا، وتقرأ بدقةٍ قائمة النبيذ. أما غوغول فيطلب كأساً آخر من المالت، لكن النادل يخبره أن ليس ثمة سوى البيرة والنبيذ.

- «هل نطلب زجاجةً»؟ تسأله موشومي، وتناوله قائمة المشروب.

- «فلتختاري أنتِ».

تطلب موشومي سلطةً وحساء السمك وزجاجةً من نبيذ سان سير الفرنسي. أما غوغول، فيطلب كسرولة اللحم والفاصوليا البيضاء. لا

تتحدث موشومي مع النادل بالفرنسية، على الرغم من أنه فرنسي، بيد أن طريقة لفظها للأطباق والمشروب تدل على أنها تتحدث الفرنسية بطلاقة. خلَّف ذلك في نفسه انطباعاً قوياً، فغير اللغة البنغالية، لم يأبه غوغول بتعلم لغةٍ ثانية. أنهيا وجبتهما بسرعة. يتحدث غوغول عن عمله والمشاريع التي يعمل عليها وامتحانه المرتقب، ويُعلِّق كلٌّ منهما على الطبق الذي طلبه الآخر، ويتبادلان لقيماتٍ باستخدام طبق الخبز. يطلبان كوبي قهوة إسبريسو، ويتقاسمان طبق الكريم بروليه، فيكسران طبقة الكراميل القاسية بملعقتيهما من كلا الجانبين.

يحضر النادل الفاتورة، فتعرض موشومي أن تدفع نصيبها منها كما فعلت في الحانة، لكنه يصر هذه المرة على دفعها وحده. يمشي غوغول معها إلى شقتها التي تقع في مبنى سكني ضخم قديم، لكنه جميل، وقريب من الحانة حيث التقيا. للمبنى شرفةٌ عند المدخل متهالكةٌ للغاية، وواجهته مطليةٌ بلون التراكوتا[1]، ومزينةٌ بكورنيش لونه أخضر فاقع. تشكره موشومي على العشاء، وتخبره أنها قضت وقتاً ممتعاً للغاية معه. تُقبِّله مرةً أخرى على وجنتيه، ثم تبحث عن المفتاح داخل حقيبتها.

يناولها غوغول أكياس التسوق، ويقول: «لا تنسي هذه»، ويراقبها وهي تثبت الأكياس حول رسغها. يشعر غوغول بالغرابة بعدما تخلص من الأكياس، فهو لا يدري ما عساه يفعل بيديه. يشعر كذلك بالظمأ من كثرة ما شرب من الكحول. «إذن، هل نسعد أهلنا ونلتقي مرةً أخرى»؟

تنظر موشومي إليه، وتتأمل وجهه باهتمامٍ بالغٍ، ثم تجيب: «ربما».

---

(1) لون التراكوتا هو لون الطين النضيج. (المترجم)

تتشتت عيناها بفعل سيارةٍ عابرةٍ، وتسطع الأضواء الأمامية على جسديهما، لكن موشومي سرعان ما تعاود التحديق في وجهه. تبتسم وتومئ برأسها، ثم تقول: «هاتفني».

يراقبها غوغول تصعد عبر سُلم الشرفة إلى المدخل، تحمل أكياس التسوق وقد تدلى كعباها فوق درجات السلم بطريقةٍ جعلت خطواتها تبدو مزعزعةً. تتوقف هنيهةً لتلوح له مودعةً، ثم تدخل عبر بابٍ زجاجيٍّ ثانٍ، دون أن تنتظر لترى إن كان سيُلوح لها مودعاً بدوره. يظل غوغول واقفاً لدقيقةٍ أخرى، فيرى الباب يُفتح للمرة الثانية، إذ يخرج أحد المستأجرين ليلقي شيئاً ما داخل حاوية القمامة الموجودة أسفل الشرفة. ينظر غوغول إلى أعلى المبنى متسائلاً أي شقةٍ تسكن موشومي، فيترقب ضوءاً من إحدى النوافذ يدل على دخولها شقتها.

لم يتوقع غوغول أن يستمتع بوقته أو أن ينجذب إليها على أقل تقدير. تصدمه حقيقة أنه لا يوجد مصطلحٌ لوصف علاقتهما في الماضي، أو ماذا عنى أحدهما للآخر. فوالدا غوغول ووالدا موشومي، لا هما الاثنان، كانوا أصدقاء. هي إحدى معارف عائلته، لكنها ليست من العائلة. كانت صلتهما، حتى الليلة، مصطنعةً ومفروضةً تماماً، مثل علاقته بأقربائه في الهند، لكنها تفتقر حتى لرابطة الدم. وحتى هذه الليلة، لم يلتقيا خارج نطاق سياقهما العائلي. كان غوغول مهتماً بها بشدةٍ، وعزا ذلك إلى معرفته المسبقة بها. وبينما مشى غوغول باتجاه الغرب إلى المترو تساءل متى سيراها مجدداً. يغير غوغول رأيه عندما يصل إلى شارع برودواي، فيستدعي سيارة أجرة.

كان قراره ركوب سيارة أجرة وكأنما أراد أن يدلل نفسه، فلم يكن الوقت متأخراً، ولم يكن الطقس بارداً أو ممطراً، ولم يكن غوغول على عجلةٍ من أمره ليعود إلى المنزل. لكنها حاجته الملحة المفاجئة إلى أن يكون وحده، وأن يكون غير فاعل بكل معنى الكلمة، وأن يستمتع بهذا المساء مرةً أخرى في عزلةٍ تامةٍ. كان سائق سيارة الأجرة بنغالياً؛ اسمه مصطفى سعيد كما تقول بطاقة التسجيل المثبتة على حاجز البيليكسغلاس[1] خلف المقعد الأمامي. يتحدث السائق عبر الهاتف الخليوي بالبنغالية، ويتذمر من الأزمة المرورية في شارع فرانكلين ديلان وروزفيلت المعروف بإف دي آر، ومن الركاب الذين يصعب إرضاؤهم، وبخاصة أولئك الذين يرغبون في الوصول إلى أقصى المدينة، مروراً بالمتاجر والمطاعم المبعثرة في الجادة الثامنة. لو كان والداه يركبان سيارة الأجرة هذه، لبدآ محادثةً معه يسألانه من أي جزءٍ من بنغلاديش هو، ومتى قدِم إلى البلاد، وإن كانت زوجته وأبناؤه يعيشان معه أم في بنغلاديش. يجلس غوغول بصمتٍ مثل أي راكبٍ آخر، شارد الذهن؛ يفكر في موشومي. عندما تقترب السيارة من شقته يميل غوغول نحو حاجز البيليكسغلاس، ويخاطب السائق بالبنغالية قائلاً: «إنها تلك البناية إلى اليمين».

يلتفت السائق إلى الخلف دَهِشاً، ومبتسماً في آنٍ واحد. «لم أدرك أنك بنغالي»! يقول السائق.

- «لا بأس»، يقول غوغول، ويُخرج محفظته، ويُكرم السائق ببقشيشٍ سخيٍّ، ثم يغادر السيارة.

---

(1) البيلكسيغلاس: بلاستيك مرن مقوى، يستخدم بدلاً من الزجاج. (المترجم)

خلال الأيام التالية، يبدأ غوغول بتذكر أمورٍ تتعلق بموشومي، وتتراءى له صورٌ، دون سابق إنذار، وهو يجلس إلى مكتبه في العمل، أو في أثناء اجتماعٍ ما، أو عندما يغفو أو حين يستحم في الصباح. هي مشاهد يحملها داخله، دفينةٌ في أعماقه، لا يمكن المساس بها؛ مشاهدُ لم يفكر بها من قبل، ولم تكن ثمة حاجةٌ لاستحضارها حتى هذه اللحظة. يشعر غوغول بالامتنان لقدرة عقله على الاحتفاظ بهذه الصور الخاصة بها. كان غوغول مسروراً من نفسه، وكأنما اكتشف موهبةً فطريةً تتعلق برياضةٍ أو لعبةٍ ما، لم يمارسها من قبل. يتذكرها غوغول بالدرجة الأولى خلال ممارسة طقوس البوجا؛ وهو احتفالٌ كان يحضره مرتين في العام برفقة عائلته، وكانت موشومي ترتدي آنذاك سارياً شبكتْه بدبوسٍ، بعنايةٍ فائقةٍ أعلى كتفها. كانت سونيا ترتدي سارياً أيضاً، لكنها سرعان ما كانت تخلعه بعد مضيٍّ ساعةٍ أو ساعتين، ثم ترتدي جينزاً، وتدس ساريها في كيسٍ بلاستيكيٍّ، وتطلب من غوغول أو من والدها أن يحتفظ به داخل السيارة. لا يتذكر غوغول قط أن موشومي رافقت المراهقين الآخرين إلى ماكدونالدز، الذي كان على الجانب الآخر من الشارع، مقابل المبنى الذي أُقيمت فيه طقوس البوجا، في بلدة ووتيرتاون، أو أنها كانت تجلس في نهاية المطاف داخل سيارة أحدهم، في موقف السيارات لتستمع إلى الموسيقى أو تشرب البيرة من علبةٍ معدنيةٍ. يحاول غوغول جاهداً أن يستذكر وجودها في شارع بيمبيرتون، لكنه يخفق. سُرَّ غوغول لأن موشومي تمكنت في الماضي من رؤية تلك الحجرات في منزل والديه، وأنها تذوقت طبخ والدته، وغسلت يديها في حمام المنزل، وإن كان قد

أخفى مشاعره هذه.

يتذكر غوغول أيضاً أنه ذهب مرةً لحضور حفلة عيد الميلاد في منزل والديها. لم يرغب آنذاك بالذهاب، وكذلك سونيا، فأعياد الميلاد يجب أن تُقضى مع العائلة فقط. كان رد والديها أن الأصدقاء البنغال في أمريكا هم أقرب ما يكون إلى العائلة. لذلك اتجهت العائلة إلى بيدفورد حيث عاش آل مازومدارس. وقدَّمت رينا ماشي، والدة موشومي، كعكة الباوند الباردة[1]، والدونت المجمدة التي قامت بتذويبها، لذلك كانت تنكمش بمجرد لمسها. أما شقيقها سامرات، الطالب في السنة النهائية في المدرسة الثانوية الآن، فكان يجري على أربع، لهوسه بشخصية الرجل العنكبوت. تكبدت رينا ماشي عناء تنظيم عملية تبادلٍ للهدايا، دون الإفصاح عن مصدر الهدية. طلبت رينا من كل عائلةٍ أن تحضر هدايا بعدد الحاضرين حتى يحصل كلٌّ واحدٍ على هدية. أما غوغول، فطُلب إليه أن يكتب أرقاماً على بطاقاتٍ ورقيةٍ مربعة الشكل، أُلصقت مجموعةٌ منها على الهدايا، ووُضعت المجموعة الأخرى داخل كيسٍ، وطُلِب من الضيوف أن يسحب كل واحدٍ منهم رقماً. اكتظت حجرةٌ واحدةٌ بالحضور، الذين تهافتوا عبر بابين. يذكر غوغول أنه جلس في حجرة المعيشة مع كل الضيوف ليستمع إلى عزف موشومي على البيانو. عُلقت لوحةٌ كانت محاكاةً للوحة «الفتاة التي تحمل صفيحة ماء» للفنان بيير رينوار على الجدار فوق رأس موشومي. بعد مشاوراتٍ مكثفةٍ، وبعدما

(1) سُميت كعكة الباوند بذلك، لأن مكوناتها الأربعة (الطحين، والسكر، والزبد، والبيض) تُقاس بالباوند أو الرطل، فينتهي الأمر عادةً بكعكةٍ كبيرة الحجم. (المترجم)

بدأ الضيوف بالتململ، عزفت موشومي معزوفةً قصيرةً لموزارت تلائم الأطفال، لكن الحضور أرادوها أن تعزف «صلصلة الأجراس». هزت موشومي رأسها رافضةً الاقتراح، فقالت والدتها: «إن موشومي خجولة، هذا كل ما في الأمر، فهي تعرف تماماً كيف تعزف مقطوعة (صلصلة الأجراس)». للحظةٍ حملقت موشومي في والدتها بغضبٍ، لكنها عزفت المقطوعة في نهاية المطاف، مرةً تلو أخرى، وقد جعلت ظهرها للحضور، في حين قامت والدتها بقراءة الأرقام، وحصل جميع الضيوف على هداياهم.

التقيا بعد أسبوع لتناول الغداء معاً. كان منتصف الأسبوع، واقترحت موشومي أن يلتقيا في مكانٍ قريبٍ من عمله، لذلك طلب منها غوغول أن تحضر إلى المبنى حيث يوجد مكتبه. عندما أخبرته موظفة الاستقبال أن موشومي تجلس في حجرة الانتظار، شعر في داخله أنَّ وتيرة ترقُّبه لها ازدادت، فهو لم يستطع التركيز طوال الصباح في الرسم الهندسي الذي كان يعمل عليه. يأخذها غوغول فيما تلا من دقائق إلى جولةٍ في المكان، ويريها بعض الصور الفوتوغرافية لمشاريع عمل عليها، ثم يقدِّمها لأحد المصممين الرئيسين، ويصطحبها إلى الحجرة حيث يلتقي الشركاء. وبينما تمر موشومي، يحول زملاؤه في حجرة الرسم الهندسي، أنظارهم عن مكاتبهم للأعلى. إنه مطلع تشرين الثاني، وهو أحد تلك الأيام التي تنخفض فيها درجة الحرارة على نحوٍ مفاجئ، معلنةً بداية البرد الحقيقي لهذا العام. في الخارج، يهرول المشاة غير المستعدين لهذا الطقس، وقد بدت على وجوههم علامات الاستياء، وأذرعهم مطوية فوق صدورهم

من البرد. أوراق الأشجار المتساقطة المصفرة تحوم بسرعةٍ في دواماتٍ على الرصيف. لم يكن غوغول يرتدي قبعةً أو قفازاتٍ، لذلك يضع يديه في جيوب سترته وهو يمشي برفقة موشومي. وعلى النقيض من غوغول، فقد بدت موشومي محصنةً من البرد، ومتأقلمةً معه، إذ ارتدت معطفاً صوفياً أزرق نيلياً ووشاحاً صوفياً أسود حول عنقها، وجزمةً جلديةً طويلةً سوداء، لها سحابٌ على الجانبين.

يصطحبها غوغول إلى مطعمٍ إيطالي يذهب إليه من وقتٍ إلى آخر مع رفاقه في العمل، للاحتفال بعيد ميلاد، أو ترقية أحدهم، أو نجاح مشروعٍ ما. ينحدر مدخل المطعم بضع درجاتٍ عن مستوى الشارع. النوافذ مغطاةٌ بستائر من القماش المخرَّم. يميزه النادل، فيبتسم ثم يقودهما إلى طاولةٍ صغيرةٍ في الخلف، تفترق عن الطاولة الطويلة الموجودة وسط المكان، التي عادةً ما يجلس إليها. يرى غوغول أن موشومي ترتدي بذلةً رمادية خشنة الملمس، لها أزرارٌ كبيرةٌ، وتنورةً قصيرةً جرسية الشكل، لم تتجاوز ركبتيها.

تلاحظ موشومي أن غوغول ينظر إلى ما ترتديه، فتقول: «لقد درَّستُ اليوم». تخبره أنها تفضل أن تلبس بذلةً عندما تُدرِّس، فطلابها أصغر منها بعقدٍ من الزمان فقط، ودون ذلك، فإنها لا تشعر أن لها سلطةً على طلابها. فجأةً يحسد غوغول طلابها الذين يلتقون بها ثلاثة أيامٍ في الأسبوع، لا يُفوِّتون يوماً، ويتخيلهم وقد تجمعوا معاً حول طاولةٍ يحدقون فيها باستمرارٍ وهي تكتب على السبورة.

وبينما يناولهما النادل قائمتي الطعام، يقول غوغول: «المعكرونة هنا

عادةً ما تكون جيدة جداً».

- «ما رأيك بكأسٍ من النبيذ؟ لقد انتهيت من العمل اليوم».

- «يا لك من محظوظة! مايزال عليَّ حضور اجتماعٍ مجهدٍ بعد الغداء».

تنظر إليه وتغلق قائمة الطعام، ثم تقول بفرحٍ: «وهذا سببٌ أعظم لشُرب كأسٍ من النبيذ».

- «إنك محقة».

عندما يعود النادل يقول غوغول: «أريد كأسين من نبيذ ميرلو الأحمر[1]»، وتطلب موشومي الطبق نفسه الذي يطلبه غوغول؛ معكرونة رافيولي بالفطر، وسلطة الجرجير والكمثرى. يشعر غوغول بالتوتر خشية أن يخيب ظن موشومي، لكنها تنظر إلى الطبق باستحسانٍ عندما يحضره النادل. تتناول موشومي الطعام بشهيةٍ وسرعةٍ، ثم تُغمِّس ما تبقى من الصلصة في طبقها بقطعة خبز. وبينما يشربان النبيذ ويتناولان طعامهما يجد غوغول نفسه معجباً بالضوء المنعكس على وجهها وخصلات شعرها الفاتحة اللون، المتدلية على جانبي وجهها. تتحدث موشومي عن طلبتها وموضوع أطروحتها، فهي تخطط أن تكتب عن الشعراء الفرانكوفونيين الجزائريين. يخبرها غوغول عن ذكرياته معها في عيد الميلاد، وكيف أجبرتها والدتها على عزف مقطوعة «صلصلة الأجراس».

- «هل تذكرين تلك الليلة»؟ يسألها وكله أمل أن تتذكر.

- «لا. كانت والدتي تجبرني على فِعل أمورٍ كثيرة كتلك».

---

(1) ميرلو: مجموعةٌ متنوعةٌ من عنب النبيذ الأسود من بوردو(فرنسا). (المترجم)

- «هل مازلتِ تعزفين البيانو»؟

تهز رأسها، ثم تقول: «لم أرغب بتعلم العزف على البيانو في المقام الأول. لقد كان لدى والدتي خيال جامح إزاء هذا الأمر وغيره من الأمور. أعتقد أنها تتلقى دروساً في البيانو الآن».

يعود الهدوء إلى الحجرة من جديد، فالحشد الذي قَدِم لتناول الغداء غادر المكان. ينظر غوغول حوله، ثم يشير إلى النادل ليُحضر الفاتورة. دُهش غوغول لرؤية أطباقهما فارغةً تماماً، وعندما أدرك أن ساعةً كاملةً قد انقضت.

وبينما يضع النادل الفاتورة بينهما على الطاولة، وينظر إلى موشومي ثم إلى غوغول، يتوجه بسؤاله إلى غوغول قائلاً: «سيدي، هل هي شقيقتك»؟

«آهِ، لا»، يقول غوغول ويهز رأسه، يضحك، يشعر بالإهانة في الحال، ويثير سؤال النادل حفيظته على نحوٍ غريبٍ. يدرك غوغول، نوعاً ما، أن ما قاله النادل صحيحٌ، فهو وموشومي لهما لون البشرة نفسه، وكذا الحاجبان المستويان، والجسدان الطويلان النحيلان، وعظام الوجنتين المرتفعة، والشعر الداكن ذاته.

- «هل أنت واثق»؟ يصرُّ النادل على سؤاله.

- «واثقٌ تماماً»، يرد غوغول.

- «لكن، يمكن أن تكونا شقيقين»، يقول النادل، «نعم، نعم، الشبه كبير».

- «هل تعتقد كذلك؟» تسأله موشومي. يبدو أنها لم تنزعج من

المقارنة؛ ثم تنظر موشومي إلى غوغول نظرةً اختلطت فيها مشاعر الريبة بالرغبة في الضحك، ويلحظ غوغول احمرار وجنتيها، لكنه لا يدري إن كان من تأثير النبيذ عليها، أو أنها تعي في داخلها أمراً ما يجهله غوغول.

- «من المضحك أن يقول هذا»، قالت موشومي لحظة خروجهما من المطعم..

- «ماذا تعنين»؟

- «من المضحك أن تفكر أن آباءنا ربَّونا طوال هذه السنين حسب الوهم القائل إننا أبناء عمومة، وإننا جميعاً جزءٌ من عائلةٍ بنغاليةٍ بديلة ممتدة، والآن بعد مضي كل هذه السنين يعتقد هذا النادل أننا أقرباء».

لا يجد غوغول ما يقوله، فلقد أربكه تعليق النادل، وجعل انجذابه نحو موشومي يبدو محرماً نوعاً ما.

- «أنت لا ترتدي ملابس دافئةً»، تعلِّق موشومي، وتلف وشاحها الصوفي حول عنقها بإحكام.

- «إن الطقس حارٌ طوال الوقت داخل شقتي»، يقول غوغول، «لقد تم تشغيل نظام التدفئة. لسببٍ ما، فإنني عاجز عن فهم حقيقة أن درجة الحرارة في الخارج، تختلف عما هي عليه داخل شقتي».

- «ألا تتفقد الصحيفة»؟

- «أشتريها عادةً في طريقي إلى العمل».

- «أستفسر عن الطقس عبر الهاتف دائماً قبل مغادرتي المنزل».

- «أنت تمزحين»! يحدق فيها غوغول دهشاً لمجرد التفكير أنها ذلك النوع من الأشخاص الذين يتكبدون كل هذا العناء والجهد لأجل أمرٍ بسيطٍ مثل الطقس. «أرجوك، أخبريني إن كنت تمزحين»؟

تضحك موشومي، ثم تقول: «أنا لا أعترف بذلك لأي شخصٍ».

تنتهي موشومي من ترتيب وشاحها، ثم تقترح على غوغول، دون أن ترفع يديها عن الوشاح، فتقول: «لم لا تستعير وشاحي»؟ وتبدأ في خلعه.

- «أرجوك، أنا بخير»، ثم يضع يده على عقدة ربطة العنق التي يرتديها.

- «هل أنت متأكد»؟

يومئ برأسه، لكنه كاد يوافق على استعارة وشاحها ليشعر بملمسه على جلده.

- «حسناً، ولكن أنت بحاجةٍ إلى قبعةٍ على الأقل»، تقول موشومي، «أعرف مكاناً قريباً من هنا. هل أنت مضطر إلى العودة إلى العمل في الحال»؟

تقوده موشومي إلى بوتيكٍ صغيرٍ في شارع ماديسون. تزدحم نافذة العرض بقبعاتٍ نسائيةٍ تقبع فوق رؤوسٍ رمادية منعدمة الملامح، لها أعناقٌ مائلةٌ طولها قدم واحدة تقريباً.

«لديهم ملابس رجالية في الخلف»، تخبره موشومي. وبينما عج المكان بالنساء، كانت المنطقة الخلفية هادئةً نسبياً. يرى غوغول أكوام قبعاتٍ

من نوع فيدورا وبيريه[1] معروضةً على نحوٍ مرتب على أرفف خشبية مقوسة. يختار غوغول قبعةً من الفرو، وأخرى رسميةً يجربها من قبيل المزاح. يبدو أنه ثمل قليلاً من كأس النبيذ الذي شربه على الغداء. تفتش موشومي عن قبعةٍ مناسبةٍ داخل سلة.

«هذه ستجعلك تشعر بالدفء»، تقول موشومي وهي تدس أصابعها داخل قبعةٍ لونها أزرق نيلي، وعلى حافتها يوجد شريطان أصفران. تمطُّ موشومي القبعة بأصابعها، ثم تقول: «ما رأيك»؟ تضعها على رأسه وتلمس شعره وفروة رأسه. تبتسم ثم تُشير إلى المرآة. وبينما يتأمل غوغول نفسه، تراقبه موشومي.

يدرك غوغول أنها تنظر إليه، وليس لانعكاسه في المرآة. يتساءل غوغول كيف يبدو وجهها دون نظارة وعندما ينسدل شعرها على كتفيها. يتساءل كيف سيكون شعوره إذا قبّلها على فمها. «إنها تروق لي. سأشتريها»، يقول غوغول.

تنزع موشومي القبعة عن رأس غوغول بسرعة، فتُفسِد شعره.

- «ماذا تفعلين»؟
- «سأشتريها لك».
- «لا داعي لذلك».
- «لكنني أرغب في ذلك»، ترد موشومي وهي تتجه نحو أمينة الصندوق. «على أي حال، لقد كانت فكرتي، فقد كنتَ سعيداً للغاية وأنت تتجمَّد حد الموت»!

---

(1) تشبه الفيدورا قبعة راعي البقر، أما البيريه فهي أشبه بالقَلَنْسُوَة المستديرة. (المترجم)

تلاحظ أمينة الصندوق موشومي تحدق في قبعةٍ بنيةٍ صوفيةٍ ومخمليةِ الملمس، مزينة بالريش. «إنها قطعةٌ أنيقةٌ للغاية»، تخاطب أمينة الصندوق موشومي، ثم ترفع القبعة بحذرٍ عن التمثال النصفي الذي وُضعت عليه. «إنها مصنوعةٌ يدوياً من جانب امرأةٍ إسبانية. لا يُوجد لها مثيل. هل ترغبين في تجريبها»؟

تلبس موشومي القبعة. تمتدحها إحدى الزبونات، وكذلك تفعل أمينة الصندوق. «يعجز كثير من النساء عن مقاومة هذه القبعة»، تقول أمينة الصندوق.

احمرَّ وجه موشومي خجلاً، تلمح بطاقة السعر التي تتدلى من خيطٍ على جانب وجهها. «أخشى أن ميزانيتي لن تتحملها اليوم»، تقول موشومي. تعيد أمينة الصندوق القبعة إلى الرف، ثم تنظر إلى غوغول وتخاطبه قائلةً: «حسناً، الآن تعرف ماذا عليك أن تهديها في عيد ميلادها».

يعتمر غوغول قبعته الجديدة، ثم يغادران المتجر معاً. تأخر غوغول عن اجتماعه، ولولا ذلك لكان بقي معها ومشى إلى جانبها في الشارع، أو اختفى معها داخل صالة السينما المعتمة. أصبح الطقس أبرد مما كان عليه، واشتدت الرياح وتحولت الشمس إلى بقعةٍ بيضاء باهتةٍ. تمشي موشومي معه إلى حيث يقع مكتبه. حاول غوغول جاهداً أن يركز في عمله خلال الاجتماع وما تبقى من اليوم، لكنه ظل يفكر في موشومي. عندما يغادر غوغول المكتب لا يتوجه نحو المترو، بل يعود فيمشي الطريق ذاتها التي سلكها برفقة موشومي، فيمر بالمطعم حيث كان مرتادوه يتناولون العشاء الآن، ثم يتمكن من الوصول إلى متجر القبعات حيث

ترتفع روحه المعنوية لمجرد رؤيته. إنها الثامنة تقريباً، والظلام دامسٌ في الخارج. يفترض غوغول أن المتجر قد أغلق أبوابه، لكنه يتفاجأ عندما يرى الأضواء مشتعلةً في الداخل والحاجز الحديدي المشبك لم يُخفض بالكامل. يتأمل غوغول البضاعة المعروضة في نافذة العرض وانعكاس صورته وقد ارتدى القبعة التي ابتاعتها موشومي له، على الزجاج. في نهاية المطاف يدخل غوغول المتجر. كان الزبون الوحيد وكان بإمكانه سماع صوت المكنسة الكهربائية في الجزء الخلفي من المتجر.

وفي حين يعبر غوغول الباب، تقول البائعة: «كنت واثقةً أنك ستعود». تنزع البائعة القبعة المخملية البنية اللون عن الرأس المحشو بالستيروفوم، دون أن يطلب منها غوغول ذلك، ثم توضح لمساعدتها قائلةً: «لقد جاء في وقتٍ مبكرٍ من اليوم بصحبة صديقته»، ثم تتوجه لغوغول بالسؤال: «هل أغلفها لك»؟

«سيكون أمراً رائعاً». يشعر غوغول بالحماس عندما استجابت له البائعة بهذه الطريقة. يراقبها وهي تضع القبعة في علبةٍ دائرية لونها بنيٌّ داكنٌ، ثم تلف حولها شريطاً سميكاً قشدي اللون. يدرك غوغول أنه لم يستفسر عن ثمن القبعة، لكنه يوقع فاتورة المئتي دولار دون تفكير. يعود غوغول بالقبعة إلى شقته، ويخبئها في الجهة الخلفية من الخزانة، على الرغم من أن موشومي لم تدخل شقته من قبل. سيهديها لموشومي في عيد ميلادها، رغم حقيقة أنه لا يعلم متى سيأتي.

لكنه يشعر أنه دُعي إلى عددٍ من حفلات عيد ميلادها، وهي كذلك بالمقابل. يتأكد غوغول من هذه الحقيقة في إحدى عطلات نهاية الأسبوع

التي قضاها في منزل والديه. بعدما خلدت والدته وسونيا للنوم، يبحث غوغول عن موشومي في الصور الفوتوغرافية التي جمعتها والدته عبر السنين. تظهر موشومي في إحدى الصور وقد اصطفت مع أطفالٍ آخرين خلف كعكةٍ متوهجةٍ بالشموع في حجرة الطعام. تبدو موشومي في الصورة مرتديةً قبعةً ورقيةً وقد نظرت بعيداً عن عدسة الكاميرا، أما غوغول فيحدق مباشرةً في الكاميرا وقد أمسك بسكينٍ ووقف ساكناً أمام الكعكة حتى يتم التقاط الصورة، ووجهه يتألق بمراهقةٍ مقبلةٍ. يحاول غوغول أن ينتزع الصورة من خلفيتها الصفراء الملتصقة بها، ليريها لموشومي في المرة القادمة التي يلتقيان فيها، لكنها تتمسك بعناد بماضيها رافضة أن تُنزع مكتملة.

تدعوه موشومي في عطلة نهاية الأسبوع التالية إلى العشاء في منزلها. اضطرت موشومي إلى النزول إلى الطابق السفلي لتفتح له باب العمارة، فقد حذرته- عندما خططا لهذه الأمسية- من تعطل طنّان غالق الباب.

«إنها قبعةٌ جميلة»، تقول موشومي. ترتدي موشومي ثوباً أسود بلا أكمام، لم تربط حزامه بإحكام من الخلف. رجلاها عاريتان وقدماها نحيلتان وقد ظهرت أظافر أصابع قدميها من الصندل الذي كانت ترتديه، وقد طلتها باللون الأحمر الكستنائي، كما تدلت ضفيرتان من مؤخرة رأسها. تمسك موشومي بين أصابعها نصف سيجارةٍ مشتعلة، لكنها تلقيها ثم تسحقها بصندلها قبل أن تنحني نحو غوغول لتقبله على وجنتيه. تصحبه موشومي عبر السلم إلى الطابق الثالث حيث توجد شقتها. تترك الباب مفتوحاً، فرائحة الطبخ قويةٌ داخل الشقة. وضعت

موشومي على الموقد بعض قطع الدجاج الكبيرة الحجم في مقلاةٍ مليئةٍ بالزيت لتحمِّرها. موسيقى تعزف، ومغنٍ ينشد بالفرنسية. يقدم لها غوغول باقةً من أزهار عباد الشمس التي كانت سيقانها الضخمة أثقل من زجاجة النبيذ التي أحضرها معه. لا تعرف موشومي أين عساها تضع الأزهار، فجميع منضدات المطبخ، المحدودة أصلاً، ازدحمت بمكونات الوجبة التي كانت تعدها: بصل وفطر وطحين، وإصبع زبدة يبدو أنه يذوب بسرعة بسبب دفء الشقة، وكأس نبيذ كانت تشربه وأكياس تسوق بلاستيكية لم يكن لديها متسعٌ من الوقت لتضعها جانباً.

وبينما تنظر موشومي حولها وقد أسندت الأزهار إلى كتفها وكأنما تتوقع حدوث معجزةٍ مثل أن يظهر حيزٌ في المطبخ لتضع الأزهار، يقول غوغول: «كان يجب أن أحضر شيئاً عملياً أكثر من الأزهار».

«كنت أنوي منذ أسابيع أن أبتاع لنفسي أزهار عباد الشمس»، تجيب موشومي. نظرةٌ خاطفةٌ نحو المقلاة الموضوعة فوق الموقد، ثم تصحب غوغول عبر المطبخ إلى حجرة المعيشة. تزيل موشومي ورق التغليف عن الأزهار، ثم تشير أعلى خزانة الكتب وتقول: «توجد مزهريةٌ هناك. هل لك أن تناولني إياها»؟

تحمل موشومي المزهرية إلى الحمام، ويسمع غوغول صوت مياه الصنبور. ينتهز غوغول الفرصة ليخلع معطفه وقبعته ويضعهما فوق الأريكة من الجهة الخلفية. كان متأنقاً، فقد ارتدى قميصاً إيطالياً مقلماً باللونين الأبيض والأزرق كانت قد ابتاعته سونيا له من متجر فيلينز بيسمينت، وبنطلون جينزٍ أسود. تعود موشومي وقد وضعت الأزهار

داخل المزهرية، ثم تضعها على منضدة القهوة الصغيرة. كانت الشقة أجمل مما توقع على الرغم من الرواق القذر. يبدو أن الأرضية قد أُعيد تشميعها، والجدران قد طُليت حديثاً، وزُين السقف بمصابيح بارزة. في إحدى زوايا حجرة الطعام توجد مائدةٌ مربعة الشكل، وفي الزاوية الأخرى يوجد مكتبٌ صغيرٌ وخزانة ملفات. وبالإضافة إلى ذلك، اصطفت ثلاث خزانات كتب خشبية على جدار واحد. وضعت موشومي على مائدة الطعام رشاشة الفلفل، والملح، وحبات الكلمنتينا ذات القشور اللامعة في صحن الفاكهة. يميز غوغول بعض الأشياء التي يوجد مثلها في منزل والديه مثل سجادةٍ كشميريةٍ مزركشةٍ بخيوطٍ صوفيةٍ على أرضية الحجرة، ووسائد حريريةٍ من راجستان وضعتها موشومي على الأريكة، وتمثالٍ معدنيٍّ للإله ناتراج[1] فوق إحدى خزانات الكتب.

في المطبخ، كانت موشومي تضع قليلاً من الزيتون وجبن الماعز المغطى بالرماد[2]. تناوله نازعة السدادة الفلينية ليفتح زجاجة النبيذ التي أحضرها، وتطلب منه أن يسكب لنفسه كأساً. تجرف موشومي المزيد من قطع الدجاج من الطبق المغطى بالطحين وتضعها في المقلاة. يرتفع صوت طرطشة الزيت في المقلاة التي أمطرت الحائط القابع خلف الموقد بوابلٍ من الزيت. يراقب غوغول موشومي وهي تستشير كتاب طبخٍ

(1) الإله ناتراج: إله الرقص الذي يرقص رقصته الكونية، تمهيداً لإعادة الخلق من جانب الإله براهما. (المترجم)

(2) في تاريخ صناعة الجبن يضاف الرماد الناتج عن احتراق الملح والخضراوات المجففة للجبن لإكسابه منظراً مميزاً. يتميز هذا الرماد بأنه لا طعم له أو رائحة. (المترجم)

لجوليا شايلد. يندهش غوغول من حجم التحضيرات التي تجري من أجله. وعلى الرغم من الوجبات التي تناولاها معاً، فقد كان غوغول متوتراً إزاء تناول الطعام مع موشومي هذه المرة.

- «متى ترغب في تناول الطعام؟ هل أنت جائع»؟

- «في أي وقتٍ تشائين. ماذا تُعدين»؟

تنظر إليه بارتيابٍ، ثم تقول: «طبق الدجاج بالنبيذ، وهوطبقٌ فرنسي. لقد اكتشفت للتو أنه يجب أن يُطهى قبل أربعٍ وعشرين ساعة من تقديمه للأكل. أخشى أنني متأخرة قليلاً». يهز غوغول كتفيه مستهجناً، ثم يقول: «لكن رائحته طيبة للغاية. سأساعدك». يرفع غوغول كم قميصه للأعلى، ويسألها: «ماذا يمكنني أن أفعل»؟ تقرأ موشومي في كتاب الطهي، ثم تقول: «حسناً، خذ حبات البصل هذه، واجعل فيها خطين متقاطعين (X's) باستخدام السكين، ثم ضعها في المقلاة».

- «في المقلاة مع قطع الدجاج»؟ يتساءل غوغول.

- «لا، اللعنة»! تجثو موشومي على ركبتيها، وتتناول وعاء طبخٍ من إحدى خزانات المطبخ السفلية. «هنا، في هذا الوعاء. اسلق حبات البصل لدقيقة واحدةٍ، ثم صفها».

يفعل غوغول ما طلبته موشومي بالضبط، فيملأ وعاء الطبخ بالماء، ويضعه على الموقد. يجد غوغول سكيناً، ويصنع خطين متقاطعين في حبات البصل كما تعلَّم أن يفعل بكرنب بروكسل في مطبخ آل راتليف. يراقب غوغول موشومي وهي تقيس النبيذ ومعجون الطماطم وتضيفهما إلى المقلاة التي تحوي قطع الدجاج. تبحث موشومي عن علبة بهاراتٍ

معدنيةٍ، ثم تُخرج منها ورقة غارٍ وتضيفها إلى المقلاة.

وبينما تتأمل موشومي محتويات المقلاة، تقول: «صُدمت والدتي بالطبع لأنني لم أُعد لك طبقاً هندياً».

- «هل أخبرتِها أنني قادم لتناول العشاء في شقتك»؟

- «لقد هاتفتني صدفةً اليوم»، ثم تسأله موشومي: «ماذا عنك؟ هل كنت تخبر والدتك بأحدث التطورات»؟

- «لم أتكبد عناء ذلك! لكن لعلها تشك في الأمر، فاليوم هو السبت، وأنا لستُ في المنزل معها ومع سونيا».

تنحني موشومي نحو المقلاة، وترقب محتوياتها تُطهى على نارٍ هادئةٍ، ثم تنخز قطع الدجاج بملعقةٍ خشبية. تنظر مرةً أخرى إلى الوصفة في الكتاب، ثم تقول: «أعتقد أنه تتوجب عليَّ إضافة المزيد من السائل». تسكب موشومي قليلاً من الماء من إبريق الشاي في المقلاة، فيتصاعد البخار ليكسو نظارتها. «لا أرى شيئاً»، تضحك موشومي وتبتعد عن المقلاة، فتقف بالقرب من غوغول. توقفت الموسيقى وما من صوتٍ يُسمع داخل الشقة باستثناء الأصوات الصادرة عن الموقد. تلتفت موشومي نحو غوغول، وهي مازالت تضحك وعيناها مشوشتان. ترفع موشومي يديها المتسختين بالطحين ودهن الدجاج إلى الأعلى، ثم تسأل غوغول: «هل لك أن تخلع نظارتي، رجاءً»؟

ينزع غوغول النظارة بكلتا يديه، فيعانق الإطار الذي يلامس صدغيها. يضع غوغول النظارة على الكاونتر، ثم يميل نحوها ويقبلها. يجعل غوغول أصابعه تلامس ذراعيها العاريتين الباردتين على الرغم

من دفء المطبخ. يضمها غوغول بقوةٍ وقد وضع يده أسفل ظهرها على عقدة حزام ثوبها، ثم يتذوق طعم فمها الدافئ الحامض قليلاً. عبر حجرة المعيشة يتجهان إلى حجرة النوم حيث يرى غوغول صندوقاً ليس له حواف وُضِعت فوقه الفرشة. يفك غوغول العقدة في مؤخرة ثوبها بصعوبةٍ، ثم يفتح السحاب الطويل بسرعةٍ، فينسدل الثوب عند قدميها كبركةٍ سوداء. بفضل الضوء المنبعث من حجرة المعيشة يلمح غوغول سروالها الداخلي المخرم الأسود، وصدريةً من القماش نفسه ولها اللون ذاته. بدا جسدها العاري ممتلئاً أكثر مما هو عليه، وهي مرتدية ملابسها؛ فصدرها أكثر امتلاءً، ووركاها أعرض مما يبدو. يتطارحان الغرام فوق غطاء السرير بسرعةٍ وفاعليةٍ كبيرة، وكأنما عرف كلٌّ جسد الآخر لسنواتٍ طويلةٍ. عندما ينتهيان تشعل موشومي المصباح الجانبي، فيتأملان بعضهما، وبصمتٍ يكتشفان شاماتٍ وعلاماتٍ ونتوءاتٍ.

- «من كان ليصدق»! تقول موشومي بصوتٍ منهكٍ ولكن قانعٍ. تبتسم وعيناها نصف مغلقتين.

ينظر غوغول إلى وجهها ثم يقول: «أنت جميلة».

- «وأنت أيضاً».

- «هل تستطيعين رؤيتي دون نظارتك»؟

- «إذا بقيت قريباً مني فقط».

- «إذن الأفضل ألا أبرح مكاني».

- «لا تفعل».

يبعد غوغول وموشومي ملاءات السرير، ويستلقيان الواحد بين

ذراعي الآخر، وجسداهما دبقان ومنهكا القوى. يقبلها غوغول مرةً أخرى، فتلف رجليها حوله. بيد أن رائحة شيء يحترق تجعلهما يقفزان من السرير فجأةً عاريين، ويندفعان بصورةٍ مضحكةٍ نحو المطبخ. لقد تبخرت الصلصة وأصبحت قطع الدجاج ناشفةً إلى حدٍّ لا يؤكل، حتى إن المقلاة احترقت ولا يمكن استخدامها مجدداً. ولأنهما كانا يتضوران جوعاً، وخائري القوى، لم يستطيعا الخروج لتناول الطعام في مطعمٍ أو إعداد وجبةٍ أخرى، فانتهى بهما الأمر إلى طلب طعامٍ صيني. وبينما ينتظران وصول الطعام، أطعما بعضهما قليلاً من كعكة الفاكهة، وفصوصاً صغيرةً من الكلمنتينا.

احتفظ غوغول وموشومي مدة ثلاثة أشهر بملابسهما وفراشي أسنانهما، كلٌّ في شقة الآخر. يراها غوغول طوال عطلات نهاية الأسبوع دون مساحيق تجميلية. وبينما تطبع أبحاثها على مكتبها يرى هالاتٍ رمادية تحت عينيها، وعندما يُقبِّل رأسها يتذوق الزيت المتراكم على فروة شعرها قبل الاستحمام. يرى أيضاً الشعر الذي ينمو على رجليها قبل أن تقوم بإزالته بالشمع، وشعر حواجبها البارز، قبل أن يحين موعد زيارتها لصالون التجميل. لم يعرف غوغول مودةً وألفةً أعظم مما عرف في تلك اللحظات؛ تلك اللمحات الخاطفة. الآن، يعرف غوغول أن موشومي تنام دوماً وقد مدت رجلها اليسار في خطٍ مستقيم، في حين تثني رجلها اليمين بحيث يلامس كاحلها الأيمن ركبتها اليسار مُشكلةً الرقم4 برجليها. ويعرف كذلك أنها تميل إلى الشخير بصوتٍ خافتٍ، فتبدو مثل آلة جز العشب التي على وشك أن تعمل لكنها تخفق، وبالإضافة

إلى ذلك، يسمع غوغول صرير فكّيها فيُدلِّكهما لها وهي نائمة. أحياناً يتلفظان ببعض العبارات بالبنغالية خلال حديثهما بالإنجليزية عندما يكونان في مطعمٍ أو حانةٍ ما، ليُعلقا على بشاعة شَعر أحد الأشخاص الموجودين في المكان أو حذائه.

يواصلان الحديث دون توقف حول معرفة أحدهما بالآخر من عدمها. وبصورة ما، ليس ثمة الكثير مما يحتاج إلى تفسير. في الماضي حضر كلاهما الحفلات نفسها، والبرامج التلفزيونية ذاتها، مثل: «قارب الحب» و«جزيرة الخيال»، التي كان الأطفال يشاهدونها والآباء يتناولون الطعام في جانبٍ آخر من المنزل، والوجبات ذاتها التي قُدمت للأطفال في أطباق ورقية، والسجاد الذي يُغطى بالجرائد عندما يكون المُضيف نيقاً على نحوٍ واضحٍ. بإمكان غوغول أن يتخيل حياة موشومي بسهولةٍ حتى بعدما انتقلت إلى نيوجيرسي بصحبة عائلتها. يمكنه أن يتخيل المنزل الفسيح الذي يقع في الضاحية، والذي امتلكته عائلتها، وخزانة الأطباق ذات الأبواب الزجاجية في حجرة الطعام حيث تحتفظ والدتها بأوانيها الثمينة، والمدرسة الثانوية الحكومية الضخمة التي كانت ترتادها وهي تشعر بالبؤس، على الرغم من تفوقها. عاش كلاهما تجربة الرحلات المتكررة إلى كلكتا، فقد اقتُلِعا من حياتهما الأمريكية الطابع لشهورٍ أحياناً. يَعُدُّ غوغول وموشومي الأشهر العديدة التي قضياها في تلك المدينة البعيدة، والرحلات التي شاركا فيها هناك حيث وُجدا في المكان نفسه لأسابيع أحياناً، ولشهرٍ كامل في إحدى المرات، دون أن يدركا ذلك. يتحدثان كيف يعتقد الآخرون هنا في أمريكا، بصورةٍ

روتينيةٍ، أنهما يونانيان أو مصريان أو مكسيكيان؛ حتى سوء التفاهم هذا فهما شريكان فيه.

تتحدث موشومي بشوقٍ وحنين عن السنوات التي قضتها مع عائلتها في بريطانيا حيث عاشوا في لندن بادئ الأمر- تتذكر موشومي تلك الفترة بصعوبة- ثم انتقلوا إلى كرويدون حيث سكنت عائلتها منزلاً شبه منفصل، مبنياً من الطوب. تصف موشومي ذلك المنزل الضيق والمدافئ التي تعمل بالغاز، ورائحة الرطوبة المنبعثة من الحمامات، وتناولها لحبوب الإفطار ويتابكس والحليب الساخن، وارتدائها زيَّ المدرسة الموحد. تخبره موشومي أنها كرهت انتقالها إلى أمريكا، وأنها تمسكت بلكنتها البريطانية قدر المستطاع. لسببٍ ما، خشي والداها أمريكا أكثر بكثير من بريطانيا، ولعل ذلك يُعزى إلى مساحتها الشاسعة، أو لأن أمريكا كانت، في مخيلتهما، أقل ارتباطاً بالهند. تسرد موشومي قصة اختفاء طفلٍ من باحة منزله حين كان يلعب، ولم يتم العثور عليه مطلقاً، وذلك قبل انتقال موشومي وعائلتها إلى ماساتشوسيتس ببضعة أشهر، وكيف كان السوبرماركت يعج بالملصقات عن الطفل المفقود لمدةٍ طويلةٍ بعد وقوع الحادثة. تذكر موشومي أنها كانت مضطرةً طوال الوقت لمهاتفة والدتها باستمرارٍ كلما ذهبت برفقة صديقاتها إلى منزل إحداهن في الحي- وقد كان بإمكان والدتها أن ترى المنزل من مكانها- للَّعب بألعابهن أو تناول الكعك أو شراب البنش. كانت تستأذن من والدة صديقتها لتهاتف والدتها. أُعجبت الأمهات الأمريكيات بحس موشومي القوي بالمسؤولية، لكنهن شعرن بالحيرة أيضاً. «أنا في منزل

آنا»، تبلغ موشومي والدتها عبر الهاتف، «أنا في منزل سو».

لم يشعر غوغول بالإهانة عندما أخبرته موشومي أنه ذلك النوع من الأشخاص، الذي حاولت موشومي جاهدةً طوال حياتها أن تتجنبه. وعلى النقيض تماماً، يجد غوغول في كلامها نوعاً من الإطراء. تخبره موشومي أنها كانت مصممةً في مرحلةٍ مبكرةٍ من صباها ألا تسمح لوالديها بالتدخل في زواجها. لقد حثتها عائلتها دائماً على عدم الزواج من أمريكي، تماماً كما فعلت عائلته، لكن غوغول استنتج أن هذه التحذيرات في حالتها كانت صارمةً، لذلك أزعجتها أكثر منه. لم تتجاوز موشومي الخامسة من عمرها عندما سألها أقرباؤها إن كانت تنوي الزواج في سارٍ أحمر أو في ثوب زفافٍ أبيض. وعلى الرغم من أنها رفضت أن تُرضي فضولهم، عرفت موشومي في ذلك الوقت الإجابة الصحيحة. عندما بلغت الثانية عشرة من عمرها اتفقت مع فتاتين بنغاليتين أخريين بألا يتزوجن شاباً بنغالياً. قطعن على أنفسهن عهداً ألا يفعلن ذلك، وكتبن ذلك في وثيقةٍ، وبصقن عليها، ثم دفنَّها في مكانٍ ما في الباحة الخلفية لمنزل والديها. في مطلع حياتها كمراهقةٍ تعرضت لسلسلة من المخططات الفاشلة؛ فغالباً ما وُجدت في المنزل مجموعةٌ صغيرةٌ من شبابِ بنغال غير متزوجين، كانوا زملاء والدها في العمل. لم تتحدث موشومي معهم قط، بل كانت تصعد إلى الطابق العلوي بغطرسةٍ واضحةٍ، وتتخذ من فروضها المنزلية عذراً لمغادرة الحجرة، ولا تعود مطلقاً لتودع ضيوف والدها. خلال زيارتها لشقة جديها في كلكتا في العطلة الصيفية، ظهر رجالٌ غرباءٌ وبصورةٍ غامضةٍ في حجرة المعيشة. في إحدى المرات، وبينما

استقلت القطار مع والديها لزيارة عمٍ لها في درغابور، تقدم زوجان بجرأةٍ ليسألا والديها إن كانت مخطوبةً! كان ابنهما طبيب جراحةٍ مقيماً في إحدى المشافي في ميتشغن. كان أقرباؤها يسألون والدتها دائماً: «ألن ترتبي لها زواجاً»؟ ملأتها تساؤلاتهم تلك بالخوف. كرهت موشومي الطريقة التي تحدثوا فيها عن حفل زفافها، كحديثهم عن قائمة الطعام وألوان الساري المختلفة التي سترتديها فيه على امتداد المناسبة، وكأنما كان زواجها المرتب من شابٍ بنغالي أمراً ثابتاً ومؤكداً. كم كرهت تلك اللحظة التي فتحت فيها جدتها خزانة ملابسها، لتريها المجوهرات التي ستهديها لها عندما يحين موعد زفافها.

لم يؤخذ رأي موشومي في هذه المخططات، فلقد كانت وحيدةً على نحوٍ بائس، وتلك حقيقةٌ مشينةٌ. صدَّت موشومي الرجال الهنود الذين لم يثيروا اهتمامها، وكمراهقةٍ منعها والداها من مواعدة أي شاب. خلال دراستها في الجامعة، أخفت موشومي افتتانها الطويل بأساتذةٍ ومساعديهم، وبطلبةٍ لم تخاطبهم من قَبل. تخيلت موشومي علاقاتٍ بينها وبين هؤلاء الرجال، وشادت أيامها على احتمال لقائها بأحدهم صدفةً داخل المكتبة، أو أن تحظى بمحادثةٍ مع أستاذها خلال الساعات المكتبية، أو تحضر محاضرةً واحدةً مع أحد الطلاب الذين أُعجبت بهم، لذلك، وحتى هذه اللحظة، تربط موشومي كل سنةٍ جامعيةٍ بالرجل أو الفتى الذي رغبت فيه، بصمتٍ وإخلاصٍ وعبثية. أحياناً يتطور هذا الإعجاب إلى موعد غداء أو موعدٍ لاحتساء القهوة، وكانت موشومي تعلق كل آمالها على مثل هذه اللقاءات التي لم تفضِ، لسوء

الحظ، إلى علاقةٍ جادةٍ. لم يكن ثمة شخصٌ معينٌ في حياتها، لذلك فإن موشومي باتت، في نهاية حياتها الجامعية ومع اقتراب موعد تخرجها، مقتنعةً تماماً أنها لن تحظى بأي شخصٍ أبداً. تساءلت موشومي أحياناً إن كان خوفها من الزواج بشخصٍ لا تحبه قد تسبب في عزلها نفسَها، دون إدراك منها لذلك. وبينما تتحدث إلى غوغول، تهز موشومي رأسها، فتذكُّر هذا الجانب المؤلم من ماضيها يزعجها. مازالت تشعر بالأسى إزاء حياتها البائسة كمراهقة. تأسف أنها قضت هذه الفترة من حياتها فتاةً مطيعةً ذات شعرٍ طويلٍ لم تُعهد عنه تصفيفة معيَّنة، تتلقى دروساً في البيانو، وترتدي قمصاناً لِياقاتها أشرطة. تأسف موشومي لانعدام ثقتها بنفسها، الذي تسبب في كبح رغباتها، وتندم على تقبلها العشرة باوندات الإضافية، التي أبهظت جسدها خلال فترة البلوغ. «لا عجب أنك لم ترغب في الحديث معي آنذاك»، تقول موشومي لغوغول. أشفق غوغول على موشومي عندما حطَّت من قدر نفسها بهذه الطريقة. وعلى الرغم من أن غوغول شهد هذه المرحلة من حياة موشومي بنفسه، فإنه يعجز عن تذكرها، فلقد حلَّت صورة موشومي المرأة، كما يعرفها الآن، مكان ذكريات الماضي المبهمة، التي حملها معه طوال حياته.

في جامعة براون، كان تمرد موشومي أكاديميَّ الطابع. درست الكيمياء استجابةً لإصرار والديها اللذين تأملا أن تسير موشومي على خطى والدها. لكنها في الوقت نفسه درست الفرنسية كاختصاصٍ ثانٍ دون عِلم والديها. كان انغماسها في لغةٍ وثقافةٍ ثالثةٍ ملاذها الوحيد. أقبلت موشومي على الفرنسية، على النقيض من كل شيء أمريكي أو

هندي، دون أي شعورٍ بالذنب، أو الريبة، ودون توقعات حتى من أي نوع. كان أسهل عليها أن تدير ظهرها لدولتين تطالبانها بالكثير من أجل دولةٍ لا تملك الحق في مطالبتها بأي شيء. جعلتها السنوات الأربع التي قضتها في دراسة الفرنسية سراً مستعدةً للهروب، مع اقتراب تخرجها، إلى أبعد نقطةٍ ممكنة. أخبرت موشومي والديها أنها لا ترغب في العمل ككيميائيةٍ، وتجاهلت اعتراضات والديها، ثم جمعت كل ما تملك من مالٍ وسافرت إلى باريس دون أن تكون لديها خططٌ محددةٌ.

فجأةً بات الوقوع في الغرام أمراً سهلاً. لسنواتٍ عدَّة، بدت موشومي مقتنعةً أنها لن تجد حبيباً، لكنها بدأت ترتبط في باريس بعلاقاتٍ غرامية، بسهولةٍ بالغة. ودون أي ترددٍ، سمحت موشومي للرجال بإغوائها في المقاهي، وفي المتنزهات، وحتى وهي تحدق في لوحات المتاحف. لقد كانت الشخص نفسه تماماً، لم يتغير شكلها أو طريقة تصرفها، ومع هذا، فقد تحولت موشومي في تلك المدينة، وعلى نحوٍ مفاجئ إلى ذلك النوع من الفتيات، الذي حسدته في الماضي، واعتقدت أنها لن تغدو مثله أبداً. سمحت موشومي لهؤلاء الرجال أن يدعوها للشراب أو العشاء، وأن يصطحبوها، فيما بعد، بسيارات أجرةٍ إلى شققهم في أحياء لم تكن قد اكتشفتها بنفسها بعْد. وبالنظر إلى الماضي، رأت موشومي أن تحررها المفاجئ من شعورها بالكبت قد أثارها بشدةٍ، أكثر مما فعل في الرجال الذين خرجت معهم. كان بعضهم متزوجاً وآخرون أكبر منها بكثير، وآباء لأبناء في الثانوية. كان معظمهم فرنسيين، لكنها واعدت ألمانياً وفارسياً وإيطالياً ولبنانياً كذلك. طارحت رجلاً الغرام بعد الغداء، في

بعض الأيام، وآخر بعد العشاء. وبينما تخبر موشومي غوغول أن بعضهم أفرط في تدليلها، إذ أمطروها بالعطور الفاخرة والمجوهرات، فإنها تحرك عينيها بطريقةٍ توحي أن مثل هذه الأمور ما عادت تغريها.

عملت موشومي لدى إحدى الوكالات التي تساعد رجال الأعمال الأمريكيين على تعلم المحادثة بالفرنسية، وتساعد رجال الأعمال الفرنسيين على تعلم المحادثة بالإنجليزية. كانت تلتقي بهم في المقاهي، أو تتحدث معهم عبر الهاتف، فتسألهم عن عائلاتهم وخلفياتهم الاجتماعية والكتب والأطعمة المفضلة لديهم، ثم بدأت تتواصل مع مغتربين أمريكيين آخرين. كان خطيبها غراهام جزءاً من هذا الحشد، وهو مستثمرٌ بنكيٌ من نيويورك عاش في باريس سنةً واحدةً. وقعت في غرامه، وسرعان ما انتقلت للعيش معه في شقته. من أجل غراهام تقدمت بطلب توظيفٍ في جامعة نيويورك. استأجرا شقةً معاً في جادة يورك، وعاشا معاً سراً، وكان في الشقة خطا هاتف حتى لا يعلم والداها بأمرها. عند حضور والديها إلى المدينة، يختفي غراهام في حجرةٍ في أحد الفنادق، ويزيل معه كل الآثار التي تدل على وجوده في الشقة. كان الحفاظ على هذه الكذبة الكبيرة أمراً مثيراً في البداية، لكنها أصبحت عمليةً مرهقةً، بل مستحيلةً فيما بعد. صَحِبته معها إلى منزل والديها في نيوجيرسي، وتجهزت لمعركةٍ ستخوضها ضد والديها، ولكن، في واقع الأمر، شعر والداها بالراحة. في ذلك الوقت كانت موشومي قد كبرت، فلم يأبها لحقيقة أنه أمريكي. لقد تزوج عددٌ لا بأس به من أبناء أصدقائهم البنغال وبناتهم، بنساءٍ ورجالٍ أمريكيين، فأنجبوا أطفالاً

ذوي بشرةٍ فاتحةٍ وشعرٍ داكنٍ، نصف أمريكيين، ولم يكن الأمر سيئاً كما اعتقد والداها، لذلك حاول والداها جاهدين أن يتقبلا خطيبها الأمريكي. أخبرا أصدقاءهما البنغال أن غراهام شابٌ يتمتع بأخلاقٍ طيبةٍ وجامعيٌّ براتبٍ مثيرٍ للإعجاب. تعلَّم والداها أن يغضا الطرف عن حقيقة أن والديه مطلّقان، وأن والده تزوج مرتين لا مرةً واحدةً فقط، وأن زوجته الثانية كانت أكبر من موشومي بعشر سنواتٍ فقط.

في إحدى الليالي، وبينما علقا داخل سيارة أجرةٍ وسط زحمة المرور في المدينة، طلبت منه باندفاعٍ أن يتزوجها. عندما تتذكر موشومي ما فعلته، تفترض أن ما دفعها إلى هذا هو السنوات الماضية التي حاول فيها آخرون أن يختاروها، لكنهم لم يفعلوا، وأشعروها طوال تلك الفترة وكأن شبكةً غير مرئية تحيط بها، حتى باتت هي نفسها غير مرئية. وافق غراهام، ومنحها خاتم الألماس الخاص بجدته، ووافق أيضاً على السفر معها هي ووالديها إلى كلكتا، ليقابل عائلتها الممتدة، ويبارك جدّا موشومي زواجهما. حاز غراهام على إعجاب الجميع، فقد تعلم جلوس القرفصاء على الأرض، وتناول الأكل بأصابعه، وأن يلمس أقدام جدها وجدتها تعبيراً عن الاحترام. زار منازل العشرات من أقرباء موشومي، وتناول الأطباق الممتلئة بالحلوى البنغالية الشديدة الحلاوة، وتموضع بصبرٍ لعددٍ لا يُحصى من الصور، التي التُقِطت على سطوح المنازل، وقد أحاط به أبناء عمومتها. وافق غراهام على إقامة حفل زفافٍ هندي، لذلك ذهبت موشومي مع والدتها لتتبضعا من متجر غاريات ونيوماركت، فاختارت موشومي دزينةً من السواري ومصاغاً ذهبياً في علب حمراء

لها بطانةٌ مخمليةٌ أرجوانية، وابتاعتا لغراهام الدوطي؛ المئزر البنغالي التقليدي، وغطاء الرأس المخروطي المزركش، الخاص بالعريس، وحملتهما والدتها بيدها في الطائرة خلال رحلة العودة إلى أمريكا. خطط الجميع لحفل زفافٍ في فصل الصيف في نيوجيرسي، واتفق غراهام وموشومي على عدم إقامة حفلة خطبة، فقد بدآ بتلقي بعض هدايا الزفاف. طبعت والدتها توضيحاتٍ لطقوس الزفاف البنغالي على جهاز الكمبيوتر، وأرسلتها عبر البريد الإلكتروني لجميع المدعوين من أصدقائهم الأمريكيين، والتُقِطت لهما صورةٌ لتُنشَر في الصحيفة المحلية في البلدة حيث يعيش والدا موشومي.

خرج غراهام وموشومي لتناول العشاء برفقة بعض الأصدقاء، قبل موعد حفل زفافهما ببضعة أسابيعٍ. كانا سعيدين وشربا حتى الثمالة، وسمعت موشومي غراهام يتحدث عن الوقت الذي قضياه معاً في كلكتا. كانت صدمةً بالنسبة إليها عندما سمعته يتذمر من الرحلة، لأنها كانت شاقةً، ولأن ثقافة البلد أشعرته بالكبت والقمع. لم يفعلا شيئاً سوى زيارة أقربائها، قال غراهام. وعلى الرغم من أن كلكتا بدت له مدينةً مدهشةً، فإنه رأى أن المجتمع ريفيٌّ ضيق الأفق. يبقى الناس داخل منازلهم معظم الوقت، ولا توجد مشروبات كحولية. «تخيلوا مقابلة خمسين شخصاً من أقارب خطيبتك، دون أن ترتشف رشفةً من مشروبٍ كحولي. لم أستطع حتى أن ألمس يدها في الشارع دون أن نلفت الأنظار، بل بدأ الجميع بالتحديق بنا»، قال غراهام. استمعت موشومي لغراهام، وكانت متعاطفةً معه، لكنها شعرت بالذعر في الوقت ذاته.

كان رفضه خلفيتها الهندية وانتقاده ميراث عائلتها أمراً، وأن تسمع كل هذا منه أمراً آخر. أدركت موشومي في تلك اللحظة أنه خدع الجميع كما خدعها. أثارت موشومي الموضوع وهما في طريقهما إلى المنزل مشياً على الأقدام، وأخبرته أن تعليقاته قد أزعجتها، فلِمَ لم يُفصح عن مشاعره تلك سابقاً؟ هل كان يتظاهر بأنه يستمتع بوقته طوال الوقت؟ بدآ يتجادلان وكأن هوةً انفتقت بينهما وابتلعتهما، وفجأةً خلعت موشومي خاتم جدته، وكلها غضبٌ، وقذفته في الشارع باتجاه السيارات العابرة، فإذا بغراهام يلطمها على وجهها أمام المشاة الذين راقبوا ما حدث. ترك غراهام الشقة التي تشاركاها في نهاية الأسبوع. توقفت موشومي عن حضور محاضراتها في الجامعة، وتقدمت بطلب إجراء «غير مكتمل» لجميع امتحاناتها النهائية. حاولت موشومي الانتحار، فابتلعت نصف علبةٍ من أقراص دواءٍ ما. في حجرة الطوارئ أُجبِرت موشومي على شرب مياه الفحم، وحُوِّلت إلى طبيب نفسي. هاتفت موشومي مرشدها في الجامعة، وأخبرته أنها تعاني من انهيارٍ عصبي، فقامت بالانسحاب من الفصل الدراسي كاملاً. ألغى والداها حفل الزفاف، وأجريا مئات المكالمات الهاتفية. خسر والدا موشومي العربون الذي دفعاه لشاه جاهان؛ متعهد الحفلات، وهدية شهر العسل المتمثلة في حجزٍ في قطار السياح المهيب المعروف بـ «القصر المتحرك» Palace on Wheels. أما المصاغ الذهبي، فأودعه والداها في خزنةٍ في البنك، واحتفظت والدتها بالساري والبلايز والتنانير الداخلية داخل صناديق مقاومةٍ للعثة.

كان هدفها الأول العودة إلى باريس، لكنها استثمرت كل ما تملك

من مالٍ في الجامعة. تخلت موشومي عن الشقة في جادة يورك، فلم تستطع تحمل نفقاتها وحدها، ورفضت موشومي العودة إلى منزل والديها، واستضافها أصدقاؤها في بروكلين. تخبر موشومي غوغول أن العيش مع زوجين في تلك المرحلة تحديداً كان مؤلماً للغاية، وبخاصة سماعهما يستحمان معاً كل صباح، ورؤيتهما يقبلان بعضهما، ويغلقان باب حجرة نومهما كل ليلةٍ، لكنها لم تطق البقاء وحدها في بداية الأمر. بدأت تعمل في وظائف مؤقتةٍ حتى جمعت ما يكفي من المال لتنتقل وتعيش في شقةٍ خاصةٍ بها في إيست فيلاج، وعندها كانت مسرورةً لأنها تعيش بمفردها. ارتادت موشومي السينما طوال الصيف وحدها، وكانت ترتادها أحياناً ثلاث مراتٍ في الأسبوع. ابتاعت دليل التلفاز كل أسبوعٍ، وكانت تقرأه كاملاً، ونظمت أمسياتها حسب برامجها المفضلة. عاشت موشومي على نظامٍ غذائيٍّ معينٍ لم يتجاوز طبق الخيار باللبن والثوم والنعنع، وبسكويت بريسكيت. أصبحت موشومي نحيلةً للغاية، كما لم تكن في حياتها قط، لذلك يصعب تمييز وجهها الشاحب في الصور الفوتوغرافية القليلة التي التُقِطت لها في تلك الفترة. استغلت خصومات نهاية الصيف، فابتاعت كل ما احتاجته من ملابس قياس 4، وبعد مرور أربعة أشهر اضطرت إلى التبرع بها لمتجر البضائع المستعملة. وبحلول الخريف انغمست موشومي في دراستها، فعوّضت كل ما تخلت عنه في الفصل الدراسي السابق، وكذلك فقد بدأت موشومي تواعد بعض الشباب من حينٍ إلى آخر، ثم هاتفتها والدتها لتسألها إن كانت تتذكر فتىً اسمه غوغول.

9

تـزوج غوغـول وموشـومي خـلال عـام مـن لقائهـما، في فنـدق دوبل تري في نيوجيرسي، بالقرب من الضاحية حيث يعيش والداها. في الواقع، لم يكن زفافهما كما تمنى كلاهما. كانا يرغبان في إقامة حفل الزفاف في أحد الأماكن التي يختارها أصدقاؤهما الأمريكيون، مثل حدائق بروكلين النباتية (Brooklyn Botanic Gardens)، أو نادي المدينة (Metropolitan Club)، أو بيت القارب (Boat House) في سينترال بارك. كانا يفضلان عشاءً يقدم على موائد المدعوين، وموسيقى جاز تعزف خلال حفل الاستقبال، وصوراً فوتوغرافية باللونين الأسود والأبيض. في الواقع، كانا يفضلان حفلاً بسيطاً. بيد أن والديهما أصرا على دعوة ما يقارب الثلاثمائة شخص، وتقديم الطعام الهندي، وتوفير مواقف لسيارات جميع المدعوين. اتفق غوغول وموشومي على الإذعان لرغبات والديهما، عوضاً عن إثارة المشاكل. يستحق غوغول وموشومي كل ما يحدث لهما، يقولان مازحين، لأنهما استمعا لوالدتيهما، ولأنهما وافقا على لقاء بعضهما في المقام الأول. إلا أن استسلامهما معاً لمطالب

عائلتيهما، جعل من العواقب أمراً محتملاً. حُدِّد موعد حفلة الزفاف، وحُجز الفندق، واتُّفِق على قائمة الأطعمة التي سيتم تقديمها خلال أسابيع فقط من إعلانهما خطبتهما. وعلى الرغم من ذلك، استمرت المكالمات الهاتفية الليلية من جانب والدتها لتستفسر إن كانت عائلة غوغول تفضل كعكةً تتكون من طبقةٍ مستطيلةٍ واحدةٍ أو عدة طبقات، وهل تفضل مناديل طاولةٍ لها لونٌ واحدٌ أم مزركشة باللون الوردي، ونبيذاً أبيض (شاردونيه) أم نبيذاً أحمر (خبليس). لم يكن بوسع غوغول وموشومي أن يفعلا الكثير سوى الاستماع لوالدتيهما، وترك اختيار الأفضل لهما، والموافقة على كل ما يُقال. «إنكما محظوظان»، يقول زملاء غوغول في العمل. إن التخطيط لحفل زفافٍ يعد أمراً مجهداً، فهو الاختبار الحقيقي الأول للزواج، يضيف زملاؤه. لكن غوغول يعتقد أنه أمرٌ غريبٌ ألا يشارك في الإعداد لحفل زفافه، ويتذكر جميع الاحتفالات الأخرى في حياته التي أقامها والداه على شرفه عندما كان بالغاً؛ حفلات أعياد ميلاده وتخرجه التي حضرها أصدقاء والديه؛ تلك المناسبات التي شعر فيها أنه هُمِّش قليلاً.

حزم غوغول وموشومي أمتعتهما يوم السبت؛ اليوم الذي سيقام فيه حفل الزفاف، واستأجرا سيارةً، وتوجها إلى نيوجيرسي، ولم ينفصلا إلا عندما وصلا إلى الفندق حيث دُعي كلٌّ منهما باسم عائلته للمرة الأخيرة. يدرك غوغول وقد أصابه الذهول، أنه سيصبح بحلول الغد، هو وموشومي، عائلةً واحدةً تخصهما فقط. لم يريا الفندق مسبقاً، ولعل أبرز ما فيه المصعد الزجاجي الذي يصعد وينزل دون توقف وسط

المكان، ويجد فيه الأطفال والكبار على حدٍّ سواء، مصدراً للتسلية. تتمركز حجرات الفندق حول شرفاتٍ بيضاوية الشكل متتابعة، يمكن رؤيتها من الرواق، فتبدو لغوغول مثل كراج سياراتٍ. يحصل غوغول على حجرةٍ خاصةٍ به في الطابق نفسه، الذي فيه حجرة والدته وسونيا، وحجرات بعض الأصدقاء المقربين من عائلة غانغولي. أما موشومي، فتظل محتشمةً في الطابق العلوي في حجرةٍ مجاورةٍ لحجرة والديها، على الرغم من أنها عملياً تعيش مع غوغول في شقتها. أحضرت أشيما لغوغول الملابس التي سيرتديها؛ قميص بنجابي من جلد البرشمان كان في السابق لوالده، ودوطي ذا طياتٍ عديدة ونطاق عند الخصر، وخفاً معكوفاً. لم يرتدِ والده البنجابي قط، لذلك اضطر غوغول إلى تعليقه داخل الحمام، والماء الساخن يجري في حوض الاستحمام، حتى يتخلص من التجاعيد العالقة بالرداء بفعل بخار الماء. «إنه يباركك دوماً»، تقول والدته، وقد وضعت يديها على رأسه لحظةً. للمرة الأولى منذ وفاة والده، يرى غوغول والدته متأنقةً، فلقد ارتدت سارياً جميلاً لونه أخضر فاتح، وقلادةً من اللؤلؤ حول عنقها، ووافقت أن تضع سونيا قليلاً من أحمر الشفاه. وبينما تتأمل نفسها في المرآة، تتساءل والدته بقلق: «هل ما أرتديه مبالغٌ فيه»؟ لم يرها غوغول بهذا الجمال وهذه السعادة والحماس منذ سنواتٍ. ارتدت سونيا سارياً أيضاً، لونه وردي داكن (فوشيا)، مطرز باللون الذهبي، ووضعت وردةً حمراء في شعرها. أعطت أشيما غوغول علبةً لفتها بقطعة قماش.

- «ما هذا»؟ يسألها غوغول.

- «هل اعتقدتَ أنني نسيت عيد ميلادك الثلاثين»؟

كان عيد ميلاد غوغول قبل بضعة أيام، وكان مشغولاً، وكذلك موشومي، فلم يحتفلا في تلك الأمسية كما يجب. حتى والدته كانت منهمكةً بالترتيبات النهائية الخاصة بحفل زفافه، فنسيت أن تهاتفه في صباح ذلك اليوم، كما اعتادت أن تفعل.

يقبل غوغول الهدية من والدته، ثم يقول: «أعتقد أنني وصلت رسمياً العمرَ الذي أرغب فيه أن ينسى الناس عيد ميلادي».

- «مسكينٌ أنت غوغلز».

فتح غوغول العلبة ووجد داخلها زجاجة ويسكي من نوع بربون، وحافظةً للمشروب مغلفةً بجلدٍ أحمر. «لقد نقشتُ أحرفاً عليها»، تقول والدته، وعندما قلب غوغول الحافظة رأى الحرفين: «ن. غ». يتذكر غوغول عندما أطل برأسه داخل حجرة سونيا قبل عدة سنواتٍ، وأخبرها أنه قرر أن يغير اسمه إلى نيكيل. كانت سونيا في الثالثة عشرة تقريباً، وكانت تجلس فوق سريرها تكتب فروضها المنزلية. «لا يمكنك فعل ذلك»، قالت سونيا وهزت رأسها، وعندما سألها غوغول عن السبب، أجابته ببساطة: «لأنه لا يمكنك ذلك. لأنك غوغول». يراقبها الآن غوغول وهي تضع المساحيق التجميلية، وتكحِّل جفنيها، فيتذكر صور والدته في حفل زفافها.

- «أنت التالية، أتعلمين ذلك»؟

«لا تذكرني بالأمر»، تعبس سونيا، ثم تضحك. كل هذا الهياج الذي تسبب لهم جميعاً بدوارٍ في الرأس، وكل الحماس والإثارة اللذين رافقا

التحضير للزفاف، يشعر غوغول بالحزن لأنه يذكره بأن والده قد توفي. يتخيل غوغول والده يرتدي الملابس نفسها التي يرتديها، وشالاً يتدلى فوق أحد كتفيه، كما اعتاد أن يرتدي خلال احتفالات الإله درغا. يخشى غوغول أن يبدو سخيفاً في الثوب الذي كان سيبدو مهيباً وأنيقاً ومناسباً على والده. الخف كبيرٌ للغاية، ولا بد من حشوه بالمناديل الورقية. وبينما يستعد غوغول لزفافه خلال دقائق، تتلقى موشومي مساعدةً من مصففةٍ محترفةٍ تعتني بشعرها، وتجمِّلها بالمساحيق. يأسف غوغول لأنه لم يحضر معه حذاء العدو الخاص به، فقد كان بإمكانه الركض بضعة أميالٍ على جهاز الجري قبل بدء الحفل.

في بداية الاحتفال، توجد مراسم تقليديةٌ تدوم ساعةً كاملةً، يُقصد منها تخفيف توتر العروسين، تُؤدى على منصةٍ مغطاةٍ بملاءاتٍ. يجلس كل من غوغول وموشومي متربعين ومتقابلين، ثم بجوار بعضهما. أما الضيوف، فيجلسون أمامهما على مقاعد معدنية قابلةٍ للطي. قامت إدارة الفندق بفتح حائط الأكورديون الفاصل بين قاعتي الولائم، بسقفيهما المستعارين[1]، لزيادة مساحة قاعة استقبال الضيوف. تحوم فوق رأسي موشومي وغوغول كاميرا لتصوير الفيديو، ومصابيح بيضاء حُمِلت باليد. موسيقى الناي الهندية تنبعث من ستيريو متنقل. لم يتمرن أيٌّ منهما على هذا مسبقاً، ولم تشرح لهما والدتاهما أياً من هذه الطقوس. تحيط بهما مجموعةٌ من العمات والخالات والأعمام والأخوال، تخبرهما باستمرارٍ ما

(1) السقف المستعار: يتألف إجمالاً من سطحٍ مستقيم ذي هيكلٍ خفيفٍ يوضع تحت السقف الأساسي، ويستخدم بخاصة لإخفاء نظامِ تمديد الكهرباء، ونظام تكييف الهواء. (المترجم)

يجب عليهما فعله، ومتى يجوز لهما الحديث أو النهوض أو إلقاء زهورٍ داخل جرةٍ نحاسية. كان رجل الدين صديقاً لعائلة موشومي، وهو في الواقع طبيب تخديرٍ، لكنه من الكهنة البراهمة[1] أيضاً. تقدَّم العطايا لصور أجدادهما وصورة والد غوغول، ويُسكَب الأرز داخل المحرقة التي منعتهم إدارة الفندق من إشعالها. في تلك اللحظة يفكر غوغول في والديه عندما كانا غريبين عن بعضهما حتى لحظة زفافهما، لم يتحدثا معاً حتى تزوجا. وبينما يجلس غوغول إلى جوار موشومي، يدرك معنى الزواج، ويشعر بالذهول من شجاعة والديه، ومقدار الطاعة المرتبطة بهذا الأمر.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها موشومي ترتدي سارياً، فضلاً عن ارتدائها له خلال احتفالات الإله درغا منذ سنواتٍ بعيدةٍ، عندما كانت صغيرةً وعانت بصمت. ارتدت موشومي حلياً ذهبيةً يقارب وزنها عشرين باونداً. وعندما جلسا متواجهين، وقد وضعا يديهما معاً تحت قطعة قماشٍ مزركشةٍ بمربعاتٍ صغيرةٍ، أحصي غوغول إحدى عشرة قلادة. على خدَّي موشومي، زركشةٌ تقليديةٌ بالأحمر والأبيض[2]. وحتى تلك اللحظة، كان مايزال ينادي والديْ موشومي باسميهما؛ شوبير ميشو ورينا ماشي، كما كان يفعل دوماً، وكما لو أنهما مايزالا عمه وعمته،

(1) البراهمة: هم المنتمون إلى الطبقة العليا من الهندوس، ولا يكون الكهنة والسدنة إلا منهم. (المترجم)

(2) يشير النص الأصلي إلى الزركشة التقليدية عند الهنود، وهي فارسية الأصل. وتتمثل غالباً في رسمة لورقة شجرٍ، وقد أصبحت علامةً مميزةً لشالات الكشمير. يطلق عليها الأمريكيون التقليديون اسم Persian Pickles أو «المخللات الفارسية»، في حين يُطلَق عليها في لغة إقليم ويلز Welsh Pears «الإجاص الويلزي». (المترجم)

وكأن موشومي مازالت ابنة عمه نوعاً ما. لكن مع انتهاء هذه الأمسية سيصبح صهرهما، ويُتوقع منه أن يعدَّهما كوالديه.

يبدل غوغول ملابسه من أجل حفل الاستقبال، فيرتدي بذلةً وترتدي موشومي ثوباً صممته بنفسها، وخاطته خيَّاطة هي في الواقع إحدى صديقاتها، من قماش الساري البيناريسي[1]، وجعلت له حمالاتٍ رفيعة للغاية عند الكتفين. ترتدي موشومي الفستان على الرغم من اعتراض والدتها التي أرادتها أن ترتدي السلوار كاميز. وعندما نسيت موشومي شالها على أحد الكراسي، فظهر كتفاها النحيلان اللذان اكتسبا لوناً برونزياً عاريين متلألئين بفعل بودرةٍ خاصة جمَّلتهما بها، ووسْط هذا الحشد العظيم من الضيوف، رمقتها والدتها بنظراتٍ موبخةٍ، إلا أن موشومي تجاهلتها تماماً. يتقدم عددٌ لا يحصى من الضيوف لتهنئة غوغول، وإخباره أنهم يعرفونه منذ كان طفلاً صغيراً، ويطلبون التقاط صورهم معه، وأن يلف ذراعيه حول هذه العائلات ويبتسم. يشعر غوغول بالخدر طوال حفل الاستقبال بفعل المشروب، والفضل يعود إلى البار (المشرب) المفتوح، الذي دفع والدا موشومي نفقاته. شعرت موشومي بالذعر عندما دخلت قاعة الولائم ورأت الموائد مكللةً بقماش التول الرقيق، والأعمدة مزينةً بنبات اللبلاب وزهرة نفس الطفل (baby's breath) اللذيْن يلتفان حولها. ترتطم بغوغول عند خروجها من حمام السيدات، فيتبادلان قبلةً سريعة، ولا تكاد علكة النعناع التي

(1) الساري البيناريسي نسبةً إلى مدينة بيناريس. يعد هذا الساري من أفخر أنواع السواري، فهو محوكٌ من قماشٍ حريريٍّ مطرزٍ بخيوطٍ من الذهب والفضة. (المترجم)

تمضغها تخفي رائحة السجائر التي يعبق بها نَفَسُها. يتخيلها غوغول وهي تدخن في الحمام، وقد أنزلت غطاء المرحاض وجلست فوقه. لم يكادا يتحدثان خلال هذه الأمسية تقريباً، فلقد أبقت عينيها منخفضتين في أثناء مراسم الاحتفال، وكلما نظر إليها خلال حفل الاستقبال، وجدها منهمكةً بالحديث مع أشخاصٍ لا يعرفهم. فجأةً يشعر غوغول أنه يريد أن ينفرد بها، فيتمنى لو كان بمقدورهما التسلل إلى حجرته أو حجرتها، فيتجاهلان ما تبقى من هذا الحفل كما اعتاد أن يفعل عندما كان صبياً. «هيا، تعالي»! يحث غوغول موشومي، وهو يتحرك باتجاه المصعد الزجاجي، «لربع ساعةٍ فقط، لن يلاحظ أحد»، يقول غوغول. لكن إدارة الفندق أعلنت بدء العشاء، وباتت تنادي أرقام الطاولات بمكبرات الصوت. «أحتاج إحداهن لتعيد تصفيف شعري». أُلصقت بطاقةٌ كُتب عليها «الضيوف الأمريكيون» على الأواني الحرارية الفضية اللون.

تكونت الوليمة من طعام هنديٍّ تقليديٍّ، مثل ذلك الذي يميز المناطق الشمالية في الهند، وهو كمٌّ كبيرٌ من قطع الدجاج المحمرة الساخنة المطهوة في فرن التندوري، وطبق الخضار المكون من القرنبيط والبطاطس مع صلصلة البرتقال الكثيفة. يسمع غوغول أحد الضيوف مصادفةً يقول إنَّ الحمص قد فَسُد ولا يمكن تناوله. يجلس غوغول وموشومي عند الطاولة الرئيسة، وإلى جانبه والدته وسونيا ووالدا موشومي وعددٌ قليل من أقربائها الذين قدِموا من كلكتا لحضور الزفاف، وشقيقها سامرات وقد فاته يوم التعريف بالجامعة والترحيب

بالطلبة الجدد الذي تقيمه جامعة شيكاغو، حتى يتمكن من حضور حفل الزفاف. الكثير من تبادل الأنخاب والخطابات الغريبة التي تتفوه بها عائلتاهما وأصدقاؤهما الذين يشربون نخب العروسين. يقف والدها، مبتسماً وقد بدا عليه التوتر، وينسى أن يرفع كأسه، ثم يقول: «أشكركم جميعاً لحضوركم»، ثم يلتفت نحو موشومي وغوغول، فيقول لهما: «حسناً، فلتكونا سعيدين». تنقر عمات العروسين وخالاتهما اللواتي ارتدين الساري نقراً خفيفاً على كؤوسهن بالشوكات، وهن يضحكن بصوتٍ منخفضٍ، ويرشدن العروسين ليُقبِّلا بعضهما في التوقيت المناسب. مع كل نخبٍ يُلزم والد العروس غوغول بتقبيل موشومي على وجنتيها بخضوعٍ تام.

تُدفع كعكعة الزفاف على طاولةٍ صغيرةٍ لها عجلات، وقد كُتب عليها: «نيكيل يتزوج من موشومي». تبتسم موشومي لآلة التصوير الابتسامة نفسها التي اعتادتها؛ تُغلق فمها وتميل برأسها جهة اليسار. يدرك غوغول أنه وموشومي يلبِّيان رغبةً جماعيةً راسخةً، ولأن كليهما بنغالي فبإمكان الجميع أن يستمتعوا بوقتهم، دون أن يقلقوا حيال ما يظنه الآخرون. أحياناً، وبينما ينظر غوغول إلى الضيوف، لا يسعه إلا أن يفكر في احتمال أن يكون، قبل عامين، أحد هؤلاء الجالسين في بحرٍ من الموائد المستديرة المحيطة به الآن، يراقبها وهي تتزوج رجلاً آخر. تغمره الفكرة مثل موجةٍ غير متوقعةٍ، لكنه سرعان ما يُذكِّر نفسه أنه من يجلس بجوارها الآن. لقد ابتاعت موشومي ساري الزفاف البيناريسي الأحمر والحلي الذهبية قبل عامين، عندما كانت ستتزوج غراهام. كل ما فعله

والداها هذه المرة هو إنزال العلب التي احتوت على ملابس موشومي من رف الخزانة، واسترجاع الحلي من صندوق الأمانات، ووضْع قائمةٍ مفصَّلةٍ لمتعهدي حفلاتٍ. كانت الدعوات الجديدة التي صممتها أشيما وترجمها غوغول إلى الإنجليزية الشيء الوحيد الذي لم يكن من آثار الماضي.

كان على موشومي أن تعود إلى عملها بعد ثلاثة أيامٍ من العُرس، ولذلك أُجِّل شهر العسل. كانت الليلة التي قضياها وحدهما في فندق دوبل تري، الذي كانا يتوقان لمغادرته، أقرب ما وصلا إليه من فكرة شهر العسل. غير أن والديهما تكبدا عناء حجز الجناح الخاص بالعروسين وكلفته. «يجب أن أستحم»، تقول موشومي بمجرد أن أصبحا وحدهما، ثم تختفي داخل الحمام. يعلم غوغول أنها منهكةٌ تماماً مثله، فقد اختُتمت الليلة برقصةٍ طويلةٍ على أغاني فرقة «الآبا». يتأمل غوغول الحجرة، يفتح الثلاجة الصغيرة، ويقرأ محتويات قائمة خدمة الغرف، على الرغم من أنه لم يكن جائعاً مطلقاً. في الواقع، كان يشعر بالغثيان من مزيج ويسكي البربون وقطعتي الكعكة اللتين تناولهما، لأنه لم يتناول العشاء. يتمدد غوغول على السرير المزدوج الكبير باسطاً ذراعيه وقدميه. نثرت عائلتاهما بعض بتلات الورود على غطاء السرير، كمبادرةٍ أخيرةٍ قبل مغادرتهما الحجرة. ينتظر غوغول موشومي، ويُقلِّب قنوات التلفاز. توجد زجاجة شمبانيا وُضعت داخل سطلٍ صغير مليءٍ بالثلج، وطبق من الشوكولاته لُفَّ بشريط تغليف. يقضم إحدى قطع الشوكولاته المحشوة بالتوفي القاسي، الذي تطلب مضغاً أكثر مما توقع.

يشعر غوغول بالانزعاج من خاتم الزواج الذهبي الذي وضعته موشومي في إصبعه، بعدما قاما بتقطيع الكعكة. تقدم غوغول لخطبة موشومي في عيد ميلادها، فابتاع لها خاتم ألماسٍ، بالإضافة إلى الخاتم الثاني الذي ابتاعه لها في موعدهما الغرامي الثاني. جعل غوغول الخطبة تبدو أعقد مما هي عليه، فاتخذها ذريعة لاصطحاب موشومي إلى فندقٍ ريفي صغيرٍ في عطلة نهاية الأسبوع، في بلدةٍ تقع إلى الشمال، على ضفاف نهر هدسون، وكانت تلك الرحلة الأولى التي يخرجان فيها معاً وحدهما إلى مكانٍ غير منزل والديها في نيوجيرسي أو منزل والديه في شارع بيمبيرتون. كان فصل الربيع قد حلَّ، ولم تلائم القبعة الناعمة الملمس التي ابتاعها لموشومي هذا الطقس. «لا أصدق أن هذه القبعة مازالت موجودةً في المتجر»، تقول موشومي. لم يخبرها غوغول بالموعد الحقيقي لشرائه القبعة. قدَّمها لها في الطابق السفلي، في حجرة الطعام بعد تناولهما لقطع الستيك التي أُعدت من لحم الخاصرة الليِّن، وقُطِّعت لهما عند الطاولة. التفت الزبائن الغرباء نحو موشومي لإبداء إعجابهم بالقبعة التي اعتمرتها. وبعدما جرَّبت موشومي القبعة، وضعتها في العلبة، ثم وضعت العلبة بعيداً تحت كرسيها، ولم تلحظ العلبة الصغيرة التي ضاعت بين ثنايا بطانة العلبة الكبيرة. «يوجد شيء آخر داخل العلبة»، اضطر غوغول للقول. بالنظر إلى هذه الحادثة الآن، يقر غوغول أن موشومي شعرت بالصدمة بفعل القبعة أكثر من فكرة الخطبة في حد ذاتها. وبينما كانت القبعة مفاجأةً حقيقيةً، كانت الخطبة أمراً متوقعاً ومفروغاً منه بالنسبة إلى عائلتيهما منذ البداية. وسرعان ما أصبح الأمر

كذلك بالنسبة إلى غوغول وموشومي، فطالما أنهما معجبان ببعضهما، فإن تودد الواحد للآخر سيفضي حتماً إلى الزواج. وبينما رفعت موشومي ناظريها بعيداً عن علبة القبعة، ابتسمت ابتسامةً عريضةً، ثم قالت: «نعم»، حتى قبل أن يطلب غوغول يدها للزواج.

تخرج موشومي من الحمام مرتديةً رداء الحمام الأبيض الخشن الملمس، الخاص بالفندق. أزالت مساحيق التجميل عن وجهها، وخلعت حُليَّها، وغسلت مسحوق الزنجفر القرمزي الذي وضعه غوغول على شعرها عند نهاية مراسم الزواج. خلعت موشومي حذاءها العالي الذي وصل ارتفاع كعبه إلى ثلاثة إنشات، مما جعلها تبدو أطول من الجميع، والذي ارتدته بمجرد أن انتهى الجانب الديني من حفل الزفاف. يراها غوغول الآن فاتنةً، ساحرةً، غير متبرجةٍ، مدركاً أنها تبدو هكذا خصيصاً من أجله. تجلس موشومي على حافة الفرشة، وتمسح رجليها وقدميها بكريم مرطبٍ أزرق. قامت موشومي بتدليك قدمي غوغول سابقاً بالمرطِّب نفسه عندما خرجا في نزهةٍ على الأقدام معاً على جسر بروكلين، مما جعلهما يشعران بخدرٍ في أقدامهما من شدة البرد. توقع غوغول أن يجد تحت رداء الحمام الذي ارتدته موشومي ملابس نسائيةً مثيرةً، ففي نيويورك لمح غوغول أكواماً من الهدايا في إحدى زوايا حجرة النوم، مما تلقته في حفل ما قبل الزواج، الذي أقامته صديقاتها. لكنها كانت عاريةً، ورائحتها تشبه رائحة التوت. يُقبِّل غوغول شعرها المتدلي على ساعدها، وعظام الترقوة البارزة، وقد اعترفت لغوغول مرةً أنها الجزء المفضل من جسدها. يتطارحان الغرام على الرغم من أنهما منهكان. ينسدل شعرها

الرطب البارد على وجهه. تلتصق بتلات الورود بكوعيهما وكتفيهما ورجليهما. يستنشق رائحة جسدها ومايزال غير قادرٍ على استيعاب حقيقة أنهما متزوجان. متى سيدركها كحقيقةٍ راسخةٍ؟ حتى في تلك اللحظة، لايشعر غوغول أنه وحده معها، فكان يتوقع قدوم أحد أفراد عائلتيهما ليخبرهما ماذا عليهما أن يفعلا. وعلى الرغم من أنه يرغب بها بشدةٍ كما كان في السابق، فإنه يشعر براحةٍ كبيرةٍ عندما انتهيا، يتمددان عاريين بجوار بعضهما، ويعرفان أنه لا يُتوقع منهما المزيد، وأن بإمكانهما الآن أن يسترخيا.

يفتحان زجاجة شمبانيا ويجلسان سويةً على السرير، ويفتشان داخل كيس تسوقٍ كبيرٍ مليءٍ ببطاقات تهنئةٍ داخلها شيكات مصرفية شخصية، هي هدية من مئات أصدقاء والديهما. لم ترغب موشومي في إعداد قائمة للهدايا التي ترغب فيها. برَّرت ذلك لغوغول قائلةً بأنه لا وقت لديها، لكنه شعر أنها لم تكن قادرةً على مواجهة الأمر، وخوض التجربة ذاتها للمرة الثانية. لن تكتظ شقتهما بعشرات المزهريات الكريستالية وأطباق التقديم كبيرة الحجم وأواني الطبخ والمقالي الموحدة الشكل. في الواقع، لا تأبه موشومي بالأمر. لا توجد آلةٌ حاسبةٌ لجمع المبلغ، لذلك يستخدمان الأوراق العديدة التي وفَّرتها إدارة الفندق داخل الحجرة. كُتبت معظم الشيكات باسم السيد نيكيل والسيدة موشومي غانغولي. وبينما كانت القيمة مائة دولار ودولار واحد، مائتا دولار ودولار واحد، لعددٍ كبيرٍ من الشيكات، كانت قيمة بعضها ثلاثمائة دولار ودولار واحد، إذ يؤمن البنغال أن الأعداد الصحيحة، بدون كسور، مشؤومة. يجمع غوغول

المبالغ التي دوَّنها في كل صفحة.

- «سبعة آلاف وخمسة وثلاثون دولاراً»، يعلن غوغول.

- «ليس مبلغاً سيئاً يا سيد غانغولي»!

- «لقد كسبنا الكثير من المال بأقل جهدٍ وفي وقتٍ قصير».

لكنها لم تصبح السيدة غانغولي، فلقد أبقت اسم عائلتها، وحتى إنها رفضت أن تضيف «غانغولي» إلى جانب اسم عائلتها، فـ «مازومدار»؛ اسمها الأخير، يصعب نطقه أصلاً. وإذا ما أضافت اسم «غانغولي» إلى اسم عائلتها، فلن يتسع الجزء المخصص لكتابة الاسم الأخير في المظاريف الرسمية لاسمها الجديد. وبالإضافة إلى ماسبق، بدأت موشومي بنشر مقالاتها المزودة بشروحاتٍ، عن النظرية النسوية الفرنسية، في عددٍ من المجلات الأكاديمية المتميزة، تحت اسم «موشومي مازومدار»؛ تلك المجلات التي تتسبب حواف صفحاتها بجرح أصابع غوغول كلما حاول قراءتها. تمنى غوغول منذ أن قاما بتعبئة النموذج الخاص بالحصول على رخصة الزواج أن تغير موشومي رأيها إجلالاً لذكرى والده على الأقل، لكنه لم يعترف لها بذلك مطلقاً. لكن فكرة تغيير اسمها الأخير إلى غانغولي لم تخطر ببالها. عندما يستمر أقرباؤها في الهند بعنونة رسائلهم لها وبطاقات التهنئة باسم «السيدة موشومي غانغولي»، تهز موشومي رأسها بأسفٍ، وتتنهد.

يودع غوغول وموشومي النقود في البنك كدفعةٍ أولى لشقةٍ اشترياها، تتكون من حجرة نوم واحدة، في حي توينتيز على طريق الجادة الثالثة. كان ثمن الشقة أعلى قليلاً من قدرتهما على تحمل القرض

بطريقةٍ مريحةٍ، لكنهما اقتنعا بالظلَّة التي تظلل مدخل العمارة، وبواب العمارة الذي كان عمله جزئياً، والرواق المكسو بالبلاط البرتقالي، الأقرب إلى لون القرع. كانت شقةً صغيرةً، لكنها فاخرةٌ. خزائن كتبٍ لونها بنيٌّ ضاربٌ إلى الحمرة، مبنيةٌ داخل الجدران وترتفع حتى السقف، وأرضياتٌ مغطاة بألواح خشبيةٍ سميكةٍ عريضةٍ داكنة اللون ولامعة، ولحجرة المعيشة منور (كُوَّة) وسط السقف، ومطبخٌ مزودٌ بأجهزةٍ وأوانٍ من الستينليس ستيل باهظة الثمن، وحمام ذو أرضياتٍ وجدرانٍ رخامية. أما حجرة النوم فلها شرفةٌ وهميةٌ[1]، وتضع موشومي في إحدى زوايا الحجرة مكتبها وجهاز حاسوبها والطابعة وملفاتها. كانت الشقة في الطابق الأخير، وإذا ما انحنى المرء أقصى ما يمكن ناحية اليسار من نافذة الحمام، فيمكنه رؤية مبنى الإمباير ستيت. يقضي غوغول وموشومي بعض عطلات نهاية الأسبوع في ركوب الحافلة التي تتوجه إلى متجر إيكيا، فيملآن الحجرات بما ابتاعاه من مصابيح تحاكي فن النحات نوغوتشي، وأريكةٍ سوداء قابلةٍ للتفكيك، لتتناسب مع الحيز المتوافر، وبُسطٍ مزخرفةٍ للجدران، وسجادٍ صوفيٍّ محوكٍ يدوياً للأرضيات، وسريرٍ لونه فاتحٌ له قاعدةٌ خشبيةٌ. يُعجب والداها وأشيما، بل يشعرون بالذهول، عند زيارتهم لغوغول وموشومي للمرة الأولى. أليست صغيرةً قليلاً وبخاصة أنهما قد تزوجا الآن؟ إلا أن غوغول وموشومي لا يفكران في الإنجاب في الوقت الحاضر؛ بالتأكيد ليس قبل

(1) شرفةٌ وهميةٌ أو ما يُعرف بشرفة روميو وجولييت، حيث يحيط درابزين بنافذة الحجرة، التي تمتد حتى السقف عادةً، فيعطي انطباعاً بوجود شرفة. (المترجم)

أن تنهي موشومي أطروحة الدكتوراة. يتسوقان أيام السبت، فيشتريان الطعام من سوق الأطعمة الطازجة في ميدان يونيون، وقد حملا حقائب الظهر القماشية على كتفيهما. يبتاعان طعاماً لا يعرفان كيف يُعدَّانه مثل الكرَّات، وحبات الفول الطازجة، وورق السرخس الطازج أو ما يُعرف بالخنشار، فيبحثان عن وصفاتٍ في كتب الطهي التي كانت من ضمن هدايا الزفاف. عندما يطهوان الطعام من حينٍ إلى آخر، يشتغل جهاز إنذار الحريق الحساس للغاية، ثم يسكتانه من خلال نقره بعصا المكنسة.

بين حينٍ وآخر يستمتعان بوقتهما من خلال إقامة نوعٍ معينٍ من الحفلات، التي ما كان والداهما ليقيماها، فيخلطان المارتيني يدوياً في وعاءٍ خاصٍ من الستينليس ستيل من أجل بعض أصدقاء غوغول؛ زملائه من المهندسين المعماريين، أو أصدقاء موشومي؛ زملائها في الدراسة في جامعة نيويورك. يستمعون إلى موسيقى البوسا نوفا[1]، ويقدم أشوك وموشومي الخبز والسلامي والجبن. يُحوِّل غوغول النقود التي في حسابه البنكي إلى حسابها، ويحصلان على دفتر شيكاتٍ لونه أخضر فاتح، واسماهما مطبوعان في الزاوية. اتفقا على أن تكون كلمة «لولو»- اسم المطعم الفرنسي الذي تناولا فيه أول وجبة معاً- الرمز السري لبطاقة الصراف الآلي. يتناولان الطعام، معظم الليالي، وهما جالسان جنباً إلى جنب على المقاعد التي ليس لها ظهر عند الكاونتر في المطبخ، أو عند منضدة القهوة الصغيرة، ويشاهدان التلفاز. قلَّما يُعدان طعاماً هندياً، بل يتناولان عادةً المعكرونة أو السمك المشوي أو طعاماً

(1) البوسا نوفا: نوع من الموسيقى الإيقاعية تشبه السامبا. (المترجم)

جاهزاً يبتاعانه من المطعم التايلندي الموجود في الطابق السفلي من المبنى. لكنهما أحياناً، وبخاصة في أيام الأحد يتوقان للطعام الذي تربيا على تناوله، فيستقلان القطار إلى كوينز ليتناولا وجبة إفطارٍ متأخرةٍ، فيملآن طبقيهما بقطع الدجاج المطهو في فرن التندوري، والكباب الهندي، وفطيرة الباكورا المقلية، ثم يتسوقان فيشتريان أرز البسمتي، وتوابل هندية لا بد من توافرها داخل منزلهما باستمرار، أو يذهبان إلى أحد المقاهي الصغيرة المتواضعة لاحتساء الشاي في أكواب ورقيةٍ مع الكثير من الكريمة المخفوقة، ويسألان النادلة بالبنغالية أن تحضر لهما زبدية لبن حلو المذاق، ويخنة حليم (Haleem)[1]. يهاتف غوغول موشومي كل يوم في المساء، قبل أن يغادر المكتب ليخبرها أنه في طريقه إلى المنزل، ويسألها إن كانت تريد بعض الخس أو رغيف خبزٍ. بعد تناول العشاء، يشاهدان التلفاز معاً، في حين تكتب موشومي بطاقاتٍ لجميع أصدقاء والديهما لتشكرهما على الشيكات البنكية التي تطلَّب إيداعها عشرين قسيمةً. مثل هذه الأمور تُشعر غوغول أنه متزوج، وما دون ذلك لا يشكل أي فرق، باستثناء أنه الآن برفقة موشومي. في الليل، تنام موشومي بجوار غوغول، حيث تنام على معدتها دائماً، وتستيقظ كل صباح وقد وضعت وسادةً على رأسها.

أحياناً يجد غوغول في الشقة بعض بقايا حياتها السابقة مع غراهام؛ أي قبل ظهوره، مثل إهداءٍ لهما مكتوب داخل كتاب شعرٍ، أو بطاقةٍ بريديةٍ من بروفينس في فرنسا دسَّتها موشومي في نهاية أحد القواميس،

(1) تتكون يخنة حليم من الحنطة والشوفان والعدس واللحم. (المترجم)

مُرسلةٍ إلى عنوان الشقة التي عاشا فيها معاً سراً. في إحدى المرات، لم يستطع غوغول أن يمنع نفسه، فذهب سيراً على الأقدام إلى العنوان الذي وجده، خلال استراحة الغداء، متسائلاً عن نمط الحياة الذي حظيت بها موشومي هناك. تخيلها غوغول تمشي على الرصيف تحمل أكياس البقالة بعد عودتها من السوبرماركت الذي يقع على زاوية الشارع التالية، وهي واقعةٌ في غرام رجلٍ آخر. لا يشعر غوغول بالغيرة من ماضيها في حد ذاته، لكنه يتساءل إن كان يمثل نوعاً من الاستسلام أو الهزيمة. لا يشعر غوغول هكذا طول الوقت، لكن الأمر يزعجه إلى حد أنه يخيم على أفكاره أحياناً. في مثل تلك اللحظات ينظر غوغول من حوله، فيجد في الشقة التي ابتاعاها معاً ما يطمئنه، فهي تذكره بالحياة التي أسساها سويةً ويتشاطرانها الآن. ينظر غوغول إلى صورة زفافهما حيث تدلَّى إكليلا زهورٍ متماثلان من عنقيهما. كانت الصورة داخل إطارٍ جلديٍّ جميلٍ، ووضعتها موشومي فوق جهاز التلفاز. يتجه غوغول إلى حجرة النوم حيث تعمل موشومي، فيُقبِّل كتفها، ثم يجرها إلى السرير. لكن يوجد في الخزانة التي يتقاسمانها الآن كيسٌ لحفظ الملابس يحتوي على فستانٍ أبيض، يعلم غوغول أنها كانت سترتديه في بنسلفينيا بعد مرور شهرٍ على مراسم الزفاف الهندي الذي خطط له والداها، حيث كانت ستُقام مراسمُ أخرى أمام قاضي صلحٍ على مرجةٍ خضراء في منزل والد غراهام. أخبرت موشومي غوغول عن الفستان. ظهرت رقعةٌ صغيرةٌ من الفستان من خلال النافذة البلاستيكية في الكيس. قام غوغول بفتح الكيس مرةً، فلمح ثوباً قصيراً دون أكمامٍ، وله قبةٌ دائريةٌ بسيطةٌ، يشبه

فستان رياضة التنس. سألها غوغول في أحد الأيام عن السبب وراء احتفاظها به حتى اللحظة، فهزت كتفيها مستهجنةً، وقالت: «أحتفظ به حتى أقوم بصبغه».

سافر غوغول وموشومي إلى باريس في آذار. تلقت موشومي دعوةً لتقديم بحثها في مؤتمرٍ عُقد في جامعة السوربون، فقررا أن ينتهزا الفرصة ليستمتعا بعطلةٍ في باريس، حيث رتَّب غوغول حصوله على إجازةٍ من العمل لأسبوعٍ واحدٍ. لم يُقيما في فندقٍ بل شقةٍ في منطقة الباستيل يمتلكها صديق موشومي؛ إمانويل، الصحفيُّ الذي يقضي إجازته في اليونان. كانت الشقة صغيرةً جداً، ومُدفَّأةً بصعوبة، وتقع عند نهاية قلبة الدرج السادسة الشديدة الانحدار، والحمام بحجم كشك الهاتف. يوجد سرير عليَّةٍ يبعد بضعة إنشاتٍ عن السقف، مما يجعل ممارسة الجنس مجازفةً خطيرة. يشغل إبريق تحضير القهوة السريعة الموقد الصغير الذي يتكون من مشعلين فقط. وباستثناء كرسيين عند مائدة الطعام، لا يوجد مكانٌ آخر للجلوس. كان الطقس بارداً جداً وكئيباً، والسماء بيضاء تنذر بهطول الثلوج، وقد بدت الشمس كأنها اختفت من المشهد للأبد. تخبره موشومي أن باريس تشتهر بمثل هذا الطقس. يشعر غوغول أنه غير مرئي، إذ يحدق الرجال في الشارع في موشومي باستمرار، فتطاردها نظراتهم على الرغم من وجوده إلى جانبها.

كانت زيارتَه الأولى لأوروبا. هي المرة الأولى التي يرى فيها غوغول تلك الهندسة المعمارية التي قرأ عنها سنواتٍ عديدة، وأبدى إعجابه بها عبر ما رآه في الكتب وشرائح العرض. عندما يكون برفقة موشومي،

لسببٍ ما، لا يشعر غوغول بالحماس والإثارة بقدر ما يشعر أن عليه الاعتذار لوجوده معها. وعلى الرغم من أنهما يخرجان معاً في رحلةٍ إلى مدينة شارتر ورحلةٍ أخرى إلى قصر فيرساي، يشعر غوغول أنها تفضل الالتقاء بأصدقائها لاحتساء القهوة أو حضور حلقة نقاشٍ في المؤتمر أو تناول الطعام في إحدى حاناتها المفضلة أو الخروج للتسوق في متاجرها المفضلة. يشعر غوغول منذ البداية أنه عديم الفائدة، فموشومي تتخذ جميع القرارات، وهي من يتحدث الفرنسية. كان غوغول صامتاً في المطاعم الصغيرة التي تناولا فيها طعام الغداء، وفي المتاجر حيث يحدق في الأحزمة الجلدية وربطات العنق الجميلة، والورق وأقلام الحبر، وحتى في فترة ما بعد الظهيرة الماطرة التي قضياها معاً في متحف أورسيه. كان غوغول صامتاً بشكلٍ خاص عندما التقيا مجموعةً من أصدقائها الفرنسيين لتناول العشاء، حيث استمتعوا بوليمةٍ تكونت من الكسكسي ومخلل الملفوف مع لحم الخنزير والسجق والبطاطس، وشربوا الخمر الفرنسي المعروف ببيرنود[1]، ودخنوا وتناقشوا حول طاولةٍ مغطاة بمفرشٍ ورقي. يحاول غوغول جاهداً أن يفهم موضوع النقاش- اليورو، مونيكا لوينسكي، ومشكلة عام 2000 أو ما يُعرف بخطأ الألفية- لكن كل ما دون ذلك كان ضبابياً ولا يمكن تمييزه من قعقعة الأطباق، ورتابة الأصوات المتكررة، وضحكات الحاضرين. يراقبهم غوغول من خلال المرايا الضخمة ذات الإطار الذهبي المثبتة على الحائط، تميل رؤوسهم ذات الشعر الداكن بالقرب من بعضها.

(1) بيرنود: مشروب كحولي بنكهة اليانسون. (المترجم)

يدرك غوغول أن وجوده مع شخصٍ يعرف المدينة جيداً هو ميزةٌ في حد ذاتها، لكنه في الوقت نفسه يرغب في أن يكون مجرد سائحٍ يبحث عن الكلمات الصحيحة في كتاب العبارات الفرنسية، وينظر إلى جميع المباني الموجودة على قائمته ثم يضلُّ الطريق. عندما يعترف لموشومي برغبته تلك، وهما في طريقهما إلى الشقة سيراً على الأقدام، تقول الأخيرة: «لِمَ لم تخبرني بذلك منذ البداية»؟ في صباح اليوم التالي تعطيه موشومي بعض التعليمات حتى يتمكن من الوصول إلى محطة المترو سيراً على الأقدام، وإلى أحد أكشاك التصوير حتى يتصور وحده، وتخبره كيف يمكنه الحصول على بطاقة المواصلات العامة البرتقالية اللون. وهكذا، يذهب لزيارة معالم المدينة وحده، في حين تشارك موشومي في المؤتمر، أو تجلس في الشقة عند الطاولة تضع اللمسات الأخيرة على بحثها. كان كتاب خطة استرشادية لباريس، وهو دليلٌ صغيرٌ للمدينة له غلافٌ أحمر وخريطةٌ مثبتةٌ على غلافه الخلفي، رفيقه الوحيد. كتبت موشومي بعض العبارات بالفرنسية، على الصفحة الأخيرة من أجله، مثل: «أريد أن أذهب إلى مقهى لو سمحت»؟ «أين الحمام رجاء»؟ وبينما يتجه غوغول نحو الباب، تحذره موشومي قائلةً: «لا تطلب قهوةً بالكريمة إلا في الصباح، فالفرنسيون لا يشربونها في أوقاتٍ مغايرةٍ».

وعلى الرغم من أنه يومٌ مشرقٌ ويوحي بطقسٍ مختلفٍ، فإنه بدا بارداً جداً، فالهواء القارس يتخلل أذني غوغول، لكنه منعشٌ في الوقت ذاته. يتذكر غوغول أول وجبة غداء تناولها برفقة موشومي؛ ما بعد ظهيرة ذلك اليوم عندما جرَّته إلى متجر القبعات. يتذكر كيف

صرخا معاً بانسجام عندما صفعت الرياح القارسة وجهيهما، لكنهما لم يكونا متعارفين جيداً ليضما بعضهما بحثاً عن الدفء. يمشي غوغول إلى زاوية الشارع ويقرر ابتياع قطعة كرواسون أخرى من المخبز حيث يذهب مع موشومي كل صباح لابتياع الإفطار. يرى غوغول زوجاً يقفان على الرصيف في بقعةٍ ساطعةٍ بحثاً عن دفء الشمس، ويُطعمان بعضهما فطائر من كيسٍ حملاه. يشعر غوغول فجأةً أنه يرغب في العودة إلى الشقة، إلى سرير العلية، وأن ينسى فكرة زيارة معالم المدينة، ليضم موشومي بين ذراعيه. يرغب غوغول في الاستلقاء إلى جوارها لساعاتٍ، كما فعلا في بداية علاقاتهما، عندما كانا لا يكترثان بتناول أي وجبة، ثم يتجولان في الشوارع في ساعاتٍ غريبةٍ وهما يتضوران جوعاً. لكن على موشومي أن تقدم بحثها في المؤتمر في نهاية هذا الأسبوع، فهي لن تتخلى عن مهامها مثل قراءة الورقة بصوتٍ مرتفعٍ، وحساب الفترة الزمنية التي تحتاجها لعرض أفكارها، وكتابة بعض الملحوظات على الهوامش. يستشير غوغول الخريطة التي بين يديه، وخلال الأيام التالية المتبقية يتَّبع الطرق التي حددتها له موشومي بقلم الرصاص. يقطع غوغول أميالاً عديدةً متجولاً في شوارع شهيرةٍ، ثم يتوجه إلى المنطقة التاريخية الشهيرة «مارش»[1]، ومنها يصل إلى متحف بيكاسو بعدما عبر الكثير من المنعطفات الخاطئة. يجلس غوغول على أحد المقاعد الخشبية الطويلة، ويرسم رسماً تخطيطياً لمنازل المدينة المحيطة بميدان بالاس

(1) مارش: منطقةٌ تاريخيةٌ مميزةٌ في باريس، تقع على الضفة اليمنى من نهر السين، وتتميز بمبانيها القديمة ذات الهندسة المعمارية الفريدة. (المترجم)

دي فوج في مارش، ثم يمشي في الممرات الخالية التي يغطيها الحصى في حدائق لكسمبرغ. يتجول غوغول لساعاتٍ خارج مبنى أكاديمية الفنون الجميلة، بين المتاجر التي تبيع مطبوعاتٍ ولوحاتٍ مختلفةٍ، فيبتاع في نهاية المطاف لوحةً لمتحف دي لوزان. يقوم غوغول بتصوير أرصفة المشاة الضيقة والشوارع المرصوفة بحصى كبيرة الحجم داكنة اللون، والغرف العلوية التي تقع تحت الأسقف مباشرةً[1]، والمباني القديمة المبعثرة ذات الأحجار القشدية اللون، المائلة إلى الصفرة. يجد غوغول كل ما حوله جميلاً للغاية، لا يمكن وصفه، لكنه يشعر بالكآبة لمجرد التفكير أن موشومي رأت كل هذه المعالم مئات المرات، في حين يراها هو للمرة الأولى. يدرك غوغول الآن السبب وراء بقاء موشومي هنا بعيداً عن عائلتها وكل من عرفت. أصدقاؤها الفرنسيون مغرمون بها. النادلون وأصحاب المتاجر يحبونها جداً، فهي منسجمةٌ مع المكان على نحوٍ رائع، لكنها، في الوقت ذاته، تبقى شخصاً متميزاً عن الآخرين. هنا، في باريس خُلقت موشومي من جديدٍ دون أي شعور بالريبة أو الذنب. يُعجب غوغول بموشومي، ويجد نفسه مستاءً منها أيضاً، لأنها انتقلت إلى العيش في بلدٍ آخر، وتمكنت من خلق حياةٍ خاصةٍ بها. يدرك غوغول أن هذا ما فعله والداهما تماماً عندما انتقلا للعيش في أمريكا؛ وليس من المحتمل أن يتمكن غوغول من تحقيق الأمر ذاته.

في صباح اليوم الأخير لهما في باريس، يذهب غوغول للتسوق،

(1) كانت هذه الغرف معروفةً في العصور الوسطى، ثم في القرن التاسع عشر، ويتم الحصول عليها بتصميم معينٍ للمنزل حيث يكون السقف عادي الانحدار في المنطقة العليا والوسطى، ورأسياً تقريباً في الجزء الخارجي. (المترجم)

فيبتاع هدايا لوالدي موشومي، ولوالدته وسونيا. هو اليوم الذي ستقدم فيه موشومي ورقتها في المؤتمر. عرض عليها مرافقتها والجلوس بين الحضور ليستمع إليها، لكنها أخبرته أنَّ من السخافة أن يجلس في حجرةٍ تعج بأشخاصٍ يتحدثون لغةً يعجز عن فهمها، ومايزال الكثير في المدينة ليشاهده ويستمتع به. لذلك ينطلق غوغول وحده بعدما انتهى من التسوق إلى متحف اللوفر؛ الوجهة التي أجَّلها حتى اللحظة. نهاية اليوم، يلتقي غوغول موشومي في مقهى في الحي اللاتيني. كانت موشومي تنتظره هناك خلف حاجزٍ زجاجيٍّ حيث جلست إلى طاولةٍ على رصيف المشاة، وقد وضعت أحمر شفاهٍ داكناً، وكانت ترتشف النبيذ.

يجلس غوغول ويطلب كوباً من القهوة، ثم يسألها: «كيف جرى الأمر»؟

تشعل موشومي سيجارةً، ثم تقول: «على نحوٍ جيد. على أي حال، لقد انتهيت منه».

بدت موشومي نادمةً أكثر من كونها مرتاحةً لانتهاء المؤتمر، وعيناها تنظران إلى الطاولة المستديرة الصغيرة بينهما، وقد بدت العروق في بياض عينيها مثل تلك التي في الجبنة الزرقاء.

عادةً ما تطلب موشومي من غوغول وصفاً تفصيلياً لمغامرته، لكنهما يجلسان اليوم بصمتٍ يرقبان المارة. يُريها غوغول الهدايا التي اشتراها؛ ربطة عنقٍ لوالدها، صابوناً لوالدتيهما، قميصاً لشقيقها سامرات، ووشاحاً حريرياً لسونيا، وكراسةً لصنع رسومات أولية (سكيتشات)

وقوارير حبرٍ وأقلام حبرٍ لنفسه. في الواقع، كانا يجلسان في مقهى ارتاداه من قبل، لكن غوغول يشعر بقليلٍ من الحنين الذي يشعر به المرء قرب نهاية إقامته المطوَّلة في بلدٍ أجنبي، فيفكر في تفاصيل سرعان ما ستختفي من ذاكرته، مثل النادل العابس الذي خدمهما في المرتين اللتين قدما فيها إلى المقهى، ومنظر المتاجر الموجودة في الجهة المقابلة للشارع، ومقاعد القش الخضراء والصفراء.

وبينما يحرك غوغول السكر في كوب القهوة، ثم يشربه جرعةً واحدة، يسألها: «هل أنت حزينةٌ لأنك ستغادرين باريس»؟

- «قليلاً. أعتقد أن جزءاً صغيراً داخلي يتمنى لو أنني لم أغادر باريس قط».

ينحني غوغول نحوها ويضم يديها بين يديه. «لكنك إن بقيت هنا ما كنا لنلتقي»، يقول غوغول بثقةٍ تفوق مشاعره الحقيقية.

- «صحيح. ربما نعيش هنا يوماً ما»، تقول موشومي.

يومئ غوغول برأسه، ثم يقول: «ربما».

بدت له موشومي جميلةً، ومنهكةً، وقد أضفى ضوء النهار، الذي قارب على الانتهاء، على وجهها وهجاً وردياً مائلاً إلى الزرقة. يراقب غوغول دخان سجائرها يتصاعد مبتعداً عنها. يريد غوغول أن يتذكر هذه اللحظة؛ هما الاثنان معاً، هنا في باريس. هكذا يريد أن يتذكر غوغول باريس. يُخرج غوغول آلة تصويره، ويركز عدستها على وجهها.

- «نيكيل، لا، أرجوك»! تقول موشومي، تضحك، تهز رأسها. «شكلي فظيع». تخفي موشومي وجهها بظهر يديها.

مايزال غوغول يحمل آلة التصوير. «هيا، مو. أنت جميلةٌ. تبدين رائعةً».

لكنها ترفض أن تلبي رغبته، فتسحب كرسيها بعيداً، متسببةً بخدش الرصيف. تبرر موشومي رفضها بأنها لا ترغب في أن يعتقد المارة أنها سائحةٌ تزور المدينة.

مساء أحد أيام السبت في شهر أيار. حفلة عشاء في بروكلين. عشرات الأشخاص تجمعوا حول مائدة العشاء الطويلة التي ظهرت خدوشٌ على سطحها، يدخنون ويشربون نبيذ كيانتي الأحمر في كؤوسٍ مخصصة لشرب العصير، وقد جلسوا على سلسلةٍ من المقاعد الخشبية التي لا ظهر لها. كانت الحجرة معتمةً رغم المصباح ذي الغطاء المعدني، الذي بدا مثل قبةٍ، وتدلى من حبلٍ طويلٍ ليسكب بقعة ضوء وسط الطاولة فقط. موسيقى الأوبرا تصدر من ستيريو متنقلٍ قديمٍ وُضع على الأرض. يُمرر بعضهم سيجارة ماريغوانا، يجربها غوغول، لكنه يحس بالندم على فعلته، وهو يجلس بين الحشد كاتماً النفس الذي أخذه. كان يتضور جوعاً. وعلى الرغم من أن الساعة قاربت العاشرة، فإن العشاء لم يُقدم بعد. وباستثناء نبيذ كيانتي، كان رغيف الخبز وطبق الزيتون الصغير جلَّ ما قُدِّم للضيوف حتى اللحظة. يغطي فتات الخبز ونوى الزيتون المائدة. كان رغيف الخبز، مثل وسادةٍ قاسيةٍ يكسوها الغبار، مليئاً بفجواتٍ بحجم حبة برقوق، وسطحه مقرمشاً بحيث آذى سقف حلق غوغول عندما حاول مضغه.

إنهما في منزل أستريد ودونالد؛ صديقيْ موشومي. منزلٌ قديمٌ شُيد

بحجرٍ بني، ويخضع حالياً لعمليات ترميم. يقوم أستريد ودونالد، اللذان يترقبان مولد طفلهما الأول، بتوسيع المنزل المكون من طابقٍ واحدٍ، فهما سيضيفان طابقين آخرين. تتدلى أغطيةٌ بلاستيكيةٌ من عوارض السقف الخشبية، فتخلق ممراتٍ شفافة مؤقتة. أما الجدران خلف هذه الممرات، فلم تكن موجودةً. استمر الضيوف في الوصول حتى هذه اللحظة. يدخلون متذمرين بسبب البرد، الذي استمر حتى فصل الربيع، والرياح الباردة اللاسعة المزعجة التي تهز قمم الأشجار في الخارج. يخلع الضيوف معاطفهم، ويُعرَّفون ببعضهم، ويسكبون النبيذ لأنفسهم. إذا كانت تلك زيارتهم الأولى للمنزل، فإنهم يتركون المائدة ويحتشدون فوق السلالم ليُبدوا إعجابهم بالأبواب التي تنزلق يميناً أو يساراً، والأسقف المعدنية الأصلية، والمساحة الشاسعة التي ستصبح حجرةً للأطفال في نهاية المطاف، ومنظر مدينة مانهاتن البعيدة المتلألئة، التي يمكن رؤيتها من الطابق الأخير.

زار غوغول منزل أستريد ودونالد من قبل، ويعتقد أنه تردد إليه أكثر مما يجب. أستريد صديقة موشومي منذ كانتا معاً في جامعة براون. التقى غوغول بأستريد ودونالد للمرة الأولى في حفل زفافه، على الأقل هذا ما تقوله موشومي، أما غوغول فلا يتذكرهما. كانا يعيشان في روما خلال السنة الأولى التي قضاها غوغول وموشومي معاً قبل زواجهما، فقد حازا منحةً من مؤسسة غوغينهايم للفنون، ثم عادا إلى نيويورك، حيث بدأت أستريد تُدرِّس نظرية الأفلام في جامعة نيوسكول. أما دونالد، فهو رسامٌ ذو موهبة متواضعة، يرسم أشياء صغيرةً من الحياة اليومية

مثل بيضةٍ، أو كوبٍ، أو مشطٍ، ويجعل لها خلفياتٍ زاهية الألوان. كانت هديته لموشومي وغوغول بمناسبة زفافهما لوحةً تمثل تصوره لبَكْرةٍ لُف عليها خيط، علقتها موشومي على جدار حجرة نومهما. يعد أستريد ودونالد زوجين واثقين من نفسيهما، لكنهما لا يبالغان في إظهار ذلك، إنهما نموذجٌ- على حد اعتقاد غوغول- ترغب موشومي أن تحتذي به في حياتها معه. يهتم دونالد وأستريد بالآخرين ويمدان لهم يد المساعدة، ويقيمان حفلات عشاءٍ، ويهبان نفسيهما لأصدقائهما. يتحدثان بحماسٍ عن نمط حياتهما، ويزودان غوغول وموشومي بنصائح تتعلق بأمور الحياة اليومية بشكلٍ متواصلٍ، ودون انقطاع. وهما يثقان كل الثقة بأمور معينة، كمخبزٍ ما يقع في شارع سليفان، وجزارٍ محددٍ في حيٍّ مُت، وأسلوبٍ خاص لآلة صنع القهوة، أو باسم مصممٍ معينٍ من مدينة فلورنس يصمم أغطية الأسرة، كتلك التي توجد على سريرهما. تدفع معتقداتهما تلك غوغول إلى الجنون، لكن موشومي تؤمِّن على ما يقولانه. فهي تبذل كل جهدها، وبما يفوق قدرتها المالية، فتشتري الخبز من ذلك المخبز، أو اللحم من ذلك الجزار.

في هذه الأمسية، يميز غوغول بعض الوجوه المألوفة: إيديث وكولن اللذين يدرِّسان علم الاجتماع في جامعتي برينستون وييل، على التوالي؛ لويس وبليك وكلاهما مثل موشومي، مرشحان لنيل درجة الدكتوراة من جامعة نيويورك؛ أوليفر محررٌ في مجلةٍ فنيةٍ، وزوجته سالي تعمل رئيسة طهاةٍ متخصصة في المعجنات. أما البقية فهم رسامون من أصدقاء دونالد، وشعراء وصانعو أفلام وثائقية. جميعهم متزوجون.

حقيقةٌ مألوفةٌ وواضحةٌ لكنها مازالت تُشعِر غوغول بالدهشة. جميعهم متزوجون! هذه هي الحياة الآن، فعطلة نهاية الأسبوع تكون أحياناً أكثر إرهاقاً من أسبوع عملٍ كاملٍ، سيلٌ لا ينضب من حفلات العشاء وحفلات الكوكتيل، وأحياناً حفلاتٌ متفرقةٌ بعد الساعة الحادية عشرة، يتخللها رقصٌ ومخدراتٌ حتى يتذكروا أنهم مازالوا يافعين، ثم يليها إفطارٌ متأخرٌ يوم الأحد، غنيٌّ بمشروب بلدي ماريز (Bloody Marys) الكحولي والبيض الباهظ الثمن.

هم حشدٌ ذكيٌّ وجذابٌ وأنيقٌ. يعتقد غوغول أنهم يقيمون علاقاتٍ محرمة أيضاً. يعرف أغلبهم بعضَهم من خلال جامعة براون، ولا يستطيع غوغول أن يتخلص من شعوره أن نصف الأشخاص الموجودين في الحجرة مارسوا الجنس بعضهم مع بعض. يدور الحديث الأكاديمي المعتاد حول المائدة؛ الحديث ذاته الذي لا يمكنه أن يشارك فيه، فهو يتعلق بالمؤتمرات، وقوائم الوظائف الشاغرة، وطلاب المراحل الجامعية الأولى الجاحدين، والموعد النهائي لتقديم الملخصات المقترحة للرسائل الجامعية. عند نهاية المائدة تتحدث امرأة ذات شعرٍ قصير ترتدي نظارة يشبه إطارها عيني قطة، عن تمثيلها دوراً في مسرحيةٍ لبريخت على أحد مسارح سان فرانسيسكو، حيث أدَّت دورها عاريةً تماماً. عند النهاية الأخرى للمائدة تضع سالي اللمسات الأخيرة على طبق حلوى أحضرته معها، فتضيف المرنغ الأبيض بين طبقات الكعكعة لتتماسك، ثم تغطي سطحها كله بالمرنغ الذي يرتفع مثل شعلاتٍ كثيفةٍ. أما أستريد فتعرض عيناتٍ ورقيةً صغيرةً لطلاء جدرانٍ من درجات اللون الأخضر التفاحي

الذي ترغب هي ودونالد باختياره لطلاء الرواق الأمامي للمنزل، على بعض الأشخاص، فتصُفُّها أمامها مثل أوراق التاروت[1]. ترتدي أستريد نظارة، لعلها تخص مالكوم إكس! وتنظر إلى عينات الطلاء بدقةٍ. وعلى الرغم من أنها تستشير ضيوفها، فقد قررت مسبقاً أيَّ درجةٍ من اللون ستختار. وإلى اليسار من غوغول، تناقش إيديث أسباب عدم تناولها للخبز. «أشعر أنني أنشط حين أبتعد عن الخبز»، تقول إيديث.

لا يجد غوغول ما يقوله لهؤلاء الأشخاص. لا يأبه غوغول بمواضيع أطروحاتهم، أو القيود التي يفرضونها على حمياتهم الغذائية، أو لون جدرانهم. لم تكن هذه المناسبات في بادئ الأمر مزعجةً للغاية. وعندما عرَّفته موشومي بأصدقائها للمرة الأولى، اعتادا الجلوس ليتحادثا وقد طوقا بعضهما بذراعيهما، دون أن يُعيرا الضيوف سوى بعض الاهتمام. في إحدى المرات، على سبيل المثال، وبينما كانا في حفلةٍ أقامتها سالي وأوليفر، اختفى غوغول وموشومي عن أنظار الجميع ليتطارحا الغرام بسرعةٍ طائشةٍ داخل خزانة سالي المتنقلة، فانهالت عليهما أكوامٌ من ستراتها. يعرف غوغول تماماً أن مثل هذه العاطفة ضيقة الأفق (عاطفة موشومي تجاه أصدقائها)، ولا يمكن أن تستمر على الوتيرة نفسها. بيد أن إخلاص موشومي لهؤلاء الأشخاص مايزال يحيره. ينظر غوغول إليها تشعل سيجارة دنهيل. لم يتضايق غوغول من تدخينها السجائر في بادئ الأمر، بل أعجبه الأمر وبخاصة بعد ممارستهما للجنس، عندما كانت تميل نحو المنضدة الصغيرة التي تقبع بجانب السرير لتشعل عود

(1) أوراق التاروت: أوراقٌ مصورةٌ تستعمل في قراءة الطالع والتنبؤ بالمستقبل. (المترجم)

الكبريت، في حين يستلقي هو بجوارها، يستمع إلى زفرها الدخان داخل الحجرة الساكنة، ويرقب الدخان المتصاعد فوق رأسيهما. لكن رائحة الدخان العفنة العالقة في شعرها وأناملها وفي حجرة النوم حيث تجلس لتطبع أطروحتها تُشعره الآن بالتقزز قليلاً، ولا يسعه من وقتٍ إلى آخر سوى تخيل نفسه وحيداً على نحوٍ مأساويٍّ نتيجة إدمانها المعتدل على الدخان، لكن دون توقف. اعترف غوغول لموشومي بمخاوفه تلك في يومٍ من الأيام، فما كان منها إلا أن ضحكت، ثم قالت: «نيكيل، لا يمكنٌ أن تكون جاداً»!

تضحك موشومي الآن، وتومئ برأسها وكأنها تتفق مع شيء قالته صديقتها بليك للتو. لا يذكر غوغول أن موشومي بدت مفعمةً بالحياة منذ فترةٍ من الزمن مثلما هي الآن. ينظر إليها مباشرةً، إلى شعرها المنسدل الذي قصَّته مؤخراً، لذا كانت أطرافه معقوفةً للأعلى، ونظاراتها التي تُعمِّق جمالها، وشفتيها الجميلتين رغم شحوبهما. يدرك غوغول أن استحسانها من جانب هؤلاء الأشخاص يعني لها شيئاً، لكنه لا يعرف كنهه بالضبط. وبقدر ما تسعد موشومي برؤية دونالد وأستريد، وتستمتع برفقتهما، فقد لاحظ غوغول مؤخراً أنها تبدو كئيبةً بعد أن تزورهما، وكأن رؤيتهما تذكِّرها أن حياتها لا تنسجم مع حياتهما. افتعلت موشومي شجاراً مع غوغول بعد عودتهما من إحدى حفلات العشاء التي أقامها دونالد وأستريد، بمجرد دخولهما المنزل، وبدأت تتذمر من الضجة في الجادة الثالثة، وأبواب الخزانة التي تنزلق دوماً خارج مسارها، ومن حقيقة أنه لا يمكن استعمال الحمام دون أن يصاب المرء بالصمم

من صوت المروحة القديمة المُستنزفة. يعتقد غوغول أن موشومي ترزح تحت ضغطٍ كبيرٍ، فهي تستعد لامتحاناتها الشفهية، لذلك تبقى داخل المكتبة مختبئةً في مقصورة القراءة حتى التاسعة معظم الليالي. يتذكر غوغول كيف كان يدرس من أجل الحصول على ترخيصٍ لمزاولة مهنته، وكيف رسب بالامتحان مرتين قبل أن يحقق النجاح في نهاية المطاف. يتذكر غوغول العزلة التامة التي تطلبها التحضير للامتحان، فقد كان يمتنع عن الحديث مع أي شخصٍ لأيام متتاليةٍ أحياناً. لذلك يعذر غوغول موشومي. الليلة، يأمل غوغول أن تتخذ موشومي من امتحاناتها الشفهية سبباً لرفض دعوة دونالد وأستريد، لكنه يدرك الآن أن الأمر حين يتعلق بهذين، فمن المستحيل أن ترفض.

قابلت موشومي غراهام؛ خطيبها السابق، عن طريق أستريد ودونالد. درس دونالد وغراهام في المدرسة الإعدادية نفسها، وعندما انتقل غراهام إلى العيش في فرنسا أعطاه دونالد رقم هاتف موشومي. يكره غوغول التفكير في حقيقة أن ارتباط موشومي بغراهام مستمرٌ من خلال أستريد ودونالد، وعبرهما عرفت موشومي أن غراهام يعيش في تورونتو الآن، وأنه متزوجٌ وأبٌ لتوأمين. في الماضي، عندما كان غراهام وموشومي معاً شكّلا مجموعةً رباعيةً متناغمةً مع دونالد وأستريد. كانوا يستأجرون أكواخاً في فيرمونت سويةً، ويذهب أربعتهم لقضاء الإجازة في منتجع هامتونز الساحلي. حاول دونالد وأستريد أن يجعلا غوغول ضمن خطط شبيهة، فعلى سبيل المثال، يفكران في تأجير منزلٍ مطلٍ على ساحل بريتاني هذا الصيف. وعلى الرغم من أن أستريد

ودونالد رحَّبا بغوغول في حياتهما بإخلاصٍ، فإنه يشعر أحياناً أنهما يعتقدان حتى الآن أن موشومي ماتزال برفقة غراهام. في إحدى المرات خاطبته أستريد بغراهام عند نهاية أمسيةٍ مثل هذه تماماً، وكانوا قد ثملوا قليلاً، ولم يلحظ أحدٌ ما قالته أستريد، لكن غوغول كان واثقاً مما سمعه. وبينما كانوا ينظفون مائدة الطعام، قالت أستريد: «مو، لم لا تأخذين بعض لحم الخنزير هذا، لك ولغراهام. يمكنك أن تُحضِّري منه شطائر لذيذة».

في هذه اللحظة، يتحدث الضيوف في موضوعٍ واحدٍ بعينه، وهو الأسماء المقترحة للمولود القادم. «نرغب باسمٍ فريدٍ من نوعه»، تقول أستريد. لاحظ غوغول مؤخراً اتجاهاً جديداً في حفلات دونالد وأستريد، ففي عالمهما هذا الذي يتكون من أزواجٍ، يدور الحديث دوماً حول موضوع تسمية الأطفال. وإذا كانت إحدى الضيفات حاملاً بطفلٍ مثل أستريد، فإن موضوع النقاش هذا حتمي.

- «لطالما أحببتُ أسماء الباباوات»، تقول بليك.
- «هل تقصدين 'جون' و'بول'»؟ تسألها لويس.
- «بل اسماً مثل 'إينيسينت' (بريء) و'كليمينت' (رؤوف)».

يقترح بعضهم أسماءً بلا معنى مثل «جيت» و«تيبير»، تدفع المرء إلى التأوه. ادعى أحدهم أنه عرف فتاةً اسمها «آنا غراهام»- «هل فهمتم الاسم؟ آناغرام (جناس القلب)[1]- ثم يضحك الجميع.

(1) يشير هذا المصطلح إلى لعبة إعادة ترتيب حروف الكلمة للحصول على كلمةٍ جديدةٍ غالباً ما تكون ضد الكلمة الأصلية. يسمى هذا التغيير **تجنيس القلب** أو **جناس القلب** في الشعر خصوصا. (المترجم)

تجادل موشومي قائلةً إن اسماً مثل اسمها يعدُّ نقمةً، ذلك أن الجميع يعجزون عن نطقه بالشكل الصحيح، فالأطفال في المدرسة كانوا ينادونها «موسومي» ويختصرونه إلى «موس». «لطالما كرهتُ حقيقة أنني 'موشومي' الوحيدة في العالم، فلم أقابل أحداً يحمل الاسم نفسه»، تقول موشومي.

«لو كنت مكانك، لأحببت أن أحمل اسماً فريداً من نوعه»، يخبرها أوليفر.

يسكب غوغول لنفسه كأساً آخر من نبيذ كيانتي. يكره غوغول المشاركة في مثل هذه الأحاديث أو حتى الاستماع إليها. يمرر الحضور عدداً من كتب الأسماء على الطاولة، مثل كتاب *كيف تجد الاسم المثالي*، *وأسماء الأطفال البديلة*، *ودليل مغفل لتسمية طفلك*، ويحمل أحد الكتب عنوان: أسماءٌ يجب ألا تطلقها على طفلك. يتم تحديد بعض الصفحات بنجمة أو إشارة في الهامش. يقترح أحدهم اسم زكريا (زاكري). تقول إحداهن إنه كان لديها كلبٌ يحمل الاسم نفسه. يرغب الجميع في البحث عن معنى اسمه أو اسمها، ويُسرُّ بعضهم بما يجد، في حين يخيب أمل آخرين. بالطبع لا يجد غوغول وموشومي أسماءهما في هذه الكتب، لذلك يشعر غوغول لأول مرةٍ منذ بداية هذه الأمسية برابطٍ غريبٍ يجمعه بموشومي. يذهب غوغول إلى حيث تجلس موشومي، وقد بسطت ذراعيها على المائدة، فيمسك بيدها. تلتفت موشومي نحوه، وتقول: «مرحباً». تبتسم له وتضع رأسها للحظةٍ على كتفه، وعندها يدرك غوغول أنها ثملةٌ.

- «ماذا يعني اسم 'موشومي'»؟ يسألها أوليفر الذي كان يجلس أمامها.

وبينما تهز رأسها وتحرك عينيها مستهجنةً، تجيب موشومي: «النسيم الرطب الذي يهب من الجهة الجنوبية الغربية».

- «مثل النسيم الذي يهب الآن»؟ يتساءل أحدهم.

- «لطالما عرفتُ أنكِ إحدى قوى الطبيعة»، تقول أستريد ضاحكةً.

يلتفت غوغول نحو موشومي، ويسألها باندهاشٍ: «حقاً»؟ يدرك غوغول الآن أنه لم يفكر سابقاً في سؤالها عن معنى اسمها، الذي لم يعرف دلالته قبل هذه الأمسية.

- «لم تخبريني بهذا من قبل»، يقول غوغول.

تهز موشومي رأسها وقد بدا عليها الارتباك. «لم أفعل»؟

يزعجه الأمر على الرغم من أنه لم يكن واثقاً من السبب. لم يكن المكان أو الوقت مناسبين للتفكير مطولاً في الأمر أو الحديث عنه بإسهابٍ. ينهض غوغول ليذهب إلى الحمام. لا يعود غوغول إلى حجرة الطعام، بل يصعد الدرج ليتفقد أعمال الترميم. يتوقف عند أبواب الحجرات المطلية باللون الأبيض، والخاوية باستثناء بعض السلالم داخلها. في حجراتٍ أخرى توجد صناديق، ستةٌ أو سبعةٌ مكدسةٌ فوق بعضها، ثم يتوقف مرةً أخرى ليتفحص مخططاً للمنزل بُسِط على الأرض. يتذكر غوغول كيف قضى ما بعد الظهيرة بأكملها مع موشومي في حانةٍ ما في بداية علاقتهما، يرسمان مخططاً لمنزلهما المثالي. جادلها غوغول لرغبته في منزلٍ حديث الطابع مليءٍ بالزجاج والمصابيح، لكنها رغبت في منزلٍ تقليديٍّ

يُشيَّد من الحجر البني، مثل منزل أستريد ودونالد. في نهاية المطاف، صمما منزلاً خيالياً؛ منزلاً حديثاً من الإسمنت ذا واجهةٍ زجاجيةٍ. كان ذلك قبل تعمق علاقتهما، وقبل أن يتطارحا الغرام، ويتذكر غوغول أنهما شعرا بالإحراج عندما حاولا أن يقررا مكان حجرة النوم.

ينتهي المطاف بغوغول في المطبخ حيث كان دونالد قد بدأ للتو إعداد طبق معكرونة سباغيتي مع المحار (البطلينوس). إنه مطبخٌ قديمٌ كان في إحدى الوحدات السكنية التي كانت مستأجرةً في السابق، يقوم دونالد وأستريد باستخدامه حتى يجهز مطبخهما الجديد. يذكّره اللينيليوم المتسخ وأجهزة المطبخ التي اصطفت جنباً إلى جنب عند أحد الجدران، بمطبخه في شقته القديمة في جادة أمستردام. وضع دونالد قِدر طبخٍ من الستينليس ستيل فارغاً على الموقد، وكان كبيراً جداً بحيث غطى مشعلين معاً. وضع دونالد الخضراوات الورقية التي سيصنع منها السلطة في طبقٍ كبير، وغطاها بمناديل المطبخ الورقية الرطبة. نقع دونالد كذلك كميةً كبيرةً من المحار الصغير جداً- لا يتجاوز حجمها حجم ربع دولار- ذي اللون الأخضر الفاتح داخل حوض المطبخ العميق المصنوع من البرسلان.

دونالد، شابٌ طويل القامة، يرتدي جينزاً وخُفاً وقميصاً برتقالياً يميل إلى الحمرة، وقد رفع أكمامه فوق عضديه. هو شابٌ أنيقٌ، وتوحي ملامحه أنه ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، شعره بنيٌّ فاتح خفيف وزيتيُّ الملمس، وقد سرّحه خلف صدغيه. يرتدي دونالد مئزر الطبخ

فوق ملابسه، وقد انشغل بقطف أوراق باقةٍ كبيرةٍ من البقدونس.

- «مرحباً»، يقول غوغول، «هل أنت بحاجةٍ للمساعدة»؟

- «نيكيل! أهلاً بك». يناوله دونالد باقة البقدونس، ثم يقول: «تفضل».

يشعر غوغول بالامتنان لوجود ما يفعله، أن ينشغل بأمرٍ ما، ويكون مفيداً حتى وإن كان الدور الذي سيلعبه مجرد مساعدٍ لدونالد؛ رئيس الطهاة.

- «إذن، كيف تجري أعمال التجديد»؟

- «لا تسألني! لقد قمتُ بطرد المتعهد للتو. إذا سمحتُ له بمواصلة العمل بهذا المعدل، سيكون طفلنا قد بلغ السن الذي يسمح له بالانتقال خارج المنزل قبل أن تجهز حجرته».

يراقب غوغول دونالد الذي بدأ برفع المحار من مغطس الماء البارد الذي نقعه فيه، ثم يفركها بفرشاةٍ صغيرةٍ تشبه تلك التي تُستخدم في تنظيف المراحيض، ثم يُلقي بها في القِدر الواحدة تلو الأخرى. يدس غوغول رأسه في القدر حيث توجد المعكرونة والمحار، فيرى كيف تنفصل قشور حبات المحار بالوتيرة نفسها، داخل المرق الذي ظهرت رغوةٌ على سطحه.

- «إذن، متى ستنتقلان للعيش في هذا الحي»؟ يسأله دونالد.

يرفع غوغول كتفيه مستهجناً. لم يكن غوغول مهتماً بالعيش في بروكلين، ولاسيما بالقرب من أستريد ودونالد. «في الواقع، لم أفكر في الموضوع. أنا أفضل مانهاتن، وموشومي أيضاً».

يهز دونالد رأسه، ثم يقول: «أنت مخطئٌ. موشومي تعشق بروكلين. لقد اضطررنا تقريباً إلى طردها من هنا بعد ما حدث مع غراهام».

إنّ مجرد ذكر الاسم يزعجه ويشعره بالانتقاص.

- «هل سكنت معكما»؟

- «نعم، في الطابق السفلي نفسه، في الحجرة القريبة من مدخل المنزل. مكثت هنا شهرين متتاليين. كانت في حالةٍ سيئةٍ للغاية. لم أر في حياتي شخصاً مدمراً مثلما كانت».

يومئ غوغول برأسه. كان هذا أمراً آخر لم تخبره به موشومي. يتساءل عن السبب. فجأةً، يشعر غوغول أنه يكره هذا المنزل؛ هنا، برفقة أستريد ودونالد قضت موشومي أكثر أيامها يأساً وكآبة. هنا، كانت موشومي في حالة حدادٍ على رجلٍ آخر.

يختم دونالد حديثه بقوله: «لكنك الرجل الأفضل لموشومي».

ينظر غوغول نحو دونالد دهشاً.

- «لا تسئ فهمي! غراهام شخصٌ رائعٌ. لكنهما كانا، نوعاً ما، متشابهين جداً، لذلك كانا حادَّين».

لا يجد غوغول في هذا التعليق ما يُطَمئن على وجه الخصوص. ينهي غوغول قطف الأوراق الأخيرة من البقدونس، ثم يراقب دونالد يفرمها ببراعةٍ وسرعةٍ، باسطاً يده على الحافة العلوية للسكين.

يشعر غوغول أنه غير كفءٍ على نحوٍ مفاجئٍ. «لم أفهم يوماً كيف يمكن فرم البقدونس بهذه الطريقة».

- «كل ما تحتاجه سكينٌ جيدةٌ»، يخبره دونالد، «إنني أثق بهذا النوع

من السكاكين».

يعود غوغول إلى حجرة الطعام بكومةٍ من الأطباق، وحزمةٍ من الشوكات والسكاكين. في طريقه إلى حجرة الطعام ينظر غوغول إلى الحجرة التي أقامت فيها موشومي. إنها فارغةٌ الآن، والأرضية مغطاةٌ بقطعة قماشٍ بيضاء، وتبرز أسلاكٌ متشابكةٌ من وسط السقف. يتخيل غوغول موشومي مستلقيةً على سريرٍ في زاوية الحجرة، حزينةً، متجهِّمة الوجه، هزيلةً، وسحابة دخانٍ تعلو رأسها. يجلس غوغول بجوار موشومي. تُقبِّل موشومي شحمة أذنه. «أين كنت؟ هل ضللت الطريق»؟

- «كنت أسلِّي دونالد».

مايزال الحديث عن الأسماء ومعانيها مستمراً بقوة. يقول كولن إنه يفضل الأسماء التي تدل على الفضيلة مثل «بيشينس» (الصبر)، و«فيث» (الإيمان)، و«شيستيتي» (العفة). ويضيف كولن أن جدته العظمى كانت تُدعى «سايلينس» (الصمت)، لكن بدا من الصعب على الحاضرين تصديق ذلك.

«ماذا عن 'بروديْنس'؟ أليس التعقل والحذر من الفضائل»؟ يتساءل دونالد وهو ينزل الدرج حاملاً طبق معكرونةٍ كبيراً. يضع دونالد الطبق على المائدة فيصفق الجميع. تُسكَب المعكرونة في الأطباق التي تُمرر عبر المائدة.

تتساءل أستريد، وقد بدا عليها القلق، فتقول: «يبدو أن منح الطفل اسماً يعد مسؤوليةً كبيرةً، ماذا لو كره الطفل اسمه»؟

- «له أن يغيره، إذن»، تقول لويز، «على فكرة، هل تذكرون جو شابيان الذي كان معنا في الجامعة؟ سمعتُ أن اسمه الآن أصبح جوان».
- «يا إلهي! لن أغير اسمي أبداً»، تقول إيديث، «لقد سُمِّيتُ تيمناً باسم جدتي».
- «لقد غير نيكيل اسمه»، تفشي موشومي سر غوغول دون تفكيرٍ وعلى نحوٍ مفاجئ. لأول مرةٍ منذ بداية الأمسية ساد الهدوء التام، باستثناء صوت مغني الأوبرا.

يحدق فيها غوغول وكان مصعوقاً. لم يطلب منها في السابق ألا تخبر أحداً، لكنه افترض أنها لن تفعل أبداً. لم تدرك موشومي تعابير وجهه، فابتسمت له ولم تعِ ما فعلته. ينظر جميع الضيوف إلى غوغول وأفواههم مفتوحةٌ وابتساماتهم كلها حيرة.

- «ماذا تعنين بأنه غيَّر اسمه»؟ تطرح بليك السؤال ببطء.
- «نيكيل، لم يكن الاسم الذي مُنح له عندما وُلد». تومئ موشومي برأسها، وفمها ممتلئ بالطعام، ثم تقذف صدفة المحار على الطاولة. «لم يكن اسمه عندما كنا أطفالاً».
- «ماذا كان اسمك عندما وُلدت»؟ تسأل أستريد، وتنظر إليه بريبةٍ وحاجباها قاطبان.

يظل غوغول صامتاً لبضع ثوانٍ. في نهاية المطاف يقول: «غوغول». مرت سنواتٌ طويلةٌ منذ أن كان «غوغول» بالنسبة إلى أي شخصٍ، باستثناء عائلته وأصدقاء عائلته. يبدو أنه سيبقى «غوغول» دوماً. إنها

حقيقةٌ بسيطةٌ ومستحيلةٌ وسخيفةٌ في الوقت نفسه. وبينما ينطق اسمه القديم، يحدق غوغول في موشومي، لكنها ثملةٌ جداً لدرجة أنها لا تستوعب محاولته تأنيبها.

- «'غوغول' كاتب قصة 'المعطف'»؟ تتساءل سالي.
- «الآن فهمت»، يقول أوليفر، «نيك-ولاي (نيكولاي) غوغول».
توبخه أستريد قائلةً: «لا أصدق أنك أخفيت الأمر عنا»!
- «ما الذي دفع والديك إلى اختيار هذا الاسم»؟ يريد دونالد أن يعرف السبب.

يعود غوغول بذاكرته إلى الحكاية التي لا يستطيع أن يجبر نفسه على سردها أمام هؤلاء الأشخاص، فتتراءى له في الحال بتفاصيلها الحيَّة المحيرة: القطار الذي انقلب وسط عتمة الليل، يد والده تبرز من النافذة، صفحةٌ متجعدةٌ من كتاب غوغول يتشبث بها والده بقبضته. سرد قصته هذه لموشومي بعد مضيٍّ أشهرٍ على لقائهما الأول. أخبرها عن حادث القطار، ثم عن الليلة التي سرد والده القصة له، وهما داخل السيارة المتوقفة أمام المنزل في شارع بيمبيرتون. اعترف لها غوغول أنه يشعر بالذنب أحياناً لتغييره اسمه، وبخاصة بعد وفاة والده. طمأنته موشومي آنذاك، وأخبرته أنها تتفهم ما فعل، فأيُّ شخصٍ في مكانه كان سيفعل الشيء ذاته. لكن الآن، أصبح الأمر مزحةً بالنسبة إليها. يأسف غوغول فجأةً لإخباره لها، ويتساءل إن كانت ستنشر حكاية تعرض والده لحادث القطار على مائدة الطعام أيضاً. بحلول الصباح، سينسى

نصف الأشخاص في هذه الحجرة قصة تغييره اسمه. ستكون مجرد حقيقةٍ صغيرةٍ غريبةٍ عن حياته أو طرفة يذكرونها خلال حفلة عشاءٍ قادمةٍ. كان هذا تحديداً أكثر أمرٍ أزعجه.

وأخيراً، يقول: «كان والدي معجباً بالكاتب نيقولاي غوغول».

- «ربما يجب أن نسمي الطفل 'فيردي'»، يقول دونالد بعد تفكيرٍ طويلٍ، في الوقت الذي اقتربت فيه الأوبرا من المقطع الأخير الأكثر صخباً.

- «اقتراحاتك لا تساعدنا»! تقول أستريد بنبرةٍ مشاكسةٍ، وتُقبِّل دونالد على أنفه. يراقبهما غوغول، ويعلم أنهما يسخران منه، فليس من طبيعتهما الاندفاع أو التهور، كما أنهما ليسا شخصين ساذجين حتى يتخبطا، فيتصرفا بحماقةٍ كما فعل والداه.

- «اهدآ»، تقول إيديث، «ستختاران الاسم المثالي في الوقت المناسب».

في تلك اللحظة يقول غوغول: «لا يوجد مثل هذا الشيء»!

- «مثل ماذا»؟ تسأله أستريد.

- «لا يوجد اسمٌ مثاليٌّ. أعتقد أنه يجب السماح للبشر بتسمية أنفسهم عندما يبلغون الثامنة عشرة. حتى ذلك الحين يجب استخدام ضمائر فقط»! يضيف غوغول.

يهز الحضور رؤوسهم بازدراء، أما موشومي فترمق غوغول بنظرةٍ خاطفةٍ يتجاهلها. تُقدَّم السلطة. تتخذ المحادثة اتجاهاً جديداً، وتستمر دون أن يشارك فيها. لا يستطيع غوغول مقاومة تذكر روايةٍ اختارها من

بين كومة كتب موشومي المتكدسة على المنضدة الصغيرة جانب السرير، وكانت مترجمةً عن الفرنسية إلى الإنجليزية، ولا تحمل الشخصيات فيها أسماءً، بل يتحدث الراوي عنهم بضمائر الغائب «هو» و«هي». أنهى غوغول قراءتها خلال ساعاتٍ قليلةٍ، وشعر براحةٍ غريبةٍ لأن أسماء الشخصيات تبقى مبهمةً حتى النهاية. تحكي الرواية قصة حبٍّ فاشل. يتمنى غوغول للحظةٍ لو أن حياته كانت بمثل تلك البساطة.

10

1999

في صباح الذكرى السنوية الأولى لزواجهما، يهاتفهما والدا موشومي، فيوقظانهما، ويتمنيان لهما عيد زواجٍ سعيداً، قبل أن يحظى غوغول وموشومي بفرصةٍ لتهنئة بعضهما. وفضلاً عن ذكرى زواجهما، ثمة سببٌ آخر للاحتفال، وهو نجاح موشومي في امتحاناتها الشفهية الأسبوع الماضي، وبذلك فقد أنهت موشومي رسمياً جميع متطلبات درجة الدكتوراة، باستثناء كتابة الأطروحة. سببٌ ثالثٌ يستحق الاحتفال، لكنها لم تخبر به غوغول، فقد حصلت على منحةٍ جامعيةٍ لتعمل على رسالتها في فرنسا العام الحالي. تقدمت موشومي بطلبٍ للمنحة سراً قبل زواجهما مباشرةً، بدافع الفضول فقط، فقد أرادت أن تعرف إن كانت ستحصل عليها أم لا. لطالما اعتقدت موشومي أنه نوعٌ من التدريب المثمر أن تكافح من أجل الحصول على مثل هذه الأمور. كانت ستوافق على المنحة في الحال لو أنها حصلت عليها قبل عامين. لم يعد من الممكن الآن أن تنطلق إلى فرنسا لتعيش هناك عاماً كاملاً، فلديها الآن زوجٌ،

وعليها أن تضعه في الحسبان. لذلك، عندما تلقت موشومي خبر المنحة السار، قررت أن من الأسهل رفض المنحة بهدوءٍ، والاحتفاظ بالرسالة بعيداً عن ناظري غوغول، وألا تذكر الأمر أمامه.

بادرت موشومي بإعداد الترتيبات للاحتفال بذكرى زواجهما هذا المساء، فحجزت مائدةً في مكانٍ وسط المدينة، أوصى به دونالد وأستريد. تشعر موشومي بالذنب لإهمالها نيكيل أكثر مما يجب طوال الأشهر الماضية التي قضتها في الدراسة. كانت تخبره أحياناً أنها في المكتبة، وفي واقع الأمر كانت تلتقي أستريد وطفلتها إزمي في متجر سوهو، أو تذهب للتنزه على الأقدام وحدها. تذهب موشومي أحياناً إلى أحد المطاعم وحدها، فتجلس عند البار وتطلب السوشي أو شطيرةً مع كأس نبيذٍ، لمجرد أن تذكِّر نفسها أنها مازالت قادرةً على الانفراد وحدها. كانت موشومي في حاجةٍ لتأكيد هذا الأمر، لأهميته بالنسبة إليها، فضلاً عن عهود الزواج الخاصة بها، التي رددتها بالسنسكريتية سراً، فقد قطعت على نفسها عهداً ألا ينتهي بها المطاف إلى الاعتماد على زوجها كما فعلت والدتها. بعد اثنين وثلاثين عاماً قضتها بعيداً عن الوطن، في إنجلترا وأمريكا، ماتزال والدة موشومي تعجز عن قيادة السيارة، وليس لها وظيفةٌ، ولا تعرف الفرق بين الحساب البنكي الجاري وحساب التوفير. وعلى الرغم من ذلك، فهي امرأةٌ ذكيةٌ للغاية، ولقد كانت على لوحة الشرف في جامعة بريزيدينسي، حيث كانت تدرس الفيلولوجيا[1]، قبل زواجها من والد

(1) فقة اللغة التاريخي والمقارن؛ دراسة اللغة بوصفها أداة التعبير، التي تميز أدباً عن آخر في كل عصر، ملقياً الضوء على التاريخ الثقافي. (المترجم)

موشومي في عمر الثانية والعشرين.

يتأنق كلاهما من أجل هذه المناسبة السعيدة. عندما خرجت موشومي من الحمام، رأت أن غوغول قد ارتدى القميص الذي أحضرته له؛ لونه أخضر عشبيٌّ وله ياقةٌ عاليةٌ ناعمة الملمس لونها داكنٌ أكثر من القميص. عندما ابتاعت موشومي القميص، لم تتذكر القاعدة الخاصة بعيد الزواج الأول، التي تنص على تقديم هديةٍ ورقيةٍ[1]، إلا بعد أن قام البائع بتغليف القميص. فكرت موشومي في الاحتفاظ بالقميص لعيد الميلاد، وابتياع شيء آخر مثل كتابٍ في الهندسة المعمارية من دار النشر ريزولي، لكن موشومي لم تملك الوقت الكافي لذلك. ارتدت موشومي الثوب الأسود نفسه الذي ارتدته عندما قابلت نيكيل على العشاء للمرة الأولى، وعندما مارسا الجنس معاً للمرة الأولى كذلك. ارتدت موشومي فوقه شالاً أرجوانياً من صوف البشمينة الفاخر، وهو هدية نيكيل لها في عيد زواجهما الذي يحتفلان به الآن. مازالت موشومي تتذكر موعدهما الغرامي الأول. أُعجبت آنذاك بشعره الجامح قليلاً عندما اقترب منها عند البار، وبشعر ذقنه الداكن، الذي نما على خديه، وقميصه المقلم بالأخضر والبنفسجي، وقد تسببت الياقة له بالحكة. تتذكر موشومي شعورها بالذهول عندما رفعت عينيها عن الكتاب الذي كانت تقرأه فرأته، خفق قلبها وشعرت بالانجذاب نحوه في الحال، وبقوةٍ. توقعت موشومي أن تلتقي بشابٍ أكبر سناً قليلاً من الصبي الذي عرفته في

(1) الهدية الورقية مثل صورةٍ فوتوغرافيةٍ، أو رسالةٍ غراميةٍ، أو ملصقاتٍ، أو كتبٍ..إلخ. (المترجم)

طفولتها، منعزلٍ، وهادئٍ، يرتدي بنطالاً مخملياً (كوردروي) وبلوزةً سميكة. تناولت موشومي الغداء مع أستريد في اليوم السابق لموعدها الأول مع غوغول. وبينما كانتا تتناولان السلطة في سيتي بيكاري، قالت أستريد بازدراءٍ: «لا أستطيع أن أتخيلك مع رجلٍ هنديٍّ». لم تعترض موشومي حينها على كلام أستريد، لكنها ردت مبررةً أنه مجرد موعدٍ واحدٍ بعينه. كانت موشمي متشككةً في أعماقها، فهي لم تنجذب نحو أي رجلٍ هنديٍّ في حياتها كلها، باستثناء شاشي كابور الشاب، وأحد أقربائها في الهند. لكنها أحبت نيكيل بصدق. أحبت فكرة أنه لم يكن طبيباً أو مهندساً. أحبت حقيقة أنه غيَّر اسمه من غوغول إلى نيكيل، فعلى الرغم من أنها عرفته في الماضي ومنذ سنين طويلة، فقد جعلته هذه الحقيقة يبدو بالنسبة إليها شخصاً جديداً بصورة ما، مختلفاً عن ذاك الذي ذكرته والدتها.

قررا الذهاب إلى المطعم سيراً على الأقدام، فالمطعم يقع شمالاً، على بُعد ثلاثين بناية من شقتهما، وأربع بناياتٍ غرباً. وعلى الرغم من أن الليل قد حلَّ بالفعل، فإن المساء كان دافئاً لطيفاً، مما جعل موشومي تقف تحت ظُلة بنايتهما مترددةً حول ارتداء شال البشمينة. لا تتسع حقيبتها لتضع الشال داخلها. أوقعت موشومي الشال عن كتفيها، وأمسكت به بيديها، ثم قالت:

- «ربما يجب أن أترك الشال في المنزل».

- «ماذا لو قررنا العودة سيراً على الأقدام كذلك؟ قد تحتاجينه»، يقول غوغول.

- «أعتقد أنني سأحتاجه».
- «بالمناسبة، إنه جميلٌ عليك».
- «هل تتذكر هذا الثوب»؟

يهز غوغول رأسه نافياً. تشعر موشومي بخيبة الأمل، لكنها لا تتفاجأ. تدرك موشومي الآن أن ذهن الفني المعماري الذي يميز أدق التفاصيل يخفق عندما يتعلق الأمر بأمور الحياة اليومية. فعلى سبيل المثال، لم يزعج نفسه بالتخلص من فاتورة الشال، فتركها إلى جانب الفكة التي أفرغها من جيبه على المكتب الذي يتشاركانه. لا تستطيع موشومي أن تلومه بالفعل لأنه لا يتذكر فستانها، فهي لا تتذكر تاريخ تلك الأمسية بالتحديد. كان يوم سبتٍ في تشرين الثاني. لكن هذه المعالم الرئيسة في حياتهما تلاشت لتُفسح المجال أمام المناسبة التي يحتفلان بها.

يسيران معاً باتجاه الجادة الخامسة، ويمران بالمتاجر التي تبيع السجاد الشرقي، المبسوط في نافذة العرض المضاءة. ثم يمران بالمكتبة العامة. وعوضاً عن متابعة طريقهما نحو المطعم، فقد قرَّرا التجول على الرصيف لبعض الوقت، فمايزال لديهما عشرون دقيقة قبل أن يحين موعد حجزهما. الجادة الخامسة منطقةٌ منظمةٌ بشكلٍ عجيب. عددٌ قليلٌ من الأشخاص وسيارات الأجرة في حيٍّ يكتظ عادةً بالمتسوقين والسياح. لا ترتاد موشومي هذا المكان إلا إذا أرادت أن تشتري مساحيق التجميل من متجر بيندلز، أو مشاهدة الفيلم المفرد في سينما باريس، وفي إحدى المرات ذهبت برفقة غراهام ووالده وزوجة والده ليشربا شيئاً في فندق البلازا. يمران كذلك بنوافذ العرض لبعض المتاجر المغلقة التي تعرض

ساعاتٍ يدويةً، وحقائب سفرٍ، ومعاطف مطرٍ. تتوقف موشومي عند رؤيتها صندلاً فيروزي اللون، معروضاً على قاعدةٍ بلاستيكيةٍ من ماركة لوسيت الشهيرة[1]، يلمع تحت الأضواء المسلطة عليه، ويشبه في تصميمه صندل المصارع اليوناني ذا الأشرطة الجلدية، وهو مزين بأحجار الراين (الماس المزيف).

«أهو قبيحٌ أم جميلٌ»؟ تسأل موشومي غوغول. سؤالٌ تطرحه موشومي على غوغول بشكلٍ متكررٍ وهما يتصفحان الخصائص المميزة للشقق في مجلة *ملخص الهندسة المعمارية* (*Architectural Digest*)، أوقسم التصميم في مجلة *التايمز*. غالباً ما تدهشها إجاباته، فهو يقنعها بتقدير الشيء الذي لا يعجبها.

- «أنا واثقةٌ أنه قبيحٌ، لكن لا بد أن أجربه حتى أقرر».
- «ثمنه مائتا دولار»!
- «بل خمسمائة. هل تصدق هذا! رأيته معروضاً في مجلة فوغ».

تسير موشومي مبتعدةً عن المتجر، إلا أنها وبعد بضع خطواتٍ، تلتفت إلى الخلف لترى أن غوغول مايزال يقف أمام نافذة العرض، وقد انحنى إلى الأسفل باحثاً عن بطاقة السعر أسفل الحذاء. ينمُّ رد فعل غوغول عن براءةٍ لا يفهمها سوى موشومي، وتذكِّرها بقوةٍ بالأسباب التي تدفعها لحبه. تذكِّرها كذلك بشعورها بالامتنان عندما عاد غوغول للظهور في حياتها. حينما قابلته موشومي، كانت تخشى أن تتقهقر إلى الحالة التي كانت عليها قبل ذهابها إلى باريس؛ حين كان من الصعب

---

(1) لوسيت: ماركة تجارية للبلاستيك الخالي من الشوائب. (المترجم)

التأثير في مشاعرها، وكانت مدمنةً على القراءة، ووحيدة. تسترجع موشومي الذعر الذي أصابها عندما تزوج جميع أصدقائها. حتى إنها فكرت في نشر إعلانٍ خاصٍ لمواعدة شخصٍ ما. لكن غوغول تقبلها مباشرةً، فطمس عارها السابق. تؤمن موشومي أن غوغول غير قادرٍ على إيذائها كما فعل غراهام. وبعد إنشاء علاقاتٍ سريةٍ لأعوام، كم كان مريحاً أن يتودد إليها شخصٌ أمام الجميع، وأن تحظى بدعم والديها لهذه العلاقة منذ البداية، حتى بدا المستقبل أمراً حتمياً لا جدال فيه؛ زواجٌ يجمعهما معاً. لكنَّ الصداقة والألفة التي جذبتها نحوه باتت الآن سبباً وراء ابتعادها عنه تدريجياً. وعلى الرغم من أنها تعلم تماماً أن نيكيل لا ذنب له، فإنها تستمر في ربطه أحياناً بفكرة استسلامها لحياةٍ قاومتها بشدةٍ، وحاولت جاهدةً أن تخلفها وراءها. لم يكن نيكيل الشخص الذي تخيلت أن تنتهي حياتها معه. وربما لهذه الأسباب مجتمعةً، شعرت موشومي خلال الأشهر الأولى من زواجها، عندما كانت معه ووقعت في غرامه وفعلت من أجله كل ما كان يُتوقع منها طوال الحياة، أن قيوداً فُرضت عليها، وكأنها تعرضت لهجومٍ سافرٍ، وتعدٍّ على إرادتها الفطرية.

لم يتمكنا من إيجاد المطعم في بادئ الأمر. وعلى الرغم من أن العنوان كان مكتوباً بدقةٍ على قصاصةٍ مطويةٍ احتفظت بها موشومي داخل حقيبتها، فإنه يقودهما إلى مجموعة مكاتب داخل مبنى سكني. يضغطان على مفتاح الطنان الكهربائي، ثم يحدقان عبر الباب الزجاجي في الردهة الخاوية المغطاة بالسجاد، وفي مزهرية ورودٍ كبيرةٍ وُضعت أسفل الدرج.

تضع موشومي يديها على جانبي وجهها لتحجب وهج الضوء، ثم

تقول: «لا يمكن أن يكون هذا هو المكان المقصود».

- «هل أنت واثقةٌ أنك كتبتِ العنوان الصحيح»؟ يسألها غوغول.

يتجولان صعوداً ونزولاً عند المبنى، وينظران إلى الجانب الآخر منه. يعودان إلى المبنى السكني حيث توجد المكاتب، وينظران للأعلى نحو النوافذ المعتمة، بحثاً عن إشارةٍ تدل على وجود حياةٍ في الداخل.

«هناك»! يقول غوغول حيث لاحظ زوجين يخرجان من باب القبو الموجود خلف الدرج. وجد غوغول وموشومي في المدخل المضاء بمصباحٍ جداريٍّ واحدٍ لوحةً مثبتةً بعنايةٍ على واجهة المبنى وتحمل اسم المطعم؛ «أنتونيا». يأتي جمعٌ صغيرٌ للترحيب بهما، ووضع علامةٍ بجوار اسميهما في قائمةٍ وُضعت فوق منصةٍ، ثم ليرافقوهما إلى مائدتهما. وبينما يدخلان حجرة الطعام التي كانت غائرةً وغير جذابةٍ، يشعر غوغول وموشومي أن الضجة التي أثيرت حول المكان لا مبرر لها، فقد كان الجو كئيباً وساكناً، مثل الشوارع التي بدت مهجورةً. كانت ثمة مجموعةٌ من الأشخاص يتناولون الطعام أمام المسرح، وخمنت موشومي أنهم عائلةٌ واحدة، إذ توجد فتاتان صغيرتان ارتدتا فستانين فاخرين لا يلائمان المكان، لهما تنورتان تحتيتان وياقتان من الدانتيل كبيرتا الحجم. ثمة أيضاً بعض الأزواج ممن بدا عليهم الثراء، وكانوا في منتصف أعمارهم، وقد ارتدوا ستراتٍ. وهناك سيدٌ مهذبٌ أنيقٌ، كبيرُ السن، كان يتناول العشاء وحده. تجد موشومي المكان مثيراً للريبة، وبخاصة أن عدداً كبيراً من الطاولات كان فارغاً، وما من موسيقى تُسمع فيه. كانت موشومي تتطلع إلى مكانٍ أكثر حيويةً وبهجةً ودفئاً. ومع أن المطعم تحت الأرض،

فقد كان فسيحاً على نحوٍ مثيرٍ للدهشة، وكان السقف شديد العلو. كان التكييف بارداً جداً، فارتجفت رجلاها العاريتان وذراعاها، ولفت الشال حول كتفيها بقوة.

- «إنني أتجمد، هل تعتقد أنهم سيخفضون قوة جهاز التكييف إذا طلبتُ منهم ذلك»؟

- «أشك في ذلك»، ويعرض نيكيل عليها، قائلاً: «هل ترغبين بارتداء سترتي»؟

- «لا. لا بأس»، تبتسم موشومي. ماتزال تشعر موشومي بالانزعاج والكآبة. تنزعج لرؤية نُدُلٍ مراهقين بنغال يرتدون صدريةً مزخرفةً وبناطيل سوداء، يقدمون لهما الخبز الساخن بملاقط الطعام الفضية. تنزعج موشومي لأن النادل، الذي كان شديد التركيز، لم ينظر نحوهما، بل وصف قائمة الطعام وهو يتحدث فعلياً مع زجاجة المياه المعدنية الموضوعة بينهما. تعرف موشومي أن الوقت متأخرٌ جداً، لذلك لا يمكن تغيير مخططاتها لهذه الأمسية. لكن حتى بعد أن طلبا الطعام، فإن موشومي تشعر بإزعاج رغبةٍ ملحةٍ في أن تقف على قدميها وتغادر المكان. قبل أسبوعين تصرفت موشومي بطريقةٍ مماثلةٍ عندما كانت تجلس على كرسي في إحدى صالونات التجميل الباهظة، فإذا بها تخرج بعد أن ربطت مصممة الشعر المئزر خلف عنقها، ثم ذهبت لتتفقد زبونةً أخرى، وذلك ببساطةٍ بسبب سلوك المصممة التي رفعت خصلةً من شعر موشومي وتفحصتها في المرآة، وكانت

تعابير وجهها توحي بشعورها بالضجر، فشعرت موشومي بالإهانة. تتساءل موشومي عما أثار إعجاب دونالد وأستريد في هذا المكان، لكنها تقرر أنه لا بد أن يكون الطعام الذي يُقدم هنا. عندما يصل الطعام تشعر موشومي بخيبة الأمل مرةً أخرى. سُكبت الوجبة في أطباق بيضاء مربعة الشكل بعنايةٍ فائقة، وكانت الكمية صغيرةً للغاية. وكالمعتاد يتبادلان الأطباق في منتصف الوجبة، لكنها لا تجد طبق غوغول طيباً هذه المرة، لذلك تتناول طبقها. تُنهي موشومي طبقها الرئيس المكون من محار الأسقلوب بسرعةٍ، ثم تجلس مطولاً تراقب نيكيل، وهو يحاول جاهداً تناول طائر السمان.

- «ما كان يجب علينا الحضور إلى هذا المكان»، تقول موشومي فجأةً وقد عبست.

- «لم لا»؟ ينظر غوغول من حوله وقد استحسن المكان، ثم يقول: «إنه مكان لطيف».

- «لا أعلم. إنه ليس كما توقعته».

- «دعينا فقط نستمتع بوقتنا».

غير أن موشومي لم تكن قادرةً على الاستمتاع بوقتها. وبينما كانا على وشك الانتهاء من تناول وجبتيهما، خطر لموشومي أنها لم تكن ثملةً تماماً، ولم تشعر فعلاً بالشبع. وعلى الرغم من كأسي الكوكتيل اللذين شربتهما وزجاجة النبيذ التي تشاطراها، فمازالت موشومي تشعر أنها يقظةٌ على نحوٍ أزعجها. تنظر إلى عظام الطائر النحيلة التي نحاها نيكيل جانباً،

فتشعر ببعضٍ من خيبة الأمل، متمنيةً أن يُنهي طبقه حتى تتمكن من إشعال سيجارتها.

- «سيدتي، شالك»، يقول أحد النُّدُل، ويلتقط الشال عن الأرض، ويناولها إياه.

- «عذراً»، تشعر موشومي أنها خرقاء وغير مرتبة. ثم تلاحظ أن ثوبها الأسود مُغطى بخيوطٍ بنفسجية اللون. تحاول نزع الخيوط، لكنها عالقةٌ بعنادٍ مثل شعر القطط.

يرفع نيكيل رأسه عن الطبق، ثم يسألها: «ما الأمر»؟

- «لا شيء»، تقول موشومي، فلم ترغب في جرح مشاعره عبر إيجاد عيبٍ في هديته الباهظة الثمن.

كانا آخر من غادر المطعم الذي تبين أنه باهظٌ جداً، فلقد تجاوز توقعاتها. قاما بالدفع من خلال البطاقة الائتمانية. وبينما تراقب موشومي نيكيل يُوقِع إيصال الاستلام، تشعر فجأةً كم هي وضيعة، فعلى الرغم من أنه لا يوجد عيبٌ فعلي في أداء النادل، تنزعج بشدة لأنهما اضطرا لترك بقشيشٍ سخيٍّ. وتلاحظ موشومي أن عدداً من الطاولات قد نُظف بالفعل، ووُضعت الكراسي مقلوبةً على سطحها.

- «لا أصدق أنهم قد أزالوا كل شيء عن الطاولات، حتى الأغطية».

يهز غوغول كتفيه مستهجناً ردة فعلها، ثم يقول: «لقد تأخر الوقت. لعلهم يغلقون المطعم في وقتٍ مبكر أيام الأحد».

- «أعتقد أن عليهم أن ينتظروا حتى نغادر المكان»، تقول موشومي.

تشعر موشومي بغصةٍ في حلقها، ثم تفيض عيناها بالدموع.

- «ماذا جرى؟ هل ترغبين بالتحدث عن أمرٍ ما»؟

تهز موشومي رأسها، ولا تشعر برغبةٍ في شرح الأمر. تريد أن تعود إلى المنزل، وتنام في سريرها، وتنسى هذه الأمسية. خارج المطعم، تشعر موشومي بالراحة عندما ترى أن السماء بدأت تمطر رذاذاً، لذا سيركبان سيارة أجرةٍ ليعودا إلى المنزل عوضاً عن السير على الأقدام، كما كانا قد خططا.

«هل أنت واثقة أن كل شيء على ما يرام»؟ يسألها غوغول، وهما في طريقهما إلى المنزل. كان بإمكان موشومي أن تلاحظ أن غوغول بدأ يفقد صبره.

تنظر من النافذة إلى بعض المطاعم التي مازالت أبوابها مفتوحةً حتى تلك الساعة، وتسطع داخلها الأضواء، وإلى حيث يُقدم طبق اليوم في صحون ورقية، فهي مطاعم زهيدةٌ يقدم بعضها فطائر الكالزون الإيطالية[1]، ويغطي الغبار أرضياتها، إنها ذلك النوع من المطاعم التي ما كانت لتفكر في ارتيادها عادةً، لكنها بدت لها مغريةً على نحوٍ مفاجئ، تقول موشومي: «مازلتُ جائعةً»، ثم تضيف: «بإمكاني أن أتناول البيتزا».

يبدأ فصلٌ دراسيٌّ جديدٌ بعد يومين. إنه الفصل الثامن لموشومي في جامعة نيويورك. لقد انتهت موشومي من المحاضرات، ولن تأخذ أي محاضرةٍ في حياتها مرةً أخرى. لن تتقدم لأي امتحانٍ من جديد. تسعدها

(1) الكالزون: نوعٌ من الفطائر الإيطالية تشبه نصف الدائرة، مصنوعةٌ من عجينة البيتزا، ومحشوةٌ بالحشوة المالحة المتبلة وأحياناً نفس حشوة البيتزا من الطماطم وجبن الموزاريلا. (المترجم)

هذه الحقيقة، ففي نهاية المطاف تحررت موشومي من حياة الطلبة. وعلى الرغم من الأطروحة التي مايزال عليها أن تكتبها، والمشرف الذي سيرقب تطورها، تشعر موشومي أنها قد تحررت من جميع القيود؛ من العالم الذي حدد هويتها ووجَّهها وقيَّدها لفترةٍ طويلةٍ. ستُدرِّس موشومي صف الفرنسية للمرة الثالثة، لثلاث ساعاتٍ في الأسبوع، أيام الاثنين والأربعاء والجمعة. كل ماعليها فعله تغيير تاريخ الحصص على رزنامتها. أقصى ما ستبذله من جهدٍ يتلخص في معرفة أسماء طلابها الجدد. تشعر موشومي بالإطراء عندما يظن طلبتها أنها فرنسيةٌ أونصف فرنسيةٍ. تستمتع بنظرات الدهشة التي تبدو على وجوههم عندما تخبرهم أنها من نيوجيرسي، وأن والديها بنغاليا الأصل.

كان موعد شعبة الفرنسية الساعة الثامنة صباحاً، مما أزعجها في بادئ الأمر. لكنها الآن، وقد استيقظت واستحمت وارتدت ملابسها، ثم سارت في الشارع على قدميها وقد أمسكت بإحدى يديها كوب قهوةٍ بالحليب (لاتيه)، ابتاعته من متجرٍ في بنايتها يبيع الأطعمة الشهية والمقبلات، فإنها تشعر بالانتعاش والحماس. إن تمكنها من الخروج إلى العمل في هذه الساعة المبكرة لهو إنجازٌ في حد ذاته. كان نيكيل مايزال نائماً عند مغادرتها الشقة، ولم ينزعج من الصوت المتكرر للمنبه. تحضِّر موشومي ملابسها وأوراقها كل ليلةٍ، وذلك أمر لم تفعله منذ أن كانت طالبةً في المدرسة. تحب السير في الشوارع في الصباح المبكر، والنهوض وحدها وضوء النهار لم يبزغ كاملاً، مما يمنحها شعوراً أن يومها سيكون واعداً. شكَّل ذلك تغييراً مبهجاً في حياتها الروتينية. يستحم نيكيل،

ثم يرتدي بدلته ويخرج مسرعاً، في حين تسكب موشومي لنفسها كوب القهوة الحقيقي الأول في هذا اليوم. بدايةً تشعر موشومي بالامتنان لأنها غير مضطرةٍ إلى مواجهة مكتبها الموجود في إحدى زوايا حجرة النوم، والمكدسة من حوله أكياسٌ تحتوي على ملابسهما المتسخة، وقد نويا توصيلها إلى المغسلة التي يذهبان إليها مرةً في الشهر، عندما يصبح شراء جوارب وملابس داخليةٍ جديدةٍ أمراً ضرورياً. تتساءل موشومي إلى متى ستحيا مع سمات حياتها السابقة كطالبةٍ، على الرغم من كونها امرأةً متزوجةً وقد تقدمت في دراستها إلى هذا الحد، ويحظى نيكيل بوظيفةٍ محترمةٍ إن لم تكن مربحةً جداً. كانت الحياة ستكون مختلفةً مع غراهام الذي كان قادراً على كسب المال الكثير، الذي يكفيهما معاً. لكن هذه الحقيقة كانت مخيبةً للآمال أيضاً، فقد ولَّدت داخلها مخاوف من أن يصبح عملها مجرد متعةٍ أو انشغالٍ غير ضروري. لحظة حصول موشومي على وظيفةٍ أكاديميةٍ ثابتةٍ بدوامٍ كامل، تُذكِّر نفسها أن الحياة ستختلف. تحاول تخيل المكان الذي ستقودها إليه هذه الوظيفة، وتفترض أنه في مدينةٍ شاسعةٍ بعيدةٍ للغاية. أحياناً تمازح موشومي نيكيل فتقول إن عليهما، خلال بضع سنين، حزم أمتعتهما والانتقال ليعيشا في ولاية آيوا أو في مدينة كالامازو[1]. لكن كليهما يعلم استحالة أن يترك نيكيل نيويورك، وأنها هي من عليها أن تسافر جواً جيئةً وذهاباً. يبدو التطلع نحو هذا الأفق جذَّاباً بالنسبة إلى موشومي؛ البداية الجديدة في مكانٍ لا يعرفها فيه أحدٌ، تماماً كما فعلت في باريس. إنه الجانب الوحيد من حياة

(1) كالامازو: هي مدينة تقع في الجنوب الغربي من ولاية ميتشغان في الولايات المتحدة الأمريكية، وتعتبر من أكبر المدن في المنطقة. (المترجم)

والديها الذي حاز إعجابَها، وهو قدرتهما على أن يديرا ظهريهما لموطنهما تحت كل الظروف.

وبينما تقترب موشومي من القسم، ترى أن ثمة خطباً ما، فسيارة الإسعاف تقف على الرصيف وأبوابها الخلفية مفتوحةٌ على مصراعيها. تسمع موشومي صوت تشويشٍ ثابتٍ من أجهزة الاتصال اللاسلكي الخاصة بالمسعفين. تُلقي نظرةً خاطفةً داخل سيارة الإسعاف، فترى جهاز إنعاش القلب، ولكن لا أحدَ في الداخل، بيد أن المشهد يجعلها ترتجف. كان الرواق في الطابق العلوي مكتظاً. تتساءل موشومي إن كان شخصٌ ما قد تعرض إلى الأذى، أهو طالبٌ أم أستاذٌ جامعي؟ لا تميز موشومي أحداً من الحشد المجتمع، فهم مجرد طلابٍ جُدد يحملون نماذج السحب والإضافة. يقول أحدهم: «أعتقد أن شخصاً مغشيٌّ عليه»، ثم يقول آخر: «ليس لديَّ أدنى فكرة». يفتح المسعفون الباب، ويطلبون من الطلاب أن يفسحوا الطريق. تتوقع موشومي أن ترى شخصاً على كرسيٍّ متحرك، لكنها تجزع عندما ترى المسعفين وقد حملوا شخصاً على الحمالة. يصرخ عددٌ من المتفرجين ذعراً. تضع موشومي يدها على فمها. ينظر نصف المتفرجين إلى الأسفل، ثم يبتعدون وهم يهزون رؤوسهم. تخمن موشومي أن الشخص المحمول على النقالة امرأةٌ، من قدميها اللتين تدلتا عند نهاية الحمالة، وقد ارتدت حذاءً قشدي اللون دون كعب. تعلم موشومي تفاصيل ما حدث من أحد الأساتذة: أصيبت أليس؛ المساعدة الإدارية، بالإغماء فجأةً عند صناديق البريد. في لحظةٍ كانت توزع البريد في الحرم الجامعي، ثم غابت عن الوعي في اللحظة التالية. عندما وصل

المسعفون كانت قد فارقت الحياة نتيجة نزيفٍ في الدماغ. كانت أليس في الثلاثين من عمرها، عزباء وترتشف على الدوام شاي الأعشاب. لم تكن موشومي مغرمةً بها بشكلٍ خاص. كانت صعبة المراس ومتزمتة، وبداخلها ما يُنذر بشيخوخةٍ مبكرةٍ.

تشعر موشومي بالغثيان عند التفكير بما حدث؛ وفاة مفاجئة لامرأةٍ علاقتها بها هامشية للغاية، ومع هذا فإن لها مكانة مركزية في عالمها الأكاديمي. تدخل موشومي إلى مكتبها الذي تتشاركه مع مساعدي التدريس الآخرين، فتجده فارغاً. تهاتف نيكيل في المنزل ثم في العمل. ما من مجيب. تنظر إلى ساعتها فتدرك أنه في المترو، في طريقه إلى العمل. تشعر موشومي بالراحة فجأةً لانعدام إمكانية الوصول إليه، فهي تتذكر الطريقة التي توفي فيها والده، في الحال ودون سابق إنذار، وستُذكِّره وفاة أليس بوفاة والده بالتأكيد. تشعر موشومي بحاجةٍ ملحة لمغادرة المكان والعودة إلى الشقة. لكن موعد محاضرة اللغة الفرنسية سيحين خلال نصف ساعة. تعود موشومي إلى حجرة التصوير لتنسخ مخطط المنهج الدراسي، وقطعةً من مؤلفات فلوبير ستترجمها خلال المحاضرة. تضغط موشومي على زر آلة النسخ الخاص بتنسيق الأوراق في ترتيبٍ معينٍ، لكنها تنسى أن تضغط على الزر الخاص بتشبيك الأوراق. تبحث موشومي في خزانة الأدوات عن دبَّاسة فلا تجدها، لذلك تتوجه بعفويةٍ تامةٍ إلى مكتب أليس. يرن جرس الهاتف. سترةٌ صوفيةٌ على ظهر الكرسي. تفتح موشومي دُرج مكتب أليس وتخشى لمْس أي شيء. تجد موشومي دبَّاسةً خلف المشابك الورقية وأكياساً صغيرة من مُحلٍّ

منخفض السعرات الحرارية. كُتِب اسم أليس على شريطٍ لاصقٍ غير شفاف، وثُبِّت على الدباسة. كانت صناديق بريد الكلية نصف فارغةٍ، والبريد مكدساً داخل سلة. تبحث موشومي في صندوق البريد الخاص بها عن قائمةٍ بأسماء طلابها. كان الصندوق فارغاً لذلك تُنقّب عن بريدها داخل السلة. وبينما تتناول موشومي كل قطعةٍ من البريد معنونةٍ لمختلف أعضاء هيئة التدريس أو مساعدي التدريس تبدأ بتوزيعها على الصناديق الخاصة بها. واصلت موشومي عملها حتى بعد أن وجدت قائمةً بأسماء طلابها، فأنهت بذلك العمل الذي لم تنهه أليس. لم تمعن موشومي التفكير فيما كانت تفعله، مما أراح أعصابها قليلاً. لطالما كانت موشومي بارعةً في تنظيم الأشياء عندما كانت طفلةً. كانت تتحمل دائماً مسؤولية ترتيب خزائن والديها وأدراجهما، بالإضافة إلى خزانتها وأدراجها. كانت تنظم درج السكاكين والشوك والملاعق وأدراج الثلاجة. كانت هذه المهام التي أوكلتها موشومي إلى نفسها، تشغلها طوال إجازتها الصيفية الهادئة الحارة، في حين تجلس والدتها ترتشف عصير البطيخ أمام المروحة وقد أصابها الذهول. لم يتبق سوى بضعة أشياء داخل سلة البريد. تنحني موشومي للأسفل لتلتقطها فإذا باسم أحد المرسِلين، المطبوع أعلى المظروف ناحية اليسار، يلفت نظرها.

تأخذ موشومي الدبَّاسة والرسالة وبقية أشيائها إلى مكتبها. تغلق الباب، ثم تجلس عند مكتبها. كانت الرسالة موجهةً لأستاذٍ جامعيٍّ متخصصٍ في الأدب المقارن يُدرِّس الألمانية بالإضافة إلى الفرنسية. تفتح موشومي المظروف لتجد رسالة تعريفٍ وسيرة ذاتية. لدقيقةٍ كاملةٍ تحدق

موشومي في الاسم المكتوب أعلى السيرة الذاتية في منتصف الصفحة التي طُبعت بخطٍ أنيقٍ وبطابعة ليزر. بالطبع تتذكر موشومي الاسم. كان الاسم وحده كافياً ليغويها عندما سمعته للمرة الأولى. ديميتري ديجاردين (Dimitri Desjardins)، لكنه كان ينطقه بالطريقة الإنجليزية، فكان يلفظ حرفي الزاي وسط اسمه وفي نهايته؛ 'ديزجاردينز'. وعلى الرغم من أنها تجيد الفرنسية، فهي ماتزال ترى الاسم بهذه الطريقة أيضاً. كُتب العنوان تحت الاسم: ويست، شارع رقم 164. يرغب ديميتري في الحصول على وظيفةٍ مؤقتةٍ بدوامٍ جزئي ليدرِّس الألمانية. تقرأ موشومي سيرته الذاتية، فتعرف أين كان بالضبط، وماذا فعل خلال العقد الماضي. كان يتنقل في أوروبا، فلقد عمل مع قناة البي بي سي، ونشر مقالاتٍ ومراجعاتٍ أدبية في صحيفة *دير شبيغل الألمانية* (Der Spiegel)، ومجلة *الاستعلام النقدي* (Crtical Inquiry)، وقد حصل على درجة الدكتوراة في الأدب الألماني من جامعة هايدلبيرغ.

التقت موشومي بديميتري قبل سنواتٍ، خلال الأشهر الأخيرة في المدرسة الثانوية. في تلك المرحلة من حياتها قامت موشومي برفقة اثنتين من صديقاتها- كنَّ متحمساتٍ جميعاً للالتحاق بالجامعة، ويائساتٍ في الوقت نفسه، فما من أحدٍ من الطلاب الذين ناهزوهن عمراً رغب في مواعدتهن- بقيادة السيارة إلى جامعة برينستون، ثم تسكعن داخل الحرم الجامعي وتصفحن الكتب داخل متجر الكتب التابع للكلية، وكن يكتبن واجباتهن أيضاً داخل مباني الجامعة التي لم يتطلب الدخول إليها إبراز هويةٍ شخصيةٍ. شجَّع والداها آنذاك هذه الرحلات الاستكشافية،

فقد اعتقدا أنها تدرس في المكتبة، أو تحضر بعض المحاضرات، وكانا يأملان أن تلتحق موشومي بجامعة برينستون، ومن ثم تعيش معهما في المنزل نفسه. في أحد الأيام، وبينما كانت تجلس مع صديقاتها على العشب، دعاهن بعض الطلاب للانضمام لائتلافٍ من طلاب الجامعة يناهض التمييز العنصري في جنوب إفريقيا، وقد خطط الائتلاف لمسيرةٍ في العاصمة واشنطن للمطالبة بفرض عقوباتٍ على حكومة جنوب إفريقيا.

استقلت موشومي وصديقاتها حافلة ليلية مستأجرة إلى العاصمة واشنطن، للمشاركة في التجمع في الصباح الباكر. كذبن جميعاً، وأخبرن آباءهن أن كل واحدة منهن ستقضي الليلة في منزل الأخرى. كن يدخِّنَّ الحشيش داخل الحافلة، ويستمعن طوال الوقت إلى ألبوم الفرقة الأمريكية الشهيرة «كروزبي ستيلز أند ناش» من مسجلٍ صغيرٍ يعمل بالبطاريات. كانت موشومي تجلس في مقعدٍ أمام صديقتيها، وعندما أدارت وجهها إلى الخلف لتتحدث معهما كان ديميتري قد جلس في المقعد المجاور لها. بدا ديميتري منعزلاً عن بقية المجموعة، فلم يكن فعلياً عضواً في الائتلاف، وبدا غير مهتم به كذلك. كان نحيلاً ولكن قوي البنية، عيناه الصغيرتان تنظران إلى الأسفل، وملامح وجهه تكشف عن شخصٍ مثقفٍ جادٍ. كان مثيراً بالنسبة إلى موشومي، على الرغم من أنه ليس وسيماً، وقد انحسر شعره الفاتح المموج إلى الخلف، وبدا في حاجةٍ إلى حلاقة ذقنه وتقليم أظافره. ارتدى قميصاً أبيض ثُبتت نهايتا ياقته

بزرين، وجينزَ ليفيز باهتاً كانت ركبتاه باليتين، ونظارةً ذات إطارٍ ذهبي مرنٍ لُفَّ حول أذنيه بالكامل. بدأ ديميتري يتحدث معها دون أن تعرِّفه بنفسها، وكأنهما يعرفان بعضهما. كان في السابعة والعشرين من عمره، وتخرج في جامعة ويليامز حيث درس التاريخ الأوروبي. أما الآن، فقد انضم إلى مساق اللغة الألمانية في جامعة برينستون، ويعيش مع والديه اللذين يُدرسان في الجامعة نفسها، ويكاد يفقد صوابه. قضى ديميتري الأعوام التي تلت تخرجه متجولاً في الدول الآسيوية والأمريكية اللاتينية. أخبرها أنه قد يرغب في الحصول على درجة الدكتوراة في نهاية المطاف. أُعجبت موشومي بعشوائية الموقف والحديث. سألها عن اسمها، وعندما أخبرته انحنى نحوها، وثنى أذنه بيده، على الرغم من أنها تعلم أنه قد سمع اسمها تماماً، ثم سألها: «بحق السماء، كيف تتهجين هذا الاسم»؟ تجيبه موشومي، ولكنه يُخطئ في لفظه كما يفعل معظم الناس. تصححه موشومي فتخبره أن المقطع الأول من اسمها «مو» يُنطق مثل «toe» (إصبع القدم)، لكنه يهز رأسه، ويقول: «سأناديك «ماوس» (الفأرة)».

أزعجها اسم التحبب هذا، وسرَّها في الوقت نفسه. جعلها تشعر بالحمق، ولكنها أدركت أن ديميتري حين منحها اسماً آخر فقد أعلنها صديقةً له. وبينما ساد الهدوء داخل الحافلة حيث خلد معظم الركاب للنوم، سمحت موشومي لديميتري أن يسند رأسه على كتفها. كان ديميتري نائماً أو على الأقل هكذا اعتقدت، لذلك تظاهرت بالنوم أيضاً. بعد فترةٍ وجيزةٍ شعرت بيده فوق رجلها أعلى تنورتها القطنية السميكة

الزرقاء التي كانت ترتديها. مضت دقائق عديدة قام خلالها بفتح أزرار تنورتها الواحد تلو الآخر. وبينما كان رأسه على كتفها، وعيناه مغمضتين طوال الوقت، اندفعت الحافلة بسرعةٍ وعنفٍ عبر الطريق السريع المعتم الفارغ. كانت المرة الأولى في حياتها التي يلمسها فيها رجل. ظلَّت موشومي ساكنةً، وكانت تتوق بشدةٍ إلى لمسه بالمثل، لكنها كانت مذعورةً. في نهاية المطاف، فتح ديميتري عينيه. شعرت بفمه بجانب أذنها فالتفت نحوه حتى يُقبِّلها. كانت في السابعة عشرة من عمرها، ولم يُقبِّلها رجلٌ من قبل. لكنه لم يفعل، بل نظر إليها وقال: «ستحطمين قلوب كثيرين، هل تعلمين ذلك»؟ ثم رجع إلى الخلف ليتكئ على كرسيه هذه المرة، وأبعد يده عن حِجرها، وأغلق عينيه من جديد. حدقت موشومي فيه بغضبٍ، لأنه افترض أنها لم تحطم قلب أي شخصٍ بعد، وشعرت بالإطراء في الوقت ذاته. أبقت موشومي تنورتها مفتوحةً لبقية الرحلة وكلها أملٌ أن يعود ديميتري ليستأنف ما بدأه، لكنه لم يلمسها بعد ذلك، وفي الصباح لم يكن هناك أي اعترافٍ من جانبه بما حدث بينهما. خلال المسيرة مشى ديميتري مبتعداً، ولم يلتفت إليها. وفي طريق العودة جلسا على كرسيين منفصلين.

عادت موشومي فيما بعد إلى الجامعة كل يوم، وحاولت الالتقاء به صدفةً. رأته بعد بضعة أسابيع يخطو بخطىً سريعةٍ داخل الحرم الجامعي، وحده، وقد حمل بيده نسخةً من رواية *رجلٌ بلا خصائص*[1]. تناولا القهوة

(1) *رواية رجلٌ بلا خصائص* *A Mna Without Qualities* للمؤلف النمساوي روبيرت موسيل، الذي قضى قرابة العشرين عاماً في كتابتها، لكنه فارق الحياة ولم ينهها. تقع الرواية في ثلاثة أجزاء، ويجاوز عدد صفحاتها الألف. (المترجم)

معاً، وجلسا جنباً إلى جنب على مقعدٍ خشبي في الخارج. طلب منها أن ترافقه إلى السينما لمشاهدة فيلم الخيال العلمي *ألفافيل* (Alphaville) للمخرج غدارد، وتتناول معه طعاماً صينياً. كانت ترتدي ملابس أشعرتها بالحرج، فلقد لبست فوق الجينز سترةً رياضيةً كانت لوالدها، وكانت طويلةً جداً، وثنت الأكمام إلى الأعلى كما لو كانت قميصاً، لتُظهر بطانتها الداخلية المقلمة. كان موعدها الغرامي الأول الذي رتبته في أمسيةٍ خرج فيها والداها لحضور حفلةٍ ما. لم تتذكر موشومي شيئاً من الفيلم، ولم تأكل شيئاً في المطعم الذي كان جزءاً من مجمعٍ تجاري يقع على الطريق الأول. راقبت موشومي ديميتري يتناول حصتيهما من بسكويت الحظ، دون أن يقرأ العبارات التي تتنبأ بمستقبليهما، ثم ارتكبت موشومي خطأً عندما طلبت منه أن يرافقها إلى حفلة تخرجها من المدرسة الثانوية. رفض ديميتري، ثم أوصلها إلى البيت، قبّلها برفقٍ على وجنتيها، ثم لم يهاتفها مطلقاً. شعرت موشومي في تلك الأمسيةً بالإذلال فلقد عاملها ديميتري كطفلةٍ. أحياناً، خلال الصيف، كانت تلتقي به صدفةً في السينما. رافق فتاةً طويلة القامة يغطي النمش وجهها، وشعرها طويلٌ ينسدل حتى خصرها. أرادت موشومي أن تهرب، لكنه أصر على تعريفها بالفتاة التي كانت معه. «هذه موشومي»، قال ديميتري متعمداً، وكأنما انتظر هذه الفرصة، أسابيعَ، لينطق اسمها. أخبرها أنه مسافرٌ إلى أوروبا لفترةٍ قصيرة، وأدركت موشومي من النظرة التي علت وجه الفتاة أنها سترافقه. أخبرته موشومي أنها ستلتحق بجامعة براون، وبينما لم تكن صاحبته منتبهةً، قال لها: «تبدين رائعةً».

وبينما كانت في جامعة براون، وصلتها بطاقاتٌ بريديةٌ من حينٍ إلى آخر، ومظاريف أُلصقت عليها طوابع ملونةٌ كبيرةٌ للغاية. كان خطه صغيراً، ولكنه غير أنيق، مما أرهق عيني موشومي. لم يكتب عنوانه على البطاقات أو المظاريف قط. ولفترةٍ من الوقت، حملت موشومي رسائل ديميتري إلى محاضراتها في حقيبة كتبها، مما جعل دفتر أجندتها يبدو سميكاً. أرسل لها ديميتري على فتراتٍ منتظمةٍ كتباً قرأها واعتقد أنها قد تنال إعجابها. هاتفها بضع مراتٍ منتصف الليل، فكان يوقظها، لتتحدث معه ساعاتٍ في الظلام، وهي مستلقية على سريرها في حجرتها في سكن الطالبات، ثم تغفو خلال محاضراتها الصباحية. مكالمةٌ هاتفيةٌ واحدةٌ جعلتها تحلق لأسابيع: «سأحضر لزيارتك، وسأصطحبك للعشاء»، قال ديميتري، لكنه لم يحضر قط. في نهاية المطاف، بدأت الرسائل تتقلص تدريجياً. كانت آخر محاولاته الاتصال بها عبر صندوق كتبٍ أرسله لها، بالإضافة إلى العديد من البطاقات البريدية التي كتبها من أجلها وهو في اليونان وتركيا، لكنه لم يتمكن من إرسالها آنذاك، ثم انتقلت موشومي إلى باريس.

تقرأ موشومي السيرة الذاتية لديميتري مرةً أخرى، ثم رسالة التعريف به. لا تكشف الرسالة عن أي شيء باستثناء النية المعرفيّة الصادقة، ذاكرةً حلقة نقاشٍ حضرها ديميتري والبروفيسور الذي وُجهت إليه الرسالة معاً. كانت الرسالة ذاتها (رسالة التعريف بالسيرة الذاتية) مخزنةً عملياً داخل أحد الملفات على جهاز حاسوبها. كانت الجملة الثالثة في رسالته تفتقر إلى نقطةٍ في نهايتها، فأضافتها موشومي بحذرٍ بقلم الحبر المذبب. لم

تستطع موشومي أن تدفع نفسها إلى نسخ عنوانه، على الرغم من أنها لا تريد نسيانه. تنسخ موشومي السيرة الذاتية لديميتري في حجرة التصوير وتدسها في أسفل حقيبتها، ثم تطبع مظروفاً جديداً، وتضع المظروف الأصلي في صندوق بريد البروفيسور. تدرك موشومي عندما تعود إلى مكتبها أن المظروف الجديد لا يحوي طابعاً أو ختماً بريدياً، فتخشى أن يشك البروفيسور في الأمر. تقلق موشومي حيال هذا الأمر، لكنها سرعان ما تطمئن نفسها، فببساطة يمكن أن يكون ديميتري قد قام بتسليم الرسالة بنفسه. تملؤها فكرة وقوف ديميتري في القسم ليشغل المكان الذي تشغله الآن، بمزيجٍ من مشاعر اليأس والرغبة، التي كان قادراً دوماً على إثارتها داخلها.

كان الجزء الأصعب أن تقرر موشومي أين ستكتب رقم هاتف ديميتري؛ في أي جزءٍ من أجندتها. تتمنى لو كان لديها رمزٌ ما. واعدت موشومي في باريس لفترةٍ قصيرة أستاذاً جامعياً إيرانياً يُدرِّس الفلسفة كان يكتب أسماء طلبته بالفارسية خلف بطاقاتٍ مفهرسةٍ، وكان يكتب بعض التفاصيل القاسية عنهم، مما يساعده في تمييزهم. في إحدى المرات، قرأ البطاقات لموشومي. كتب على إحداها «بشرةٌ غير صافيةٍ»، و«كاحلٌ سميكٌ» على الأخرى. لا تستطيع موشومي أن تلجأ لمثل هذه الخدع، أو أن تكتب بالبنغالية، فهي تكاد لا تتذكر كيفية كتابة اسمها، الذي علَّمتها جدتها كتابته في الماضي. في نهاية المطاف، تكتب موشومي رقم هاتف ديميتري عند حرف الدال، لكنها لا تكتب الاسم إلى جانبه. الأرقام فقط لا غير؛ الأرقام منفصلةً عن هوية أصحابها لا

تعد خيانةً. فالأرقام يمكن أن تكون لأي شخص. تنظر موشومي إلى الخارج. وبينما تجلس عند مكتبها، تتجول عيناها أعلى إلى النافذة التي وصل ارتفاعها قمة الجدار وحيث يمتد سطح البناية الذي يمكن رؤيته من الشارع عبر الحافة السفلية للنافذة. يتسبب المنظر بالدوار، فتشعر موشومي وكأنها تترنح؛ شعورٌ لا تولده الجاذبية الأرضية، بل الآفاق اللامحدودة للسماء.

في المنزل، بعد العشاء، تبحث موشومي في حجرة المعيشة بين أرفف الكتب التي تتشاطرها مع نيكيل عن كتابٍ معين. اختلطت كتبهما منذ زواجهما، وكان نيكيل من قام بتفريغها، لذلك لم يكن أي كتابٍ في المكان الذي توقعته. تلمح موشومي كومةً من مجلات التصميم الهندسي الخاصة بنيكيل وكتباً سميكةً عن المهندسيْن المعماريِيْن الشهيريْن غروبيوس ولوكوربوزييه[1]. انحنى نيكيل فوق مسودة مخططٍ هندسي وضعه على مائدة الطعام، ثم سألها عم تبحث عنه.

«ستندال»، أجابت موشومي. لم تكن موشومي تكذب. كانت في الواقع تبحث عن نسخةٍ قديمةٍ لرواية *الأحمر والأبيض* للروائي الفرنسي ستندال، من إصدارات المكتبة الحديثة للنشر، مُهداةٍ إلى ماوس (الفأرة)، «مع كل الحب من ديميتري». كان الكتاب الوحيد الذي كتب عليه إهداءً. في ذلك الوقت كان الكتاب بالنسبة إليها أقرب ما يكون إلى رسالةٍ غرامية، لذلك كانت موشومي -ولعدة أشهر- تنام

(1) غروبيوس المهندس الألماني، ولوكوربوزييه المهندس السويسري الفرنسي: علَمان في تاريخ الهندسة المعمارية الحديثة. (المترجم)

والكتاب تحت وسادتها، ثم وضعته فيما بعد بين فرشتها وصندوق الزنبركات الذي تحتها. بطريقةٍ أو أخرى، تمكنت موشومي من التمسك به لسنواتٍ، فقد انتقل الكتاب معها من بروفيدينس إلى باريس ثم إلى نيويورك، فكان أشبه بفأل سعدٍ سريٍّ وضعته على رف كتبها لتلمحه في كل وقتٍ، ومازالت موشومي تشعر بالإطراء من ملاحقة ديميتري الغريبة لها في الماضي، ومايزال الفضول يدفعها إلى معرفة ماذا حلَّ به. لكنها لا تجد الكتاب، لذلك باتت مقتنعةً أنه ليس هنا في شقتهما، فربما أخذه غراهام بالخطأ عندما انتقل من الشقة التي عاشا فيها معاً في جادة يورك، أو لعله في قبو منزل والديها؛ في أحد الصناديق التي شحنتها إلى هناك قبل بضعة أعوام عندما ازدحمت أرفف مكتبتها بالكتب. لا تتذكر موشومي أنها حزمته مع أمتعتها عندما غادرت شقتها القديمة، كما أنها لا تتذكر أنه كان من ضمن الأشياء التي أحضرتها معها إلى هنا عندما انتقلت للعيش مع نيكيل. تتمنى لو كان بمقدورها أن تسأله إن كان رآه؛ رأى كتاباً صغيراً ذا غلافٍ مقوى أخضر، كان له في الماضي غلافٌ ورقيٌّ (القميص)، ونُقش عنوانه بأحرف بارزة داخل مستطيلٍ أسود على كعبه. فجأةً ترى موشومي الكتاب بين كتب أخرى على رفٍ قامت قبل دقيقةٍ بتفقده، ولكنها لم تميزه. تفتح موشومي الكتاب فترى الشعار الخاص بدار النشر؛ المكتبة الحديثة، شخصٌ عارٍ يحمل شعلةً ويندفع مسرعاً. ترى موشومي الإهداء، وقد برزت الأحرف على ظهر الصفحة، فيبدو أن ديميتري ضغط بقوةٍ برأس قلم الحبر الكروي على الورقة. لم تتابع موشومي آنذاك قراءة الرواية، فلقد توقفت بعد أن أنهت

الفصل الثاني منها. مازالت الصفحة التي وصلت إليها محددةً بإيصالٍ مصْفرٍ لشامبو اشترته حينها. أما الآن، فلقد قرأت موشومي الرواية ثلاث مراتٍ بالفرنسية، كما قرأتها مترجمةً إلى الإنجليزية من قِبل الكاتب والمترجم الأسكتلندي المعروف سكوت مونكريف، خلال بضعة أيام في مكتبها في العمل وفي مقصورتها في مكتبة الجامعة. في المساء، تقرأ موشومي الرواية من جديد حتى عودة نيكيل إلى المنزل، وعندها تضعها جانباً وتفتح كتاباً آخر.

تهاتف موشومي ديميتري في الأسبوع التالي. وقتئذٍ تكون موشومي قد بحثت عن جميع البطاقات البريدية التي أرسلها ديميتري في الماضي، ووضعتها داخل مغلفٍ كبيرٍ أبقته مفتوحاً ولم تكتب عليه شيئاً، داخل الصندوق الذي تحتفظ فيه بالأوراق الخاصة بالضريبة، وقرأتها من جديد وأصابها الذهول من حقيقة أن كلماته وخطّه لها التأثير نفسه، فمازالت تربكها. أقنعت موشومي نفسها أنها تهاتف صديقاً قديماً، وأن إيجاد سيرته الذاتية بهذه الطريقة ليست سوى صدفة عظيمة، وأن أي شخص في مكانها كان سيفعل ما فعلته، ويهاتف ديميتري. تفكر موشومي الآن أنه قد يكون متزوجاً مثلها، وقد يخرج أربعتهم لتناول العشاء، فيصبحوا أصدقاء. لكنها لم تخبر نيكيل بأمر السيرة الذاتية حتى اللحظة. في إحدى الليالي، وبينما كانت موشومي في مكتبها وقد تجاوزت الساعة السابعة، وعندما خلا المبنى من الموظفين والطلاب باستثناء البوّاب الذي كان يتجول في الأروقة، ارتشفت قليلاً من ويسكي ميكرز مارك، وكانت قد أخفت الزجاجة خلف خزانة الملفات، ثم هاتفته. في تلك الليلة،

اعتقد نيكيل أن موشومي تراجع مقالها الذي سيُنشر في مجلة *بي إم إل إيه* (*PMLA*) في مكتبها.

تطلُب موشومي الرقم، تستمع إلى رنين الهاتف الذي يرن أربع مراتٍ. تتساءل إن كان سيتذكرها. يخفق قلبها بسرعة. يتحرك إصبعها نحو حامل السماعة، وكانت على وشك إنهاء المكالمة التي لم تبدأ بعد.

- «نعم»؟

إنه صوته. «مرحباً، ديميتري»؟

- «نعم. من المتحدث»؟

تصمت موشومي قليلاً. كان مايزال بإمكانها أن تنهي المكالمة إذا رغبت بذلك. «أنا ماوس».

بدآ يلتقيان يوميْ الاثنين والأربعاء من كل أسبوع بعد الانتهاء من محاضراتها. تستقل موشومي القطار إلى أقصى المدينة، ويلتقيان في شقته حيث كان الغداء بانتظارها. كانت الوجبات شهيةً: سمكٌ مسلوق، وطبق البطاطس بالجبن والقشدة، والدجاج المشوي دون تقطيع وبداخله حبات ليمون كاملةٍ. زجاجة النبيذ موجودةٌ دائماً. يجلسان معاً إلى الطاولة وقد وضع ديميتري كتبه وأوراقه وهاتفه المحمول جانباً. يستمعان إلى محطة نيويورك للموسيقى الكلاسيكية، ويحتسيان القهوة والكونياك، ثم يدخنان. بعد ذلك يلمسها ديميتري. تتدفق أشعة الشمس من نافذةٍ كبيرةٍ قذرةٍ إلى الشقة القديمة جداً. تتكون الشقة من حجرتين فسيحتين جدرانها مغطاةٌ بالجص الذي بدأ

يتقشر، وأرضيتهما مكسوتان بالباركيه المهترئ، وهما ممتلئتان بصناديق تكدست فوق بعضها مثل برجٍ، ولم يفرغها ديميتري بعد. لا يكترثان بترتيب السرير البتة، ولم يكن سوى فرشةٍ جديدةٍ وُضعت فوق صندوق زنبركاتٍ له عجلات. تصيبهما الدهشة بعدما يتطارحان الغرام حين يكتشفان أن السرير قد تحرك بضعة إنشاتٍ بعيداً عن الجدار، وباتجاه المنضدة الصغيرة الموجودة في الجانب الآخر من الحجرة. تحب موشومي طريقة نظره إليها، في حين لم تزل أرجلهما وأذرعهما متشابكة، وديميتري يلهث وكأنما كان يلاحقها، وتعابير وجهه تكشف عن شوقٍ ولهفةٍ تتلوهما ابتسامةٌ فاسترخاءٌ. وخط بعض الشَّعر الأشيب رأسه وصدره، وظهرت بعض التجاعيد حول فمه وعينيه. ازداد وزنه عما قبل، وبرز له بعض الكرش بلا شك، لذلك بدت رجلاه النحيلتان مضحكتين. بلغ ديميتري التاسعة والثلاثين من عمره مؤخراً. لم يتزوج قط. لا يبدو أنه مهتمٌ بالحصول على وظيفةٍ. يقضي معظم وقته في الطهي والقراءة والاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية. تفهم موشومي من كلامه أنه ورث بعض المال من جدته.

عندما التقيا للمرة الأولى في اليوم التالي لمهاتفتها له، عند البار في مطعمٍ إيطالي مزدحمٍ بالقرب من جامعة نيويورك، لم يستطيعا التوقف عن التحديق في بعضهما. انتقل ديميتري إلى نيويورك قبل شهرٍ فقط، وحاول أن يجد رقم هاتفها، لكنه موثقٌ في دليل الهاتف تحت الاسم الأخير لنيكيل. اتفق كلاهما أنْ ليس مهماً مَنْ بحث عن الآخر أولاً، وأن الأمر سار في الاتجاه الأفضل لكليهما. يتناولان كؤوساً من نبيذ بروسيكو

الأبيض الإيطالي. وافقت موشومي على تناول عشاءٍ مبكرٍ مع ديميتري وهما يجلسان معاً عند البار، فقد أثّر النبيذ فيهما سريعاً. طلب ديميتري سلطةً تعلوها قطع لسان خروفٍ ساخنة، وبيضةً مسلوقةً، وجبن الغنم المعروف ببيكورينو؛ وجبةٌ أقسمت موشومي أنها لن تلمسها، لكن الأمر انتهى بها إلى تناول الجزء الأكبر منها. بعد تناول العشاء مع ديميتري توجهت موشومي إلى متجر بلدوتشي (Balducci's) لتبتاع المعكرونة وصلصة الفودكا الجاهزة، لتتناولها مع نيكيل في المنزل.

لا يعلم أحدٌ أين تكون موشومي يومي الاثنين والأربعاء. لا يوجد بائعو فاكهةٍ بنغال يلقون عليها التحية وهي تسير من محطة المترو القريبة من منزل ديميتري، ولا جيران يميزونها عندما تدخل البناية حيث توجد شقة ديميتري. يذكّرها الأمر بحياتها في باريس: لبضع ساعاتٍ يتعذر الاتصال بها وتكون مجهولة الهوية. لم يكن ديميتري مهتماً بنيكيل، فلم يدفعه الفضول إلى السؤال عن اسمه. وبالإضافة إلى ذلك، لا يُظهِر ديميتري أي شعورٍ بالغيرة. عندما أخبرته في المطعم الإيطالي أنها متزوجة، لم تتغير تعابير وجهه. يعدُّ ديميتري قضاءهما الوقت معاً أمراً طبيعياً ومُقدَّراً، أما موشومي فبدأت ترى كم هو سهلٌ. عندما تتحدث موشومي عن نيكيل خلال حديثها مع ديميتري تقول: «زوجي»، و«أنا وزوجي مدعوان للعشاء الخميس القادم»، و«لقد انتقلت عدوى الزكام من زوجي إليّ».

في المنزل، لا يشك نيكيل في أي شيء. يتناولان العشاء معاً كالمعتاد، ويتحدثان كيف قضى كلٌّ منهما يومه. ينظفان المطبخ سويةً، ثم يجلسان

على الأريكة، ويشاهدان التلفاز وموشومي تصحح امتحانات طلبتها القصيرة وفروضهم المنزلية. يتناولان مثلجات بين وجيري خلال أخبار الساعة الحادية عشرة، ثم ينظفان أسنانهما. وكالمعتاد يذهبان إلى السرير، يُقبلان بعضهما، ثم يبتعدان عن بعضهما ببطء حتى يمدا جسديهما براحةٍ استعداداً للنوم. تبقى موشومي فقط مستيقظةً. كل ليلة اثنين وأربعاء تخشى موشومي أن يشعر نيكيل بشيء ما أو أن يضمها بذراعيه فيكتشف الأمر في الحال. تبقى موشومي مستيقظةً لساعاتٍ بعدما يطفئ نيكيل المصباح، وتستعد للإجابة على أسئلته وقول الأكاذيب في وجهه. إن كان سيسألها أين ذهبت ستقول إنها ذهبت لتتسوق، ففي الواقع هذا ما فعلته وهي في طريقها إلى المنزل يوم الاثنين عندما قابلت ديميتري للمرة الأولى، فقد خرجت من شقة ديميتري مسرعةً، ثم غادرت المترو ونزلت عند شارع 72 قبل أن تتابع رحلتها وسط المدينة لتتوقف عند متجرٍ لم تدخله من قبل وتشتري حذاءً أسود عادياً جداً.

في إحدى الليالي كان الوضع أسوأ من المعتاد. إنها الثالثة فجراً، ثم الرابعة. كانت أعمال البناء قائمةً في شارع منزلهما منذ ليالٍ مضت، يقوم العمال بتحريك عرباتٍ ضخمة من الحصى والإسمنت وخلطها معاً، وتشعر موشومي بالغضب من نيكيل لقدرته على النوم. ترغب موشومي في النهوض وسكب كأسٍ لنفسها، ثم في الاستحمام؛ في الواقع ترغب في فعل أي شيء، لكنها منهكةٌ فتبقى في السرير. تراقب موشومي الظلال التي تُلقي بها السيارات العابرة، على سقف حجرتهما، وتستمع لصوت شاحنةٍ قادمٍ من بعيد، فيبدو لها مثل عويل وحشٍ وحيدٍ

ينشط ليلاً. إنها مقتنعةٌ أنها ستبقى مستيقظةً حتى شروق الشمس، لكنها بطريقةٍ أو أخرى تشعر بالنعاس. غير أن صوت المطر الذي يرشق نافذة حجرة النوم بقوةٍ يُوقظها بعد بزوغ الفجر، حتى إنها توقعت أن يحطم زجاج النافذة. بدأت تعاني من صُداعٍ رهيبٍ. تنهض من السرير وتفتح الستائر، ثم تعود إلى السرير وتوقظ نيكيل. «انظر»، تقول موشومي، وتشير إلى المطر وكأنها كان شيئاً عجيباً. يستجيب نيكيل مكرهاً وقد غلبه النعاس، يجلس ثم يغلق عينيه من جديد.

تنهض موشومي من السرير عند السابعة والنصف. كانت السماء صافيةً. تخرج موشومي من حجرة النوم وترى أن مياه المطر قد تسربت من سطح البناية وتركت بقعةً صفراء بشعةً على سقف الشقة وبركةً صغيرةً على الأرض؛ واحدةً في الحمام وأخرى عند الرواق الأمامي. كانت حافة نافذة حجرة المعيشة التي تُركت مفتوحةً مبللةً جداً وملطخةً بالطين، وكذلك الفواتير والكتب والأوراق التي تكدست بالقُرب من النافذة. بكت موشومي لرؤيتها هذا المشهد، لكنها شعرت بالامتنان في الوقت نفسه لوجود شيء ملموس يُبكيها.

- «لم تبكين»؟ يسألها نيكيل، وكانت عيناه نصف مغمضتين، وكان مرتدياً بجامته.

- «توجد شقوقٌ في السقف»، تقول موشومي.

ينظر نيكيل إلى الأعلى. «إنها ليست بهذا السوء، سأهاتف مشرف العمارة».

- «لقد اخترقت مياه المطر السطح».

- «أي مطر»؟

- «ألا تتذكر؟ لقد كانت تمطر بغزارة عند الفجر. كان رائعاً. لقد أيقظتك».

لكن نيكيل لا يتذكر شيئاً.

يمر شهرٌ كامل من أيام الاثنين والأربعاء. بدأت موشومي تقابل ديميتري يوم الجمعة أيضاً. في أحد أيام الجمعة وجدت موشومي نفسها وحدها في شقة ديميتري، فقد غادر لحظة وصولها ليشتري إصبع زبدةٍ، كي يُعِدَّ صلصةً بيضاء ويسكبها على سمك السلمون المرقط. موسيقى كلاسيكية من تأليف بارتوك تصدح من جهاز الستيريو، والعديد من أجزاء الستيريو الباهظة الثمن مبعثرةٌ على أرضية الحجرة. تراقبه موشومي من النافذة، يمشي أسفل البناية، رجلٌ في منتصف العمر، صغير الحجم، بدأ يفقد شعره، عاطلٌ عن العمل، يُساعدها في تحطيم زواجها. تتساءل إن كانت المرأة الوحيدة في عائلتها التي خانت زوجها وكانت غير مخلصةٍ. كان أكثر ما يزعجها الاعتراف بأن هذه العلاقة تجعلها تشعر بالسكينة على نحوٍ غريبٍ، وأن الطبيعة المعقدة لهذه العلاقة تبعث الهدوء داخلها، فلقد أصبحت جزءاً مهماً من حياتها اليومية. شعرت موشومي بالذعر عندما كانت تستحم بعد ممارسة الجنس مع ديميتري للمرة الأولى، لهول ما فعلته، وعندما رأت ملابسها مبعثرةً في الحجرتين. سرَّحت شعرها أمام مرآة الحمام- وهي المرآة الوحيدة في شقة ديميتري- قبل مغادرتها. أبقت رأسها منخفضاً ولم تنظر إلى الأعلى إلا عندما انتهت من تسريح شعرها. عندما نظرت في المرآة اكتشفت أنها

إحدى تلك المرايا التي تكبِّر الأشياء، وقد يُعزى ذلك إلى خدعةٍ يتسبب بها انعكاس الضوء عليها، أو نوعٍ خاصٍ من الزجاج، فرأت موشومي وجهها متوهجاً.

لا يوجد شيء على جدران شقة ديميتري. لم يُفرغ حقائبه الدافيل الضخمة بعد. كانت موشومي سعيدةً لعدم قدرتها على تخيل حياته بكل تفاصيلها، فالفوضى عارمة. كانت أدوات الطهي وأجزاء الستيريو وبعض كتبه هي الأشياء الوحيدة التي فرَّغها من حقائبه. في كل مرةٍ تزوره فيها موشومي تلاحظ دلائل تقدم. تتجول موشومي في حجرة المعيشة، وتنظر إلى الكتب التي بدأ يرتبها على الأرفف الخشبية الرقيقة. وباستثناء الكتب الألمانية، كانت مكتبته الخاصة شبيهةً بمكتبتها. كان لديه موسوعة برينستون للشعر ذاتها التي لها الكعب نفسه ذو اللون الأصفر الليموني، والطبعة ذاتها من كتاب *المحاكاة*، وحتى مجموعة مؤلفات بروست ذاتها، المحفوظة داخل صندوقٍ خاصٍ. تسحب موشومي مجلداً ضخماً يحوي صوراً لباريس للمصور الفرنسي الشهير أتجيت. تجلس على كرسيٍّ ذي ذراعين، وهو قطعة الأثاث الوحيدة في حجرة المعيشة. هنا جلست موشومي عندما زارت ديميتري للمرة الأولى، فوقف خلفها يدلك بقعةً على كتفها، فأثارها، ثم نهضت وذهبا معاً إلى حجرة النوم.

تفتح موشومي الكتاب لتنظر إلى الشوارع والمعالم التي تعرفها. تفكر في المنحة الجامعية التي خسرتها. يظهر مربعٌ كبيرٌ من أشعة الشمس على الأرض. كانت الشمس خلفها مباشرةً، فانتشر ظل رأسها على صفحات

الكتاب السميكة الناعمة الملمس، وبدت بعض خصلات شعرها أسمك مما هي عليه على نحوٍ غريبٍ، وكأنما نظرت إليها موشومي عبر المجهر. تُميل موشومي رأسها للخلف وتغلق عينيها. عندما فتحتهما بعد لحظةٍ كانت الشمس قد اختفت، ولم يبق منها سوى شعاعٍ ذهبيٍّ وحيدٍ بدأ يتقلص على الألواح الخشبية التي تغطي الأرضية، فبدا مثل ستارةٍ تُغلق تدريجياً، واكتسبت صفحات الكتاب الشديدة البياض لوناً رمادياً. تسمع موشومي صوت خطوات ديميتري على الدرج، ثم تسمع بوضوح صوتَ مفتاحه في قِفْل الباب؛ صوتاً حاداً يبدد سكون المكان. تنهض موشومي وتبحث عن الحيز الذي كان يشغله الكتاب بين الكتب لتضعه فيه.

11

يستيقظ غوغول -وحده- في وقتٍ متأخر صباح يوم الأحد، بعد أن رأى كابوساً لا يستطيع تذكره. ينظر غوغول إلى جانب السرير حيث تنام موشومي، وإلى كومة كتبها ومجلاتها غير المنظمة على المنضدة الصغيرة بجوارها، وإلى زجاجة ملطف الجو برائحة الخزامى، التي تحب أحياناً أن ترش القليل منها على وسادتيها، وإلى مشبك شعرها الذي يشبه درع السلحفاة، وقد تشبث ببعض شعيراتٍ من شعرها. تشارك موشومي في مؤتمرٍ جديدٍ في نهاية عطلة الأسبوع هذه، في بالم بيتش. ستعود الليلة. زعمت موشومي أنها أخبرته عن المؤتمر منذ أشهرٍ مضت، لكن غوغول لا يتذكر أنها فعلت. وبينما كانت موشومي تحزم أمتعتها قالت: «لا تقلق، لن أطيل البقاء هناك فأكتسب سمرةً». لكن غوغول شعر برعبٍ غريبٍ عندما رأى ثوب سباحتها فوق ملابسها التي وضعتها على السرير، فقد تخيلها مستلقيةً دونه بالقرب من بركة الفندق، وقد أغلقت عينيها ووضعت كتاباً بجانبها. على الأقل سيشعر أحدنا بالدفء، يفكر غوغول وقد ضم ذراعيه المتقاطعين بقوةٍ إلى صدره. لقد

تعطل مرجل التدفئة في البناية منذ بعد ظهر الأمس، فأصبحت الشقة باردةً للغاية. اضطر غوغول ليلة أمس إلى إيقاد الفرن حتى يستطيع الجلوس في حجرة المعيشة. وحتى يتمكن من النوم، ارتدى سروال الرياضة القطني الذي كتبت عليه كلمة «ييل»، وكنزةً سميكةً فوق تي شيرت، وزوج جوارب صوفية رديئة الصنع. في منتصف الليل، يضيف غوغول إلى غطائه لحافاً، ثم يضع فوقه بطانيةً أيضاً. في البداية لم يجد غوغول البطانية، وكاد يهاتف موشومي في الفندق ليسألها أين وضعتها، لكنها كانت الثالثة فجراً، فبحث بنفسه حتى وجدها -في نهاية المطاف- محشورةً في الرف العلوي داخل الخزانة الموجودة في الرواق، وكانت إحدى هدايا الزفاف، ومازالت في كيسها البلاستيكي الذي له سحابٌ، ولم تستخدم حتى اللحظة.

ينهض غوغول وينظف أسنانه بماء الصنبور المتجمد، ويقرر ألا يحلق ذقنه. يرتدي جينزاً وكنزةً إضافيةً وفوقهما رداء الحمام الخاص بموشومي، ولم يأبه بسخافة منظره. يحضر إبريق القهوة، ويُحمص بعض خبز التوست ليتناوله مع الزبدة والمربى. يفتح غوغول الباب الأمامي للشقة ليحضر صحيفة التايمز، ثم يزيل الغلاف الأزرق، ويضعها على منضدة القهوة ليقرأها فيما بعد. بحلول الغد، عليه أن ينهي تصميماً هندسياً وهو مقطعٌ عرضيٌّ لقاعة محاضراتٍ واحتفالاتٍ لمدرسةٍ ثانوية في شيكاغو. يبسط غوغول المخطط على مائدة الطعام، ويثبت أطرافه بكتبٍ ورقية الغلاف أحضرها من خزانة الكتب. يستمع غوغول لألبوم فرقة البيتلز الذي يحمل اسم «أبي رود»، ويقوم بتسريع القرص الممغنط قليلاً ليشغّل

الجزء الثاني من الألبوم، ويحاول العمل على التصميم، والتحقق من أن قياساته تطابق ملاحظات المصمم الرئيس. لكن أصابعه متيبسةٌ، لذلك يلف غوغول المخطط ويترك ملاحظةً لموشومي على كاونتر المطبخ، ثم يغادر الشقة إلى المكتب.

شعر غوغول بالسعادة لأنه وجد حجةً لمغادرة الشقة عوضاً عن انتظار عودة موشومي في وقتٍ ما، هذا المساء. كان الجو أكثر اعتدالاً في الخارج، والهواء رطباً على نحوٍ لطيف. لا يركب غوغول القطار، بل يقطع مسافة ثلاثين بناية سيراً على الأقدام باتجاه جادة بارك، ثم إلى ميدان ماديسون. كان الشخص الوحيد في المكتب. يجلس غوغول في حجرة الرسم المعتمة، وقد أحاطت به مكاتب زملائه التي ازدحمت بعضها بالرسومات الهندسية والمجسمات، في حين كانت الأخرى منظمةً للغاية. ينحني غوغول فوق الطاولة حيث تنير بقعة ضوءٍ تنبعث من مصباحٍ معدنيٍّ مرنٍ يسهل تحريكه، الورقةَ الكبيرة التي كانت أمامه. فوق مكتبه، ثُبت تقويمٌ على الجدار للسنة الحالية التي أشرفت على الانتهاء. ستحل الذكرى الرابعة لوفاة والده عند نهاية الأسبوع الحالي. حدد غوغول بعض الأيام على التقويم، فرسم دوائر حولها تشير إلى المواعيد النهائية لتسليم مشاريعه، السابقة والمستقبلية. تشير هذه التواريخ كذلك إلى مواعيد اجتماعاتٍ وزياراتٍ ميدانيةٍ للمواقع ومداولاتٍ مع الزبائن، أو ربما إلى موعد غداءٍ مع مهندسٍ معماريٍّ قد يرغب في العمل معه. يتلهف غوغول إلى الانتقال إلى شركةٍ أصغر تمنحه بعض العمولات، وإلى العمل مع عدد أقل من الأشخاص. على الجدار،

إلى جانب التقويم توجد بطاقةٌ بريدية، وهي لوحةٌ للفنان الفرنسي دو شامب أحبها غوغول جداً، يصور فيها مطحنة شوكولاته ثابتةً - لطالما ذكَّرت غوغول بالطبول- ومن ورائها خلفيةٌ رمادية. ويوجد على الجدار كذلك العديد من القصاصات الملونة المزودة بلاصقٍ، وتستخدم لتدوين الملاحظات. وضع غوغول على الجدار أيضاً صورته مع والدته وسونيا في مدينة فتحبور سيكري، التي انتزعها عن باب الثلاجة في شقة والده في كليفلاند. وإلى جوار هذه الصورة كانت صورة موشومي، صورة جواز سفرٍ قديمةٍ وجدها غوغول وطلب الاحتفاظ بها. كانت في العشرين من عمرها، شعرها منسدل، وعيناها اللتان تتميزان بجفونٍ عريضةٍ كانتا منخفضتين قليلاً، تنظران في اتجاهٍ واحد. التُقطت الصورة عندما كانت تعيش في باريس؛ أي قبل تعرفه عليها. فترةٌ من حياتها كان مايزال بالنسبة إليها جزءاً من ذكريات الماضي، وكان ظهوره في حياتها احتمالاً ضعيفاً جداً. لكنهما التقيا، وبعد أن عاشت كل هذه المغامرات، كان هو الشخص الذي تزوجته، وشاركته حياتها.

حلَّ عيد الشكر في نهاية الأسبوع الماضي. قدِمت أمه وسونيا و«بين»؛ صديقها الجديد، فضلاً عن والدي موشومي وشقيقها، واحتفلوا جميعاً في نيويورك داخل شقة غوغول وموشومي التي اكتظت بهم. كانت المرة الأولى التي لا يذهب فيها غوغول إلى منزل والديه أو منزل والدي موشومي لقضاء العطلة. بدا شعوراً غريباً أن يستضيف غوغول الجميع ويتحمل المسؤولية كاملةً. ابتاع غوغول وموشومي ديكاً رومياً طازجاً من سوق المزارعين، وجهزا قائمة الطعام والمشروبات بمساعدة مجلة

«*طعامٌ ونبيذ*»، وابتاعا كذلك مقاعد قابلة للطي ليحصل الجميع على مكانٍ للجلوس. اشترت موشومي مرقاق عجينٍ، وأعدَّت فطيرة تفاحٍ للمرة الأولى في حياتها. تحدث الجميع بالإنجليزية من أجل بين. بين؛ نصف يهودي ونصف صيني، ترعرع في نيوتاون القريبة من المكان الذي ترعرع فيه غوغول وسونيا. يعمل محرراً في صحيفة *غلوب*. التقى بين بسونيا صدفةً في مقهى في شارع نيوبيري. وقد شعر غوغول بالغيرة لرؤيته سونيا وبين يتسللان معاً إلى الرواق الأمامي، ليقبلا بعضهما بحريةٍ. وهما يمسكان سراً كلٌّ بيد الآخر حين يجلسان إلى مائدة الطعام. وبينما جلس الجميع لتناول الديك الرومي المحشو بالبطاطس الحلوة المشوية، وخبز الذرة، وصلصة الشوتني المتبلة التي أعدتها والدته من التوت البري، نظر غوغول إلى موشومي وتساءل ما خطبها؟ فعلى الرغم من أنهما لا يتجادلان، ومايزالا يتطارحان الغرام، لكنه تساءل: هل مايزال قادراً على إسعادها؟ لم تتهمه بشيء، بيد أنه يشعر بابتعادها المتزايد عنه واستيائها وشرودها. لكن، لم يتوافر وقت كاف لمناقشة ما يُشعر غوغول بالقلق. كانت نهاية أسبوعٍ مرهقة ولاسيما مع توصيل أعضاء عائلتيهما إلى شقق أصدقائهما القريبة، الذين كانوا يقضون العطلة خارج نيويورك، وأعطوا المفاتيح لغوغول وموشومي. في اليوم التالي لعيد الشكر، ذهب الجميع إلى حيٍّ جاكسون هاييتس، قاصدين جزَّار اللحم الحلال، حتى تتمكن والدتا غوغول وموشومي من الحصول على كميةٍ كافيةٍ من لحم الغنم لتخزينها، ثم توجه الجميع لتناول إفطارٍ متأخر. أما يوم السبت فذهب الجميع لحضور حفلٍ للموسيقى الهندية

الكلاسيكية في مسرح جامعة كولومبيا. يرغب جزءٌ في داخله بإثارة الموضوع. يود سؤالها: «هل أنت سعيدةٌ بزواجك مني»؟ لكن حقيقة أنه يفكر في طرح هذا السؤال تخيفه.

ينهي غوغول الرسم الهندسي، ويتركه مثبتاً على مكتبه حتى يتمكن من مراجعته في الصباح. عمل غوغول خلال استراحة العشاء، وعندما غادر المبنى كان الجو أبرد مما كان عليه، وضوء الشمس قد تلاشى بسرعة. ابتاع غوغول كوباً من القهوة، وشطيرة فلافل من المطعم المصري الموجود عند زاوية الشارع، ثم سار نحو الجنوب وهو يتناول شطيرته، باتجاه ناطحة السحاب الشهيرة فلات آيرون، المتمركزة عند الجادة الخامسة، ولاح البرجان التوأمان لمركز التجارة العالمي عن بعدٍ ليس بالكبير، يتلألآن عند طرف الجزيرة. كانت شطيرة الفلافل الملفوفة بورق الطهي المعدني دافئةً، لكنها غير متماسكة في يده. بدت المتاجر مكتظةً، ونوافذ العرض مزينةً، وازدحمت الأرصفة بالمتسوقين. يربكه التفكير بعيد الميلاد. ففي العام الماضي ذهب كلاهما إلى منزل والدي موشومي، وهذا العام سيذهبان إلى شارع بيمبيرتون. لم يعد غوغول يتطلع إلى عطلة عيد الميلاد، بل يرغب أن يكون بعيداً عن كل هذا. لم يعد يطيق كل هذه الاحتفالات، ويُشعره نفاد صبره أنه أصبح، في نهاية المطاف، ناضجاً بطريقةٍ لا تقبل الجدال. يتجول غوغول شارد الذهن داخل متجرٍ للعطور، ثم متجر ملابس، ثم متجرٍ يبيع الحقائب فقط. ليس لديه أدنى فكرةٍ ماذا سيبتاع لموشومي كهديةٍ لعيد الميلاد. تلمح موشومي عادةً بما تريد، فتُريه كاتالوجاً ما، لكنه لا يتوفر هذه المرة على

أي دليلٍ لما تشتهيه موشومي هذا الموسم؛ هل ترغب بزوج قفازاتٍ جديدٍ أو محفظةٍ أو منامة ربما رأتها في أحد المتاجر وأحبتها. لا يجد غوغول ما يلهمه في متاهة المتاجر المنتشرة في ميدان يونيون، التي تبيع الشموع والشالات والمجوهرات المصنوعة يدوياً.

يقرر غوغول أن يجرب متجر بارنز آند نوبل للكتب، الواقع عند الحافة الشمالية للميدان. يحدق غوغول في الحائط الضخم الذي يعرض عناوين الإصدارات الجديدة، فيدرك أنه لم يقرأ أياً منها، إذن ما فائدة إهدائها كتاباً لم يقرأه؟ في طريقه إلى الخارج، يتوقف عند طاولةٍ خُصصت لعرض الأدلة السياحية. يلتقط أحد الأدلة الخاصة بإيطاليا، وكان زاخراً بصور توضيحيةٍ للهندسة المعمارية التي درسها بدقةٍ عندما كان طالباً، وأُعجب بها من خلال الصور الفوتوغرافية فقط، وكان ينوي رؤيتها على أرض الواقع. يشعر غوغول بالغضب ويلوم نفسه. ما الذي منعه؟ رحلةٌ يذهبان فيها سويةً إلى مكانٍ لم يزوراه من قبل؛ لعل هذا ما يحتاجانه. بإمكانه أن يخطط للرحلة أكملها بنفسه، ويختار المدن التي سيزورانها، والفنادق التي سيقيمان فيها. قد تكون هذه الرحلة هديته لها في عيد الميلاد؛ تذكرتان إلى إيطاليا يدسهما في نهاية الدليل. كان لديه إجازةٌ أخرى من العمل، لذلك بإمكانه أن يخطط للرحلة في إجازة الربيع التي تحصل عليها موشومي عادةً. كانت فكرةً رائعةً، فتوجه إلى أمين الصندوق، وانتظر في صفٍّ طويلٍ، ثم دفع ثمن الدليل السياحي.

وبينما كان غوغول يسير عبر المتنزه متوجهاً إلى المنزل، تصفح الدليل، وكان متشوقاً لرؤية موشومي. يقرر غوغول أن يتوقف عند متجر

الأطعمة الجديد في منطقة إيرفنغ بليس ليشتري بعض الأطعمة التي تحبها موشومي، مثل: البرتقال الأحمر (دم الزغلول) أو قطعة جبنٍ من جبال البيرينيه، أو شرائح من السلامي المجففة الإيطالية، أو رغيفٍ من خبز الفلاح. حتماً ستشعر موشومي بالجوع، فهم لا يقدمون ما يكفي من الطعام على الطائرة. يبعد غوغول عينيه عن الكتاب وينظر نحو السماء حيث بدأ الظلام يخيم والغيوم تكتسب لوناً ذهبياً داكناً جميلاً. يتوقف غوغول للحظةٍ حين يباغته سربٌ من الحمام الذي كان يطير على مسافةٍ قريبةٍ. يشعر غوغول بخوفٍ مفاجئٍ، يُخفض رأسه ليتجنب الطيور، ولكنه سرعان ما يشعر بالسخافة. لم يفزَع أيٌّ من المارة. يقف غوغول ليراقب الحمام يحلق عالياً، ثم يهبط في الوقت ذاته على الأغصان العارية لشجرتين قريبتين منه. تسبب المشهد بتشويشه، فلقد رأى هذه الطيور المتطفلة على حافة النوافذ وأرصفة المشاة، بيد أنه لم يرها على الأشجار من قبل. يبدو مشهداً غير طبيعي. لكن أي مشهدٍ يمكن أن يكون مألوفاً أكثر من هذا؟ يفكر غوغول في إيطاليا، والبندقية، والرحلة التي سيبدأ بالتخطيط لها. لعل سرب الطيور هذا إشارة إلى أنهما سيذهبان معاً. ألم تشتهر ساحة سان ماركو في البندقية بأسراب الحمام؟

كان الرواق دافئاً عندما دخل غوغول الشقة. نظام التدفئة يعمل من جديد. «لقد عادت للتو»، يخبر البواب غوغول ويغمز بعينه، فيخفق قلب غوغول فرحاً بعد أن تسبب مشهد الحمام بإرباكه، ويشعر بالامتنان لأنها ببساطةٍ عادت إليه. يتخيلها غوغول تتسكع في الشقة، وتستحم، وتسكب لنفسها كأس نبيذٍ، ولمّا تزل حقائبها عند مدخل الشقة. يُخفي

غوغول الكتاب الذي ابتاعه من أجلها داخل جيب معطفه، ويتأكد من أنه مخبأٌ جيداً، ليهديه لها في عيد الميلاد، ثم يركب المصعد إلى الطابق العلوي.

12

2000

إنه اليوم الذي يسبق عيد الميلاد. تجلس أشيما غانغولي عند مائدة المطبخ تُعد كروكيت اللحم المفروم، من أجل الحفلة التي ستقيمها هذا المساء. كان هذا الطبق أحد اختصاصاتها، فضيوفها يتوقعون تناوله عندها دوماً، وهي تقدمه لهم في أطباق صغيرةٍ لحظة وصولهم. تعدُّ أشيما وحدها كل الأطباق، وتهتم بجميع التجهيزات. أولاً، تهرس أشيما البطاطس المسلوقة التي مازالت ساخنةً بمهرسة البطاطس، ثم تشكل بحذرٍ كراتٍ منها تحشوها بملعقةٍ كاملةٍ من لحم الخروف المفروم فتنتهي بكراتٍ ذات شكلٍ موحدٍ، تحيط البطاطس المسلوقة فيها باللحم، كما يضم بياض البيضة المسلوقة صفارها. تغمس أشيما كل حبة كروكيت، وهي بحجم كرة البلياردو، في زبديةٍ تحتوي على بيضٍ مخفوقٍ، ثم تغلفها بفتات الخبز، وتهزها بعد ذلك داخل راحة يدها لتتخلص من الفتات الفائض. وأخيراً، تكدس أشيما كرات الكروكيت في صينيةٍ كبيرةٍ دائرية الشكل، طبقةً تلو الأخرى، وتستخدم الورق

الشمعي[1] لتفصلها عن بعضها. تتوقف أشيما لتَعُدَّ الكرات التي أعدتها حتى اللحظة. تقدر أشيما أن كل ضيفٍ بالغٍ سيتناول ثلاث حباتٍ، في حين سيتناول كل طفلٍ حبةً واحدةً. تستخدم أشيما أصابعها لتحسب مرةً أخرى عدد ضيوفها بدقةٍ. تقرر إعداد دزينةٍ أخرى من كرات الكروكيت من قبيل الحيطة. تسكب أشيما المزيد من فتات الخبز في طبقٍ، ويذكرها لونها وملمسها برمال الشاطئ. تتذكر أشيما إعدادها الطبق نفسه للمرة الأولى في مطبخها في كيمبردج، عندما أقامت حفلها الأول. وقف زوجها عند الموقد وقد ارتدى منامةً بيضاء لها نطاقٌ عند الخصر وتي شيرت، وقام بقلي الكروكيت في قدرٍ صغيرٍ أسود؛ كرتين كل مرة. تتذكر مساعدةَ غوغول وسونيا لها عندما كانا صغيرين؛ يضم غوغول بيده العلبة المعدنية التي تحتوي على فتات الخبز، وتصر سونيا دوماً على تناول كرات الكروكيت قبل تغليفها بفتات الخبز وقليها.

هذه هي الحفلة الأخيرة التي ستقيمها أشيما في منزلها في شارع بيمبيرتون، وهي الأولى منذ وفاة زوجها. قامت أشيما مؤخراً ببيع المنزل الذي عاشت فيه طوال السبع والعشرين سنةً الماضية؛ المنزل الذي عاشت فيه فترةً زمنيةً أطول من أي منزلٍ آخر في حياتها كلها، لشركة رييلتور العقارية، التي وضعت لافتةً على المرجة الأمامية للمنزل. أما المشترون فهم عائلةٌ أمريكيةٌ، آل ووكرز، أستاذٌ جامعيٌّ شابٌّ عُيِّن مؤخراً في الجامعة نفسها التي عمل فيها أشوك، وزوجته، وابنته. يخطط آل ووكرز

(1) الورق الشمعي (Wax paper): نوعٌ من الورق، مطليٌّ بطبقةٍ من الشمع يستعمل في الطهي، ولاسيما الحلويات. (المترجم)

لبعض أعمال الترميم والتجديد، إذ سيقومان بهدم الجدار الفاصل بين حجرتي المعيشة والطعام، وسيضعان مائدةً في منتصف المطبخ، ويثبتان فوقها مصابيح في السقف. سيزيلان الموكيت الذي يغطي الأرضيات، وسيحولان الشرفة الشمسية إلى حجرةٍ إضافية. للوهلة الأولى شعرت موشومي بالذعر وهي تستمع لمخططات آل ووكرز، وسيطرت عليها غريزة الدفاع عن النفس، فأرادت أن تتراجع عن عرضها، ليبقى المنزل على حاله كما رآه زوجها للمرة الأخيرة قبل وفاته. لكن عاطفتها هي التي تتحدث، فمن الحمق أن تعتقد أنَّ آل ووكيرز سيحتفظون بأحرف «غانغولي» الذهبية المثبتة على صندوق البريد، ولن يتم استبدالها، أو أن تظن أن اسم سونيا الذي كتبته بقلم الماجيك على باب حجرة نومها لن تتم إزالته بورق الزجاج، ثم يطلى الباب من جديد، أو أن تتأمل ألا يقوم آل ووكرز بطلاء الجدار المجاور لخزانة البياضات، الذي اعتاد أشوك أن يضع عليه علاماتٍ بقلم الرصاص لتحديد طول طفليه، في كل عيد ميلاد لهما.

قررت أشيما أن تقضي ستة أشهرٍ من كل عام في الهند، وستة أشهرٍ في أمريكا. إنها نسخةٌ من حياةٍ منعزلةٍ، مبكرة نوعاً ما، تشبه تلك التي خططت لها هي وزوجها قبل وفاته. ستعيش أشيما في كلكتا مع رانا؛ أخيها الأصغر، وزوجته وابنتيه الشابتين، اللتين لم تتزوجا بعد، في شقةٍ فسيحةٍ تقع في سولت ليك. سيمنحها شقيقها حجرةً خاصةً بها، وهي المرة الأولى في حياتها التي ستحظى فيها أشيما بحجرةٍ لاستعمالها الخاص فقط. ستعود أشيما إلى نورث إيست في فصلي الربيع والصيف، وتُقسِّم

وقتها بين ابنها وابنتها وأصدقائها البنغال المقربين. الآن أثبتت أشيما أنها اسمٌ على مسمى؛ فالآن ستكون «بلا حدود»، بلا منزلٍ خاصٍ بها تعيش فيه، بل ستقيم في كل مكانٍ لا في مكانٍ محدد. لم يعد من الممكن أن تعيش هنا في أمريكا، وبخاصة أن سونيا ستتزوج قريباً. سيُقام حفل الزفاف في كلكتا بعد أكثر من عام بقليل، في يومٍ ميمونٍ يبشر بالخير من شهر كانون الثاني، تماماً مثلما تزوجت أشيما من أشوك في الشهر ذاته قبل ثلاثين عاماً تقريباً. لدى أشيما شعورٌ داخلي أن سونيا ستسعَد مع هذا الصبي- لكن سرعان ما تصحح أشيما نفسها- مع هذا الشاب. لقد جلب السعادة لابنتها، في حين لم تتمكن موشومي من إسعاد ابنها. ستشعر أشيما بالذنب دوماً لأنها شجعت غوغول على التعرف بموشومي. كيف كان لها أن تعرف؟ لكن لحسن الحظ، لا يعدُّ غوغول وموشومي الإبقاء على زواجهما واجباً كما فعل جيل أشوك وأشيما البنغالي، فهما غير مستعدين لقبول الوضع على ما هو عليه، أو التكيف معه، أو حتى التوصل إلى تسويةٍ أقل من مفهومهما المثالي للسعادة. لقد ساعد المنطق الأمريكي هذا الجيل اللاحق على التخلص من الضغوط المرتبطة بالزواج الفاشل.

تبقى أشيما في المنزل وحدها لبضع ساعاتٍ هي الأخيرة لها هنا. أما سونيا، فرافقت بين لإحضار غوغول من محطة القطار. يخطر ببال أشيما أنها عندما ستكون وحدها ثانيةً، ستكون في الواقع على متن الطائرة المتجهة إلى كلكتا. للمرة الأولى منذ سفرها للقاء زوجها في كيمبردج في شتاء عام 1967، ستقوم أشيما بهذه الرحلة كاملةً وحدها. لم تعد تخيفها

آفاق المستقبل الجديد، فلقد تعلمت أن تنجز الأشياء بنفسها منفردة. وعلى الرغم من أنها مازالت ترتدي الساري وتسرح شعرها في صورة كعكةٍ، فإنها لم تعد أشيما ذاتها التي عاشت في كلكتا ذات يوم. ستعود إلى الهند بجواز سفرٍ أمريكي، ولن يتبقى في محفظتها سوى رخصة القيادة الصادرة عن ولاية ماساتشوسيتس وبطاقة الضمان الاجتماعي. ستعود إلى عالمٍ لن تتكبد فيه عناء إقامة حفلاتٍ لعشرات الضيوف والتحضير لها وحدها. لن تضطر إلى إعداد اللبن الرائب بمقادير متساوية من الحليب واللبن أو حلوى جبن الريكوتا (تُعرف بالبنغالية بشونديش). لن تضطر كذلك إلى إعداد كرات الكروكيت، بل ستتوفر في المطاعم، وسيحضرها الخدم إلى الشقة، وسيكون لها مذاقٌ لم تتمكن أشيما بعد مرور كل هذه الأعوام من محاكاته.

تُنهي أشيما تغليف الكرة الأخيرة بفتات الخبز، ثم تنظر في ساعتها. إنها متقدمةٌ قليلاً على البرنامج الذي وضعته لنفسها. تضع أشيما طبق التقديم الكبير على المنضدة بجانب الموقد. تُخرج مقلاةً من خزانة المطبخ، وتسكب ملء عدة أكوابٍ من الزيت فيها، كي تسخنه قبل الموعد المتوقع لوصول الضيوف. تختار أشيما ملعقةً مثقبة من كوبٍ فخاريٍّ وضعت فيه الملاعق. في الوقت الراهن لا يوجد ما تفعله. كانت بقية الأطباق جاهزةً، فقد سكبتها في أوانٍ من السيراميك الحراري والزجاج المقاوم للحرارة، وجعلتها في صفٍّ طويل على مائدة الطعام مثل طبق «الدال» أو يخنة الحبوب المجففة، الذي تكونت على سطحه طبقةٌ سميكةٌ، سرعان ما ستتلاشى عند سكب أول ملعقةٍ منه، وطبق القرنبيط المشوي، وطبق

الباذنجان، وأخيراً طبق الكورما[1] الذي أعدته أشيما بلحم الخروف. أما التحلية، فهي طبق اللبن المحلى وكرات السميد المقلية والمشربة بالقطر، وقد وضعتهما أشيما على المنضدة الجانبية (البوفيه). تنظر أشيما إلى أطباقها، وتترقب وصول ضيوفها. عادةً يُفقدها الطهي من أجل حفلاتها شهيتها، لكنها تتطلع الليلة إلى تقديم الطعام لنفسها، والجلوس بين ضيوفها. ساعدت سونيا والدتها في تنظيف المنزل للمرة الأخيرة. لطالما أحبت أشيما هذه الساعات القليلة قبل موعد الحفلة؛ تنظيف السجاد بالمكنسة الكهربائية، ومسح منضدة القهوة بمنظف الأسطح بليدج، وانعكاس صورتها المعتمة على السطح الخشبي، تماماً، مثلما يعِد الإعلان التجاري الخاص بالمنظف على شاشة التلفاز.

تبحث أشيما في درج المطبخ عن أعواد البخور. تشعل واحدةً بنار الموقد، وتتجول بين حجرات المنزل. سُرَّت أشيما ببذل كل هذا الجهد لإعداد وجبةٍ احتفاليةٍ أخيرةٍ من أجل أبنائها وأصدقائها. شعرت بسعادةٍ غامرةٍ وهي تُحضِّر قائمة المشتريات، ثم تتسوق من السوبرماركت، وتملأ أرفف الثلاجة بالطعام. كان كل هذا تغييراً ممتعاً في روتينها الحالي: التحضير لسفرها، وتنظيف المنزل. طوال الشهر الماضي، كان الأمر أشبه بتفكيك المنزل قطعةً قطعة. في كل أمسيةٍ تهتم أشيما بدرجٍ أو خزانةٍ أو مجموعةٍ من الأرفف. وعلى الرغم من أن سونيا تعرض تقديم المساعدة، فإن أشيما تفضل أن تقوم بهذه الأعمال وحدها. جهزت أشيما أكواماً

(1) كورما، طبق هندي دسم يتكون من اللحم/السمك، أو الخضراوات المطبوخة في الصلصة الغنية بالقشدة أو اللبن الرائب. (المترجم)

من الأشياء لتعطيها لغوغول وسونيا وأصدقائهما، وأشياء ستأخذها معها، وأخرى ستتبرع بها لجمعياتٍ خيريةٍ، وأشياء ستضعها في أكياس القمامة لتوصلها بالسيارة إلى مكب النفايات. تُحزنها هذه المهمة وتشعرها بالرضا في الوقت ذاته. تشعر موشومي بالحماس إزاء تقليص ممتلكاتها، لتصبح أكثر بقليلٍ فقط مما حملته معها من كلكتا، ومما احتوته الحجرات الثلاث في شقتها في كيمبردج عندما قدمت منتصفَ إحدى ليالي الشتاء. ستدعو أشيما أصدقاءها الليلة ليأخذوا كل ما يمكن أن يفيدهم: مصابيح، ونباتات، وأطباق تقديم كبيرة الحجم، ومقالي وقدور طبخ. أما سونيا وبين، فسيستأجران شاحنةً لحمل ما يمكن من الأثاث، مما تتسع له شقتهما.

تصعد أشيما إلى الطابق العلوي لتستحم وتبدل ملابسها. تُذكِّرها الجدران الآن بالمنزل عندما انتقلت هي وزوجها وأطفالها للعيش فيه، فالجدران عاريةٌ باستثناء صورة زوجها التي ستكون آخر شيء ستحزمه. تتوقف أشيما للحظةٍ أمام الصورة، وتلوح بما تبقى من عود البخور، قبل أن تتخلص منه. تترك أشيما صنبور المياه مفتوحاً في حوض الاستحمام، وترفع درجة حرارة التدفئة من جهاز التحكم بالحرارة لتنعم بالدفء في تلك اللحظة المزعجة التي ستقف فيها على سجادة الحمام عاريةً. تدخل أشيما حوض الاستحمام القشدي اللون، الموجود وراء الباب الزجاجي الجرار الذي يُصدر طقطقةً عند فتحه. كانت أشيما مرهقةً بسبب يومين قضتهما في الطهي وتنظيف المنزل في الصباح، ومن أسابيع قضتها في حزم أمتعتها، وإنهاء إجراءات بيع المنزل. تشعر أشيما بثقل قدميها الملامستين لأرضية حوض الاستحمام المصنوع من الفايبرغلاس (الزجاج الليفي).

تقف داخل الحوض لبعض الوقت قبل أن تبدأ بغسل شعرها بالشامبو وفرك جسدها بالصابون؛ جسدها البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً، والذي ضعف وانكمش قليلاً، لذلك تتناول أشيما حبوب الكالسيوم كل صباح لتُدعِّمه. عندما تنتهي أشيما تمسح البخار عن مرآة الحمام وتتأمل وجهها. وجه أرملةٍ، لكنها تُذكِّر نفسها أنه كان وجه زوجةٍ خلال الجزء الأكبر من حياتها. ربما سيصبح وجه جدةٍ في يومٍ من الأيام؛ جدةٍ تصل إلى أمريكا مثقلةً بستراتٍ صوفيةٍ ستحوكها بنفسها، وهدايا، ثم تغادر بعد شهرٍ أو شهرين، تذرف الدمع، ولا تجد ما يعزي حزنها على فراق أحبابها.

تشعر أشيما بالوحدة فجأةً. تشعر أنها وحيدةٌ للأبد؛ شعورٌ فظيعٌ. تبتعد عن المرآة، ولبعض الوقت تبكي فراق زوجها. تربكها فكرة الانتقال إلى مدينةٍ كانت في الماضي وطناً، وباتت الآن غريبةً بطريقتها الخاصة. تشعر كذلك أنها لا تهلع أو تأبه أيضاً بالأيام التي يتوجب عليها أن تعيشها، فشيءٌ ما يخبرها أنها لن ترحل عن هذه الحياة سريعاً كما فعل زوجها. اشتاقت أشيما لحياتها في الهند طوال الثلاثة والثلاثين عاماً، لكنها الآن ستشتاق لعملها في المكتبة وزميلاتها في العمل. ستفتقد إقامة الحفلات. ستشتاق إلى العيش مع ابنتها؛ إلى الرفقة المدهشة التي تطورت بينهما؛ وإلى الذهاب سويةً إلى كيمبردج لمشاهدة فيلمٍ قديمٍ يُعرض في سينما مسرح البراتيل؛ وإلى تعليمها طهي الطعام الذي تذمرت من تناوله عندما كانت طفلةً. ستفتقد أشيما قيادة السيارة كما تفعل أحياناً عندما تقودها من المكتبة إلى المنزل، أو عندما تمر بمبنى كلية الهندسة في الجامعة

التي كان يعمل فيها زوجها. ستشتاق أشيما إلى البلد الذي عرفت فيه زوجها حق المعرفة وأحبته بعمق. وعلى الرغم من أن رماده قد نُثر في مياه نهر الغانغ، فإنها ستتذكر وجوده هنا، في هذا المنزل وهذه البلدة، وستسكن هذه الذكريات مخيلتها إلى الأبد.

تتنفس أشيما بعمق. خلال لحظةٍ ستسمع صفارة جهاز الأمان التي تشير إلى وجود أحدهم بالباب، وستسمع باب الكراج عند فتحه وصوت أبواب سياراتٍ مختلفةٍ عند إغلاقها، وأخيراً صوت أبنائها داخل المنزل. تدهن أشيما ذراعيها ورجليها بكريم مرطبٍ، ثم تتناول رداء الحمام المشمشي، الذي علقته وراء باب الحمام. أهداها زوجها هذا الرداء في أحد أعياد الميلاد قبل أعوامٍ طويلةٍ تكاد أشيما تنساها. حتى هذا الرداء عليها أن تتخلى عنه، فلن يكون ذا فائدةٍ حيث ستذهب. سيستغرق تجفيف قماشه السميك أياماً في طقس كلكتا الرطب. تكتب أشيما ملحوظةً لتذكّر نفسها بضرورة غسله جيداً قبل أن تتبرع به لمتجر الملابس المستعملة. لا تتذكر أشيما في أي عامٍ أهداه لها أشوك، حتى إنها لا تتذكر فتح الهدية أو رد فعلها عندما حصلت عليه. تتذكر فقط أن أحد ابنيها اختاره من متجر للبضائع المتنوعة، وقام بتغليفه. وكل ما فعله زوجها أنه كتب اسمه (من أشوك) واسمها (إلى أشيما) على بطاقةٍ صغيرةٍ. غير أن أشيما لا تُخطِّئ أشوك، فسقطات المودة والتفاني، التي تكتشفها أشيما الآن، لا تغير في النهاية شيئاً. لم تعد تتساءل أشيما كيف كانت الحال لو أنها فعلت ما فعله أبناؤها؛ أن تقع في الغرام أولاً، وليس بعد مضيِّ سنواتٍ؛ أن تقضي شهوراً أو أعواماً تتعرف فيها على أشوك،

لا ما بعد ظهيرة واحدة وافق الاثنان فيها على الزواج. تتذهن أشيما صورة اسميهما المكتوبين على البطاقة، التي لم تتكلف مؤونة الاحتفاظ بها. تُذكِّرها البطاقة بحياتهما معاً؛ بالحياة غير المتوقعة، التي منحها إياها هنا، عندما اختارها زوجةً؛ تلك الحياة التي رفضت تقبلها لسنين. وعلى الرغم من أن أشيما ماتزال تشعر أنها لا تنتمي كلَّ الانتماء إلى ما حوته جدران هذا المنزل في شارع بيمبيرتون، فإنها تعلم أن هذا هو منزلها الحقيقي؛ عالمُها المسؤولة عنه؛ هي من أوجدته، وهو يحيط بها من كل صوبٍ، ويحتاج إلى أن تحزم بعضه، وتهب بعضه الآخر، أو تتخلص مما تبقى قطعةً قطعة. تدسُّ أشيما ذراعيها المبلولتين داخل كمي ثوب الحمام، وتربط الحزام حول خصرها. لطالما كان هذا الرداء قصيراً قليلاً عليها ومقاسه صغيرٌ، لكن عزاءها الوحيد أنه يمدها بالدفء.

عندما نزل غوغول من القطار لم يجد أحداً يرحب به على رصيف المحطة. يتساءل إن كان قد وصل مبكراً، ناظراً في ساعته. وعوضاً عن التوجه إلى استراحة المحطة، ينتظر غوغول على مقعدٍ خشبيٍّ في الخارج. يركب آخر مسافرِ القطار الذي يغلق أبوابه، ويشير جامعو التذاكر ملوحين لبعضهم، وتتحرك عجلات القطار مبتعدةً ببطء، وتنزلق مقصورات القطار إلى الأمام واحدةً بعد أخرى. يراقب غوغول الركاب الذين رافقوه يرحب بهم أفراد عائلاتهم الذين استقبلوهم، والعشاق قد لمت الأحضانُ شملهم، دون أن ينطقوا بكلمةٍ، وطلاب الجامعات المثقلون بحقائب الظهر وقد عادوا لقضاء عطلة عيد الميلاد. بعد بضع دقائق يخلو رصيف المحطة من الركاب، وكذلك سكة الحديد

حيث توقف القطار. ينظر غوغول الآن نحو حقلٍ فيه بعض الأشجار الطويلة النحيلة، ومن خلفها شفقٌ فضيٌّ يميل إلى الزرقة. يفكر غوغول في مهاتفة منزل والديه، لكنه يقرر أنه راضٍ بالجلوس والانتظار لبعض الوقت. يستمتع غوغول بالهواء المنعش الذي يلامس وجهه ولاسيما بعد ساعاتٍ قضاها داخل القطار. نام غوغول معظم الرحلة، وعندما وصل القطار إلى المحطة الجنوبية في بوسطن أيقظه جامع التذاكر، فلقد كان الراكب الوحيد في المقصورة، وآخر المترجلين من القطار. في الواقع، استغرق غوغول في النوم فتكوَّر على مقعدين، وترك كتبه جانباً فلم يقرأها، وتدثر بمعطفه الذي سحبه حتى ذقنه.

مايزال غوغول يشعر بالدوار قليلاً، وبخاصة أنه لم يتناول غداءه. وضع غوغول حقيبة الدافيل التي تحتوي على ملابسه عند قدميه، بالإضافة إلى كيس تسوقٍ من متجر ميسيز بداخله هدايا ابتاعها في وقتٍ مبكر من صباح اليوم قبل ركوبه القطار من محطة بين ستاشين. لم يجد غوغول ما يلهمه عندما اختار الهدايا، فابتاع قرطاً ذهبياً عيار أربعة عشر، وستراتٍ صوفية لسونيا وبين. اتفق الجميع على تبادل هدايا بسيطةٍ هذا العام. عطلته أسبوعٌ واحدٌ فقط، وقد حذرته والدته أن ثمة الكثير من الأعمال التي سيقوم بها داخل المنزل. لا بد من إفراغ حجرة نومه حتى آخر قطعة، فإما أن يحمل أغراضه معه إلى نيويورك، أو يتخلص منها. عليه أيضاً أن يساعد والدته في حزم أمتعتها وتسوية حساباتها البنكية. سيوصلها غوغول وسونيا وبين لمطار لوغان، ويراقبونها تغادر بقدر ما يسمح لهم أمن المطار. بعد رحيلها سيشغل غرباءٌ المنزل، ولن يبقى أي

أثرٍ لوجود آل غانغولي؛ لا منزل يدخلونه ولا اسم لهم في دليل الهاتف. لا شيء يدل على السنوات التي قضتها عائلته هنا في هذا المنزل، لا دليل على الجهد الذي بذلته عائلته أو على إنجازاتها المرتبطة بهذا المنزل. من الصعب على غوغول أن يصدق أن والدته ستغادر حقاً، وأنها ستكون في مكانٍ بعيدٍ جداً لأشهر. يتساءل غوغول كيف تمكن والداه من ترك عائلتيهما، وكانت زياراتهما للعائلتين نادرة كذلك؛ كيف تمكنا من العيش دون روابط عائلية، وفي حالةٍ دائمةٍ من الترقب والاشتياق. كيف كان لكل هذه الرحلات التي قامت بها العائلة إلى كلكتا، والتي كرهها غوغول، أن تكون كافيةً؟ لم تكن كافيةً. يدرك غوغول الآن أن والديه عاشا في أمريكا بجَلَدٍ، على الرغم مما افتقداه، يخشى أنه لا يتمتع به. قضى غوغول سنواتٍ في توسيع الهوة بينه وبين جذوره، في حين حاول والداه ردم هذه الهوة قدر استطاعتهما. وعلى الرغم من لامبالاته وبُعده عن عائلته في الماضي، خلال السنوات التي قضاها في الجامعة وفي نيويورك، كان غوغول يحوم دوماً بالقرب من هذه البلدة الهادئة العادية، التي ظلت بالنسبة إلى والديه مكاناً عجيباً مذهلاً على الدوام. لم يسافر غوغول إلى فرنسا كما فعلت موشومي أو حتى إلى كاليفورنيا كما فعلت سونيا. لثلاثة أشهر فقط ابتعد غوغول عن والده مسافةً تزيد بقليل عن مساحة ثلاث ولاياتٍ صغيرة؛ مسافة لم تزعج غوغول قط حتى فات الأوان. وباستثناء هذه الأشهر الثلاثة لم يبعد غوغول -في حياته كبالغٍ- عن منزل والديه أكثر من مسافةٍ يقطعها خلال أربع ساعاتٍ بالقطار. وباستثناء عائلته لم يكن ثمة شيء يقوده إلى المنزل ويدفعه إلى

القيام برحلة القطار هذه مرةً بعد مرة.

كان غوغول على متن القطار، قبل عامٍ بالضبط، عندما علم بأمر علاقة موشومي الغرامية مع رجلٍ آخر. كانا في طريقهما إلى منزل والديه لقضاء عطلة عيد الميلاد مع أمه وسونيا. غادرا المدينة مساءً في أول أيام فصل الشتاء في وقتٍ متأخرٍ، وكان الظلام دامساً. كانا يتحدثان حول كيفية قضاء عطلة الصيف، وإن كان عليهما استئجار منزلٍ في مدينة سيينا الإيطالية برفقة دونالد وأستريد، وهي فكرةٌ رفضها غوغول بشدة، وعندها قالت موشومي: «يقول ديميتري إن سيينا أشبه بحكايةٍ خرافيةٍ». وضعت موشومي يدها على فمها في الحال، وشهقت شهقةً بسيطةً، ثم ساد الصمت. «من هو ديميتري»؟ سألها غوغول، ثم تابع قائلاً: «هل أنت على علاقةٍ معه»؟ كان سؤالاً عفوياً لم يفكر فيه غوغول كثيراً حتى تلك اللحظة. للوهلة الأولى شعر أنه سؤالٌ هزلي تسبب له بغصة، لكنه أدرك الحقيقة بمجرد طرحه للسؤال. أثار سِرُّها قشعريرةً شعر بها غوغول، فأفقدته الحس مثل سمٍّ يسري في عروقه بسرعة. اختبر غوغول هذا الشعور مرةً واحدةً من قبل عندما كان جالساً في السيارة مع والده يستمع إلى حكاية حادثة القطار والسبب وراء اختيار اسمه. في تلك الليلة شعر غوغول بالارتباك والاستياء نفسيهما اللذين يسيطران عليه الآن، لكنه لا يشعر بالحنان نفسه الذي شعر به تجاه والده، بل يسيطر عليه في هذه اللحظة غضبٌ وشعورٌ بالذل والإهانة، لأن موشومي خدعته. وعلى الرغم من ذلك، وفي الوقت ذاته، كان غوغول هادئاً على نحوٍ غريب. في هذه اللحظة التي يتحطم فيها زواجه كان غوغول صلباً

معها للمرة الأولى منذ أشهر. تذكر غوغول أنه في إحدى الليالي قبل أسابيع مضت كان يفتش عن محفظتها في حقيبتها ليدفع للرجل الذي أحضر لهما طعاماً صينياً، فوجد العلبة التي تحتوي على العازل الأنثوي الخاص بها، الذي كانت قد أخبرته أنها ذهبت إلى الطبيب بعد ظهر ذلك اليوم ليعيد تثبيته، لكن غوغول لم يفكر في الأمر كثيراً.

شيء داخله يحفزه على مغادرة القطار عند المحطة التالية ليبتعد عن موشومي قدر المستطاع. لكنهما كانا مرتبطين بسبب وجودهما معاً داخل القطار، والحقيقة أن والدته وسونيا كانا يتوقعان وصولهما، لذلك عانى كلاهما، بطريقةٍ أو أخرى، طوال ما تبقى من الرحلة. لم يخبر غوغول أحداً بما حدث طوال العطلة، متظاهراً أنهما على ما يرام. وبينما كانا يستلقيان في منزل والديه، أخبرته موشومي في منتصف الليل القصة كاملةً؛ كيف التقت بديميتري في الحافلة للمرة الأولى، وكيف وجدت سيرته الذاتية في سلة البريد في الجامعة. اعترفت موشومي تدريجياً أن ديميتري رافقها إلى بالم بيتش. خزَّن غوغول المعلومات في عقله، غير مرحِّبٍ بها، وعاجزاً عن أن يغفر لموشومي. للمرة الأولى في حياته ينزعج غوغول من اسم رجلٍ غير اسمه.

غادرت موشومي منزل والدي غوغول في شارع بيمبيرتون في اليوم التالي لعيد الميلاد، وتذرعت أمام أشيما وسونيا بمقابلة عملٍ مع رابطة اللغة المعاصرة[1]، تم تحديدها في اللحظة الأخيرة. لم تكن هذه الذريعة

(1) MODERN ASSOCIATION OF LANGUAGE (MLA): منظمة تهدف إلى تشجيع تعليم اللغة والأدب. المترجم

سوى خدعة، فلقد قررا أن من الأفضل أن تعود موشومي إلى نيويورك وحدها. عندما وصل غوغول إلى الشقة كانت ملابسها وأدوات التبرج وجميع حاجياتها التي في الحمام قد اختفت. بدا الأمر وكأنها غادرت في رحلةٍ جديدة، لكنها لم تعد هذه المرة. لم ترغب موشومي في أي شيء ارتبط بحياتهما القصيرة معاً. عندما ظهرت في مكتبه للمرة الأخيرة بعد بضعة أشهرٍ حتى يوقع أوراق الطلاق، أخبرته أنها ستعود إلى باريس. لذلك تخلص غوغول من ممتلكاتها الخاصة بشكل منتظم، كما فعل مع حاجيات والده عندما توفي، فوضع كتبها في صناديق، ووضعها على الرصيف في منتصف الليل حتى يأخذها المارة، وتخلص من الباقي. في فصل الربيع سافر غوغول إلى البندقية وحده لأسبوعٍ واحدٍ؛ تلك الرحلة التي خطط أن يذهباها معاً، فانغمس في جمالها الأثري السوداوي. استغرق غوغول في جولاته في شوارعها المعتمة الضيقة، وعبر عدداً لا يحصى من جسورها الصغيرة جداً، فاكتشف ميادين مهجورةً حيث جلس يرتشف مشروب الكمباري الإيطالي أو كوباً من القهوة، ورسم واجهات القصور والكنائس ذات اللونين الوردي والأخضر، ولم يستطع مطلقاً أن يتتبع خطواته ذاتها ليعود أدراجه.

عاد غوغول إلى نيويورك، إلى الشقة التي عاشا فيها معاً، وأصبحت اليوم له وحده. تلاشت مشاعر غوغول بالصدمة بعد مرور عامٍ، لكن شعوراً عميقاً بالفشل والخزي استمر. مايزال يغفو فيها غوغول على الأريكة، ليالي عديدة، دون أن يتعمد ذلك، ثم يستيقظ عند الثالثة فجراً ليجد التلفاز دائراً. كان الأمر وكأن بنياناً صممه قد انهار أمام الجميع.

وعلى الرغم من ذلك، لا يستطيع غوغول أن يلقي عليها كلَّ اللوم، فقد كان لكليهما حافزٌ مشتركٌ، وهذا تحديداً هو الخطأ الذي اقترفاه. بحث كلٌّ منهما عن السلوى والسكينة لدى الآخر وفي عالمهما المشترك، ربما من أجل التغيير والتجديد، أو بسبب خوفهما أن يتلاشى العالم تدريجياً. لكن غوغول مايزال يتساءل كيف وصلت به الحال إلى ما هو عليه: هو في الثانية والثلاثين من عمره، تزوج ثم انفصل عن زوجته. يبدو الوقت الذي قضاه معها كقطعةٍ منه، لم تعد له علاقة بها، وغدت مهملة. إنه أشبه باسمٍ لم يعد يستعمله.

يسمع غوغول صوت بوق سيارة والدته المألوف، ويراها تقف في الموقف. كانت سونيا خلف المقود وبدأت تلوِّح لغوغول، وكان بين بجانبها. هي المرة الأولى التي يرى فيها سونيا بعد إعلان خطبتها لبين. يقرر غوغول أن يطلب من سونيا التوقف عند متجرٍ للمشروبات الكحولية ليبتاع زجاجة شمبانيا. تترجل سونيا من السيارة وتتجه نحو غوغول. لقد أصبحت محاميةً الآن، وهي تعمل في مكتب محاماةٍ يقع في برج هانكوك الشهير. قصَّرت سونيا شعرها حتى فكيها. كانت ترتدي سترةً زرقاء قديمةً محشوةً بريشٍ ناعم، كان يرتديها غوغول في المدرسة الثانوية. يرى غوغول عليها ملامح نضجٍ جديد، لذا يسهل عليه تخيلها بطفلين يجلسان في المقعد الخلفي بعد بضعة أعوام من الآن. تعانقه سونيا، ويقفان للحظاتٍ في البرد يحضنان بعضهما. «أهلاً وسهلاً بك في منزلك غوغلز»، تقول سونيا.

للمرة الأخيرة ينصبان شجرة عيد الميلاد الاصطناعية، التي

يبلغ طولها سبع أقدام، ويوجد أسفل سيقانها رموزٌ ملونة[1]. أحضر غوغول الصندوق الذي يحتوي على أجزاء الشجرة من القبو. فقدت العائلة تعليمات تركيب الشجرة منذ أعوام، وفي كل مرةٍ عليهم أن يخمنوا طريقة ترتيب الأغصان؛ الطويلة منها في الأسفل، والقصيرة في الأعلى. تمسك سونيا بالعمود، ويقوم كلٌ من غوغول وبين بإدخال الأغصان. البرتقالية أولاً، ثم الصفراء، فالحمراء، وأخيراً الزرقاء. تنحني القطعة الأخيرة التي تلامس السقف ذا الحبيبات البارزة قليلاً. وضع غوغول وسونيا وبين الشجرة أمام النافذة، وفتحوا الستائر حتى يتمكن المارة من رؤيتها، وشعروا بالإثارة والحماس كما كانوا يشعرون في طفولتهم. يزينون الشجرة بزينةٍ أعدها غوغول وسونيا عندما كانا في المدرسة الابتدائية، فقد صنعا آنذاك حامل شموعٍ من ورق التصميم الملون السميك، وما يُعرف بعين الآلهة[2] من عيدان المثلجات ومخروط الصنوبر المكسو بمادةٍ لامعةٍ متلألئة. قاموا كذلك بلف ساري بناريس ممزق لأشيما حول قاعدة الشجرة. وأعلى قمة الشجرة وضع غوغول وسونيا طائراً بلاستيكياً صغيراً مكسواً بمخملٍ فيروزي، له مخالب بنية استخدما الأسلاك في صنعها.

تتدلى جواربُ مثبتةٌ على مسامير من رف المدفئة، وجُعِل الجورب الذي خُصص لأشيما في العام الماضي لبين هذا العام. يشربون الشمبانيا في أكوابٍ من البلاستيك المقوى، وأجبروا أشيما على شرب القليل

(1) رمز اللون هو نظامٌ لعرض المعلومات باستخدام مختلف الألوان.(المترجم)

(2) عين الآلهة أو العين الروحية كما تُعرف بالإسبانية هي رمزٌ للبركة وقدرة الآلهة على رؤية ما تعجز عين البشر عن إدراكه، وتُصنع من عيدانٍ خشبية وخيوط غزلٍ ملونة. (المترجم)

أيضاً، ويستمعون إلى أغاني عيد الميلاد التي كان والده يحبها للمغني الأمريكي بيري كومو. يحاول غوغول وأشيما إغاظة سونيا حين يسردان لبين حكاية رفضها هدايا عيد الميلاد في أحد الأعوام، وكانت وقتها قد انضمت إلى فصلٍ عن الهندوسية في الجامعة، فعادت إلى المنزل واحتجت أنها وعائلتها ليسوا مسيحيين! استيقظت والدته في الصباح الباكر متبعةً قواعد عيد الميلاد نفسها التي علمها إياها أبناؤها عندما كانوا أطفالاً، لتملأ الجوارب بقسائم شراء هدايا من متاجر إسطواناتٍ متنوعة، وحلوى العكازات، والأكياس المشبكة التي تحوي قطع الشوكولاته على غرار النقود المعدنية. مايزال غوغول يتذكر المرة الأولى التي أحضر فيها والداه شجرةً إلى المنزل بسبب إصراره، وكانت من البلاستيك، وفي حجم مصباح الطاولة، وقد وضعها والداه فوق رف المدفئة. وعلى الرغم من صِغر حجمها، شعر غوغول آنذاك بحضورها الهائل، وكم أبهجته حينها. توسل غوغول لوالديه أن يبتاعا تلك الشجرة من الصيدلية، وقام بتزيينها بإكليلٍ من الزهور، وخيوطٍ لامعةٍ فضية وحبل مصابيح، مما أثار عصبية والده. ظلَّ غوغول جالساً عند الشجرة حتى المساء حين فصل والده القابس، فأصبحت الشجرة الصغيرة معتمةً. يتذكر غوغول الهدية الوحيدة التي تلقاها، مغلفةً بورق الهدايا، وكانت لُعبةً اختارها بنفسه، وطلبت منه والدته أن يقف إلى جوار بطاقات التهنئة ريثما تدفع ثمنها. «هل تتذكر عندما كنا نضع تلك الأضواء الملونة المتلألئة الرهيبة»؟ تقول والدته عندما انتهيا من تزيين الشجرة، وتهز رأسها مستهجنةً. «كنت أجهل الكثير حينها».

يقرع جرس الباب؛ إنها السابعة والنصف. يترك غوغول الباب مفتوحاً على مصراعيه ليتدفق الضيوف والهواء البارد إلى الداخل. يتحدث الضيوف بالبنغالية، يصيحون، ويتجادلون، ويقاطعون بعضهم، ويتحدثون في الوقت نفسه، وتمتلئ الحجرات المكتظة بالضيوف بصوت ضحكاتهم. تقلي أشيما كرات الكروكيت في الزيت الساخن، ثم ترتِّبها في الأطباق إلى جانب سلطة البصل الأحمر. تقدم سونيا الأطباق ومعها مناديل ورقية. يقدم غوغول بين؛ صِهر المستقبل، للضيوف. يقول بين لغوغول: «لن أتمكن من تذكر كل هذه الأسماء»، فيرد الأخير: «لا تقلق، لست مضطراً إلى ذلك». لقد رأى هؤلاء الأشخاص- العمات والخالات والأعمام والأخوال الفخريون الذين يحملون عشرات الكُنيات- غوغول يكبر، وشاركوه فرحته في زفافه، وكانوا إلى جانبه في جنازة والده. يعدهم غوغول أن يظل على تواصلٍ معهم، وبخاصة مع رحيل والدته، وألا ينساهم. تستعرض سونيا خاتم خطبتها أمام عماتها وخالاتها الفخريات، اللواتي ارتدين سواري حمراً وخضراً؛ ستُّ ألماساتٍ صغيراتٍ جداً تحيط بزمردة. «عليك أن تتركي شعرك ينمو من أجل الزفاف»، يخبِرْن سونيا. يقوم أحد الأعمام باللهو بقبعة سانتاكلوز، ويجلس الضيوف في حجرة المعيشة على الأريكة والأرض. ويتدفق الصغار إلى القبو، ويتوجه الأطفال الأكبر سناً إلى الحجرات الموجودة في الطابق العلوي. يميز غوغول لعبة المونوبولي الخاصة به عندما كان طفلاً، يلعب بها الأطفال، وقد تمزق اللوح إلى قطعتين، أما سيارة السباق ففقدها غوغول منذ أن أوقعتها سونيا داخل

وحدة التدفئة المثبتة في الحائط عندما كانا طفلين. لا يعرف غوغول لمن ينتمي هؤلاء الأطفال، فنصف الضيوف هم أصدقاء والدته التي تعرفت عليهم خلال السنوات الأخيرة، حضروا زفافه لكنه لا يميزهم. يتحدث الضيوف عن مقدار محبتهم للحفلات التي تقيمها أشيما عشية عيد الميلاد، وأنهم اشتاقوا إلى هذه الحفلات خلال السنوات القليلة الماضية، وأن الأمر لن يكون سواءً بغيابها. يدرك غوغول الآن أن هؤلاء الأشخاص باتوا يعتمدون على أشيما لتجمعهم سويةً، وتنظم العطلة فتحولها إلى شيء مميز، وتهب هذا التقليد للأفراد الجدد. لطالما شعر غوغول أن تقليد الحفلة هذا غير أصيل، فهو مجرد صدفةٍ فرضتها الظروف وليس أمراً مقدراً. ولأجله هو وسونيا تكبد والداهما عناء تعلُّم عادات عيد الميلاد، فانتهى الأمر بهما إلى مثل تلك الحفلات.

تشبه حياة عائلته، في أكثر من جانب، سلسلة حوادث لم تكن في الحسبان، تفضي إحداها إلى الأخرى. بدأت ذلك بحادثة تحطم القطار التي تعرض لها والده، والتي أدت إلى شلله في بادئ الأمر، لكنها كانت مصدر إلهام له، فدفعته إلى أبعد الحدود، ليبدأ حياةً جديدةً في الجانب الآخر من العالَم. وثمة اختفاء الاسم الذي اختارته له جدته، حين ضاع في البريد، بين كلكتا وكيمبردج، وقد أدى ذلك بدوره إلى اختيار والده اسم «غوغول»؛ الاسم الذي عُرف به وأزعجه سنواتٍ طويلة. حاول غوغول أن يصحح هذا التخبط أو الخطأ، ومع هذا، فلم يكن بإمكان غوغول أن يغير هويته بالكامل، وأن يتملص من هذا الاسم الشاذ. وحتى زواجه كان خطوةً خاطئةً. أما أسوأ الحوادث فكانت الطريقة

التي اختفى فيها والده من حياتهم، وكأن الموت كان يحضر نفسه منذ أمدٍ بعيدٍ. في تلك الليلة التي كاد يموت فيها مقتولاً، بدا الأمر وكأن يوماً واحداً لا غير قد تبقى له كي يغادرهم بهدوء. لقد شكلت هذه الحوادث شخصية غوغول وصقلتها. كان من المستحيل توقعها أو التهيؤ لها، لكن المرء يقضي حياته يتذكرها محاولاً تقبلها وتفسيرها وفهمها. حوادثُ ما كان يجب أن تقع؛ حوادثُ خاطئةٌ وفي غير محلها، لكنها، في نهاية المطاف، صَمَدت واستمرت.

من بين الحشد، تنادي أشيما غوغول، فتقول: «غوغول، آلة التصوير. التقط بعض الصور لهذه الليلة رجاءً، أريد أن أتذكر عيد الميلاد هذا. في هذا الوقت من العام القادم سأكون بعيدةً جداً». يصعد غوغول إلى الطابق العلوي ليحضر آلة التصوير النيكون الخاصة بوالده، التي مازالت في الرف العلوي لخزانة أشوك. لا يوجد، فعلياً، شيء آخر داخل الخزانة؛ ليس ثمة أي ملابس معلقة تتدلى من قضيب التعليق. يزعجه الفراغ الذي اتسمت به الخزانة لكن سرعان ما يطمئنه ثقل آلة التصوير في يديه. يتوجه غوغول إلى حجرته ليستبدل البطاريات القديمة بأخرى جديدة، ويضع فيلماً جديداً فيها أيضاً. في العام الماضي نام غوغول وموشومي في حجرة الضيوف الإضافية على السرير المزدوج، واستعملا المناشف المطوية الجديدة، ولوح الصابون غير المستعمل، حيث وضعت أشيما كل شيء على التسريحة، فهي توفر دوماً تلك الحاجيات لضيوفها. لكن، بما أن سونيا وبين هنا اليوم، فسيناما في تلك الحجرة، وسيعود غوغول إلى حجرة نومه، لينام على سريرٍ لم يتشاطره مع موشومي أو أي شخصٍ آخر.

كان السرير ضيقاً، وقد غطته أشيما بلحافٍ بني. بإمكان غوغول أن يلمس المصباح الأبيض الذي يتدلى من السقف، الممتلئ بالعثة الميتة. مايزال بالإمكان رؤية آثار اللاصق الشفاف الذي استخدمه غوغول في الماضي لتثبيت ملصقاته على الجدار. أما مكتبه فكان منضدةً صغيرة قابلة للطي، وُضعت في زاوية الحجرة. اعتاد غوغول أن يؤدي واجباته على هذا المكتب وتحت المصباح الأسود المغبر، الذي يشبه عنق الإوزة. توجد على الأرض سجادةٌ ليست بسميكة، زرقاء تشبه الطاووس في زخرفتها، كبيرةٌ قليلاً وقد التفَّت حوافها على الجدار. كانت معظم الأرفف والأدراج فارغةً، فلقد وضعت والدته أشياء متنوعة غير مرغوبٍ فيها داخل الصناديق، مثل مقالاتٍ كتبها في المدرسة الثانوية وقدَّمها تحت اسم غوغول. تقريرٌ آخر كتبه في السنة الجامعية الأولى عن فن الهندسة اليونانية والرومانية؛ الأعمدة الكلاسيكية التي تتميز بأشكالها الهندسية المعروفة: الكورنيثية والأيونية والدوريسية، نقله عن موسوعةٍ ما، ونسخه على ورقٍ شفاف. أطقم أقلام حبرٍ جافٍ وأقلام رصاص، وإسطوانات استمع إليها غوغول مرتين ثم هجرها، وبعض الملابس الفضفاضة جداً والأخرى الصغيرة، التي رأى غوغول أنها لا تستحق النقل إلى الشقق الضيقة للغاية، التي عاش فيها خلال السنوات الماضية. جميع كتبه القديمة؛ تلك التي قرأها تحت اللحاف باستخدام المصباح اليدوي، وكتب الجامعة التي لم يكمل قراءتها وقد أُلصِقت على كعب بعضها بطاقةٌ صفراء تشير إلى أنها كتبٌ مستعملة. ستتبرع والدته بها كلها للمكتبة حيث تعمل، من أجل معرض بيع الكتب بأسعارٍ

مخفضةٍ، المقام في الربيع. طلبت منه والدته أن يتفقد الكتب ليرى إن كان يريد أياً منها. يبحث غوغول في الكتب بفضول. *عائلة روبنسون السويسرية. على الطريق. التصريح الرسمي للشيوعية. كيف تلتحق بإحدى الجامعات المتميزة في الهندسة.*

يلفت أحد الكتب التي لم يقرأها غوغول قط نظرَه، فقد كان مهملاً لفترةٍ طويلة. كان الغلاف الخارجي للكتاب أو ما يُعرف بقميص الكتاب مفقوداً، أما عنوانه المكتوب على الكعب فكان باهتاً للغاية. هو مجلدٌ ذو غلافٍ يشبه في ملمسه قطعة قماشٍ، ويعلوه غبار السنين. صفحاته السميكة عاجية مصفرةٌ ناعمة الملمس. وبينما يفتح غوغول الكتاب ليقرأ صفحة العنوان، يسمع صوتاً خافتاً ناجماً عن تشقق كعب الكتاب. *المجموعة القصصية لنيقولاي غوغول*. كتب والده عبارة «إلى غوغول غانغولي»، على الصفحة التي تسبق صفحة العنوان بقلم حبرٍ جافٍ أحمر كروي الرأس. تمتد الأحرف البارزة تدريجياً، وبشكلٍ يوحي بالتفاؤل على الخط المائل باتجاه الزاوية اليمنى للصفحة. داخل علامات تنصيصٍ كَتَب والده: «الرجل الذي منحك اسمه (غوغول الكاتب)، ومن الرجل الذي أطلق عليك هذا الاسم (والدك)». كُتب تحت الإهداء الذي لم يره حتى اللحظة، تاريخ عيد ميلاده والعام 1982. وقف والده عند باب الحجرة آنذاك، على بُعد ذراعٍ فقط من حيث يجلس غوغول الآن، ثم غادر الحجرة وترك غوغول ليكتشف ويقرأ الإهداء بنفسه، ولم يسأله بعد ذلك مطلقاً عن رأيه في الكتاب، ولم يُقدِم حتى على ذكره. يُذكِّره خط يد والده بالشيكات البنكية التي اعتاد أن يعطيه

إياها طوال فترة دراسته الجامعية، ولسنواتٍ بعد تخرجه لمساعدته، وكي يتمكن أحياناً من دفع وديعة التأمين، وليدفع ثمن أول بذلةٍ رسميةٍ ابتاعها بنفسه، وأحياناً دون سببٍ معين. كان الاسم الذي يمقته للغاية محفوظاً هنا داخل الكتاب؛ هذا الاسم الذي كان أول شيء منحه إياه والده.

كان مانحا اسم «غوغول» والوصيان عليه، بعيدين الآن عنه جداً. أحدهما متوفى والأخرى أرملة، لكنها على حافة نمطٍ آخر من الرحيل، لتسكن عالماً منعزلاً تماماً كما فعل والده. ستهاتفه أشيما مرةً في الأسبوع. أخبرته أنها ستتعلم كيف ترسل له رسائل عبر البريد الإلكتروني. سيسمع اسم «غوغول» عبر الهاتف مرةً أومرتين في الأسبوع، ويراه مطبوعاً على شاشة الكمبيوتر. أما بالنسبة إلى الأشخاص الموجودين في المنزل الآن؛ العمات والخالات والأعمام والأخوال الذين مايزال بالنسبة إليهم «غوغول»، فكم مرةً سيراهم وبخاصة بعد رحيل والدته؟ دون وجود هؤلاء الأشخاص، الذين ينادونه «غوغول»، في هذا العالم، سيختفي اسم «غوغول غانغولي» إلى الأبد، ولن تنطق به شفاه الأحبة، وسيختفي شخص غوغول مهما طال به العمر. لا تمده فكرة الفناء هذه بأي معنىً للنصر، أو أي عزاءٍ مطلقاً.

ينهض غوغول، ويغلق باب حجرته لتخفت ضجة الحفلة القادمة من الطابق السفلي، وضحكات الأطفال الذين يلعبون عند نهاية الرواق. يجلس غوغول متربعاً على السرير. يفتح الكتاب مجدداً، وينظر إلى رسمٍ لنيقولاي غوغول، ثم يقرأ تأريخ حياته المكتوب على الصفحة المقابلة.

وُلد نيقولاي غوغول في العشرين من آذار عام 1809. توفي والده عام 1825. نشر أولى قصصه عام 1830. سافر إلى روما عام 1837، وتوفي عام 1852؛ أي قبل شهرٍ من عيد ميلاده الثالث والأربعين. بعد عشر سنين سيبلغ غوغول غانغولي العمر ذاته. يتساءل غوغول إن كان سيتزوج مرةً أخرى في يومٍ من الأيام، وإن كان سيرزق بطفلٍ ليمنحه اسماً ما. بعد شهرٍ من الآن سيبدأ غوغول عمله الجديد مع شركةٍ هندسيةٍ صغيرةٍ، وسيقوم بعمل تصاميمه الخاصة به. في هذا العمل، تتوافر إمكانية أن يصبح شريكاً في الشركة، فيُدمج اسمه مع أسماء الملاك الآخرين. في هذه الحالة سيحيا نيكيل، ويُحتفى باسمه علناً، على النقيض من «غوغول» الذي تعمَّد إخفاءه، وقلَّصه بطريقةٍ قانونيةٍ، لذلك سيختفي عن الوجود الآن.

يعود غوغول إلى القصة الأولى «المعطف». ستصعد والدته للبحث عنه خلال دقائق قليلة. ستفتح باب حجرته دون استئذانٍ، وتقول موبخةً: «أين آلة التصوير؟ لم تأخرت؟ هذا ليس وقت قراءة الكتب»! ثم ستلاحظ على عجلٍ الكتاب المفتوح بين يديه دون أن تدرك، تماماً، مثل ابنها طوال هذه السنين، أن زوجها الراحل يسكن صفحاته سراً، وبهدوءٍ تام، وطول أناة. ستضيف أشيما قائلةً وعيناها تفيضان دمعاً: «توجد حفلةٌ في الطابق السفلي، أناسٌ يجب الحديث معهم وطعامٌ لا بد من إخراجه من الفرن، وثلاثون قدحاً كي تُملأ بالماء، ثم ترص إلى جوار بعضها على البوفيه. من الصعب التفكير أنها المرة الأخيرة التي سنجتمع فيها هنا. أتمنى لو بقي والدك معنا لفترةٍ أطول. لكن، هيا، لنرَ الأطفال

المتجمعين تحت الشجرة».

سيعتذر غوغول عن التأخير، ويضع الكتاب جانباً، ويطوي طرف الصفحة ليحدد أين وصل في قراءته للكتاب. سينزل إلى الطابق السفلي برفقة والدته، لينضم إلى الحفل المزدحم، فيلتقط صوراً لأشخاصٍ طالما كانوا جزءاً من حياة والديه، في هذا المنزل، وللمرة الأخيرة حيث تجمعوا على الأرائك، ووضعوا الأطباق في أحضانهم، وتناولوا الطعام بأيديهم. في نهاية المطاف، سينصاع لإلحاح والدته، ويتناول الطعام أيضاً وهو يجلس متربعاً على الأرض، وسيتحدث مع أصدقاء والديه عن وظيفته الجديدة وحياته في نيويورك، وعن والدته وزفاف سونيا وبين. سيساعد غوغول سونيا وبين، بعد الانتهاء من تناول العشاء، في تنظيف الأطباق من ورق الغار وعظم لحم الخروف وعيدان القرفة، ثم في تجميع الأطباق على المنضدة وفوق الموقد. سيراقب غوغول والدته تفعل ما اعتاد والده فعله بعد نهاية كل حفلة؛ إعداد إبريقين من شاي لوبشو الهندي الفاخر. ثم سيراقبها توزع ما تبقى من الطعام في قدور الطبخ ذاتها لأصدقائها. مع مرور ساعات المساء أصبح غوغول شارد الذهن، يتوق إلى حجرته ليختلي بنفسه ويقرأ الكتاب الذي هجره في الماضي. قبل اكتشافه الكتاب بلحظاتٍ كان مقدراً له أن يختفي من حياته تماماً، لكن غوغول أنقذه بمحض الصدفة، تماماً كما أُنقذ والده من تحت أنقاض القطار المحطم قبل أربعين عاماً. ينحني غوغول نحو لوحة رأس السرير ويسوِّي الوسادة الموجودة خلف ظهره. سيعود غوغول إلى الطابق السفلي خلال دقائق لينضم للحفلة من جديدٍ، لكن والدته في هذه اللحظة مشغولةٌ

بأصدقائها، تضحك لسماعها قصةً يسردها أحدهم، ولم تدرك غياب ابنها عن الحفل. الآن، يبدأ غوغول قراءة الكتاب.

نبذة عن المؤلفة:

جومبا لاهيري: روائية أمريكية من أصول هندية، وُلدت عام 1967 في لندن، وتزوجت من الصحفي ألبيرتو فورفولياس عام 2001، حازت مجموعتها القصصية «ترجمان الأوجاع» (1999) جائزةَ بولتزر للأدب عام 2000، وتحولت روايتها الأولى «السَمي» (2003) إلى فيلم يحمل الاسم نفسه عام 2006. عيّنها الرئيس أوباما عضواً في اللجنة الرئاسية للفنون والعلوم الإنسانية، ورُشَحت روايتها الأخيرة «الأرض المنخفضة» (2013) لجائزتي بوكر الأدبية، والكتاب الوطني للأدب. حصلت على درجة البكالوريوس في اللغة والأدب الإنجليزي من جامعة بارنارد، ثم حصلت على درجة الماجستير في الكتابة الإبداعية والأدب المقارن، ودرجة الدكتوراة في دراسات عصر النهضة من جامعة بوسطن.

نبذة عن المترجمة:

د. سرى خريس: أستاذ مشارك في النقد والأدب الإنجليزي، حصلت على درجة الدكتوراه من الجامعة الأردنية عام 2001، من أعمالها «صورة الأمومة في القصة القصيرة لتوماس هاردي: دراسة نسوية» (1995)، و«تمثيل المكان والعلاقات العرقية في روايات نادين غورديمر» (2001)، و«هل هذه قصيدة؟» (2006)، و«وولفجانج آيزر: قراءات محتملة لقصة التحول لكافكا» (2007)، و«بعث الآخر: دراسات نقدية لمفهوم القيادة النسائية» (2008)، وكذلك «دوريان غراي والنظرية الجمالية» (2008). كما ترجمت عدداً من الكتب لـ«كلمة» منها: «الإسلام والاستشراق الرومانسي» لمحمد شرف الدين، وكتاب «المؤلف» لأندرو بينيت، وكتاب «تسلق أشجار المانغا» لمادوري جافري، وكتاب «أصوات عربية» لجيمس زغبي.

السَّمي

تحكي رواية السمي قصة أشوك وأشيما غانغولي، اللذين يرزقان بابنهما الأول عام 1968. وحتى تتمكن أشيما من مغادرة المشفى في كيمبردج-ماساشوسيتس، كان لزاماً منح الطفل اسماً رسمياً، لتسجيله في وثيقة الميلاد. يطلق الأب أشوك اسم «غوغول» على طفله، تيمناً بالكاتب الروسي نيقولاي غوغول، وبذلك يخالف تقليداً بنغالياً ينص على أن تقوم الجدة في الهند باختيار الاسم. ويعود اختيار الاسم إلى أن كتاباً قصصياً للكاتب غوغول كان السبب وراء إنقاذ حياة أشوك، عندما أُصيب -في مقتبل شبابه- إصابةً بالغةً أقعدته عاماً كاملاً. يدرك غوغول أن اسمه غريب ولا يعجبه، وينزعج أيضاً من تمسك والديه بالعادات والتقاليد البنغالية، لذلك يتبنى نمط الحياة الأمريكية وثقافتها، مما يثير حفيظة والديه، فيغير اسمه الرسمي قبل التحاقه بجامعة ييل، ليصبح «نيكيل» في وثائق الدولة الرسمية، وتتابع المؤلفة رسم أحداث الرواية، وما جرى لنيكيل (غوغول) في مجتمع النخبة النيويوركي، وكيف هرب من هويته واستعادها ثانية.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 173816